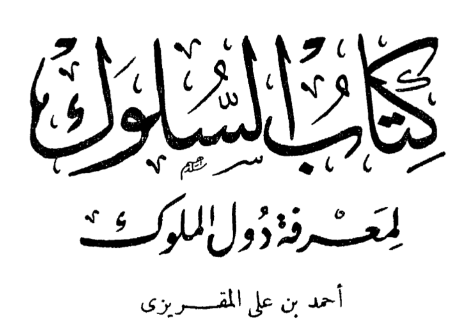
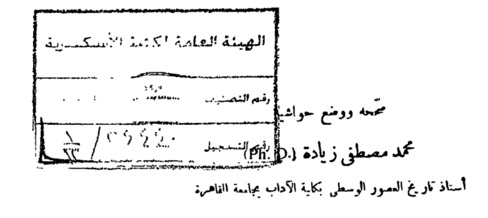




كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

أحمد بن علي المقريزي

الجزء الأول ـ القسم الأول



صحّحه ووضع حواشيه

محمد مصطفى زيادة (Ph. D.)

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة

تصدير الطبعة الثانية

للقسم الأول من الجزء الأول من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

المقريزى

قررت لجنة التأليف والترجمة والنشر أن أقوم على مراجعة هذا القسم الأول من الجزء الأول من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ، نزولا على رغبة واسعة فى إيجاد طبعة ثانية منه ، بعد نفاد الطبعة الأولى منذ سنين . ولا شك عندى أن الحاجة العلمية النامية هى التى حدت باللجنة إلى تقرير إعادة طبع هذا القسم ، قبل إعداد قسم جديد مما لا يزال مخطوطاً حتى الآن من هذا الكتاب الطويل .

وأود التنبيه هنا إلى محافظتى فى هذه الطبعة الثانية على أرقام الصفحات والحواشى وترتيب الفقرات ، كما هى فى الطبعة الأولى ، ولذا اقتصرت التعديلات والتصحيحات الجديدة على إحلال لفظ صحيح محل لفظ غلط ، أو إبدال عبارة سليمة بعبارة غير سليمة ، وهذا وذلك فى ضوء ما وصل إلىّ من أنواع النقد إبان ظهور الطبعة الأولى ، وما عثرت عليه بنفسى أثناء المراجعة . وأخص بالشكر هنا صديقى الدكتور مصطفى جواد ، الأستاذ بدار المعلمين العالية ببغداد ، إذ أمدنى مشكوراً بقائمة من المواضع التى احتاجت إلى إعادة النظر فى بعض حقائق المتن والحواشى ، كما أمدنى بملحوظات علمية دقيقة لتصحيح تلك المواضع ، وكان ذلك سنة ١٩٣٦ . وأرجو أن أكون أفدت الفائدة الكاملة من ملحوظاته ، وأن أكون أودعت هذه الطبعة الثانية جميع هذه الملحوظات . وأسدى الشكر هنا لتلميذى السابق وزميلى الحالى الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، مدرس العصور الوسطى بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، لقيامه على تصحيح بروفات هذا القسم ، كما أسدى الشكر العام كذلك إلى جميع تلاميذى الذين يدأبون على مساعدتى بالنقد الطيب ، والمطالبة الحميدة بإكمال القيام على طبع الأجزاء الباقية من هذا الكتاب ، وأرجو أن أكون عند حسن ظنهم بإخراج القسم الثالث من الجزء الثانى منه فى المستقبل القريب ؟

مصر الجديدة فى سبتمبر ١٩٥٦
صفر ١٣٧٦

محمد مصطفى زيادة

تصـــدير الطبعة الأولى

للقسم الأول من الجزء الأول من كتاب السلوك

يرجع تفكيرى فى وجوب نشر هذا المؤلف إلى سنة ١٩٢٧ ، حين كنت أعدّ بحثا لنيل الدكتوراه ، من جامعة لِفَرْبُول فى موضوع "العلاقات الخارجية للدولة المصرية فى القرن الخامس عشر ، (Foreign Relations of Egypt in the Fiteenth Century)" أى القرن التاسع الهجرى تقريباً . فقَصَدْتُ إلى الإحاطة بمؤلفات المؤرخين المصريين فى ذلك القرن ، واستوعبت معظم الموجود من مؤلفاتهم ، فى التاريخ وغيره ، مطبوعة أو مخطوطة ؛ وقرأت ما استطعت أيضاً من مؤلفات كُتّاب القرنين الثامن والعاشر الهجريين . وخرجت من ذلك الميدان الفسيح ، معتقداً ومؤمنا ، بأن صاحب الصدارة بين تلك المؤلفات جميعاً ، من الوجهة التاريخية ، هو كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" ، لمؤلفه المقريزى ، المولود بالقاهرة سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) ، والمتوفى بها سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤٢ م) .

ثم كان أن تحدّثت يوما مع الأستاذ هـ . أ . ر . جب (H. A. R. Gibb) أستاذ اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن ، فى مؤلفات المؤرخين المصريين ، الذين عاشوا وكتبوا فى القرن التاسع الهجرى ، وفيما يعترض قارئ المخطوطات منها — وهى القسم الأكثر عدداً — من العثرات والصعوبات ، فسرّنى قوله إن من أولى تلك الكتب بالطبع والنشر ، كتاب السلوك ، إذ وافق قوله رأيى فى ذلك المؤلف[1] .

حضرت بعدئذ إلى مصر ، والتحقت بوظيفة مدرّس للتاريخ ، فى كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٣٠ ، فطفقت أتلمس الوسائل وأتحين الفرص ، للعمل فى نشر ذلك الكتا ، حتى علمتُ أن "لجنة التأليف والترجمة والنشر" تفكر فى إخراجه ، بمعاونة

---

(١) أنتهز هذه الفرصة لأشكر للأستاذ جب ، ما أسداه إلى من الاقتراحات إبان بدئى العمل فى هذا الكتاب .

وزارة المعارف العمومية . ومن هـذا نتج القسم الأوّل من الجـزء الأوّل ، الذى تخرجه اللجنة اليوم . و إنى مبادر هنا ، برجائى إلى العاملين على إحياء النصوص التاريخية المصرية ، أن يقولوا كلمتهم فى هـذا النحو الذى طُبع عليـه القسم الأوّل ، وأن يمدّونى بنقدهم وملاحظاتهم .

* * *

ليس هذا التصدير مجال الترجمة للمقريزى ، أو الإفاضة فى تحليل كتابه السلوك ؛ وحسبى هنا التعريف بهما فى كلمات قليـلة ، لأتفرّغ بعدُ لبيان الطريق الذى سلكته فى إخراج هذا القسم .

أما أحمد بن على المقريزى ، فلا خلاف فى تبوئه صدارة المؤرخين المصريين ، فى النصف الأوّل من القرن التاسع الهجرى ويكفى دليلا على هذا أن فطاحل ذلك الجيل من المؤرّخين فى مصر ، كانوا تلاميذ المقـريزى ، مثل أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، مؤلف كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة[1] ، ومحمد بن عبدالرحمن السخاوى ، صاحب كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك[2] ؛ وأن أحمد بن حجر العسقلانى ، و بدر الدين محمودًا العينى ، لم يوجها كل عنايتهما إلى التاريخ ، كما فعل المقريزى ، بل كانا محدّثين أكثر منهما مؤرّخين .

ولا خلاف أيضا فى استحقاق كتاب السلوك أن يحل المحل الأوّل ، بين كتب التاريخ فى عصره وقـد كتبه المقريزى ليكون خاتمة مؤلفاته فى تاريخ مصر : إذ ألف "كتاب عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط" ، فى تاريخ مصر من الفتح العربى إلى قبيل تأسيس الدولة الفاطمية ؛ و "كتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا" ، فى تاريخ مصر زمن الخلفاء الفاطميين ، (انظر ص ٩ ، حاشية ١ ، ٢) ؛ ثم رأى أن يصل "ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم من الملوك الأكراد الأيوبية ، والسلاطين المماليك التركية والجركسية" ، إلى زمنه ، فى مؤلف مستقل ، وسماه "كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك" (انظر ص ٩ ، سطر ١ — ١٠) .

---

(١) أخرجت جامعة كاليفورنيا الأمريكية شطرا من هذا الكتاب ، فى سبعة أجزاء ، (انظر ثبت المراجع العربية ، تحت اسم ابن تغرى بردى ، صفحة ع) ؛ وتدأب دار الكتب المصرية ، منذ سنة ١٩٢٩ ، فى إخراج طبعة كاملة له ، ظهر منها حتى الآن الأجزاء الأربعة الأولى .

(٢) طبع هذا الكتاب فى بولاق ، سنة ١٨٩٦ .

* * *

يقع هذا الكتاب ، كما رتّبه المقريزى ، فى أربعة أجزاء ؛ وتوجد منه نسخ خطية عديدة ، كاملة وناقصة ، بعضها مجلد فى أربعة أجزاء ، وبعضها فى أكثر من ذلك . وأكبرهذه قيمة ، النسخة الأصلية الأولى ، التى خطها المؤلف بيده ، ومن هذه يوجد الجزء الأول ، من أربعة أجزاء ، بمكتبة يكى جامع بالآستانة ، تحت رقم (٨٨٧) .

وتحوى مكاتب الآستانة عدّة نسخ أخرى ، متفاوتة فى تاريخ كتابتها ، وفى عدد أجزائها : ففى مكتبة الفاتح نسخة فى إحدى عشرة مجلدة ، تنقصها الأولى والعاشرة ، كُتبت سنة ٨٨٠ هـ ، وأرقامها (٤٣٨١ — ٤٣٩٠) ؛ وهى أقدم النسخ المعروفة ، وتتلو النسخة الأصلية فى القيمة . وبالمكتبة نفسها نسخة أخرى ، فى أربعة أجزاء كاملة ، أرقامها (٤٣٧٧ — ٤٣٨٠) وفى مكتبة أيا صوفيا نسختان كاملتان ، كل منهما فى أربعة أجزاء ، كتبت إحداهما سنة ٨٨٣ هـ ، والثانية سنة ٨٩٤ هـ ، وأرقامها (٣٣٦٩—٣٣٨٦) . وفى مكتبة عاشر حفيد ، الجزء الأول من نسخة ، ذات أربعة أجزاء ، رقمها (٢٤٧) . وفى مكتبة كوبريلى جزء واحد ، من نسخة مختلفة فى تقسيمها عن الصنفين الآنفين ، ويرجح أنها كتبت فى ثمانية أجزاء ، ورقمها(١١٣٧)[١] .

يوجد عدا ذلك ، من مخطوطات السلوك ، نسخ مبعثرة فى شتى المكاتب والمتاحف الأوربية : منها بالمتحف البريطانى فى لندن ، الجزءان الثانى والرابع من نسخة ذات أربعة أجزاء ، (Britsh Museum Mss. Or. 2902, 9542) ، وفى مكتبة بودليان بأكسفورد نسخة كاملة ، (Bibliotheca Bodleianae, Codicum Manuscriptorum Orientalium Catalogus a Joanne Uri confectus' Oxonii, DCLXXXIX, DCCXXIV, DCCXXIX et DCCLI). وفى مكتبة جامعة جوتا الجزء الأخير من نسخة ذات أربعة أجزاء ،

(١) إنى مدين بهذه المعلومات ، الخاصة بخزائن الآستانة ، إلى الدكتور ف . هـ . رتر (Ph. H. Ritter) ، وهى من خطاب منه لزميلى وصديقى الدكتور عبدالوهاب عزام ، مدرس اللغتين الفارسية والتركية ، بكلية الآداب بالجامعة المصرية . وأريد أن أدون شكرى لكليهما هنا ، إذ تولى الدكتور رتر تجهيز الصور الشمسية ، التى احتجت إليها من هذه المخطوطات ، وأرسلها مرفقة بتلك المعلومات المتقدمة ؛ ومهد لى الدكتور عزام السبيل للاتصال بالدكتور رتر ، والاستقاء من معرفته الواسعة بالمخطوطات العربية .

(Verzeichniss der für die orientalische Sammlung in Gotha von U. J. Steetzen, 1819, Leipzig, No. 1484) ؛ وفى المكتبة الأهلية بباريس نسخة كاملة فى أربعة أجزاء ونسخة أخرى عبارة عن مجلدين من الجزء الثالث ، (Bibliothèque Nationale, Paris, Fonds Arabe No. 1726-1728) ، ويوجد بدار الكتب المصرية صور شمسية لهاتين النسختين الباريسيتين (تاريخ ٤٥٥، ٤٦٤)، ونسخة خطية ثالثة ، منقولة حديثا من النسخة الباريسية الكاملة.

* * *

أول ما يلزم لنشر مخطوط ، الحصول على صور شمسية لأكبر عدد ممكن من النسخ المعروفة منه ، مع الإحاطة بأوصاف ما لم يتيسر منها . وقد وُفِّقْتُ إلى أكثر من هذا ، فيما يخص نشر الجزء الأول من السلوك ، إذ حصلتُ على صور شمسية من المخطوط الذى كتبه المقريزى بيده ، والموجود بمكتبة يكى جامع ، فلم تعدْ حاجة ماسة إلى الحصول على عدّة من النسخ المعروفة . وهذه النسخة هى أصل القسم الأول المنشور هنا ، وعماد ما يتلوه من بقية الجزء الأول . على أنى لم أطمئن إلى إخراج الكتاب من نسخة واحدة ، رغم انتسابها إلى المؤلف مباشرة ، لما حدسته فيها من الصعوبات عند أول نظرةْ . لذلك استعنت بالصور الشمسية للنسخة الباريسية الكاملة ، الموجودة بدار الكتب المصرية ، فاستهديتها فى إبانة بعض ما غمضت قراءته من الألفاظ من مخطوطة يكى جامع ، واسترشدت بها فى بعض العبارات والألفاظ الزائلة ، أو المحجوبة بورقة ملصقة فوقها ، (انظر ص ٧٠ ، حاشية ٣ ، ص ١٠١ ، حاشية ٣ ، ٤ ، ص ١٠٨ ، حاشية ٢ ؛ ص ١٩٦ ، حاشية ١ ؛ وغيرها كثير) .

* * *

يتعين هنا ، قبل شرح الطريقة التى اتبعتها فى إخراج القسم الأول من السلوك ، أن أصف مخطوطة يكى جامع ، وقد سميتها س فى الحواشى ، ونسخة باريس ، وقد سميتها ب ، وأن أذكر الشذرات المطبوعة فعلا من السلوك ، بلغتها أو مترجمة .

أما س فمجلد ضخم ، غلافه من جلد قوى ، مطبوع فى وسطه مستطيل للزينة ، غير مذهب . وخط هذا المجلد نسخ متوسط ، واضح القراءة ؛ وعدد أوراقه ٢٥٧ ، لونها أبيض ضارب إلى الصفرة ، ومقاس الورقة ½ ٢٥ × ½ ١٦ س م ، ، أى أكبر بقليل من الصورة الشمسية المطبوعة هنا . (انظر ص ٢) .

يبتدئ متن كتاب السلوك فى هـذه المخطوطة من الورقة ٣ ا ، وينتهى عند ورقة ٢٥٣ ا . أما ما قبل ذلك ، وما بعده ، من أوراق المجلد ، فيحتوى عبارات متنوعة ، ليس للمتن علاقة ظاهرة بها ، على أنها مكتوبة بخط يشبه خط متن السـلوك ، ما عدا الوارد فى ص ١ ا . ويوجد بتلك الصفحة الأولى رسم دائرة ، فى نصفها الأعلى ، بخط نسخ كبير ، وقفية نصها : "وقف سلطان أحمد خان بن غازى سلطان محمد خان" ، وبنصفها الأسفل طغراء ، يرجح أنها لهذا السلطان العثمانى ، الذى تولى من سنة ١٦٠٣ إلى ١٦٢٧ م . وعلى ص ١ ب فقرة فى منشأ الخوارج ، وفى أصل عادة حلق الرءوس عندهم ؛ وتستغرق هذه إلى آخر ص ٢ ا . وعلى الصفحة ٢ ب فذلكة فى أصل الجبابرة ، تنتهى فى منتصف الصفحة نفسها ، ويتلوها عبارة فى أنساب بعض قبائل العرب ، التى سكنت حَوْف مصر .

أما العبارات التى تلى آخر الجـزء الأول ، فأولها تعليقة فى أنواع الطلاق ، تشغل ص ٢٥٣ ب ومنتصف ص ٢٥٤ ا ، ويتلوها قول فى أصل القصيدة المشهورة ، التى مدح الفرزدق بها على بن الحسين بن على بن أبى طالب . وتبتدئ ص ٢٥٤ ب بقول آخر فى أصل القصيدة المعروفة التى أنشأها ابن زريق البغدادى ، فى زمن غربته بالأندلس ؛ ثم يتلو هذا القول ، إلى آخر الصفحة ، اقتباسات قصيرة من أقوال بعض المحدِّثين فى أهمية الإسناد فى الحديث ، ورأى فى مدى ملكية المالك للغلام المملوك . وتبتدئ ص ٢٥٥ ا بفصل فى الجرح والتعديل ، ويشغل هذا الفصل حدَّ ثلثى ص ٢٥٦ ب . وعلى بقية تلك الصفحة ، حتى ثلثى ص ٢٥٧ ا ، وهى الصفحة الأخيرة من المخطوط ، فصل فى الترغيب فى علم الأنساب ، يتلوه ذكر وفاة أبى عثمان إسماعيل الصابونى ، المتوفى سنة ٤٤٩ هـ ، وإشارة إلى أحد الأئمة الشافعية ، لم أستطع أن أقرأ من اسمه سوى لفظى "مهران الاسفراينى" ، ويتلو ذلك كله حديث نبوى .

ليس ثمت شك فى أن هذه النسخة من الجزء الأول هى الأصلية الأولى ، سطّرها المقريزى لنفسه ، على قوله فى صفحة العنوان ، وفى "حَرْد" المجلد (Colophon) (انظر ص ٣ ، سطر ٦ هنا ، وكذلك ص ٢٥٣ ا فى س) . ونوجد عدا هذا شواهد داخلية عدّة ،

للدلالة على أن المقريزى كتب هذا الجزء بيده ، وتتضح هذه الشواهد من وصف خواص ترتيب المتن .

أول تلك الخواص أن كثيراً من صفحات هذا الجزء مرقوش بهوامش إضافية ، مكتوبة أحيانا على جوانب الصفحات ، وأحيانا على ورقة منفصلة بين صفحتين ، وفى المتن عادة إشارة بعلامة إلى المكان المناسب لهذا أو ذاك الهامش من المتن . وتلك الهوامش ، بحسب ارتباطها بالمتن ، على أربعة أنواع : إما فقرة متسقة مع المتن اتساقاً تاماً ، فهى عبارة عن سقطة كتابية ، تداركها المؤلف عند المراجعة ، فأثبتها حيث استطاع ، وأشار إلى موضعها المناسب من صلب المتن ، (انظر ص ٤ ، حاشية ١) ؛ أو عبارة من عبارات المتن مكتوبة بأسلوب آخر ، (انظر ص ٢٥٥ ، حاشية ١) ، أو إضافة لا اتساق لها مع عبارة المتن ، رغم علاقتها أحيانا بموضوعه ، وأمثال هذه لا شك زيادات عَثَر المؤلف عليها ، فيما بعد ، فأثبتها حيث أراد ، (انظر ص ٨ ، حاشية ٢ ؛ ص ٢٩ حاشية ٣ ؛ ص ٤٦ ، حاشية ٢ ؛ ص ٦١ ، حاشية ١ ؛ ص ٢٥٥ ، حاشية ١) ؛ أو عبارة تفسيرية للفظ لغوى ، (انظر ص ٨ ، حاشية ١ ؛ ص ١٧ ، حاشية ٢) ؛ أو عبارة للتنبيه إلى ما فى المتن من مواضيع ، وهذا النوع الأخير مكتوب بخط مخالف ، (انظر ص ٧٩ ، حاشية ١ ؛ ص ٢٠٩ ، حاشية ٢ ؛ ص ٢١٧ ، حاشية ١ ؛ ص ٢٢٤ ، حاشية ١ ؛ ص ٢٤١ ، حاشية ٣)

تدل هذه الهوامش ، ما عدا النوع الرابع منها ، على أن المقريزى كتب هذه النسخة من الجزء الأول بيده ، ثم راجعها بنفسه ، فتدارك بالإثبات ما فاته ، وأضاف من الزيادات ما رأى أن يضيف ، وفسّر من الألفاظ ما ظنّ غريبا . غير أنه يلاحظ أحيانا خلاف طفيف بين خط المتن وخط تلك الهوامش ، وهذا يرجح أن المقريزى راجع الكتاب بعد مضى عدّ سنين من تاريخ كتابته ، بعد أن اعترى خطه شىء من الضعف والهزة .

ومن خواص س أيضا طريقة الرسم الإملائى ، التى اتبعها المقريزى فى كل هذا الجزء ، إذ أهمل الهمزات إهمالا تاما ، فسّهلها بالإبدال إلى ياء فى أواسط الكلمات ، وحذفها فى أواخرها ، وأمثال ذلك الطايع (الطائع) ، وساير (سائر) ، وهولا (هؤلاء) ، وعلا (علاء) ، وخلفا (خلفاء) . وفى هذا الجزء أيضا دأب المقريزى على إحلال الدال موضع الذال ، مثل

دخاير (ذخائر)، وهمدان (همذان)؛ وتهاون فى النقط كثيراً، حتى أن بعض الألفاظ وارد بغير نقط البتة؛ ووقع فى بعض أخطاء نحوية ولغوية؛ كما ضبط بعض الألفاظ ضبطاً خطأً، وقد أشرتُ إلى أمثال ذلك كله فى الحواشى. (انظر ص ٤ ، حاشية ٢ ؛ ص ٧ ، حاشية ٥ ، ٨ ؛ ص ١٠ ، حاشية ٢ ؛ ص ١٦ ، حاشية ٢).

* * *

يلى س فى القيمة العلميــة ، النسخة التى كتبت عام ٨٨٠ هـ ، والموجودة بمكتبة الفاتح ، لأنها أقدم النسخ الخطية المعروفة ، حتى الآن ، وأقربها إلى زمن المقريزى والنسخة الأصلية الأولى . ويليها ما كُتب بعــدها ، وهكذا . أما نسخة باريس (ب) فمتأخرة بالنسبة إلى غيرها من النسخ المعروفة ، لأن الجزءين الأوّل والثانى منها بخط المدعو منصور الأزهرى ، وقد فرغ من كتابتهما فى أول سنة ١٠٤١ هـ (١٦٣١م) ، والجزءين الثالث والرابع بخط المدعو حسن العثمانى ، وقد فرغ من نسخها بمكة ، فى أواخر سنة ٩٣٩ هـ (١٥٣٣م) . (انظر فهرس الــكتب العربية الموجودة بدار الــكتب المصرية ، ج ٥ ، ص ٢١٩)

تشبه ب مخطوطة س فى وضوح الخط ، وفى الرسم الإملائى أيضا : من تسهيل الهمزات المتوسطة ، وحذف الهمزات المتأخرة ؛ كما تشبهها أيضا فى الاقتصاد فى النقط ، وفى الأخطاء النحوية واللغوية والواقع أنها نسخة طبق الأصل ، لا تختلف عنه فى الأسلوب أو العبارة أو ترتيب المحتويات ، إلا ما نتج عن تصرف طفيف من النــاسخ ، أو سهوه أو إهماله ، أو تقصيره فى قراءة بعض الهوامش المزدحمة ، أثناء النقل . ومن أمثلة ذلك صفحة العنوان ، إذ ليس فى ب شىء مما هو وارد بتلك الصفحة فى س ، بل يوجد بدلهـا الفقرة الآتية : " الجزء الأول والثانى من السلوك لمعرفة دول الملوك للشيخ الإمام العلامة الهمام الرحالة المقريزى رحمه الله تعالى وأعاد علينا من بركاته ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم". وثمت خلاف آخر بين النسختين ، فى الصفحة الأولى ، ففى ب بعد البسملة عبارة : "وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، قل اللهم مالك الملك .... .." (قارن هذا بالعبارة الافتتاحية فى س) . هذا ولمعرفة أنواع الخلاف الأخرى بين النسختين ، انظر (ص ٢٨ ، حاشية ٣ ؛ ص ٣٩ ، حاشية ١ ، ص ٦١ ، حاشية ١ ؛ ص ٩٠ ، ١ ، حاشية ٤ ، ص ٩٨ ، حاشية ٢ ، ص ١٧٨ ، حاشية ٢).

ويوجد بين النسختين خلاف من نوع آخر، لا مساس له بجوهر المتن، بل هو عرضى بحت: ذلك أن الهوامش التى فى س عبارة عن سقطات كتابية، قد تداركها المقريزى بالإثبات عند المراجعة، أو إضافة عثر عليها فكتبها حيث يريد كما تقدم، أدمجها كاتب نسخة ب — أو كاتب النسخة التى نقل منها — حيث تجبُ من المتن، أو حيث مَظِنّة الصواب؛ ولم يخطئ إلا قليلا فى هذا المجهود المحمود، الذى جعل ب ذات أهمية. (انظر ص٢٨، حاشية ٣؛ ص ٦١، حاشية ١؛ ص ٩٠، حاشية ١ — ٤؛ ص ٩٨ حاشية ٢؛ ص ١٧٨، حاشية ٢). أما ما عدا ذلك من الهوامش الواردة فى س، كالحواشى التفسيرية التى كتبها المقريزى، وكالإشارات والتنبيهات الواردة بخط مخالف، فليست موجودة فى ب مطلقا. على أن فى ب هوامش من نوع آخر، امتازت بها أيضا، وهذه عبارة عن إشارات باللغة الفرنسية لـكبار أحداث الحروب الصليبية، أو ترجمة إلى تلك اللغة لأسماء كبار الصليبيين، قبالة ورود أسمائهم بالمتن. (انظر ص ٩٦، حاشية ٧).

* * *

ليست الطبعة المعروضة اليوم، أول محاولة لنشر كتاب السلوك، فقد تناولته مجهودات المستشرقين، كل على قدر حاجته منه، منذ أواسط القرن الثامن عشر، أى قبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر بجيل تقريبا. وأول المبكرين إلى هذا هو (Cardonne)، إذ نشر منه فى سنة ١٧٦١ م، شذرات باللغة العربية، فى ذيل كتاب تاريخ حياة لويس التاسع ملك فرنسا(Joinville: Vie de St, Louis; ed. Cardonne. Paris, 1761)، كما نشر منه فقرات أخرى سنة ١٨٢٤، ضمن مختارات عربية، متعلقة بتاريخ فرنسا، تحت عنوان (Cardonne : Extraits de Mss. Arabes)، فى المجموعة الفرنسية المسماة (Petitots: Collection des Mémories ; Vol III, Paris 1824).

بعد ذلك بإحدى وعشرين سنة، أتم المستشرق (Quatremère) ترجمة فرنسية فى جزءين، لشطر كبير من كتاب السلوك، أوله سنة ٦٤٨ هـ، وآخره سنة ٧٠٨هـ، تحت عنوان (Quatremère; Histoire des Sultans Mamlouks etc, Paris, 1837-1845)

وكان اعتماده فى الترجمة على مخطوطة باريسية ، كانت فى أيامه بمكتبة الملك (Bibliothèque du Roi) ، تحت أرقام ٦٧٢ — ٦٧٤ ؛ فبدأ ترجمته من ص ١١٥ منها ، وانتهى عند ص ٣١٥ [1] .

ثم انتقلت تلك المخطوطة إلى (Bibliothèque Nationale) ، وصارت أرقامها ١٧٢٦ — ١٧٢٨ ؛ ومنها ترجم (Blochet) ، فى سنة ١٩٠٨ ، ما فاته (Quatremère) من الجزء الأول ، وسمى ترجمته (Blochet : Histoire d'Egypte de Makrizi) ، ونشرها فى (Revue de L'Orient Latin, Tomes VI, VII-XI) وهذه المخطوطة ، التى كانت عماد الترجمتين الفرنسيتين ، ليست سوى ب هنا ، والتى أشرتُ إلى مبلغ استعانتى بها فى المقابلة والمقارنة [2] .

* * *

أما محاولتى التى تخرج باكورتها فى الصحائف التالية ، فهى أول محاولة لإخراج الكتاب كاملا ، بلغته التى كُتب بها . وقد اعتمدت على مخطوطة س اعتمادا كليا ، واستعنت بنسخة ب . واسترشدت بترجمة (Blochet) . على أنى تناولت تلك الترجمة ببعض النقد ، (انظر ص ٨٠ ، حاشية ٥ ؛ ص ٩٤ ، حاشية ١ ؛ ص ١١٢ ، حاشية ١ ؛ ص ١٣٥ ، حاشية ٤ ، ٥ ؛ ص ١٣٧ ، حاشية ١ ، ٢ ؛ ص ٢١٧ ، حاشية ٢) ، ونَبَّهت إلى عدد قليل من أخطائها ، التى كان منشؤها اعتماد المترجم على نسخة ب فقط ، (انظر Blochet : Op. cit Introd. P. 53) وقصدتُ بذلك إبراز قيمة مخطوطة س ، لا النيل من نتيجة مجهود محمود ، فضله مشهود به هنا ، فى كثير من الحواشى . (انظر ص ١٠ ، حاشية ١ ؛ ص ٢٤ ، حاشية ٦ ؛ ص ٣٦ ، حاشية ٦ ؛ ص ٤٦ ، حاشية ١ ؛ ص ٥٠ ، حاشية ٣ ، ٨ ؛ ص ٦٠ ، حاشية ١ ؛ وغيرها) .

---

(١) يوافق بدء ترجمة (Quatremère) ص ٩٦ ا من مخطوطة س ، وينتهى فى أوائل الجزء الثانى منها . والسبب الذى حدا به إلى ذلك البدء ، واستبعاد الصفحات الأولى من السلوك ، وهى القسم الخاص بدولة الأيوبيين فى مصر ، أنه كان قد فكر فى مجموعة فرنسية مستقلة ، اسمها (Collection des Historiens des Croisades) ، كان العزم معقودا على إخراجها ، ولم ينجح المشروع . راجع (Quatemère : Op. cit. T. I, 1 Pref. P. XVIII) .

(٢) توجد أيضا قطعة صغيرة من كتاب السلوك ، منشورة فى الجزء الثانى من كتاب تاريخ عمارة اليمنى ، (Derenbourg : Onmara du Yemen. Paris, 1897-1902 Tome II. PP. 650-652) . تحت عنوان " نبذة من السلوك " . (انظر ص ٥٣ ، سطر ١٠ — ص ٥٤ ، سطر ١١) .

وقد بدأت العمل بنسخ المتن المعدّ للطبع من ب ، وقابلته عليها ، تمهيدا لمقابلته على نسخة الآستانة . وكان اعتقادى أن النسختين ذاتا قيمة متكافئة ، بل ظننت أن نسخة باريس أهم من الأخرى ، لأن معظمها قد ترجم إلى الفرنسية ، فأصبحت ذات قيمة معروفة ، ونصها محترم . فلما رأيت بعد ذلك أن مخطوطة الاستانة بقلم المقريزى ، تضاءلت أمامها نسخة باريس ، وصارت فرعا ، ومخطوطة س أصلا .

ولم يكن البدء على هذا النحو المعكوس مضيعة لوقتى ، فإنى استفدت من ب استفادة واسعة ، (انظر صحيفة و) ، واستطعت أن أدرك أوجه الشبه والخلاف بين المخطوطين . غير أنى لم أدأب على إثبات نتيجة المقابلة فى الحواشى ، لأن أهمية س طغت على كل الاعتبارات ، ولأنى توخيت ألا أحمّل كعوب صفحات المتن أكثر من اللازم .

* * *

كتب المقريزى كتابه على نظام الحوليات ، الشائع فى مؤلفات المؤرخين الشرقيين فى القرون الوسطى ، فسرد تاريخ كل سنة على حدته ، ولم يحاول أن يصل بين سنة وأخرى أبدا ، ولم يستوقف القارئ فى وسط السنين إلا عند حدوث عهد جديد . وقد سار المقريزى على هذا النحو فبدأ كل سنة فى سطر جديد ، وعنونها بخط أكبر من خط المتن ، و بمداد أحمر ؛ وفعل مثل ذلك عند بدء عهد سلطان جديد . وللتوفيق بين هذا النظام ومقتضيات الطبع الحديث أبقيتُ عناوين السنين فى مواضعها ، فى أول سطر دائما ، و بحروف أكبر قليلا من حروف المتن ؛ ووضعتُ أوائل أسماء السلاطين فى وسط السطر ، بحروف كبيرة أيضا . (انظر ص ٤١ ، حاشية ٦) .

وقد أخذت حريتى فى نقط الألفاظ ، وفى الترقيم والتقسيم ؛ كما فعلت ذلك أيضا فى الأخطاء الإملائية البحتة ، فاتبعت الرسم الإملائى الحديث . ولو كنت عمدت إلى الإشارة إلى جميع مواضع النقطة الناقصة ، أو الغلطات الإملائية الشائعة ، لملأت أضعاف المساحات التى شغلتها الهوامش . على أنى نبّهت دائما ، عند الحاجة ، إلى الألفاظ التى نقّطتها من عندى ، وعلى مسئوليتى . ولما كان المقريزى قد ضبط بعض ألفاظ المتن دأبت على إثبات

ضبطه دائما حيث كان ، بغير تنبيه إليه فى الحواشى ، إلاّ إذا كان هناك ما يقتضى ذلك ، أو كان الضبط خطأ ، فقد أصلحته ، ونبهت إلى أصله . على أنه كثيراً ما استلزم المتن ضبط كلمات أخرى ، لزيادة التوضيح . (انظر ص ٢٤ ، حاشية ٢) .

* * *

والآن ، وقد بيَّنت فى هذا التصدير المختصر معالم الترتيب الذى سرت عليه ، فواجبى أن أشكر لكل من عاونني ، بالمساعدة أو بالتشجيع ، فى إخراج هذا القسم الأول من كتاب السلوك . وأبدأ بالذكر "لجنة التأليف والترجمة والنشر" وهيئتها الفنية ، لتكليفى القيام بنشره ، وإعطائى الحرية فى كيفية طبعه وتنظيمه ، وتواصيها بالصبر إزاء البطء الذى تطلبه نوع العمل . وأشكر أيضا الأستاذ أحمد أمين ، الأستاذ المساعد بكلية الآداب بالجامعة المصرية ، ورئيس "لجنة التأليف والترجمة والنشر" ، لما رمقنى به من عنايته المستمرة ، إذا قرأ جميع صفحات القسم الأوّل ، قبل اعتمادها نهائيا للطبع ، وعدانى باقتراحاته ، مرة إلى مراجعة عبارة بالمتن ، ومرات لتعديل بعض الحواشى . وقد كان من حسن حظى أيضا أن طلبتُ إلى صديقى وزميلى أحمد الشايب ، أن يعاوننى فى أدوار المقارنة والمقابلة ، فقرأ معى النسخة التى أعددتها للطبع ، على نسخة باريس ، وعلى ثلثى مخطوطة الاستانة ، فأسديه شكرى ، كما أسديه إلى صديقى محمد نديم ، ملاحظ مطبعة دار الكتب المصرية ، فقد حرص على طبع الكتاب طبعة دقيقة . ولست أعدد تلك المساعدات توزيعا للمسئولية النهائية على أكتاف غيرى ، بل اعترافا بالجميل لمن قدّموها إلىّ ، فإن تلك المساعدات سهلت علىّ العمل فى مختلف أدواره ، وجنَّبتنى بعض الزلل وإنى أتقدم إلى كل الذين ذكرت ، وإلى غيرهم أيضا ، من شجعونى على المضى فى العمل ، بوافر الشكر والثناء ، كما أرسل شكرى مقدّما إلى كل من يطلع على هذا القسم ، ويدلّنى على ما عساه قد وقع من خطأ ، أو على ما يقترح من إصلاح يساعدنى فى إخراج الأقسام التالية .

مصر الجديدة فى أوّل المحرّم سنة ١٣٥٣
١٤ أبريل سنة ١٩٣٤

محمد مصطفى زيادة

المراجع المذكورة فى حواشى القسم الأول

مراجـــع عربيـــة

ابن الأثير (عز الدين أبى الحسين على المعروف بابن الأثير) : كتاب الكامل فى التاريخ ، ١٤ جزءا . طبعة ليدن (Edidit Tornberg. Lugduni Batavorum, Brill, 1863).

ابن تَغرى بَرْدِى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . طبعة جامعة كاليفورنيا[1] . (Edited by Popper. Vols II, III, V, VI, VII; University of California Publications in Semitic Philology, 1909-1929).

ابن حول (أبو القاسم) : كتاب المسالك والممالك . طبعة ليدن .
(Bibliotheca Geographorum Arabicorum, edidit De Geojc. pars secunda. Lugduni Batavorum, Brill. 1873).

ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس محمد) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، جزءان . طبعة جوتنجن . (Edidit Wüstsnfeld, Gottingae, Deuerlich, 1835-1840).
لهذه المؤلف ترجمة إلى الإنجليزية . انظر ثبت المراجع الأوربية ، تحت اسم (De Slane) .

ابن شاهين (غرس الدين خليل الظاهرى) : كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك . طبعة باريس (Ed. Ravaisse, Imprimerie Nationale Paris, 1094).

ابن شدّاد : (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف) : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية . طبعة باريس . (Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux, Tome III, Imprimerie Nationale. Paris, 1884)

ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى) : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ثمانية أجزاء . (مكتبة القدسى ، بجوار الأزهر ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ) .

---

(١) أتمت جامعة كاليفورنيا نشر هذا الكتاب ، بفضل جهود الدكتور وليام لوپر ، كما أتمت دار الكتب المصرية الجزء الحادى عشر من طبعتها لهذا الكتاب .

ابن مسكويه (أبو على أحمد المعروف بمسكويه) : القسم الأخير من كتاب تجارب الأمم ، سبعة أجزاء . طبعة أكسفورد .

(Arabic text, edited by Amedroz, vols I-III; English translation, vols IV-VII, Margoliouth. Oxford, Basil Blackwell, 1920-1921).

ابن النديم (أبو الفرج محمد) : كتاب الفهرست . طبعة ليبزج .

(Mit anmerkungen herausgegben von Gustav Flügel, Leipzig, Vogel, 1872).

أبو الفداء (الملك المؤيد إسماعيل) : منتخبات من المختصر فى أخبار البشر . طبعة باريس .

(Recueil des Historiens des Croisades. Historiens Orientaux, Tome I. Imprimerie Nationale, Paris, 1872).

أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن) : منتخبات من كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية . طبعة باريس .

(Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux, Tome III, Imprimerie Nationale. Paris, 1884).

أمين (أحمد): ضحى الإسلام ، الجزء الأول . (لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، ١٩٣٣).

الأنصارى (زكريا) : شرح المنهج ، جزءان . (المطبعة الميمنية ، قرب الأزهر . القاهرة سنة ١٣٠٥ هـ) .

البيرونى (أبو الريحان محمد) : كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية ، طبعة ليبزج.

(Ed. Ravaisse, Imprimerie Nationale, Paris, 1894).

هـذا المؤلف مترجم أيضاً إلى اللغة الإنجليزية . انظر ثبت المراجع الأوربية ، تحت اسم (Sachau) .

حسن (حسن إبراهيم) : الفاطميون فى مصر . (المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٣٢) .

الخزرجى (على بن الحسن) : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية . طبعة ليدن .

(E. W. J. Gibb Mem. Series, Vol. III. Parts I-V, Brill, Leiden, 1906-1918)

الخوارزمى (أبو عبد الله محمد) : مفاتيح العلوم . (مطبعة الشرق ، بجوار الأزهر . القاهرة ، ١٣٤٢ هـ) .

الزركشى (عبد الله محمد) : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية . (تونس ، ١٢٨٩ هـ) .
السخاوى (محمد شمس الدين) : الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع . (مخطوطة دار الـكتب المصرية ، ١٨ جزءاً ، رقم : تاريخ ٦٧٥) .
الطبرى (أبو جعفر محمد) : تاريخ الرسول والملوك . طبعة ليدن .

(Cum aliis Edidit De Geoje, Lugduni Batavorum, Brill, 1991).

العينى (بدر الدين محمود) : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (مخطوطة دار الـكتب المصرية ، ٢٣ جزءاً ، فى ٦٩ مجلداً ، رقم : تاريخ ١٥٨٤ .
القلقشندى (أبو العباس أحمد) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ١٤ جزءاً . دار الـكتب المصرية ، القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩) .
مبارك (على باشا) : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، ٢٠ جزءاً ، فى أربع مجلدات . (المطبعة الأميرية ، بولاق ، ١٣٠٦ هـ) .
المسعود (أبو الحسن على) : كتاب التنبيه والإشراف . طبعة ليدن .

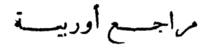
(Bibliotheca Geographorum Arabicorum, Edidit De Geoje, Pars octava, Lugduni Batavorum, Brill, 1894).

المسعودى (ابو الحسن على) : كتاب مروج الذهب ، تسعة أجزاء . طبعة باريس .

(Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux, Tomes IV-V, Imprimerie Nationale, Paris, 1898-1906).
(Herausgegben von Sachau,Harrassowitz, Leipzig, 1923).

المقريزى (أحمد بن على) : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأمصار ، جزءان . (دار الطباعة المصرية ، بولاق ، ١٢٧٠ هـ) .
ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله) : ٦ أجزاء ، كتاب معجم البلدان . طبعة ليبزج .

(Herausgegben Fredinand Füstenfeld, Leibzig, Brockhaus, 1856).



مراجع أوربية

Allen (W. E. D.) : A history of the Georgian People. (Kegan Paul, London 1932).

Blochet (E.) : Histoire d'Égypte de Makrizi. (Leroux, Paris, 1908). (Extrait de la Revue de L'Orient. Tomes VI, VII - XI).

Browen (E. G) : An Abridged Translation of the History of Tabaristân. Compiled by Ibn Isfandiyar; translated by Browne. (E.W J.Gibb Mem. Series. Vol. II. Leyden, Brill, 1905).

Butcher (Ers E.L.) : The story of the Church of Egypt, 2 vols. (Smith Elder, London, 1897).

Cambridge Medieval History : (Camb* Med. Hist.).

Derenbourg (H) : Odmara du Yémen ... 2 vols. Leroux, Paris 1897-1902). (Publications de LÉcole des Langues Orientales vivantes IVme Serie, vol X).

DE SLaron (Baron Mac Gucrin : Ibn Khalliknn's, Biographical Dictionary. Translated fromthe Arabibic, 4 Vols. (Oriental Translation Fund. Paris 1842-1871).

Dozy (R.) : Supplément Aux Dictionnaires Arabes. (Dozy* : Supp. Dict. Ar.).
Engyclopaedia of Islam : (Enc*. Isl.).

G.—Demobynes : La Syrie à l'Époque des Mamlouk1. (Geuther, Paris, 1922).

Gibb (H. A R.). The Damascus Chronicle of the Cursades. Luyac, London, 1932).

Hitti (Ph. K.) : Memoirs of Usâmah Ibn Munkidh. (Columbia University Press, New York, 1929).

Hograth (D.G.) : A history of Arabia. Clarendon Press, Oxiord, 1922).

King (E.J.) : The Knights Hospitallers in the Holy Land. (Methuen, London, 1931).

Lamb (Harold) : Genghis Khan. (Thornton Butterworth, London, 1928).

(*) The astericks denote the abreviated form, in which the authority is cited in the note.

Lane-Poole (S.) : A History of Egypt in the Middle Ages. (Methuen. London, 1914).

Lane-Poole (S.) : The story of Cairo. (Dent, London, 1924).

" : Muhammadan Dynasties. (Geuthner, Paris, 1925).

" : Saladin. Pntnam, London 1926).

Le Strange (G) : Palestine Under The Moslems. (Watt. London, 1890).

Morier (J.) : The Adventures of Hajji Baba of Isphahan. (Humphrey Miford, Oxford, 1924, 1925).

Price (A. P.) : Holbyn's Dictionary of Medical Terms. (Bell, London, 1899).

Quatremère (E.) : Histoire des Sultans Mamlouks de l'Égypte. 2 vols. (Paris, 1837-1845).

Rappoport (A.S.) : History of Palestine. (Allen & Unwin. London, 1931)

Recueil Des Historiens Des Croisades : Historiens Orientaux. Tomes I-V. (Rec* Hist. Or.). Paris, Imprimere Nationale 1872-1906).

Sachau (E.) : The Chrology of Ancient Nations, . . . of Albîrûnî. Allen, 1879. (Oriental Translation Fund).

Scott. Sir. W.) : The Talisman. Nelson, London).

Stevenson (W. B.) : The Crusaders in the East (University Press, Cambridge, 1907).

Toussoun (Le Prince Omar) : Mémoire sur les Anciennes Branches Du Nil. Époque Arabe. (Mémoires présentés à l'Institut d'Égypte Tome 4me. 2me F. Le Carie, 1923)

Toussonn (Le Prince Omar) : La Geographie de l,Égypte à l'Époque Arabe. Tome 1re, 1—2. parties (Mémoires de la Société Royale de Géographie d'Égypte. Tome, VIII, 1re 2me parties, Le Caire, 1926, 1928).

Ziada (M. Mustafa) : The Mamluk Conquest of Cyprus in the Fifteenth Centupy. (Bulletin of the Faculty of Arts, University of Egypt. Vol. I. Part I. pp. 90-113).

السلوك لمعرفة دول الملوك

الجزء الأول من كتاب

السلوك لمعرفة دول الملوك جمع فقير عفو الله احمد بن علي بن عبد
القادر بن محمد بن ابرهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد بن الحسن بن عبد الصمد
ابن تميم الشهير جده بالمقريزي الشافعي غفر الله له ولوالديه ولمن

سطره لنفسه نايله ... وجامعه
فليعف عن زلاته ناقله ... وسامعه

لا جرم كل امر الا قضا من يعرف واستعينوا لا احاكم الا الفيض عوض عن جميل
اوليته ولا جعلك السفلى لمن كانت عليه هي العليا واعاذك من عز مفقود
وعيش مجهود واحياك الحياة اجملك وتوفاك اذا كانت الوفاة
اصلح لك تعفو عمن يريد وسمو لعبيد وختم بالحسنى عملك وبلغك في الاولى املك
وسددك فيها سطوتك واحسن في الاخرى منقلبك انه سميع قريب جواد
مجيب

الاكراد ينسبون الى ... بن عمرو بن صعصعة
معوية بن بكر بن هوازن وقيل هم من ولد ... وهم قبائل منهم
الكورانية من كوران والهذبانية والبشنوية
والشاهجانية والسرجية والبزولية والمهرانية
والزرداريه والكيكانية والجاك واللور والدنبلية
والرواديه والرشينيه والهكارية والحميدية والوركية
والمروانية والجلالية والشنبكية والجوبي وتزعم
المروانيه انها من بني مروان بن الحكم الاخير وتزعم
بعض الهذبانيه انهم من ولد عتبة بن ابي سفيان صخر بن حرب

الحمد لله وبه اكتفى من عوارف ...
قال محمد بن احمد بن ... ابن ...
عامله ربه بخفي لطفه الجلي والخفي

(محتويات الصورة الشمسية المواجهة وهى صفحة العنوان كما فى نسخة الأستانة)

(١٣) الجزء الأول

من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، جَمْعُ فقيرِ عفوِ الله أحمد بن على بن عبد القادر ابن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد بن أبى الحسن بن عبد الصمد بن تميم ، الشهير جدّه بالمقريزى الشافعى ، غفر الله له وتغمد زلله بمنّه :

سطّره لنفسه * قائله وجامعه

فليعف عن زلاته * ناقله وسامعه

لا أحوجك الله إلى اقتضاء ثمن معروف أسديتَه ، ولا ألجأك إلى قبض عوض عن جميل أوليته ، ولا جعل يدك السفلى لمن كانت عليه هى العليا ، وأعاذك من عز مفقود وعيش مجهود ، وأحياك ما كانت الحياة أجمل بك ، وتوفّاك إذا كانت الوفاة أصلح لك ، بعد عمر مديد وسموّ بعيد ، وختم بالحسنى عملك ، و بلّغك فى الأولى أملك ، وسدّد فيها مُضطر بك ، وأحسن فى الأخرى منقلبك ، إنه سميع قريب جواد مجيب .

والأكراد ينسبون إلى كُرْد[1] بن مُرْد بن عمرو بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . وقيل هم من ولد[2] عمرو مُزَيْقِيَاء بن عامر ماء السماء . وقيل إنهم من بنى حميد

---

(١) هذا الاسم غير واضح كله فى س ، ولكن المراجع العربية تبتدىء آباء الأكراد به . قال ابن حوقل فى المسالك والممالك ، ص ١٨٧ : "إنهم من كرد بن عمرو بن عامر" بدون ضبط . أما المسعودى فى مروج الذهب ج ٣ ، ص ٢٥٠ فقد نسبهم إلى "كرد بن مرد (كذا) بن صعصعة بن هوازن" ، ونسبهم فى كتابه التنبيه والإشراف ، ص ٨٩ ، إلى كرد بن مرد بن صعصعة بن حرب بن هوازن . وكل هذه الأنساب محاولات من الأكراد للاتصال بالنسب العربى ، ولكن الثابت أنهم من الجنس الإيرانى (راجع Enc. Isl. Art. Kurds) . ولا يشار إلى المراجع هنا بأكثر من هذا ؛ أما مكان الطبع وزمانه ، وتعيين المخطوطات ، وسائر المعلومات الأخرى ، فهى واردة فى قائمة المراجع المذكورة فى المقدمة .

(٢) انظر حاشية رقم (١) فى الصفحة التالية .

ابن طارق الراجع إلى حميد بن زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب[(١)]
وهم قبائل : ومنهم الكَوْرَانيّة[(٢)] بنو كَوران ، والهذبانية ، والبَشْنَوية ، والشاهنجانية ، والسُّرجية ، واليَزُولية ، والمهرانية ، والزرزارية ، والكيكانية ، والجاك ، واللر ، والدنبلية ، والروادية ، والدَيْسَنية ، والهكارية ، والحُميدية ، والورَكية ، والمروانية ، والجلالية ، والشنبكية ، والجُوبى . وتزعم المروانية أنها من بنى مروان بن الحكم بن أبى العاص ؛ وتزعم بعض الهكارية أنهم من ولد عتبة بن أبى سفيان صخر بن حرب . وأحياء الأكراد تكثر عن الإحصاء ، غير أنهم بجميع أحيائهم كانوا مقيمين بفارس ، فكانوا يزيدون على خمسمائة ألف بيت شَعر ، يخرج من البيت الواحد نحوُ العشرين ، وكانوا ينتجعون المراعى فى الشتاء والصيف ، وبجبال كوران ..[(٣)] .

(بقية محتويات صفحة العنوان[(٤)])

(أولا) العُمَريين (كذا) ، بمصر وأعمالها ، ينتسبون إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب .

---

(١) العبارة المبتدئة بلفظ "عمرو" فى الصفحة السابقة ، والمنتهية بكلمة "كلاب" هنا ، موجودة بهامش صفحة العنوان . وسبب ذلك سقطة كتابية من المؤلف ، تداركها هو بخطه عند مراجعة الكتاب ، وأشار إليها بعلامة بين سطور المتن للدلالة على مكانها المناسب لها . ولسخة س مملوءة بأشباه هذا الهامش ؛ فما كان منها نتيجة سقطات الكتابة ، ومتسقا مع عبارة المتن أدرج فيه ، وما كان منها تفسيرا أو شرحا لعبارة المتن ، أو كان غير متسق تماما معه ، وضع فى حاشية فى آخر الصفحة بنصه .

(٢) معظم هذه الأسماء وارد فى المراجع الثلاثة المشار إليها فى حاشية رقم ١ ، ص ١ ؛ وقد اكتفى هنا بضبط البعض الذى عنى المقريزى بضبطه . وسيحافظ دائما على ضبط المؤلف بغير تنبيه ، إلا إذا كان هناك ما يقتضى ضبطه ذلك ، أو كان خطأ فينبه إليه بعد إصلاحه . على أنه كثيرا ما يحتاج المتن إلى ضبط كلمات أخرى لزيادة التوضيح . انظر أيضا المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج٢ ، ص٢٣٢ — ٢٣٣ ، حيث بعض هذه الأسماء وارد برسم مخالف .

(٣) يلى هذا هامش تعذرت قراءته ، وهو بالزاوية الجنوبية اليسرى من الصفحة . والمقابلة بين ما كتب المقريزى هنا فى الأكراد وبين ما جاء فى المسالك والممالك لابن حوقل ، ص ١٨٦ ، يحمل على الاعتقاد بأن صاحب السلوك نقل بتصرف من ابن حوقل ، أو أنهما معا نقلا من مرجع واحد . وهذا ما ورد فى المسالك والممالك بعد ذكر فروع الأكراد : — "ويزيدون خمسمائة ألف بيت ، ويخرج من الحى الواحد ألف فارس ، وأقل من ذلك وأكثر ، ينتجعون فى الشتاء والصيف المراعى ، إلا القليل منهم على حدود الصرود .... " .

(٤) بقية محتويات صفحة العنوان هذه هوامش مبعثرة فى نواحيها بلا ترتيب ، وليس بينها وبين ما هو وارد فى متن الصفحة اتساق أو ارتباط . وأحدها تاريخى ، والباقى يظهر أنه دليل على من ملك الكتاب أو حازه أو اطلع عليه ، وقد أثبتت كلها فى الصلب تحت نظام عددى بحت (انظر الصورة الشمسية) . وفى س هوامش عدة بغير خط المؤلف سينبه إليها دائما ، أما الهوامش الواردة بخطه فليست بحاجة إلى هذه الإشارة .

قال الشريف النسابة محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب الجوهر المكنون فى القبائل والبطون : "وهم يكذبون فى ذلك لأن أنسابهم لا تتصل به ، وقد لقيتُ منهم جماعة وعرّفتهم كذبهم بطرائق علمية وغيرها ، وعلى قدر اتساع الأوقات" . [و] قال : "وأمرُ هؤلاء المنتمين إلى ولد عبد الله بن عمر يحتاج إلى دليل ، و إلا فهو قول من الأقاويل الداخلة فى الأباطيل"[1]

(ثانياً) الحمد لله ، و به أكتفى من عوادى الدهر فى نُوَبه ، أقلُّ عبيد الله تعالى محمد ابن أحمد بن إينال العلائى الدوادار الحنفى ، عامله ربه بخفى[2] لطفه الجلى والخفى[3] .

(ثالثا) بُليتُ بحظ ما ارتفع إلا اتضع ، ولا قام إلا خرّ سريعا ووقع ، ولا استوى إلا التوى ، [ولا ارتفع إلا] انحط و [هوى] ، ولا [تيسّر] إلا تعذر ، ولا تنبه إلا وعن قليل رقَدَ ، ولا نشط إلا تخبط وهبط[4] :

لعمرك ما عدمت لواء مجـد * ولا كلّ الجوادُ عن السباق

ولكنى بُليت بحـظ سوء * كما تُبلى المليحـــة بالطلاق

(رابعاً) ملكه محمد المقريزى[5] .

(خامساً) قَيْد شُدّ فى سنة ١١٣٨[6] [هـ] .

---

(١) هذا هو الهامش التاريخى وهو وارد فى الجهة اليمنى الجنوبية ، ولفظة العمريين واردة هكذا منصوبة ومشكلة .

(٢) س بخفى .

(٣) عبارة هذا الهامش مكتوبة بخط مخالف . أما محمد بن أحمد بن إينال العلائى الأصل القاهرى الحنفى ، والمولود سنة ٨٣٧ هـ (١٤٣٣ م) ، فهو أحد أبناء المماليك الذين جمعوا بين ولاية المناصب والاشتغال بالعلم . تولى وظيفة الدوادار للأمير برسباى قرا رأس نوبة النوب فى عهد السلطان الملك الأشرف قايتباى . وكان شديد العناية بقراءة النفائس من كتب العلم والتاريخ ؛ ومطالعته كتاب السلوك ، أو امتلاكه إياه وهو الأرجح ، دليل واضح على هذا . (السخاوى : الضوء اللامع : المجلد الثانى ، القسم الأول ، ص ٧ ؛ والمجلد الثالث ، القسم الثانى ، ص ٣٩٨ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢١٨) .

(٤) اعترى بعض ألفاظ هذا الهامش ما محاها ، وقد وضعت الألفاظ التى بين الأقواس المربعة على سبيل الترجيح .

(٥) هذه الجملة مكتوبة بخط مخالف . ومحمد هذا هو ابن أخى المؤلف (راجع ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٧٨) .

(٦) عبارة تركية معناها صار تقييده فى السنة المذكورة ، وهى بخط مخالف .

(سادساً) الحمد لله على نعمه ؛ أَنْهَاهُ و[كذلك ما بعده ؟] مطالعةً ، داعيا لمؤلفه بالرحمة والرضوان ، ولمالكه بالسيادة وطول العِزّ ، محمد المدعو عمر بن فهد الهاشمى ، إلى [رابعه] سنة ٨٤٦[1] .

(١) مابين الأقواس بياض تقريبا فى الأصل ، على أنه يوجد فى آخر القسم الثالث من الجزء الرابع من الضوء اللامع للسخاوى مايشبه هذه العبارة فى أسلوبها . أما محمد بن فهد الهاشمى المشهور بعمر ؛ والمذكور فى الضوء اللامع فى حرف العين ، فهو سليل أسرة مكية مجيدة ، توارثت الاشتغال بعلم الحديث . ولد عمر هذا بمكة فى سلخ جمادى الثانية سنة ٨١٢هـ (٨ نوفمبر سنة ١٤٠٩م) وتوفى بها فى ٧ رمضان سنة ٨٨٥هـ (١٠ نوفمبر سنة ١٤٨٠م) . على أنه تنقل فى مدن مصر والشام واليمن والحجاز غير مرة ، مشتغلا بالحديث والتراجم . وقد روى عنه المقريزى فى فضل البيت الحرام . أما عن سنة ٨٤٦هـ (١٤٤٢م) المدونة آخر هذه العبارة ، فإن ابن فهد كان فيها مقيما بمكة حسبما جاء فى الضوء اللامع ، ولم يأت إلى القاهرة حتى سنة ٨٥٠هـ (١٤٤٦م) . ولما كان من المقرر أن المقريزى أقام بمكة حتى سنة ٨٣٩هـ (١٤٣٥ م) فقط ، وتوفى بالقاهرة سنة ٨٤٥هـ فليس ببعيد أن كتاب السلوك حمل إلى مكة بعد ما ملكه محمد المقريزى ابن أخى المؤلف (السخاوى : الضوء اللامع ، المجلد الثالث ، القسم الثانى ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٩ .

(٢ ب) بسم الله الرحمن الرحيم الله المستعان[١]

(قل اللهم ، مالكَ الملكِ ، تؤتى الملك من تشاء[٢] ، وتنزِع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذِل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير . تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب) . فسبحان اللهِ من إلهٍ حكيم قادر ، ومليك مقتدر قاهر ، يعطى العاجزَ الحقير ، و يمنع البطل الأيِّد الكبير ، و يرفع الخامل الذليل ، ويضع ذا العز المنيع والمجد الأثيل ، ويعز المحتقر الطريد المجفوّ الشريد ، و يذل أولى الحدّ الحديد[٣] ، والعدّ والعديد ، وأر بابَ الألوية والبنود ، ومالكى أزِمَّةِ العساكر والجنود ؛ ويؤتى ملكه من لم يكن شيئاً مذكورا ، ولا عرف له أبا نبيها وجدّا مشهورا ، بل نشأ كَلًّا على مولاه وخادما لسواه ، تمجه وتشنؤه الناس ، ولا يرعاه سائر الأجناس ، لا يقدر على نفع نفسه فضلا عن الغير ، ولا يستطيع دفع ما ينزل به من مساءة وضير ، عجزا وشقاء وخمولا واختِفاء ؛ و ينزع نعت[٤] الملك ممن تهابه أسد الشرى فى غِيلها ، وتخضع لجلالته عتاة الأبطال بِقَضِّها وقَضِيضها[٥] ، وتخنع لخُنْزُوانة[٦] سلطانه حماة الكماة بجمعها وجميعها ، وتذِل لسطوته ملوكُ الجبابرة وأقيالها ، و يأتمر بأوامره[٧] العساكر الكثيرة العدد ، و يقتدى بعوائده الخلائق مدى الأبد . والحمد لله على حالتى منعه وعطائه ، وابتلائه و بلائه ، وسرائه وضرائه ، ونعمه و بأسائه ، أهلِ الثناء[٨] والمجد ، ومستحق الشكرِ والحمدِ ، (لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون) (بيده ملكوت كل شيء

---

(١) لاتوجد هذه الجملة بعد البسملة فى ب (ص٢ ب) ؛ وإنما يوجد بدلها " وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب " . (راجع التصدير) . (٢) فى س "تو تى الملك من تشا "بدون همز (راجع تصدير الطبعة الأولى).
(٣) الحد هنا البأس ، والحديد الشديد . (٤) هذه الكلمة فامضة فى س ، وليس لها وجود فى ب (ص٢ ب) .
(٥) كذا فى س ، ب (ص٢ ب) . والوارد فى معاجم اللغة قضها وقضيضها بالضاد ، والقض الحصى الصغار والقضيض الكبار ، والمعنى أنهم يخضعون جميعا . (٦) فى س لخنزوانة . وليس لهذا اللفظ بالحاء وجود فى المعاجم ، أما الخنزوانة بالخاء فمعناها الكبير كما فى المحيط فى مادة خنز . (٧) فى س بامواسره . (٨) فى س البنا .

وإليه ترجعون) ؛ ولا إله إلا الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى (لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد) ؛ والله أكبر (لا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) ، ولا تدرك من عظمته العقول إلا ما أخبر به عنه الرسل والأنبياء . وصلى الله على نبينا محمد الذى أذهب به دول أهل الشرك من الأكاسرة ، ومحا بشريعته عظماء الروم القياصرة ، وأزال بملته الأصنام والأوثان ، وأخمد بظهوره بيوت النيران ، وجمع له أسود العرب وقد كانت فى جزيرتها متفرقة ، ولم بيركته شعثها بعد ما غبرت زماناً وهى متمزقة ، (١٤) وألّف قلوبها على موالاته وطاعته ، وحبّب إليها المبادرة إلى مبايعته على الموت ومتابعته ، فتواصلوا بعد القطيعة والتدابر ، وتحابّوا فى الله كأن لم ينشأوا على البغضاء والتنافر ، حتى صاروا باتباع ملته ، والاقتداء بشريعته ، من رعاية الشاه والبعير ، إلى سياسة الجم الغفير[1] ، و بعد اقتعاد سنام الناقة والقَعود ، وملازمة بيت الشَّعر والعمود ، وأكل القيصوم والشيح ، ونزول القفر الفسيح ، إلى ارتقاء المنابر والسرير ، وتوسد الأرائك على الحرير ، وارتباط المسوّمة الجياد ، واقتناء مالا يحصى من الخدَم والعَتاد ، بما فتح الله عليهم من غنائم ملوك الأرض ، الذين أخذوهم بالقوة والقهر ، وحووا ممالكهم بتأييد الله لهم والنصر ، وأورثوها أبناءهم وأبناء أبنائهم وأحفادهم وأحفاد أحفادهم . فلما خالفوا ما جاءهم به رسولهم من الهدى ، وأحلهم الرزايا المجيحة والردى ، وسلط عليهم من رعاع الغوغاء وآحاد الدهماء من ألحقهم بعد المُلك والمُلك ، وحطّهم بعد الرفعة ، وأذلهم بعد المنعة ، وصَيّرهم من رتب الملوك إلى حالة العبد المملوك ، جزاء بما اجترحوا من السيئات ، واقترفوا من الكبائر الموبقات ، واستحلوا من الحرمات ، واستهواهم به الشيطان من اتباع الشهوات ، وليعتبرَ أولو البصائر والأفهام ، ويخشى أهل النهى مواقع نِقم الله العزيز ذى الانتقام ، لا إله إلا هو سبحانه[2] .

---

(١) فى هامش س العبارة التفسيرية الآتية : " الجم الغفير الجماعة ، أى ساسوا الناس جميعا " .

(٢) فى هامش س العبارة الآتية : " روى وكيع عن كامل أبى العلاء عن حبيب بن ثابت عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يامعشر قريش ، إن هذا الأمر لا يزال فيكم حتى تحدثوا أعمالا تخرجكم منه ، فإذا فعلتم ذلك سلط الله عليكم شر خلقه ، فالتحوكم كما يلتحى القضيب » " .

أما بعد ، فإنه لما يسر الله وله الحمد ، بإكمال كتاب عِقد جَواهر الأسفاطِ من أخبار مدينة الفسطاط[١] ، وكتاب اتعاظ الحُنَفَاء بأخبار الخُلفاء[٢] ، وهما يشتملان على ذكر مَن مَلك مصر من الأمراء والخلفاء ، وما كان فى أيامهم من الحوادث والأنباء ، منذ فتحت وإلى أن زالت الدولة الفاطمية وانقرضت ، أحْبَبتُ أن أصل ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم من الملوك الأكراد الأيوبية ، والسلاطين المماليك التركية والجركسية ، فى كتاب يحصرُ أخبارهم الشائعة ، ويستقصى أعلامهم الذائعة ، ويحوى أكثر ما فى أيامهم من الحوادث والماجريات ، غير معتنٍ فيه بالتراجم والوَفَيَات ، لأنى أفردت لها تأليفاً بديع المِثال بعيد المنال[٣] ، فألفت هذا الديوان ، وسلكت فيه التوسط بين الإكثار المُمِل والاختصار المخل ، وسميته كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . وبالله أستعين فهو المعين ، وبه أعتضِد فيما أريد وأعتمد ، فإنه حسبى ونعم الوكيل .

(٤ ب) ذكرُ ما كان عليه الكافةُ قبل قيام ملة الإسلام

اعلم أن الناس كانوا بأجمعهم ، قبل مبعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ما بين عربى وعجمى ، سبع أمم كِبارٍ هُم : الصين وهم فى جنوب مشرق الأرض ، والهند وهم فى وسط جنوب الأرض ، والسودان ولهم جنوب مغرب الأرض ، والبربر ولهم شمال مغرب الأرض ، والروم وهم فى وسط شمال الأرض ، والترك وهم فى شمال مشرق الأرض ، والفرس وهم فى وسط

(١) ليس بدار الكتب المصرية نسخة من هذا الكتاب . على أنه موجود بمكتبة الدولة ببرلين ، ضمن مجموعة خطية رقمها ٩٨٤٥ ، فى الجزء التاسع ص ٣٢٦ من كتالوج المخطوطات العربية بها . ورقم المخطوط فى هذه المجموعة ٥٦ .

(٢) طبع لأول مرة من نسخة وحيدة سنة ١٩٠٩ بالقدس الشريف . وقد كتب له ناشره هوجوبونز (Hugo Bunz) مقدمة .

(٣) يقصد المؤلف بهذا كتاب المقفى الذى أراد تأليفه فى تراجم حكام ومشهورى مصر فى ثمانين مجلدا ، ولكنه لم ينجز منه سوى ستة عشر ، ومن هذه ثلاثة بخطه محفوظة فى مكتبة ليدن بهولندة تحت رقم ١٠٣٢ ، وجزء واحد آخر منها فى باريس بالمكتبة الأهلية بالقسم العربى رقم ٢١٤٤ ؛ وربما قصد المقريزى بهذا كتاب درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة الذى لم ينجزه كذلك . غير أن هذا الكتاب الثانى كان مقصورا على تراجم المعاصرين ، والجزء الأول منه المشتمل على الأسماء من حرف الألف إلى حرف العين موجود بمكتبة مدينة جوتا (Gotha) بألمانيا تحت رقم ١٧٧١ انظر (Enc. Isl. Art : Makrizi) .

هذه الممالك ، قد أحاطت بهم هذه الأمم الست[١] . وكانت الأمم كلها فى قديم الدهر ، قبل ظهور الشرائع الدينية ، صِنفاً واحداً مُسَمَّيْنَ باسمين سمنيين[٢] وكلدانيين[٣] ؛ ثم صاروا على خمسة أديان ، وهى الصابئة ، والمجوس ، والذين أشركوا ، واليهود ، والنصارى .

فأما الصابئة فإنها التى تعبد الكواكب ، وترى أن سائر ما فى العالم السفلى المعبر عنه بالحياة الدنيا ناشىء وصادِر عن الكواكب ، وأن الشمس هى المفيضة على الكل . [وهذا الدين أقدم هذه الأديان ، وبه كان يدين أهل بابِل من الكَلْدانيين ، وإليهم بعث الله نوحاً وإبراهيم ، صلوات الله عليهما . وكانت الصابئة تتخذ التماثيل من الجواهر والمعادن على أسماء الكواكب وتعبدها ، فتُصلى إليها وتقرب لها القرابين ، وتعتقد أنها تجلب النفع وتدفع السوء . وبقيت منهم بقايا بأرض السواد من العراق وبحَرّان والرها ، أدركوا الإسلام وعرُفوا بالنبط وبالحرنانيين[٤] ، ولم يبق لهم إذ ذاك ملك منذ غلبهم فارس ، فلما كانت أيام المأمون أسقطوا عن أنفسهم اسم الكلدانيين ، وتسموا بالصابئين .

وأما المجوس فإنهم الذين يقولون بإلهين اثنين ، أحدهما فاعل الخير وهو النور ، والآخر فاعل الشر وهو الظلام ، ويقال لهم الثَنَوية أيضاً . واتخذوا لهم بيوت نيران لا تزال تَقِدُ أبدا ،

---

(١) هذا التقسيم مخالف لما تواتر فى كتب جغرافيي العرب ورياضييهم كياقوت (انظر معجم البلدان: ج ١ ، ص ٢٥ — ٣٥) . وقد اتبع المقريزى هنا التقسيم المزدكى القائم على أساس تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم يقع السابع وهو فارس والبلاد الإيرانية فى وسطها . (Blochet : Hist. d'Eg. P. 69, N. 1.) .

(٢) كذا فى س ب وهى مترجمة إلى (Samanéens) فى (Blochet : Op. cit P.60) . ويفسر هذه القاموس الفرنسى (Ora. Dict.) بأنها اسم أطلقه كتاب اليونان على بعض معتكفة الهنود تمييزا لهم عن المتريضين . وعلى هذا تكون بضم السين نسبة إلى معبد بلدة سُمنَات الذى كان قائما بشاطىء شبه جزيرة كشياوار بالهند (Enc. Isl. Art. Sūmānāt) . ولم يكن مذهب السمنيين مقصورا على الهند ، بل كانت خراسان وفارس والعراق والموصل إلى حدود الشام فى القديم على هذا المذهب ، وقد عُرف أيضاً بين المسلمين فى العصر العباسى . (أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ص ٢٤١ — ٢٤٢) . على أن هذا كله لا يوضح عبارة المقريزى ، وقد ورد فى الخوارزمى (مفاتيح العلوم ، ص ٢٥) "وكان الناس على وجه الدهر سمنيين وكلدانين ، فالسمنيون هم عبدة الأوثان ، والكلدانيون هم الذين يسمون الصابئين ..." .

(٣) فى س كلذانيين بالذال ، وقد وردت أيضا فى نفس الصفحة بالدال وهى القراءة المتواترة .

(٤) نسبة إلى بلدة حَرّان الواقعة فى الجنوب الشرقى من مدينة الرها . وقد ساق ابن النديم هذه النسبة فى كتابه (ابن النديم : كتاب الفهرست ، ص ٣١٨ ؛ والخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ٢٥) .

وكانت إلى هذه النيران صلواتهم وقرابينهم ، و يعتقدون فيها النفع والضر . وعلى هذا الاعتقاد كانت الأكاسرة ملوك فارس بالعراق . وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أيام كسرى أنو شِروان . وأزال العربُ ملكَهم فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وملكوا منهم المدائن وجلولاء وغيرها ، وقتِل يزدجِرد آخر ملوكهم فى خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ولم يقم بعده قائم من الأكاسرة ، وتمزق الفرس وذهب ملكهم إلى اليوم . وقد تقدّم فى كتاب عقد جواهر الأسفاط ذكر ملوك الفرس فراجعه .

أما الذين أشركوا فإنهم و إن وافقهم الصائبة والمجوس فى عبادة التماثيل والنار من دون الله ، فإن العرب الذين بعث الله فيهم نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم يقال لهم المشركون سِمَةً لهم ، واسما لزِمهم . وكانوا يعبدون الأصنام والأوثان والطواغيت[1] من دون الله ، فيسجدون ويصلون و يذبحون الذبائح لتماثيل عندهم ، قد اتخذوها من الحجر والخشب وغيره و يزعمون أنها تجلب لهم النفع ، وتدفع عنهم الضر . و يعتقد المشركون مع ذلك (١٥) أن الله سبحانه هو الذى خلقهم ، وهو الذى أوجدهم ثم يميتهم ، وهو الذى يرزقهم ، وأن عبادتهم للأصنام وسيلة تقربهم إلى الله سبحانه . وكانوا إذا مسهم الضر فى البحر من شدّة هبوب رياحه وعظم أمواجه ، وأشرفوا على الهلاك ، نسوا عند ذلك الأصنام التى كانوا يعبدونها ، ودعوا الله يسألونه النجاة . وقد محا الله ، وله الحمد ، بِنبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، الشركَ من العرب حتى دخلوا فى دين الله أفواجاً ، وجاهدوا فى الله حق جهادِه ، إلى أن ظهر دين الإسلام بهم على سائر الأديان ، وملكوا مشارق الأرض ومغاربها مما تطؤه الدواب ، وتمر فيه السفن . وقد ذكرنا أيضاً فى كتاب عقد جواهر الأسفاط قبائل العرب وبطونها ذِكراً شافياً فتأمله .

وأما اليهود فإنهم أتباع نبى الله موسى بن عِمران ، صلوات الله عليه ، وكِتابهم التوراة . وكلهم أبناء إبراهيم الخليل ، ويعرفون أيضاً ببنى إسرائيل ، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، صلوات الله عليهم . وكانوا اثنى عشر سِبطا وملكوا الشام بأسره إلا قليلا منه إلى أن زالت

(١) فى س الطواغيث بالثاء .

دولتهم على يد بختنصر ، ثم على يد طيطش[١] ، وجاء الله بالإسلام وليس لهم مُلك ولا دولة ، وإنما هم أمم متفرقون فى أقطار الأرض ، تحت أيدى النصارى . وقد ذكرنا أيضاً جميع ملوكهم فى كتاب عقد جواهر الأسفاط .

وأما النصارى فإنهم أتباع نبى الله المسيح عيسى بن مريم ، صلوات الله عليه ، وكتابهم الإنجيل . وجاء الله بالمسيح إلى بنى إسرائيل فكذبوه إلا طائفة منهم . ثم انتشر دينه بعد رفعه بدهر ، فدخل فيه الروم والقِبط والحبشة وطائفة من العرب ، وما زالوا على ذلك حتى جاء الله بالإسلام ، فقاتل المسلمون من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم هرقل آخر الملوك القياصرة وأتباعَه حتى ملكوا منه بلاد الشام وأرض مصر ، وأخرجوه إلى جزائر البحر . ثم قاتل المسلمون القُوطَ والجَلاَلِقَةَ[٢] ، وملكوا منهم إفريقية والأندلس وسائر بلاد المغرب ، وتابعوا الحرب والقتال للروم حتى انقضى ملكهم ، وقام من بعدهم الإفرنج . وقد ذكرنا فى كتاب عقد جواهر الأسفاط . وفى كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جملة من حروب الروم والفرنج للمسلمين . وإلى وقتنا هذا ملوك الفرنج ورعيتهم ، وملوك أكثر بلاد الحبشة ورعيتهم ، يدينون بدين النصرانية .

فهذه ، أعزك الله ، ديانات أهل الأرض عند (٥ ب) مبعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وكانت الممالك يومئذ على خمسة أقسام : مملكة فارس ويقال لمن ملك منهم كسرى ؛ ومملكة

---

(١) بختنصر واسمه فى المراجع الأوربية نبوخاد رزار (Nebuchadrezzar) ، هو ملك بابل من ٦٠٤ إلى ٥٦١ ق . م . وقد خربت جيوشه بيت المقدس عاصمة اليهود مرتين ، سنتى ٥٩٧ و ٥٨٦ ق . م . أما طيطش (Titus) فهو إمبراطور الدولة الرومانية من ٧٩ إلى ٨١م ، وكان قبل ذلك أحد القواد المهرة فى الدولة ، وعلى يديه فتح بيت المقدس سنة ٧٠ م ، فى حكم أبيه الإمبراطور فسپاسيان (Vespasian) . وقد كان طيطش وأبوه قبل أن يصبح إمبراطورا ، يشتركان فى حرب اليهود منذ أواسط القرن الأول الميلادى .

(Rappoport : History of Palestine. PP. 170, 216-218).

(٢) نسبة إلى جهات جليقية (Galicia) فى الشمالى الغربى من شبه جزيرة إيبيريا . وقد ساق هذه النسبة ياقوت فى معجم البلدان (راجع ج ١ ، ص ٣٧٦ و ج ٢ ، ص ١٩٠) . والجلالقة نسبة جغرافية إلى هذه الجهات ، أما من حيث الجنس فمعظم سكان جليقية أيام الفتح الإسلامى للأندلس هم عنصر السويفى Suevi ، وقد حلوا فيها منذ سنة ٤١١ م ، وأسسوا بها مملكة عاشت حتى سنة ٥٨٥م ، حين قضى عليها القوط ؛ فاستحالت ولاية قوطية تابعة .

(Camb. Med. Hist. Vol II, pp. 170, 259.)

الروم ويقال للملك قيصر ، وكانت الحرب لاتزال بين الروم وفارس وبيدهما أكثر المعمور ؛ ومملكة الترك وكانت ملوكهم تحارب ملوك الفرس ، ولم يكن لهم قط فيما بلغنا من أخبار الخليفة غلبة على الممالك ؛ ومملكة الهند وحسب ملوكهم ضبط ما بيدها فقط ؛ ومملكة الصين ؛ وأما بنو حام من الحبشة والزنج والبربر فلم يكن لهم ملك يعتدّ به .

ذكر القائمين بالملة الإسلامية من الخلفاء

اعلم أن الله بعث نبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، صلى الله عليه وسلم ، على رأس أربعين سنة من عمره ، فدعا قومه من قريش بمكة ثلاث عشرة سنة ، وهاجر من مكة إلى المدينة فأقام بها عشر سنين ، وتوفاه الله وعمره ثلاث وستون سنة ، وقد ذكرنا جملة سيرته فى أول كتاب عقد جواهر الأسفاط . فقام بعد وفاته ، صلى الله عليه وسلم ، بأمر الإسلام والمسلمين ، الخلفاء الراشدون مدّة ثلاثين سنة ، وعدّتهم خمسة : هم أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ، واسمه عبد الله بن عثمان أبى قُحافة مدّة سنتين وثلاثة أشهر غير خمس ليال ؛ وعمر بن الخطاب بن نُفَيْل العَدَوى مدة عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام ؛ وعثمان بن عفان بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف مدّة اثنتى عشرة سنة إلا اثنى عشر يوماً ، وقيل إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وأربعة عشر يوما ، وقيل ثمانية عشر يوماً ؛ وعلى بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم مدّة أربع سنين وتسعة أشهر وستة أيام ، وقيل ثلاثة أيام ، وقيل أربعة عشر يوماً ؛ والحسن بن على بن أبى طالب مدّة خمسة أشهر ونحو نصف شهر ، وقيل ستة أشهر ، وبه تمت أيام الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم .

وصارت الخلافة مُلكا عَضُوضاً ، أى فيه عسف وعنف ، وانتقل الأمر إلى بنى أمية . وأوّل من ولى منهم معاوية بن أبى سفيان ، واسمه صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ومدّته تسع عشرة سنة وثلاثةُ أشهر ، وقيل ثلاثة أشهر إلا أياما . وقام من بعده ابنه يزيد بن معاوية مدّة ثلاث سنين وستة أشهر ، وقيل ثمانية أشهر ، وقيل غير ذلك ، وليس بشىء . فولى بعده معاوية بن يزيد بن معاوية ثلاثة أشهر ، وقيل أربعين يوما . وقام بعد يزيد

أيضاً عبدالله بن الزبير بن العوام بن خُويلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَى بالحجاز ، وخالف عليه مروان بالشام ؛ فكانت مدّة ابن الزبير إلى أن قتل بمكة تسع سنين . وقام بعد معاوية ابن يزيد بالشام مروانُ بن الحكم بن أبى العاصى (١٦) بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف ، مدة عشرة أشهر . وقام من بعده ابنه عبدُ الملك بن مروان ، واستعمل الحجاج بن يوسف الثقفى على حرب عبد الله بن الزبير فقتله ، وأقام عبد الملك بعد قتله ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر إلا سبع ليال . وقام بعده ابنه الوليد بن عبد الملك مدّة تسع سنين وسبعة أشهر . وقام بعده أخوه سليمان بن عبد الملك سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام ، وقيل إلا خمسة أيام . وقام بعده عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم سنتين وخمسة أشهر . ثم قام بعده يزيد بن عبدالملك بن مروان مدّة أربع سنين وشهر وأيام . وقام بعده أخوه هِشام بن عبد الملك تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وواحداً[(١)] وعشرين يوما ، وقيل ثمانية أشهر ونصف . وكان قد اتخذ طِرَازاً له قَدْر ، واستكثر منه حتى كان يحمل ما اثّر[(٢)] فيه طرازه على سبعمائة جمل ، فهذه ثيابه التى لبسها ، فكيف بما كان عنده مما لم يلبسه ؟ فقام من بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ويعرف بيزيد الناقص ، مدّة سنة وثلاثة أشهر ، وقيل وشهرين واثنين وعشرين يوماً . فبويع بعده ابنه يزيد بن الوليد ، وفى أيامه اضطربت الدولة ، وولى مدّة خمسة أشهر وأياماً . فقام بعده أخوه إبراهيم بن الوليد مدّة أربعة أشهر ، وقيل سبعين يوما ، ولم يتم له أمر . وقام بعده مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، ويُعرف بمروان الجعدى وبمروان الحمار . وفى أيامه ظهرت دولة بنى العباس ، وحاربوه حتى قتلوه بأرض مصر ، وله فى الخلافة منذ بويع خمس سنين وعشرة أشهر وستة عشر يوما . وانقرضت بمقتل مروان دولة بنى أمية .

وقامت من بعدها دولة بنى العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف مدة خمسمائة سنة وثلاث وعشرين سنة وعشرة أشهر وأيام ، فيها افترقت كلمة الإسلام ، وسقط اسم العرب

---

(١) فى س واحد .

(٢) كذا فى س بهذا الضبط . وفى محيط المحيط : أثّر فى الشىء ترك فيه أثرا ، فلعل المراد هنا ما استعمله الخليفة من الثياب . وقد ترجم هذا اللفظ بمعنى آثر أى اختار فى (Blochet Op. cit. P. 67.)

من الديوان ، وأُدْخِل[1] الأتراك في الديوان ، واستولت الديلم ثم الأتراك ، وصارت لهم دول عظيمة جداً ؛ وانقسمت ممالك الأرض عدّة أقسام ، وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر . وكان أوّل من قام من خلفاء بنى العباس السفاح ، واسمه عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، مدّة أربع سنين وثمانية أشهر ويوم . وكان سريعاً إلى سفك الدماء ، سَفَكَ ألف دم فاتبعه عماله في الشرق والغرب في فعله ، وكان مع ذلك جواداً بالمال ، فاقتدى به في ذلك عماله أيضاً . ثم [وَلِىَ بعده] أخوه أبو جعفر المنصور ، واسمه أيضاً عبد الله بن على ، فأقام مدّة إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً . وهو أوّل من أوقع الفرقة بين ولد العباس وولد على بن أبى طالب ، وكان قبل ذلك أمرهم واحداً ؛ وهو أوّل خليفة قرب المنجمين ، وعمل بأحكام النجوم ؛ وأوّل خليفة ترجمت له الكتب من اللغات ؛ وأوّل من استعمل مواليه وغلمانه في أعماله ، وقدمهم على العرب ، فاقتدى به من بعده من الخلفاء ، حتى سقطت قيادات العرب ، وزالت رياستها ، وذهبت مراتبها . وكان قد نظر في العلم ، فكثرت في أيامه روايات الناس واتسعت علومهم . فقام بعده ابنه المهدى أبو عبد الله محمد [مدة] عشر سنين وشهر ونصف ؛ وكان سخياً جواداً ، فسلك الناس في ذلك مسلكه ، واتسعوا في معايشهم ؛ وأمعن في قتل الملحدين لظهورهم في أيامه ، وانتشارِ كتبهم ؛ وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدين ، فصنفت في أيامه ؛ وعمَّر مسجد مكةَ والمدينةِ والقدس ، ثم ولِى بعده ابنه الهادى بالله أبو محمد موسى سنة وثلاثة أشهر ؛ وكان جباراً ، وهو أوّل من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة ، والأعمدة المشهرة ، والقِسِى الموترة ، فاقتدى به عماله ، وكثر السلاح في محضره . فقام بعده أخوه هارون بن محمد الرشيد ، مدّة ثلاث وعشرين (٦ ب) سنة [و] شهرين وثمانية عشر يوماً ، وقيل وشهر وستة عشر يوماً ؛ وكان مواظباً على الحج ، متابعاً للغزو ، واتخذ المصانع[2] والآبار والبرك والقصور بطريق مكة ، وبمكة ومنى وعرفات والمدينة النبوية ،

---

(١) في س ادحل بالحاء المهملة وبغير ضبط ، وفي محيط المحيط : دحل وأدحل دخل في الدحل وهو النقب الذى فيه ضيق وجوفه متسع .

(٢) جمع مصنع وهو كالحوض يجمع فيه ماء المطر . والمصانع أيضا القرى والمبانى من القصور والحصون (محيط المحيط) .

وعمّ الناس إحسانه وعدله ؛ وبنى الثغور ، ومدّن المدن ، وحصن فيها الحصون ، مثل طرسوس وأذنة[١] ؛ وعَمَر المصيصة ومرعش وغير ذلك ، فاقتدى الناس به . وهو أوّل خليفة لعب بالصوالجة فى الميدان ، ورمى بالنشاب[٢] فى البرجاس ، ولعب بالكرة ، ولعب بالشِّطرنج ، وقرّب أرباب هذه الأمور ، وأجرى لهم الأرزاق ، فاقتدى به الناس . وكانت أيامه كأنها من حسنها أعراس . فبويع بعده ابنه الأمين محمد بن هارون ، وأقام أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام ، فقدّم الخدم ، ورفع منازلهم ، وشُغِف بهم ، فاتخذت له أمه الجوارى الغُلاميّات[٣] فاتخذ الناس فى أيامه [ذلك] . فقام مِن بعد أخوه المأمون عبد الله بن هارون ، مدّة اثنتين وعشرين سنة منذ سُلِّم عليه بالخلافة ، ومدّةَ عشرين سنة و خمسة أشهر وثلاثة أيام ، وقيل وخمسة وعشرين يوماً ، بعد قتل أخيه ، وكان أولا ينظر فى أحكام النجوم ويعمل بموجبها ، ويكثر النظر فى كتب القدماء من الحكماء ؛ فلما قدم بغداد أعرض عن ذلك كله ، وقال بأقوال المعتزلة ، وقرّب أرباب العلوم ، وطلبهم من الآفاق ، وأجرى عليهم الأرزاق ، فرغب الناس فى العلوم الجدلية ، وصنف كل أحد فيها ما ينصر به مذهبه ، وكان كريماً عفوّاً ، فاقتدى الناس به فى أحواله كلها : وقام بعد المأمون أخوه المعتصم بالله أبو إسحاق محمد ابن هارون ، مدّة ثمانى سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ، وهو أوّل من أدخل الأتراك الديوان ، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وكان يغلب عليه الفروسية ، ويتشبه بالعجم فى عامة أحواله[٤] ... وقام من بعده ابنه الواثق بالله أبو جعفر هارون بن محمد ، مدّة خمس سنين وتسعة أشهر وستة أيام . وفى أيامه كانت المحنة[٥] ؛ وكان كثير الأكل ، واسع الطعام . فقام من بعده المتوكل على الله جعفر بن المعتصم ، مدّة أربع عشرة سنة وتسعةِ أشهر وثمانية أيام ؛

---

(١) فى س "واذ" ، وباقى الحروف غير ظاهر . (٢) فى س بالنساب .

(٣) كذا فى س ، ب (ص ١٦) . والغُلاَميّات الجوارى يَلْبَسْنَ لباس الغلمان . (Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٤) بقية هذه العبارة لم تتيسر قراءتها تماما . على أنه من المحتمل أن تقرأ هكذا "وكان لهم إلف به ، فكثروا فى ... " .

(٥) يشير المؤلف هنا إلى محنة خَلْق القرآن ، التى اشتدّ أوارها فى عصر المأمون والمعتصم والواثق ، والتى كان من ضحاياها فى عهد الواثق أحمد بن نصر (راجع الطبرى . تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ، ص ١٣٤٣ — ١٣٥٠) .

وقتله الأتراك ، وتحكموا من حينئذ فى ممالك الدنيا[1] ، وهو الذى رفع المحنة ، ونهى عن الجدل وعاقب عليه ، وأمر بإظهار رواية الحديث . وأقاموا بعده ابنه المنتصر محمد بن جعفر ، فمات بعد ستة أشهر تنقص أياما . وأقيم بعده المستعين بالله أحمد بن محمد المعتصم ، فأقام ثلاث سنين وثمانية أشهر وثمانية وعشرين يوماً ، وخلعه الأتراك وعذبوه ، ثم قتلوه بعد تسعة أشهر من خلعه . والمستعين أول من أحدث لبس الكمام[2] الواسعة ، فجعل عرضها نحو ثلاثة أشبار ، وصغّر القلانس وكانت قبله طوالا . وأقيم بعده المعتز بالله محمد بن المتوكل ، ثم خلعه الأتراك وعذبوه بالضرب حتى مات ، فكانت خلافته مدّة ثلاث سنين وستة أشهر وواحد[3] وعشرين [يوما] ، وقيل وأربعة وعشرين يوما . وهو أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب — وكان مَن قبله مِن خلفاء بنى أمية و بنى العباس يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة فى المناطق — واتخاذ السيوف والسروج واللُّجُم ؛ فلما ركب المعتز بحلية الذهب تبعه الناس فى فعل ذلك . وأقيم بعده المهتدى بالله محمد بن الواثق ، ثم قتله الأتراك بعد أحد عشر شهراً وتسعة عشر يوما ، وأقيم بعده المعتمد بالله أحمد بن المتوكل ، فغلبه الأتراك ، واستبد عليه أخوه الموفق بالله أبو أحمد طلحة ؛ وخرج فى أيامه صاحب الزنج[4] ، فحاربه الموفق أعواماً كثيرة . ثم مات [الموفق] بعد قتلِه صاحب الزنج ، فاختلت أمور المعتمِد وقُتِل ، وكانت مدّته اثنتين وعشرين سنة وأحدعشرشهراً وخمسةعشر يوماً . وهو أوّل خليفة قُهر وحجر عليه ووكِّل به . فقام مِن بعدِه المعتضد أحمد بن الموفق طلحة واستبدّ بالأمر ؛ وخرجت القرامطة فى أيامه ، ومات وله فى الخلافة مدة عشر سنين وتسعة أشهر وثلاثة أيام ، وقيل تسع سنين وسبعة

(١) إزا هـذه العبارة فى س هامش على ورقة منفصلة ، وهو يشتمل على آراء متعددة فى أصل بنى بُويه . ويظهر أن لاصقَ هذه الورقة قصد أن يضعها تجاه ما ورد فى الكتاب عن دولة بنى بويه ، ولهذا الاحتمال أُرجِئ إيراد هذا الهامش حتى يجىء ما فى صلب الكتاب عن هذه الدولة (انظر ص ٢٣) .

(٢) " الكِمَام جمع كُمَّة وهى نوع من القلانس " . عن هامش بهذا الضبط فى س .

(٣) فى س واحد .

(٤) أطلقت هذه التسمية على زعيم تلك الثورة العلوية ، وهو على بن محمد بن عبد الرحيم ، لأنه " جمع إليه الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ " بالبصرة (راجع الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ، ص ١٧٤٣ — ٢١٠٣) .

أشهر واثنين وعشرين يوما . ولما مات كفن فى ثو بين قيمتهما ستة عشر قيراطاً . فولى بعده ابنه المكتفى بالله علىّ ، وجدّ فى حرب القرامطة وهزمهم ، وأزال دولة بنى طولون من مصر والشام ، ومات وله مدّة ست سنين وستة أشهر وستة عشر [يوماً] ، وقيل تسعة عشر يوما . فأقيم من بعده أخوه المقتدر بالله جعفر ابن المعتضد ، وعمره ثلاث عشرة سنة وشهران[١] وثلاثة أيام ، لم يبلغ الحُلُم . (١٧) وهو أوّل من ولى الخلافة من الصبيان ، فغلبت على أموره النساء والخصيان ، وأكثر من قتل الوزراء وتغييرهم ، فاضطربت عليه الأمور ، فلم يقم غير أربعة أشهر . وخُلع بعبد الله بن المعتز ، ثم قُتل ابن المعتز بعد يوم وليلة . وأُعيد[٢] المقتدر ، وخرجت القرامطة فى أيامه ، وأخذوا الحجر الأسود من الكعبة إلى بلادهم ؛ وخرج عليه أيضاً الديلم ؛ وظهر عبيد الله المهدى بإفريقية ودعا لنفسه ، وقطع دعوة بنى العباس من بلاد المغرب وبرقة . ثم إن المقتدر خُلِعَ مرة ثانية ، وأقيم بدلَه القاهر بالله محمد ابن المعتضد . ثم أعيد المقتدر ، وغلب عليه أصحاب الدواوين ، ولم يجعلوا له أمراً ينفذ ، وصارت ثُمَل[٣] القهرمانة إحدى جواريه تجلس للمظالم ، ويحضرها الوزراء والقضاة والفقهاء . وفى أيامه انقطع الحج ، وكثر الهزل والمجون ، وآخر أمره أنه قتل بعد ما أقام فى الخلافة أربعاً وعشرين سنة وشهرين وعشرة أيام ، وقيل وأحد عشر شهراً وأربعة عشر يوما ، عندما خرج على الجند وقد شَغَبوا وهو متشح بالبردة النبوية ، فقتل وتلوثت بالدم . فقام من بعده القاهر بالله محمد بن المعتضد ، ثم خُلع وكُحل بمسمار ، وقد حُمى فى النار مرتين ، حتى سالت عيناه بعد سنة وستة أشهر وثمانية أيام . وآل أمره أن كان يقوم يوم الجمعة بالجامع ، ويسأل الناس فيقول : " يا معاشر الناس ، أنا بالأمس كنت خليفتكم ، واليوم أسألكم ما فى أيديكم " فيُتَصدّق عليه وقام من بعده فى الخلافة الراضى بالله محمد بن المقتدر ، وفى أيامه استولى الروم على عامة الثغور ؛ وكان مغلوباً عليه مع مواليه ، لا يقدر على شىء ، ومات بعد ست سنين وعشرة أشهر وعشرة

(١) فى س وشهرين . (٢) فى س " واستمر " .

(٣) ضبط هذا الاسم هكذا نقلا عن ناشر ابن مسكويه (القسم الأخير من كتاب تجارب الأمم ، ج ١ ، ص ٨٤) . راجع أيضا الجزء الأول من الترجمة الإنجليزية للكتاب عينه ، ص ٩٣ ، حيث يرد اسم هذه القهرمانة مترجما (Thumal) .

أيام ، وقيل وتسعة أيام من خلافته . والراضى آخر خليفة له شعر مدوّن ، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش والأموال ، وآخر خليفة بَنَى ، وآخر خليفة خَطَب يوم جمعة ، وآخر خليفة جالس الندماء ، ووصل إليه العدماء(١) ، وآخر خليفة كانت نفقته وجوائزه ، وعطاياه وخدمه ، وجراياته وخزائنه ، ومطابخه وشرابه ، ومجالسه وحجابه وأموره ، جاريةً على ترتيب الخلافة الأول ، وآخر خليفة سافر بزى الخلفاء القدماء ، وقد سافر بعده المتقى والطائع . ثم قام بعده أخوه المتقى لله ابراهيم بن المقتدر ، وكان خيّراً عابداً ؛ وفى أيامه تغلب بنو حمدان على الجزيرة والشام ، وكثر الاختلافُ عليه ، فخلعه تُوزُون التركى ، وكحله كما كحل القاهر ، ثم حبسه مع القاهر وهما مكحولان ، فقال القاهر :

صرتُ وإبراهيم نَخَّىْ عمى لا بد للنَّخّيْن من صَدْرِ(٢)
ما دام توزون له إمرة مطاعة فالميـــل فى الجَمْرِ

وكان ذلك بعد ثلاث سنين وأحد عشر شهراً ، ومات بعدُ خلعه بخمس وعشرين سنة . وقام من بعده لما خُلِع ، المستكفى(٣) بالله عبدُ الله بن المكتفى ، فاستولت الديلم على البلاد ، ووقع الاختلاف عليه ، فقُبِض وكُحل على يد معز الدولة أحمد بن بويه ، فكانت أيامه سنة وأربعة أشهر ويومين . وأقيم من بعده المطيع لله الفضل بن المقتدر ، فأقام تسعاً(٤) وعشرين سنة وأربعة أشهر وواحداً(٥) وعشرين يوماً ، ليس له سوى الاسم ، والمدبر للأمور معز الدولة ، و[قد] فَرَض لنفقة المطيع فى كل يوم مائتى دينار . وفى أيامه قدمت عساكر المعز لدين الله أبى تميم معد إلى مصر ، وانقطعت الدعوة العباسية من مصر والشام . وأقام [المطيع] إلى أن خلع نفسه ، وأقام ابنه الطائع لله عبد الكريم ، فمكث [الطائع] سبع عشرة سنة وتسعة أشهر

---

(١) فى س الندما .

(٢) النخّة والنُّخّة البَقَر العوامل والحُمُر ؛ وأما الصَّدر فهو مصدر من صَدَر ، فيقال صدر فلان بعيره أى شَدَّ حبلا من حزامه إلى ما وراء الكركرة (محيط المحيط) .

(٣) يلى هذا هامش فى س ، ولما لم تستقم عبارته تماما مع المتن رؤى إيرادُه هنا وهو : " فطَلَبَ [المستكفى] الفضلَ بن المقتدر لما بينهما من العداوة ، ففر [الفضل] إلى أحمد بن بويه ، فآواه إلى أن مات توزون ، [ثم] قدم به بغداد . وكان المستكفى يتظاهر بالتشيع وموالاة على بن أبى طالب ، وقد كُحل أيضا ، فكمُل صَدْر النخّين الذى قال القاهر فى شعره " .

(٤) فى س تسعة . (٥) فى س واحد وعسرن .

وستة أيام محكوماً عليه ببنى بُوَيه ، ثم خُلِع وحبِس فقيراً ذليلا حتى مات . وكان[الطائع] كثير الانحراف على آل على بن أبى طالب ، وسقطت الهيبة فى أيامه حتى هجاه الشعراء وطوّلوا . وقام من بعده القادر (٧ ب) بالله أحمد بن إسحاق بن المقتدر ، فأقام إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر ، وقيل ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً ، وكان ديناً[(١)] باراً [بأهله][(٢)] وبالطالبيين . وفى أيامه عظمت الديلم والباطنية ، واشتهر مذهب الاعتزال ، ومذاهب الباطنية والرافضة ، وانتشر ذلك فى الأرض . وفى أيامه ظهر السلطان يمين الدولة محمود بن سُبُكْتَكين[(٣)] ، وغزا الهند . وقام من بعده ابنه القائم بأمر الله عبدالله، فثار عليه أرسلان البَساسِيرى[(٤)] ، وصار يُدْعَى له على منابر العراق والأهواز ، فكتب القائم إلى السلطان طُغْرلبك بن ميكائيل[(٥)] بن سلجوق التركمانى ، وأول ملوك بنى سلجوق ، فقدم بغداد وفرّ منه البساسيرى بمن معه من الأتراك ، وانتمى إلى المستنصر بالله مَعَد بن الظاهر الفاطمى صاحب مصر ، فأمدّه بالأموال حتى أخذ بغداد ، وقطع منها دعوة بنى العباس ، وخطَب للمستنصر بها نحو سنة ، والقائم محبوس . ثم قدم طغرلبك وأعاد القائم إلى الخلافة ، وقتل البساسيرى ، وتحكم فى سائر الأمور ، فلم يزل القائم فى الخلافة حتى مات ، وله مدّة أربع وأربعين سنة وثمانية أشهر . وكان دينًا خيِّرًا كثير الصلاة ، إلا أنه كان كثير الإصغاء إلى من يشير عليه . فاتفق أن وَزَرَله رجل من سوقة بغداد يعرف بابن المسلمة[(٦)] ، فحسّن له مجئ الغُزّ ، لأنه كان منحرفاً عن الشيعة ،

---

(١) يمكن قراءة هذه الكلمة فى س " أديبا " ، وقد اعتبرها كاتب نسخة ب هكذا (ص ١٨) . غير أن التدين هو الصفة التى امتاز بها القادر من معظم العباسيين ، فقد جاء فيه " أنه سلك من طريق الزهد والورع ما تقدمت فيه خطاه . فكان راهب بنى العباس حقا وزاهدهم صدقا ، ساس الدنيا والدين ، وأغاث الإسلام والمسلمين " . انظر الروذْرَاوَرَى : ذيل كتاب تجارب الأمم ، ص ٢٠٧) .

(٢) ليست موجودة فى س ، ولكنها فى ب (ص ١٨) .

(٣) هكذا ضبطها مارجليوث فى ترجمته لكتاب ابن مسكويه (القسم الأخير من كتاب الأمم ، ج ٢ من الترجمة ، ص ١٢٠ ، وكذلك الفهرس فى مادة (Sabuktakin) . أما فى س فهى سُبُكْتُكِين بهذا الضبط .

(٤) فى س الفساسيرى وأحيانا بلا نقطة على الفين (راجع ابن الأثير . الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٩٨) .

(٥) هكذا ورد فى ابن الأثير (نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٤١١) ، وهو فى س ميكال .

(٦) فى س « ابن السلة » بغير ضبط ، وقد نقلها كاتب نسخة ب بتاء مفتوحة (ص ١٨) ، والصحيح ما هنا . انظر ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٨ ، ص ٢٠٠ .

فكاتبهم القائم ، فلما جاءوا كان من أمرهم وأمر البساسيرى ما كان . وقام مِن بعده المقتدى بأمر الله عبد الله بن ذخيرة الدين محمد بن القائم ، فلم يكن له سوى الاسم ، لا يتعدّى حكمه بابه ، والتدبير إلى مَلِك شاه بن عضد الدولة ، وأقام على ذلك تسع عشرة سنة وثمانية أشهر غير يومين ، وقيل إلا خمسة أيام . وأقيم بعده ابنه المستظهر بالله أحمد ، فأقام محكوماً عليه خمساً وعشرين سنة ، وقيل أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وواحداً وعشرين(١) يوما ، ومات . وفى أيامه أخذ الفرنج بيت المقدس من المسلمين ، واستمر ملكهم(٢) به . وقام مِن بعده ابنه المسْتَرشد بالله الفضل بن أحمد ، وقُتِل بعد سبع عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوما . فقام بعده ابنه الراشد بالله منصور ، وخُلِع ثم قُتِل ، فكانت خلافته سنة تنقص عشرة أيام . وبويع [قبل ذلك] المقتفى لأمر الله محمد بن المستظهِر ، فصفت له الدنيا ، وسعد بوزيره عونِ الدين يحيى بن محمد بن هُبَيْرَة ، وقَبَض على جماعة من المتغلبين ، وخرج بنفسه وحارب من ناوأه ، وأقام أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وواحداً وعشرين(٣) يوما . فبويع [بعده] ابنه المستنجد بالله يوسف ، وأقام إحدى عشرة سنة وشهراً واحداً ، ومات . فبويع [بعده] ابنه المستضيء بأمر الله الحسن ، وفى أيامه أعيدت الخطبة العباسية بالقاهرة ومصر ، بعد انقطاعها مائتين وخمس عشرة سنة ، على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى الكردى ، (١٨) ومات [المستضيء] بعد عشر سنين تنقص أربعة أشهر . فقام بعده ابنه الناصر لدين الله أحمد ، مدّة ست وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوما ، وفى أيامه ابتدأ ظهور جِنْكِزخان . ورؤى [الناصر] مرة وعليه [قباء] أبيض برسوم [ذهب] فيه ، وعلى [رأسه] قلنسوة مذهبة مطوّقة بوبر أسود من فَنَك أو نحوه يتشبه [بزىّ] الأتراك(٤) . وقام من بعده

(١) فى س واحد وعشرين .

(٢) يشير المؤلف إلى ابتداء الحروب الصليبية ، والتى تتوجت بفتح المسيحيين لبيت القدس فى ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢ ﻫ ، الموافق ١٥ يوليه سنة ١٠٩٩ م .

(٣) فى س واحد وعشرين .

(٤) هذه العبارة كلها من أول "ورؤى" إلى كلمة "الأتراك" موجودة بهامش فى س ، بالزاوية اليمنى العليا من الصفحة ، وبعض ألفاظها ضائع ، ولا يدل على بعضها الآخر سوى الحرف الأول . غير أن نسخة ب (ص ٨ ب) تحوى العبارة كاملة ، ما عدا كلمة "الناصر" التى أضيفت هنا للإيضاح . أما الفنك فحيوان فروته ثمينة ، قيل هو نوع من نوع من جراء الثعلب التركى . انظر زكريا الأنصارى : شرح المنهج ، ج ٥ ، ص ٢٧١) . والعبارة كلها مستمدة فيما يبدو من ابن جبير : حيث يوجد وصف طويل لقصر الخلافة ، وشخص الخليفة ، وأهل بغداد

ابنه الظاهر بأمر الله محمد ، فأقام تسعة أشهر وأربعة عشر يوما ، ومات . فقام بعده ابنه المستنصر بالله أبو جعفر المنصور مدّة سبع عشرة سنة غير شهر ، وقيل خمس عشرة سنة وأحدعشر شهراً وخمسة أيام ؛ وفى أيامه قصد التتار[1] بغداد ، فاستخدم [لحربهم] العساكر ، حتى بلغت عدتها نحو مائة ألف . وقام من بعده ابنه المستعصم بالله عبد الله ، فجمع الأموال ، وقطع كثيراً من العساكر ، فقدم التتار بغداد ، وقتلوه فى سادس صفر سنة ست وخمسين وستمائة ، وله فى الخلافة خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وستة أيام : وانقرضت دولة بنى العباس بزواله ، وصار الناس بغير خليفة إلى سنة تسع وخمسين [وستمائة] . فأقيم [فى تلك السنة] خليفة بمصر قدم إليها من بغداد ، لُقِّبَ بالمستنصر بالله أحمد بن الظاهر بن الناصر ، وسار يريد بغداد فحاربه التتار وقتلوه ، قبل أن تتم له سنة منذ بويع بمصر . فصار من بعده ملوك مصر الأتراك يقيمون رجلا يسمونه الخليفة ، ويلقبونه بلقب الخلفاء ، وليس له أمر ولا نهى ولا نفوذ كلمة ، بل يتردد إلى أبواب الأمراء وأعيان الكتاب والقضاة ، لتهنئتهم بالأعياد والشهور ، وسيأتى ذكرهم إن شاء الله .

---

(١) كذا فى س بغير ضبط . ويكتب المؤلف هذا الاسم فى سائر هذا الجزء أحيانا بالرسم الوارد هنا ، وأحيانا " التتر " بغير ضبط أيضا ، وأحيانا أخرى " الططر " ؛ هذا ولاسم " التتر " رسم ثالث هو " التاتار " ، ولكنه غير وارد فى هذا الجزء من الكتاب ، وكلها أسماء لمسمى واحد . (Enc. Isl. Art. Tatar) .

ذكر دولة بنى بُوَيْه الديلم(١)

ويقال فى أصل الديلم إن باسل(٢) بن ضبة أدّ بن طابخة بن إليـاس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان خرج مغاضباً لأبيه ، فوقع فى أرض الديلم ، فتزوج امرأة من العجم ، فولدت له ديلم بن باسل فهو أبو الديلم كلهم(٣) . وهم أفخاذ وعشائر ، ومنهم ملوك بنى بُوَيه . وكان سبب ظهورهم أن الحسن بن على بن الحسن بن زيد بن عمر بن على بن الحسين بن على بن

---

(١) الديلم تسمية جغرافية للصقع الجبلى من بلاد جيلان ، الواقعة فى الجنوبى الغربى من بحر قزوين ، ويحده فى شماله جيلان نفسها ، وفى شرقه طبرستان المعروفة أيضا بمازندارن ، وفى جنوبه جهات قزوين ، وفى غربه آذربيجان . والديلم أيضا تسمية جنسية لمن يسكن هذا الصقع ، غير أن بنى بويه ليسوا من الجنس الديلمى ، بل هم فرس " نسبوا إلى الديلم حيث طال مقامهم ببلادهم " . (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ٩٧) و (Enc. Isl. Arts. Dailam and Būyids) . ويوجد هامش فى س على ورقة منفصلة بين الصفحتين ٦ ب و ٧ ا يشتمل على بعض الروايات فى أصل بنى بويه ، وهذا نصه . " ذكر أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى ، أن أبا إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى ذكر كتابه ، الذى سماه التاجى أن بويه هو ابن فناخسرو (فى س فناخسره) بن تمان بن كومى بن شوزيل الأصغر بن شيركذه بن شيرزيل الأكبر بن شيران شاه بن شيرفنه بن سنان شاه بن سسن خرة بن شوزيل بن سسناذد بن بهرام جور [الملك] . وذكر أبو الحسن بن على بن نانا فى كتابه ، الذى اختصر فيه أخبارهم ، أنه بويه بن فناخسرو بن تمان ؛ ثم قال بعضهم تمان بن كومى بن شيرزيل الأصغر ، وأنكر بعضهم كومى فقالوا شيرزيل الأكبر بن شيران شاه بن شيرفنه بن سسنان شاه بن سسن خره بن شوزيل (فى س خيره بن شوزيل) ابن سستاذر بن بهرام جور ؛ ثم اختلفوا فى بهرام ، فمن نسبهم إلى الفرس قال هو بهرام جور وساق النسب ، ومن نسبهم إلى العرب قال هو بهرام بن الضحاك بن الأبيض بن معاوية بن الديلم بن باسل بن ضبة بن أدّ . وذكر فى جملة الآباء لا هو بن الديلم بن باسل ، فقالوا وبهذا الاسم يسمى ولده لياهج . قال أبو الريحان [البيرونى] : أول من عرف من هذه القبيلة هو بويه بن فناخسرو وليست تلك الأمم معروفة بحفظ الأنساب ، ولا مذكورة بأنها كانت تعرف ذلك من قبل انتقال الدولة إليهم " . ويظهر أن المقريزى نقل هذا كله حرفيا ، باختصار طفيف فى العبارة الأخيرة فقط ، من كتاب الآثار الباقية للبيرونى (انظر منه ص ٣٨) . وقد نشر هذا الكتاب الدكتور أدوارد زخاو (Eduard Sachau) ، ونشره هو ثانيا مترجما إلى الإنجليزية ، وقد استعملت النسختان لتصحيح أسماء الأعلام وتحقيق العبارة كلها (انظر الترجمة الإنجليزية ، ص ٤٥) .

(٢) فى س باسل بثلاث نقط تحت السين . وفى نسخة س كلمات متنوعة منقوطة سينها هكذا أحيانا .

(٣) هنا حاشية تفسيرية على ورقة منفصلة بين الصفحتين ٧ ب ، ٨ ا . وهذا نصها ما عدا ما بين القوسين المستديرين فى آخرها ، فإنه أضيف للتوضيح اللازم : — " يقال ولد ضبة بن أد بن طابخة سعد بن ضبة ، وسعيد بن ضبة ، وباسل بن ضبة ، وهو أبو الديلم فيما يقال . قال هشام بن محمد الكلبى : حدثنى أبى قال : خرج باسل مغاضبا لأبيه ، فتزوج امرأة من العجم فولدت له ، فيقال إن الديلم ولد باسل هذا ، وهم ينسبون إليه . وقال غير ابن الكلبى : وقع بين باسل وبين أخيه سعد شر ، فاقتتلا فغضب [باسل] ووقع بالديلم ، فعظمه أهلها حتى عبدوا رجله إلى أن ذهبت الرجل ، وجعلوا له مثالا من طين فعبدوه ، فبعض من الديلم من ولده . (ومعنى " عضب " هو أنه قطعت رجله ، وهى واردة فى س بغير نقط ما خلا نقطة الضاد) .

أبى طالب الزيدى الأطروش[1] دخل الديلم، وأقام نحو أربع عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام، ويقتصر منهم على العُشر، ويدافع عنهم، فأسلم منهم خلق كثير، وتلقب بالناصر للحق، واجتمعوا عليه، وبَنَى فى بلادهم مساجد، وحثَّهم على الخروج معه إلى طبرستان حتى أجابوه، وقاتل [بهم] أبا العباس محمد بن إبراهيم صعلوك وهزمه، وقتل من أصحابه سبعة آلاف، وعاد إلى آمُل[2] ظافراً، واستولى على طبرستان فى جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثمائة، وعاد (٨ ب) إلى بغداد. ومات الناصر — بعد [أن] ملك طبرستان ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأياما — فى شعبان سنة أربع وثلاثمائة، وله تسع وسبعون سنة. فبقيت بعده طبرستان فى أيدى العلوية اثنتى عشرة سنة، ثم انتقلت عنهم إلى أمراء الديلم. ولما مات الناصر ولى ابنه أبو الحسين، فقدم جرجان وأقام بها، وصاحبُ جيشه سُرخاب بن وهسوذان[3]، فكانت له حروب وأنباء مع عساكر السعيد نصر بن أحمد صاحب خراسان إلى أن مات سرخاب. فاستخلف أبو الحسين ابن الناصر بعده ما كان بن كالى[4] على أستراباذ[5]، فاجتمع إليه الديلم، وقدّموه وأمروه على أنفسهم، فكانت له بتلك النواحى أخبار كثيرة إلى أن قوى أبو الحجاج مَرْدَاوِيجْ بن زِيار، وقيل — مرداويج بن قانيج[6] — الجيلى[7] الديلمى، وملك جرجان وغيرها من ما كان، وعاد إلى أصفهان ظافراً. ودامت الحرب بينهما عدة سنين، فقوى مرداويج واستولى على بلد الجبل[8] والرّى، وأتته الديلم من كل ناحية، فعظمت جيوشه. وكان من الديلم رجل يقال له بُوَيه، وكنيته أبو شجا؛ متوسط الحال؛ وله ثلاثة أولاد: أبو الحسَين على أكبرهم؛ وأبو على

(١) لم يذكر ابن الأثير اسم زيد بين آباء الحسن هذا (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٨، ص ٦٠).

(٢) مضبوطة هكذا فى س، وكذلك فى ياقوت (معجم البلدان، ج ١، ص ٦٨) وتسمى هذه المدينة الكبيرة آمل طبرستان، تمييزا لها من آمل جيحون، المعروفة باسم آمل الشط أيضا.

(٣) فى س سرخاب بن بهشودان، بغير ضبط. ولم يضبط ابن الأثير من الاسمين سوى السين بالضم فى سرخاب (ابن الأثير: نفس المرجع، ج ٨، ص ٩٦).

(٤) هو ابن عم سرخاب بن وهسوذان (ابن الأثير: نفس المرجع، ج ٨، ص ٩٦).

(٥) فى س استراباد. (٦) هذا الاسم غير واضح تماما فى س، وهو وارد فى ب (ص١٩) كما أثبت هنا. وقد روجع ابن الأثير وابن اسفنديار وابن مسكويه والبيرونى و (Enc. Isl. Art Mardāwidj) لتحقيقه فلم يوجد فيها. أما (Blochet : Op. cit. P. 78) فقد ترجم هذا الاسم الى (Kafidj) مع التشكك. (٧) نسبة إلى بلاد الجيل أو جيلان. (٨) فى س الجيل (راجع ابن الأثير: نفس المرجع، ج ٢٨، ص ١٦٧) و (Enc. Isl. Art. Mardāwidj).

الحسن أوسطهم ، وأبو الحسين أحمد أصغرهم . وكان ينتسب إلى الفُرس ، ويزعم أنه أبو شجاع بويه بن فنا خسرو[١] بن تمان[٢] بن كوهى بن شيرزيل الأصغر بن شيركذة[٣] بن شيرزيل الأكبر بن شيران شاه بن شيرويه بن سسناذر شاه بن سيس فيروز بن شيروزيل بن سسناذر[٤] ابن بهرام جور الملك بن يزدجرد الملك[٥] . فبنو بويه من قبيلة من قبائل الديلم يقال لها شيرزيل أونداذه[٦] . ثم إن أبا شجاع بويه رأى فى منامه كأنه يبول ، فخرج من ذكره نار عظيمة استطالت وعلت حتى كادت تبلغ السماء ، ثم انفرجت فصارت ثلاث شعب ، وتولد من تلك الشعب عدّة شعب ، فأضاءت الدنيا بتلك النيران ، ورأى البلاد والعباد خاضعين لتلك النيران . فقصه على منجم ، فقال له : " إنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ومن عليها ، ويعلو ذكرهم فى الآفاق كما علت تلك النار ، ويولد لهم جماعة ملوك بقدر ما رأيت من تلك الشعب " . فقال له أبو شجاع : " أتسخر بى وأنا رجل فقير ، وأولادى هؤلاء فقراء مساكين يصيرون ملوكا ؟ " فقال المنجم : " أخبرنى بوقت ميلادهم " فأخبره ، فجعل يحسب ، ثم قبض على يد أبى الحسن على الذى لقب بعد ذلك عِماد الدولة فقبلها ، وقال : " هذا والله يملك البلاد ، ثم هذا من بعده " ، وقبض على يد أخيه أبى علىّ الحسن ، الذى لُقِّب بعد ذلك ركن الدولة " ثم هذا " ، وقبض على يد أخيهما أبى الحسين أحمد ، الذى لقب معز الدولة . فاغتاظ منه أبو شجاع وقال لأولاده : " اصفعوا هذا فقد أفرط فى السخرية بنا " ، فصفعوه وهو

(١) فى س فناخسره ، مضبوطة .

(٢) كتب المؤلف هـذا الاسم " اتمام " ، ولعله اتبع فى ذلك ابن الأثير الذى كتبه " تمام " ، (راجع حاشية رقم ٥) ثم أصلحه إلى ما هو وارد هنا .

(٣) ورد " شيركنده " فى ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٩٧) .

(٤) فى س سستاذر فى المرتين ، وكذلك فيزور بالزاى قبل الواو ، وفى ابن الأثير (نفس المرجع والصفحة) " سشتان شاه ابن سيس فيروز من شيروز يل بن سنباد بن بهرام جور الملك بن يزد جرد الملك ... ... " .

(٥) تقدمت هـذه النسبة الطويلة فى ص ٢٣ حاشيـة رقم ١ ، مضبوطة على البيرونى المنقولة عنه فراجعها ، غير أن هناك اختلافا جوهريا بين ما هو وارد هنا وبين النص السابق ، ويظهر أن هذا الخلاف ناشىء عن اعتماد المقريزى هنا على مرجع آخر لعله ابن الأثير . وقد قوبل هـنا عليه فلوحظ اختلاف فى بعض الأسماء نبه إليه (راجع ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١٩٧) .

(٦) كذا فى س ، وهى بالراء بدل الزاى فى ب (ص ٩ ب) . وهى مترجمة إلى (Ondarah) فى (Blochet : Op. cit. P. 76) .

يستغيث (١٩) وهم يضحكون منه ، ثم أمسكوا . فقال لهم [المنجم] : " اذكروا لى هذا إذا قصدتكم وأنتم ملوك " ، وأعطاه أبو شجاع عشرة دراهم . فلما خرج الديلم مع ما كان ابن كالى كان أولاد أبى شجاع من جملة قواده ، إلى أن استولى مرداويج على ما بيد ما كان من طبرستان وجرجان وانهزم ما كان ، قال له على والحسن ابنا أبى شجاع بُوَيْه ، وكانا ضَعَفَةً[1] عجزة : " نحن فى جماعة ، وقد صِرنا ثِقلا عليك وعِيالا ، وأنت مُضِيق ، والأصلح لك أن نفارقك لتخف عنك مؤونتنا[2] ، فإذا صلح أمرك عدنا إليك " . فأذِن لهما فسارا إلى مرداويج ، واقتدى بهما جماعة من قوّاد ما كان وتبعوهما . فأقبل عليهم مرداويج ، وخلع على ابنَىْ بويه ، وقلد عماد الدولة على بن بويه كَرَج ، فأحسن السيرة وافتتح قلاعاً ظفر منها بذخائر كثيرة ، فاستمال الرجال حتى شاع ذكره وقصده الناس . فاستوحش منه مرداويج ، واستدعاه فدافعه ثم سار [عماد[3] الدولة] من كرج إلى أصبهان ، وقاتل المظفر محمد بن ياقوت وهزمه ، وملك أصبهان يوم الأحد الحادى عشر من ذى القعدة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة . فعظم فى أعين الناس ، لأنه كان فى تسعمائة رجل هزم بهم ما يقارب عشرة آلاف . وبلغ ذلك الخليفة القاهر بالله محمد بن المعتضد فاستعظمه ، وخاف مرداويج عاقبته ، فأخذ يتحيل فى أخذه . وأخذ ابن بويه أيضاً أرَّجَانَ من أبى بكر بن ياقوت ، فى ذى الحجة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، وقوى بها . وبعث أخاه ركن الدولة الحسن ، فأخذ كَازَرُون . ثم ملك [عماد الدولة] شيراز فى جمادى الآخرة سنة اثنتين[4] وعشرين ، فلما ملك شيراز وفارس كتب إلى الخليفة الراضى بالله محمد بن المقتدر ، وقد أفضت إليه الخلافة ، وإلى وزيره أبى على محمد بن على بن مقلة ، يعرفهما أنه على الطاعة ، ويطلب أن يُقَاطع على ما بيده من البلاد ، وبَذَل ألف ألف درهم ، فأجيب إلى ذلك . وسُيِّرت له الخِلع واللواء ، فلبس الخِلع ونشر اللواء بين يديه ، وغالط

---

(١) مضبوطة هكذا فى س .

(٢) فى س موونتنا ، وهى فى ابن الأثير مونتنا (نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١٩٩) . ويظهر أن مرجع المقريزى هنا ، فيما كتبه عن بنى بويه ، هو كتاب الكامل لابن الأثير (نفس المرجع ، ج ٨ ص ١٩٧ وما يليها) .

(٣) أضيف ما بين القوسين نقلا عن ابن الأثير (نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ٢٠٤) .

(٤) فى س اثنتى .

الرسول بالمال ، فمات الرسول عنده سنة ثلاث[1] وعشرين . وعظم شأنه ، وقصده الرجال من الأطراف ، فقام مرداويج وقعد ، فقدّر الله قتله على يدِ غِلمانه ، يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الأوّل سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة . وسار أكثر أصحابه إلى ابن بويه ، ومضى كثير منهم إلى بُجْكُم[2] فقدم [بهم] بغداد . ثم سار عماد الدولة بن بويه إلى كِرمان فى سنة أربع وعشرين ، وكانت له بها حروب ظفر فيها . ثم قدم عليه أبو عبد الله أحمد بن محمد البَرِيْدى[3] فى سنة ست وعشرين ، وأطمعه فى العراق والاستيلاء عليه ، فسار وملك عدّة بلاد ، وسيّر أخاه ركن الدولة على عساكر ، وكانت لهما أنباء وقصص . وجرت فى (٩ب) بغداد حوادث عظيمة آلت إلى مسير معز الدولة أبى الحسين أحمد بن بويه إلى بغداد ، فى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، فخار به أمير الأمراء توزون فى ذى القعدة ، وهزمه عن بغداد . فلما مات توزون قدم [معز الدولة] بغداد ، واستولى عليها فى يوم السبت حادى عشر جمادى الأوّل سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة . قال الوزير أبو على محمد بن على بن مقلة : " إننى أزلت دولة بنى العباس وأسلمتها إلى الديلم ، لأنى كاتبت الديلم وقت إنفاذى إلى أصبهان ، وأطمعتهم فى سرير الملك ببغداد ، فإن اجتنيت ثمرة ذلك فى حياتى ، وإلا فهى تُجْتنى بعد موتى " ، فكان كما قال . ولما ملك معز الدولة بغداد خلع الخليفَةَ المستكفى بالله عبـد الله ، ونهب الديلم دار الخلافة حتى لم يبق فيها شىء ، وأقام المطيعَ لله الفضل بن المقتدر ، ولم يجعل له أمراً ولا نهيا ولا رأيا ، ولا مكّنه من إقامة وزير ، بل صارت الوزارة إليه يستوزر لنفسه من يريد ، وشنّع هو والديلم على بنى العباس ، بأنهم غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها . وأراد معز الدولة إبطال دعوة بنى العباس ، و إقامة دعوة المعز لدين الله أبى تميم معد الفاطمى ، حتى رَجَعَه أصحابه عن ذلك . و بعث نوابه فتسلموا العراق ، ولم يَبْقَ بيد الخليفة منه شىء البتة ، إلا ما أُقطِعه مما لا يقوم ببعض حاجته ، وملك البصرة والموصل وعامة البلاد . ومات عماد الدولة

---

(١) كانت تعليمات الرسول ألا يسلم الخلع أو اللواء إلا بعد قبض المال ، فلما وصل خرج عماد الدولة إلى لقائه ، وطلب منه تسليمها ، فذكر له الشرط ، فأخذها منه قهراً . (ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ٢٠٧) .

(٢) مضبوطة هكذا فى س .

(٣) مضبوطة هكذا فى س .

أبو الحسن على بن بويه بمدينة شيراز فى جمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة ، وعهد إلى ابن أخيه عضد الدولة أبى شجاع فناخسرو[١] بن ركن الدولة أبى على الحسن بن بويه ، فكانت مدّة إمارته ست عشرة سنة ، ولم يترك غير بنت واحدة . وكان عماد الدولة فى حياته هو أمير الأمراء ، فلما مات صار أخوه ركن الدولة أبو على الحسن بن بويه أمير الأمراء . وكان معز الدولة أبو الحسن أحمد هو المستولى على العراق والخلافة ، وهو كالنائب عنهما إلى أن مات ببغداد ، لثلاث عشرة بقيت من ربيع الآخر سنة ست وخمسين وثلاثمائة ، فكانت مدّة ملكه لبغداد إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا ويومين . وقام من بعده ابنه عز الدولة أبو منصو بختيار ، فسار إليه ابن عمه عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو بن ركن الدولة فى سنة أربع وستين ، وقبض عليه ثم أطلقه ، وضرب عليه الجند[٢] ، وعاد من بغداد . فمات ركن الدولة لخمس بقين من المحرم سنة ست وستين وثلثمائة ، واستخلف على ممالكه ابنه عضد الدولة ، فسار إلى العراق ثانيا وأخذ بغداد من بختيار[٣] ، وخُطِب له بها ، ولم يكن قبل ذلك يخطب لأحد سوى الخليفة . وضرب [عضد الدولة] أيضا على بابه الطبول ثلاث نوبات ، ولم تجر بذلك عادة من تقدمه ، ونُعِتَ الملكَ السيد شاهنشاه الأجل المنصور[٤] ولىّ النعم تاج الملة عضد الدولة أباشجاع[٥] فناخسرو بن ركن الدولة أبى على الحسن بن أبى شجاع بويه بن فناخسرو بن تمان[٦] بن كوهى . وقُتِل بختيار فى الحرب لاثنتى عشرة بقيت من شوّال سنة سبع وستين وثلاثمائة ، فكانت مدّته إحدى عشرة سنة وستة أشهر . وعظم أمر عضد الدولة (١٠ ا) إلى أن مات لثمان خلون من شوّال سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة ، ومدّته منذ مات عمه عماد الدولة بفارس أربع وثلاثون سنة ، ملك منها بغداد خمس سنين وستة أشهر

(١) فى س فناخسره ، وبغير ضبط هنا وفيما يلى.

(٢) توجد فى س عبارة مكملة هى : " حتى زال ملكه " ، ولكنها مشطوبة .

(٣) فى هامش س الجملة : " ففر بختيار " . وهى ليست متسقة مع عبارة المتن ، ولاسيما أن المؤلف لم يشر كعادته إلى المكان المناسب لها . غير أنه أدمجها كاتب نسخة ب (ص ١٠ ب) قبل عبارة " وخطب له بها " .

(٤) مضبوطة فى س " ونعت الملك السيد ... المنصور " بضم الآخر .

(٥) فى س " أبو شجاع " .

(٦) فى س تمام . انظر ص ٢٥ ، حاشية رقم ٢ .

وأربعة أيام . فقام من بعده صَمْصَام الدولة أبو كاليجار المرزبان[1] ببغداد ، أربع سنين وخمسة أشهر واثنين وعشرين يوماً . وغلبه أخوه شرف الدولة أبو الفوارس شـيرزيل ، فى رمضان سنة ست وسبعين وثلاثمائة ، ثم سَمَلَه وقام بالأمر ، فلقبه الخليفة الطائع بشرف الدولة وزَيْنَ الملة . ومات [شرف الدولة] بعد سنتين وثمانية أشهر وأيام ببغداد ، فى ثانى جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وثلاثمائة . فملك بعده أخوه بهاء الدولة أبو نصر خُرَّه فيروز ابن عضد الدولة ، ولقبه الطائع بهاء الدولة وضياء الملة ، ثم زاد القادر فى ألقابه غياث الأمة شاهنشاه ، ثم زاده قِوام الدين ونقله عن مولى أمير المؤمنين إلى صفىّ أمير المؤمنين ، ومات بأرجان فى خامس جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعمائة ، فـكانت مدّته اثنتين وأربعين سنة وتسعة أشهر وثمانية عشر يوماً . وقام من بعده ابنه سلطان الدولة أبو شجاع فنا خسرو ، فـكانت أيامه ببغداد — سنة واحدة وستة أشهر تنقص ثلاثة أيام — على انزعاج ، لـكثرة مطالب الأتراك[3] ، فخرج[4] [منها] ، وقد رتب أخاه مشرف الدولة أبا على الحسن ، وسار إلى الأهواز ، واستقرّ مشرف الدولة فى ملك العراق خمس سنين وشهرين وأياما . ومات سلطان الدولة بفارس ، لأربع بقين من شوّال سنة خمس عشرة وأربعمائة ، فـكانت إمارته اثنتى عشرة سنة وأربعة أشهر وأياماً . ومات بعده أخوه مشرف الدولة ببغداد ، لثمان بقين من ربيع الأوّل سنة ست عشرة وأربعمائة ، فسار [أخوهما] جلال الدولة أبو طاهر فيروز خره بن بهاء الدولة من البصرة إلى بغداد ، باستدعاء الخليفة القادر ، لما حصل فى بغداد من مصادرات الأتراك للناس ، فلما قدمها تلقاه القادر ولقبه ركن الدين جلال الدولة . وفى أيامه انحل أمر الخلافة

---

(١) كذا فى س بغير ضبط ، ولم يضبط ابن الأثير شيئاً من هده الأسماء . (الـكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ١٦) . غير أن كاتب نسخة ب (ص ١١ !) أو رد اسم كاليجار بالنون بدل الياء فأصبحت " كالنجار " ، وتبعه فى ذلك (Blochet) فترجم الاسم كله إلى (Ṣamṣām-ad-Daūlah-Abou-Kalandjār--Al-Merzebān) راجع (Ibid : Op. cit. P. 82.)

(٢) فى س " خسره " دائما . (راجع ابن الأثير : الـكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٧٤) .

(٣) يلى هذه الـكلمة إشارة إلى هامش غير متسق مع المتن ، فرؤى إيراده هنا وهو : " وضرب [سلطان الدولة] الطبول على بابه فى أوقات الصلوات الخمس " .

(٤) فى س " وخرج " (راجع ابن الأثير : الـكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٤٤) .

والسلطنة ببغـداد ، وانطلقت الأيدى ، وعجز جلال الدولة عن إقامة الأمر إلى أن مات فى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة فـكانت مدته ست عشرة سنة وأحد عشر شهراً . فاستدعى الجندُ ابنَه الملك العزيز أبا منصور خره فيروز ، فلم ينتظم له أمر ، واستنجد الملوك فلم ينجدوه ، فـكاتب عسكرُ بغداد عزّ الملوك أبا كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة أبى شجاع فنا خسرو بن بهاء الدولة أبى نصر خره فيروز بن عضد الدولة ، ولقَّبه الخليفة القائم بأمر الله شاهنشاه عزّ الملوك ، وحُمِلت إليه الخلع واللواء وخُطب له ، فسار وقدِم بغداد ، ومات سنة أربعين وأربعمائة . وملك [بعده] ابنه الملك الرحيم (١٠ ب) أبو نصر خره فيروز بن عز الملوك ، وكان [عز الملوك[1]] قد سار إلى كرمان ، فهلك فى طريقه لأربع سنين من ولايته . فقام من بعده ببغداد الملك الرحيم بمبايعة الجند له ، وثار فى أيامه الأمير أرسلان البساسيرى[2] وملَك بغداد ، ثم قدم طغرلبك والسلجوقية ، وقبض على الملك الرحيم وسجنه حتى مات . فـكانت عدّة من ملك بغداد من بنى بويه أحد عشر ، ومدّتهم ببغداد إلى أن انقرضوا على يد السلجوقية مائة وثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما ، أوّلها يوم وصل معز الدولة إلى بغداد ، وآخرها يوم وصول طغرلبك بغداد ، ومدتهم منذ ملك عماد الدولة بلاد فارس مائة وخمس عشرة سنة وثلاثة أشهر وستة أيام .

ذكر دولة السَّلجوقية

وكان ابتداء أمر السلجوقية أنهم أخلاط من الترك ، كانوا يصيفُون فى بلاد البُلْغَار[3] ويَشْتُون فى تركستان ، وينهبون ما طرقوه . وكان من مقدميهم رجل يقال له دُقَاق[4] ، فوُلِد له سلجوق فنَجَب ، وقدّمه[5] بَيْغُو ملك الترك ، فقوِى وكثر جمعه فخافه بيغو ، فخرج [سلجوق] بجموعه

(١) أضيف هذا بعد مراجعة ابن الأثير (الـكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٧٣ — ٣٧٤) .

(٢) فى س الفساسيرى .

(٣) فى حوض نهر الفولجا بالروسيا الحالية .

(٤) صحح ناشر ابن الأثير هذا الاسم إلى " تقاق " (الـكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٢٣) . على أن هناك ما يحمل على تفصيل الرسم الوارد هنا (انظر Enc. Isl. Art. Seldjūks) وقد ضبطت الأعلام الواردة هنا على هذين المرجعين .

(٥) فى س " بيغو " مضبوطة ، وفى نفس السطر " بيغوا " بالضبط عينه . ولرسم هذا الاسم بالياء أولا أنصار . (انظر Enc. Isl. Art Seldjūks)

مهاجراً من دار الحرب [إلى ديار[١] الإسلام] وأسلم وأقام بنواحى بخارى وصار يغزو الترك ، وكان له من الولد أرْسَلان[٢] وميكائيل وموسى . ومات سلجوق بجَنْد[٣] وراء بخارى ، عن مائة وسبعة أعوام ، و بقى ولده على ما كان عليه من غزو الترك ، فقتل ميكائيل شهيداً . وخلّف [ميكائيل] بيغو وطغرلبك ويَنّال وجِغْرِى بك داود[٤] . ثم إنهم قربوا من بخارى فأساء أميرها جوارهم ، فرجعوا إلى بُغراخان ملك تركستان وجاوروه ، وتعاهد طغرلبك وأخوه داود ألا يجتمعا عند بغراخان وحاول على مجتمعهما فلم يطق ، فقبض على طغرلبك وأرسل عسكره إلى أخيه داود ، فانهزم العسكر وَأتبعُوه وخلصوا طغرلبك من أسره ، وعادوا إلى جَنْد ، وأقاموا بها إلى انقراض الدولة السامانية ومُلْكِ أيلك خان بخارى ، فعظم عنده محل أرسلان بن سلجوق[٥] ولما رجع أيلك خان عن بخارى ولى عليها علىَّ تكين[٦] فبقى معه أرسلان إلى أن عبر محمود بن سُبُكتكين النهر إلى بخارى ، وهرب علىٌّ تكين فدخل أرسلانُ وقومه المفازة ، وكاتبه محمود ولاطفه حتى قدم عليه ، فقبضه ونهب أحياءه ، وأجازهم النهر وفرّقهم فى نواحى خراسان ، ووضع عليهم الخراج ، فلحقهم جور العمال . فسار منهم جماعة أرسلان إلى أصبهان ، وحارب بهم علاء الدين بن كاكويه حروبا كثيرة ، إلى أن ساروا إلى آذر بيجان ، وكانوا يعرفون بين الترك بالغُز[٧] . وسار طغرلبك وأخوه داود و بيغو من خراسان إلى بخارى ، وجمع على تكين عسكره

---

(١) ما بين القوسين منقول عن ابن الأثير ، لضرورة انسجام العبارة (الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٢٢) .

(٢) فى س بفتحة على السين فقط . (٣) فى س بفتحة على النون فقط .

(٤) فى س "ينال وجعرويك وداوود" راجع (Enc. Isl.Arts. Caghri Beg and Tughrilbeg)

(٥) لعدم وضوح هذه العبارة تماما ، مع الحرص على إيرادها كما هى ، رؤى نقل ما يقابلها عن ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص ٣٢٣) وهى : " واستقر الأمر بين طغرلبك وأخيه داوود أنهما لا يجتمعان عند بغراخان ، إنما يحضر عنده أحدهما ويقيم الآخر فى أهله ، خوفا من مكر يمكره بهم ، فبقوا كذلك . ثم إن بغراخان اجتهد فى اجتماعهما عنده فلم يفعلا ، فقبض على طغرلبك وأسره ، فثار داوود فى عشايره ومن يتبعه وقصد بغراخان ليخلص أخاه ، فأنفذ إليه بغراخان عسكرا ، فاقتتلوا فانهزم عسكر بغراخان وكثر القتل فيهم ، وخلص [داوود] أخاه من الأسر ، وانصرفوا إلى جند وهى قريب بخارى ، فأقاموا هناك . فلما انقرضت دولة السامانية ، وملك إيلك الخان بخارى ، عظم محل ارسلان بن سلجوق عم داوود وطغرلبك بما وراء النهر ...... " .

(٦) هو أخو أيلك خان (نفس المرجع ، ج٩ ، ص٣٢٣) .

(٧) " الغُزُّ (مضبوطة) لفظ يقع على ما يتوالد بين العجم فى المدن من نسائهم ؛ وقيل الغز لفظ يقع على جنس العجم كله . وقيل الغز فى جنس العجم كالمولدة فى العرب ؛ وقيل لفظة الغز تقع على التركى والتركمانى والقفشق والجنس المولد : وقيل هم كل من ولد عامور بن يافث بن نوح ؛ وقيل الغز بجنس التركمانى والتركى أبعد ؛ وقيل الغز جيل من الشام " . عن هامش فى س ، ص ١٠ ب .

وأوقع بهم ، فعادوا إلى خراسان وخيموا بظاهر خوارزم ، فى (١١ أ) سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، واتفقوا مع خوارزم شاه هارون بن التونتاش[١] ، ثم غدر بهم وكبسهم ، فساروا إلى جهة مَرْو . فأرسل إليهم مسعود بن محمود بن سبكتكين جيشا فهزمهم ، واشتغل أصحابه بالغنائم فرجع [الغُزُّ] وهزموهم ونهبوهم[٢] ، فاستمالهم مسعود بعدها وكان ببلخ ، فطلبوا منه إطلاق عمهم أرسلان الذى قبضه محمود بن سبكتكين ، فشرط حضورهم فأبوا . وعادت الحرب وهزموا عساكره ، وقوى أمرهم واستولوا على غالب خراسان ، وفرقوا العمال وخُطب لطغرلبك فى نيسابور . وسار داود إلى هراة ، ففرت عساكر مسعود ، وتركوا خراسان حتى أتوا غَزْنة ، وسار مسعود من غزنة إلى خراسان فى جيوشه ، ففروا[٣] أمامه وهو يتبعهم ، حتى قلت الأزواد وطال الأمد ، ودخلوا البرية ومسعود فى إتْبَاعهم مدة ثلاث سنين ، فانتقض عليه عسكره ، ورجع السلجوقية وهزموهم أقبح هزيمة ، وولّى مسعود وغنموا منه ما لا يحصى ، وعادوا إلى خراسان فملكوها ، وثبتت أقدامهم بها ، وخطب لهم على منابرها . ووصل مسعود إلى غزنة ، واختلف عليه أمراؤه حتى قتل . وملك طغرلبك جرجان وطبرستان ، وملك بعدذلك خوارزم ، ثم سار إلى بلد[٤] الجبل واستولى عليها ، فأسلم من الترك خمسة آلاف خَرْكاه[٥] وتفرقوا فى بلاد الإسلام ، ولم يتأخر عن الإسلام سوى الخطا والتتار بنواحى الصين . و بعث طغرلبك أخاه إبراهيم ينال بن ميكائيل ، فملك همذان والدِّيْنَوَر ، ثم استوحش منه وقاتله وأخذه ، فبعث ملك الروم يطلب الهدنة من طغرلبك وهاداه ، وعَمَّر مسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرلبك[٦] . ثم سار[٧] طغرلبك وحاصر أصبهان حتى أخذها صلحا ، ونزلها

---

(١) فى س الطن طاش (راجع ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٩٤ ، ٣٢٥) . وكذلك (Enc. Isl. Art. Altūntāsh) .

(٢) فى س فتراجعوا وهزموه ونهبوه . (انظر ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٣٢٥) .

(٣) فى س ففرا . (٤) فى س بلاد الجبل . (راجع ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٣٤٧ — ٣٤٠) . (٥) كلمة فارسية معناها خيمة أو نجع .

(٦) العلاقة بين ما جرى لطغرلبك مع أخيه ينال وبين ملك الروم ، أن ينال كان قد غزا البلاد الرومية سنة ٤٤٠ هـ . (١٠٤٨ م .) بجمع من الغز حتى وصل بهم الى طرابزون ، وظل يقاتل من يقابله من الجيوش الرومية ويقتل ويسبي ويغنم ، حتى لم يبق بينه وبين القسطنطينية سوى خمسة عشر يوما . فلما وقعت الوحشة بين الأخوين ، انتهزها ملك الروم وصالح طغرلبك على الشروط الواردة هنا . (ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٣٦٠ — ٣٧٢ و ٣٨٠ — ٣٨١ ، وكذلك (Camb. Med. Hist. Vol. III. pp. 111, 884-385.)

(٧) فى س فسار .

ونقل إليها ذخائره ، وأتاه ملك الأكراد فأقرّه على بلاده شَهرَزُور وغيرها . ثم أنفذ رسوله إلى الخليفة القائم بأمر الله بالهدايا ، وسار يريد بغداد ، فدخلها لخمس بقين من رمضان سنة سبع وأربعين[(١)] وأربعمائة . ونُعت بالسلطان ركن الدين أبى طالب محمد طغرلبك بن ميكائيل ابن سلجوق بن قِنِق[(٢)] بن جبريل بن داود بن أيوب بن دقاق بن إلياس بن بهرام بن يوسف ابن عزيز بن أحمد بن دهقان ، وقَبض على الملك الرحيم أبى نصر وعلى قواده ، وأزال دولة بنى بُويه . ثم توجه (١١ب) إلى نصيبين وديار بكر ، واستولى على الموصل ، وترك عليها أخاه ينال[(٣)] إبراهيم ، فخالف[(٤)] على طغرلبك ، وتوجه إلى همذان ، فسار إليه [طغرلبك] وقتله . ثم عاد إلى بغداد وقد ملكها أبو الحارث أرسلان البساسيرى ، فأعاد القائم إلى الخلافة وقتل البساسيرى ، ثم سار إلى بلاد الجبل فمات بالرىّ ، فى ثامن شهر رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، فكانت مدّة ملكه ثمانياً وثلاثين سنة تنقص عشرين يوما ، ولم يخلف ولدا . فملك بعده ابن أخيه عضد الدولة أبو شجاع محمد ألب أرسلان بن جَغْرِى[(٥)] بك بن داود بن ميكائيل ابن سلجوق ، وسار إلى حلب وأقر صاحبها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس عليها ، ولقى ملك الروم وهزمه ، وبعث جيوشه فأخذت القدس والرملة من خلفاء مصر [الفاطميين] ، وحصرت دمشق . ومات ألب أرسلان بعد ما رجع من حلب إلى ما وراء النهر ، فى ربيع الأول سنة خمس وستين . وملك بعده ابنه السلطان جلال الدولة أبو الفتح محمد مَلِك شاه بن عضد الدولة أبى شجاع ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق تسع عشرة سنة وشهراً ، ومات فى نصف شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وعمره سبع وثلاثون سنة وخمسة أشهر . وكان يُخطب له من أقصى بلاد الترك إلى بلاد اليمن ، وفى أيامه مَلَكَ دمشقَ أَتْسِز[(٦)] ، ثم أخذها منه تُتُش[(٧)] بن ألب أرسلان ، فاستمرت بأيدى الترك ؛ وبعث ملك شاه أيضاً آقسنقر قَسِيم الدولة

(١) فى س ، ب "وثلاثين" (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٤١٥ — ٤٢٤) .
(٢) فى س بفتح القاف وكسر النون ، (انظر Enc. Isl. Art. Seljūks) .
(٣) كذا فى س . انظر ص ٣٢ .
(٤) فى س نخالف ، (راجع ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٤٣٩ — ٤٤٠) .
(٥) فى س جعرى بك .
(٦) فى س "اطسز" بغير ضبط .
(٧) فى س تتش بغير ضبط أو نقط على التاء الثانية .

فلك الموصل ، وآقْسُنْقُر هذا هو والد عماد الدين زَنكى(١) . ثم قدم ملك شاه إلى حلب وسلمها إلى آقسنقر ، وعاد إلى بغداد . ومَلَكَ بعد ملك شاه ابنُه محمود وعمره أربع سنين ، فقامت أمه تُرْكُان(٢) خاتون بتدبيره ، فثار عليه أخوه بَرْكَيَارُوق بن ملكشاه واستبد بالأمر، وكانت(٣) له [أيضاً] حروب مع أخويْه محمد وسَنْجَر إلى أن مات ثانى شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين ، عن خمس وعشرين سنة ، منها مدّة وقوع اسم السلطنة عليه اثنتا عشرة(٤) سنة وأربعة أشهر ، قاسى فيها من الحروب واختلاف الأمور مالم يقاسه غيره . وأقيم بعدها ابنه ملكشاه بن بركياروق(٥) ، وعُمْرُه أربع سنين وثمانية أشهر ، ولَقَبُه جلال الدولة . وقام بأمره الأمير أياز الأتابك إلى أن قُتِل فى ثالث عشر جمادى الآخرة ، بعد ما سلّم أمر الدولة إلى السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان . فقام محمد بأمر المملكة إلى أن مات ، فى رابع عشرى(٦) ذى الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، عن ست وثلاثين سنة وأربعة أشهر ، منها مدّة اجتماع الناس عليه اثنتا عشرة سنة وستة أشهر ، ولقى مشاق(٧) وأخطاراً كثيرة . فأقيم بعده ابنه محمود بن محمد بن ملكشاه ، وعمره أربع عشرة سنة ، فنازعه عمه (١١٢) السلطان(٨) ناصر الدين معز الدولة أبو الحارث سَنْجَر ابن ملكشاه بن ألب أرسلان وقاتله ، فانهزم منه محمود ، وخُطب لسنجر ببغداد فى سادس عشرى جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وقطِعت خُطبة محمود . ثم اصطلحا وجَعل سنجرُ ابن أخيه محموداً(٩) ولى العهد بعده ، وكتب إلى جميع الأعمال التى بيده بأن يخطب للسلطان محمود بعده ، وأعاد عليه جميع ما أخذ من البلاد ، فخطب لهما ببغداد وغيرها . وعاد سنجر إلى ولايته ، واستمر محمود فى السلطنة ، فتنكر الحال بينه و بين الخليفة المسترشد بالله

---

(١) فى الهمش : " اقسنقر هذا هو جد نور الدين الشهيد " . (٢) ضبط هذا الاسم على منطوقه الإنجليزى (Tärkän) . انظر (Enc. Isl. Art. Malikshäh) .

(٣) الهاء عائدة على بركياروق . (٤) فى س "اثنا عشر" (٥) فى س : بركيارق .

(٦) فى س " عشرين " باثبات النون ، وأغلب ما ترد على هذه الصورة ، وستصلح دائما بدون تنبيه .

(٧) فى س : مشاقا . (٨) هذا بدء هامش طويل متسق مع المتن ، ولم تكن هناك حاجة إلى الإشارة إليه لولا أنه بخط غير خط المؤلف . وأكبر الظن أن ورقة هذا الهامش تعرضت للتلف ، فكتبها أحد المتأخرين بخط نسخ جيل على ورقة أخرى ، ووضعها مكان الأولى . (٩) فى س محمود .

واقتتلا ، ثم اصطلحا فى عاشر شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين . وسار محمود عن بغداد ؛ وَوَلّى عماد الدين زنكى بن آقسنقر شِحْنَكيتها[١] ، ثم نقله إلى الموصل ، وأضاف إليه الجزيرة ، فاشتدت وطأته بها حتى ملك حلب أول المحرم سنة ثنتين وعشرين ، ثم ملك حماة وعدة حصون بالشام . ومات السلطان محمود فى شوّال سنة خمس وعشرين [وخمسمائة] بهمذان عن سبع وعشرين سنة ، منها ولايته السلطنة اثنتى[٢] عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما . فأُقعِد بعده فى السلطنة ابنه داود بن محمود [بن محمد[٣]] بن ملكشاه ، فنازعه عمه السلطان مسعود ، وقاتله ثم اصطلحا . وطلب مسعود من الخليفة المسترشد أن يخطب له ببغداد ، فأجاب بأن الحكم فى الخطبة إلى السلطان سنجر ، [وأرسل إلى سنجر[٤]] ألا يأذن لأحد فى الخطبة ، وأن الخطبة ينبغى أن تكون له وحده ، فوافق ذلك غرضَ سنجر . فاشتد ذلك على مسعود ، وعزم على أخذ السلطنة ، فسبقه [أخوه] السلطان سلجوق شاه بن السلطان محمد إلى بغداد ، وكانت أمور آلت إلى أن يكون مسعود بن محمد بن السلطان ملكشاه سلطانا ، وسلجوق شاه ولى عهده ، وقُطعت خطبة سنجر من العراق جميعه . وكان عماد الدين زنكى قد قدم نصرة لمسعود ، فهزمه أصحاب سلجوق شاه هزيمة قبيحة ، فلما وصل تَكْرِيت أقام له نجم الدين أيوب بن شادى الدِّزْدَار[٥] بها المعابرَ حتى خلص إلى بلاده ، فشكر ذلك لنجم الدين وقرّبه ، فكان ذلك سبباً لاتصال نجم الدين به والمصير فى جملته ، حتى آل بهم الأمر إلى مُلك مصر والشام وغيرهما . واقتتل مسعود[٦] وسنجر ، فانهزم مسعود وقُتل أصحابه ، ثم أُحضر إلى سنجر فعاتبه ، وأعاده إلى كَنْجَة[٧] ، وأجلس[٨] [ابن أخيه] الملك طغرل بن السلطان محمد

---

(١) أى رياسة الشرطة بها ، ويسمى متوليها صاحب الشحنة . (Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٢) فى س اثنا .

(٣) راجع (Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, Table facing P. 152).

(٤) ليس لما بين القوسين وجود فى س ولكنه فى ب (ص ١٣ ب) ، وهو يطابق تماما ما ورد فى ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٤٧٤) . وربما استعان كاتب نسخة ب بهذا المرجع فى توضيح ما غمض عليه .

(٥) فى س الدردار . أما الدزدار فكلمة فارسية معناها "حاكم حصن" . (Enc. Isl. Art. Diz.)

(٦) فى س محمود . (٧) فى س كيخيته . انظر ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ٤٧٧ و ٤٨٣ ؛ وكنجة مدينة كبيرة ، وهى قصبة بلاد أرّان (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٠٨) .

(٨) فى س "واجلسه الملك طغرل" . (راجع ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٤٧٧) .

فى السلطنة ، وخطب له فى جميع البلاد ، وذلك فى ثامن رجب سنة ست وعشرين . فلما كان فى رمضان اقتتل الملك طغرل بن محمد هو وابن أخيه الملك داود بن محمود ، فانهزم داود ؛ فلما سمع ذلك السلطان مسعود بن محمد سار إلى بغداد ، فلقيه داود ودخل معه إليها ، فى صفر سنة سبع وعشرين ، وأعيدت له الخطبة بها ولداود معه ، وخلع عليهما الخليفةُ . ثم سارا لمحاربة طغرل ، فحارباه وهزماه فى شعبان ، فامتدت الحرب بينهم إلى شوّال . ثم عاد طغرل بن محمد ، وأجلى أخاه مسعوداً[1] عن بلاده فى رمضان سنة ثمان وعشرين ، فقدم [مسعود[2]] بغداد فى نصف شوّال ، فأكرمه الخليفة المسترشد وأنزله وأنعم عليه . ثم قدم[3] الخبر بوفاة طغرل بن محمد ، فى المحرم سنة تسع وعشرين ، فسار مسعود إلى همذان واستولى عليها ، و[كان قبل[4] ذلك قد] نافر الخليفة ، فقطع [المسترشد] خطبته من بغداد وسار لقتاله ، فبرز إليه [مسعود] ، وقاتله فى عاشر رمضان وأخذه أسيراً ، و بعث إلى بغداد فقبض على أملاك الخليفة ، وكسر منبره وشباكه . ثم قُتل الخليفة بيد الباطنية ، وأقيم بعده الراشد[5] (١١٢ ا) خليفة . فسار الملك داود بن السلطان محمود فى عسكر آذربيجان إلى بغداد ، فقدمها رابع صفر سنة ثلاثين وخمسمائة ، وأقام برنقش[6] على شِحِنَكِيَّتها . وقطعت خطبة السلطان مسعود وخطب لداود ، فسار مسعود إلى بغداد وحصرها نيفا وخمسين يوما ، فكانت أمور آلت إلى عود الملك داود إلى بلاده فى ذى القعدة ، و[إلى] تفرق الأمراء [الذين كانوا معه[7]] ،

---

(١) فى س : مسعود . (٢) انظر ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٦ .
(٣) فى س : فقدم . (٤) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن الأثير (نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ١٠ ، ١٤ — ١٦) . (٥) هنا ينتهى الهامش المشار إلى مبدئه فى ص ٣٤ ، حاشية رقم ٨) . (٦) فى س برنقش . وفى ابن الأثير برنقش بازدار بدون ضبط ، وكان صاحب قزوين . (نفس المرجع ؛ ج ١٠ ، ص ٢٣) . راجع أيضا (Rec. Hist. Or. II. 2. pp. 88, 92) حيث رسم هذا الاسم هكذا (Berenkach) . أما البازدار فهو الذى يحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد على يده . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ٤٦٩) . (٧) يظهر هنا بوضوح أن المقريزى كان ينقل من ابن الأثير مباشرة أو عن مرجع آخر مصدره ابن الأثير . على أن عبارة المقريزى هنا مقتضبة ، وهى بحاجة إلى توضيح أكثر ، برغم ما أضيف بين القوسين (انظر ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٢٢ — ٢٤ ، ٢٦ — ٢٧) .

وسار الخليفة الراشد [من بغداد] إلى الموصل فى نفر يسير مع عماد الدين[١] زنكى ، [فلما سمع السلطان مسعود بمفارقة[٢] الخليفة وزنكى بغداد سار إليها] ، ودخلها[٣] فى نصف ذى القعدة ، وخلع الراشدَ وأقام المقتفى لأمر الله أبا عبد الله محمد بن المستظهر فى الخلافة ، وزوجه أخته فاطمة على مائة ألف دينار صداقا . فسار الراشد بالله من الموصل إلى مَرَاغة ، فأتاه الملك داود فى جماعة ليرده إلى الخلافة ، فسار السلطان مسعود من بغداد فى شعبان سنة اثنتين[٤] وثلاثين ، وحار بهم وهزمهم ، فحمل عليه بعض من انحاز منهم إلى تل ، [فلم يثبت لهم وانهزم[٥] ، وما زال] حتى صار إلى آذر بيجان ، وقصد داودُ همذان ومعه الراشد ، وسار سلجوق شاه بن محمد إلى بغداد ليملكها فمُنع منها ، وسار مسعود ليمنع داود من أخذ الراشد ومسيره به إلى العراق ، فترك داودُ الراشد ، وعاد إلى فارس ، فقُتل الراشد بيد الباطنية أيضاً . وضاقت الأمور على السلطان مسعود ، وكثرت الخوارج عليه : وسار عماد الدين زنكى إلى دمشق ، وحصرها مرتين وملَكَ بعلبك ؛ وحارب السلطانُ سنجرُ بنُ ملكشاه خوارزمَ شاه أتسز[٦] بن [قطب الدين] محمد بن أنُوشْتَكين ، فقُتل ابن خوارزم شاه ، فبعث خوارزم شاه إلى الخطاوهم بما وراء النهر ، فأطمعهم فى البلاد وتزوّج منهم ، فساروا فى ثلاثمائة ألف فارس ، فحار بهم سنجر ، فقتلوا منه نحو مائة ألف ، وهزموه فى صفر سنة ست وثلاثين ، فأخذ خوارزم شاه مدينة مرو . فسار السلطان مسعود إلى الرى ، وقد استقرّت دولة الخطا والترك الكفار بما وراء النهر ، وأخذ خوارزم شاه نيسابور أيضاً ، وقطع خطبة السلطان سنجر أوّل ذى القعدة ، وخُطب باسمه ، وعاث أصحابه فى خراسان وعملوا أعمالا قبيحة . ثم آل أمر أتسز[٧] خوارزم شاه إلى مصالحة السلطان سنجر ،

---

(١) كان الخليفة وزنكى من حلفاء داود ضد مسعود . (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٢ — ٢٣) .

(٢) رؤى إضافة ما بين القوسين من ابن الأثير للتوضيح (نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٢٦) .

(٣) فى س " ودخلها السلطان مسعود " . (٤) فى س " شى " .

(٥) فى س "وهزمهم" . وهذا يخالف ما جاء فى ابن الأثير (نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٤٠) . أضيف منه ما بين القوسين بتصرف طفيف .

(٦) فى س اطسر . (٧) فى س اطسز . يلاحظ أن المؤلف عكس ترتيب الاسم هنا .

فى سنة ثمان وثلاثين ، وأقام بخوارزم على ما كان عليه ، وأقام سنجر بمرو . ومات أتابك عماد الدين زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل والشام ، قتله بعض مماليكه (١٢ب) فى خامس ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، فسار ابنه نور الدين محمود بن زنكى إلى حلب فملكها ، وملَكَ سيف الدين غازى بن زنكى الموصل . ومات السلطان مسعود بن محمد ابن ملكشاه بهمذان ، أول رجب سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، وماتت[١] معه سعادة بنى سلجوق ، فلم يقم بعده لهم راية يعتدبها . فقام بعده ملكشاه بن السلطان محمود ، وخُطب له ، فلما بلغ الخليفة المقتفى لأمر الله موت[٢] [السلطان مسعود] أحاط بداره ودُوْر أصحابه ، وأخذ كل ما لهم ، وجمع الرجال والعساكر ، وأكثر من الأجناد ، وجهز[٣] إلى الحلة والكوفة وواسط العساكر فأخذوها . ثم إن الأمير خاص بك[٤] قبض على ملكشاه و بعثه إلى خوزستان ، واستدعى أخاه محمد بن محمود من خوزستان ، وأجلسه على تخت السلطنة ، فى أوائل صفر سنة ثمان وأربعين ، فَقَتَل محمدٌ [خاص َبك] ثانى يوم قدومه . وملك نور الدين محمود بن زنكى دمشق فى صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، واستولى شملة[٥] التركمانى على خوزستان فى سنة خمسين وخمسمائة ، وأزاح عنها ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد . وضعفت يد السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان ، حتى لم يبق له إلا اسم السلطنة ، وأخذ الغز نيسابور بالسيف ، ففر منهم سنجر فى رمضان سنة إحدى وخمسين إلى تِرْمِذ[٦] ، ثم إلى جيحون يريد خراسان ، ثم عاد إلى دار ملكه بمرو . وسار السلطان محمد شاه بن محمود من همذان ، وحصر بغداد فى ذى الحجة منها[٧] ، لامتناع الخليفة من الخطبة له ، إلى أن عاد إلى

---

(١) فى "ومات" . (٢) فى س "موته" . (٣) فى س "وجهو" .

(٤) كان خاص بك — واسمه الأصلى أرسلان بن بلنكرى — أقرب الأمراء إلى السلطان مسعود . وهو الذى أجلس ملكشاة على عرش عمه بالعراق . (Enc. Isl. Art. Mas'ūd) ، وكذلك ابن الأثير (نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ١٠٥ — ١٠٧) . (٥) بدون ضبط فى س وابن الأثير ، واسمه أيدغدى التركمانى وكان معروفا بشملة (ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ١٠٦) .

(٦) فى س ترمد . والنطق الثبوت هنا هو " المتداول على لسان أهل تلك المدينة " زمن ياقوت ، وغيره كثير (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١١ ، ص ٨٤٣) . (٧) يقصد المؤلف سنة إحدى وخمسين المتقدمة الذكر (انظر ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ١٤٠ — ١٤٢) .

همذان فى أخريات ربيع[1] الأول سنة ثنتين[2] وخمسين، ولم ينل طائلا من بغداد. ومات السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان فى ربيع الأول سنة ثنتين[3] وخمسين، و[قد] خطب له على أكثر منابر الإسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة، وكان قبلها يخاطب بالملك عشرين سنة. واستخلف[4] بعده على خراسان الملك محمود بن محمد بن بغراخان وهو ابن أخته. ومات السلطان محمد شاه بن محمود بن محمد فى ذى الحجة سنة أربع وخمسين بهمذان، عن اثنتين وثلاثين سنة، وترك ولدا صغيراً؛ فاختلف الأمراء بعده: فنهم من أراد أن يملك ملكشاه بن محمود، ومنهم من طلب سليمان شاه [بن محمد]، وطلب قوم أرسلان [شاه[5] بن طغرل]. فسار ملكشاه من خوزستان إلى أصفهان وملكها، فخالف[6] عليه أهل همذان وطلبوا سليمان شاه، فسار (١١٣) من الموصل أول سنة خمس وخمسين يريد همذان، فقُبض عليه بها فى شوال سنة ست وخمسين، وخُطب لأرسلان شاه بن الملك طغرل بن محمد. ومات ملكشاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بأصبهان فى أثناء السنة، وخُطب بعده بها لسليمان شاه، واستقرّ ملكه بتلك البلاد. ثم قتل السلطان سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه فى ربيع الأول، وخطب بعده لأرسلان شاه بن طغرل[7] بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن جغرى[8] بك داود بن ميكائيل بن سلجوق بهمذان وأعمالها. وطلب [أرسلانُ شاه] من الخليفة المستنجد بالله أن يخطب له ببغداد، كما كانت العادة فى أيام السلطان مسعود، فأهين رسوله وأعيد إليه على أقبح حالة، فكثر الخلاف والقتال بين عساكر السلجوقية، فمات أرسلان فى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة. وأقيم من بعده

---

(١) فى ب (ص ١٥ ب) "شهر ربيع الأول" ويحدث هذا التصرف الطفيف أحيانا، أما الغالب فى نسخة ب فهو حذف كلمة "شهر" حيث توجد، وسينبه إلى هذا النوع الآخر من التصرف فى مكانه مرة واحدة. (٢)و(٣) فى س سى. (٤) فى س استحلف.

(٥) راجع (Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, Table facing p.152)

(٦) فى س لخالف. (٧) فى س "طغرل". (٨) فى س "حمرلك ن داود".

ابنه طغرل[١] بن أرسلان آخر السلاطين السلجوقية ، وكان تحت أمر قزل أرسلان إيلدكز[٢] ، ثم استبدّ بسلطنته ، وفارق قزل أرسلان . فأقام قزلُ عوضه معزالدين سنجر بن سليمان بن محمد ابن ملكشاه ، وطرده ثم ظفر به وسجنه ، ثم خُلِّص وقُتل فى محاربة خوارزم شاه قريبا من الرى ، فى رابع عشرى ربيع الأوّل سنة تسعين وخمسمائة ، وحُمل رأسه إلى بغداد فكان آخر السلجوقية ، وملك بعده خوارزمشاه . فكانت مدّتهم ، من سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة إلى سنة تسعين وخمسمائة ، مائة وثمانيا وخمسين سنة . وكان أسد الدين شيركوه بن شادى قد تقدّم عند نور الدين محمود بن زنكى ، وبعثه أمير الحاج من دمشق ، ثم سيره مع شَاوَر[٣] بن مُجِير السعدى وزير الخليفة العاضد [الفاطمى] ، على عسكر من الغز إلى مصر . وكان شيركوه هذا وأخوه نجم الدين من بلد دَوِين[٤] أحد بلاد آذربيجان ، وأصلهما من الأكراد ، فخدما مجاهد الدين بِهْرُوز شِحْنَة[٥] بغداد ، فجعل أيوب مُسْتَحْفِظا[٦] لقلعة تكريت ، فسار إليها ومعه أخوه شيركوه ، وهو أصغر منه

(١) فى س "طغربل" .

(٢) فى س "قزل ارسلان بن ابل دكز" ، بدون ضبط . أما هذا السلطان الأخير من سلاجقة العراق فقد تولى الملك قاصرا صغيرا ، وكان صاحب أمره أولا الأتابك البهلوان محمد بن إيلدكز ، ثم بعد وفاته أخوه قزل أرسلان ، واسمه عثمان بن إيلدكز . وقد تمرد هذا السلطان الأديب لما أينع على قزل ، وظل يدفع عن شرف الدولة السلجوقية واستقلالها بالعراق حتى مات فى ميدان القتال سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٤ م) . راجع ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٣٤٦ — ٣٤٧ و٣٧١ — ٣٧٣ ؛ وأيضاً ج ١٢ ، ص ١٠ — ١٦ و ٤٩ — ٥٠ و ٦٩ — ٧٠) ، وراجع أيضاً (Enc. Isl. Art Tughril, II.)

(٣) اسم هذا الوزير " أبو شجاع مجير الدين بن مجير السعدى " . ومن هنا يتبين خطأ كاتب نسخة ب (ص ١٥ ا) إذ أورد الاسم على أنه " شاور بن مجير الدين السعدى ".

(٤) مضبوطة هكذا فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٦٣٢) ، وهى واقعة حسبما جاء فى نفس المرجع ، فى اران فى آخر حدود أذربيجان بقرب تفليس .

(٥) وظيفة الشحنة هى الشحنكية (انظر ص ٣٠ ، حاشية رقم ١) . أما بهروز مجاهد الدين الغياثى فقد كان صاحب الشحنة ببغداد مرات متعددة ، بين سنتى ٥٠٢ و ٥٤٠ هـ (١١٠٨ و ١١٤٥ م . وأصله عبد رومى من دوين ، ثم كانت قلعة تكريت من ضمن أملاكه ، فولى عليها صديقه وابن بلدة أيوب سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م .) راجع ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١٠ ، ص ٣٣٠ ، ٤٧٥ و ج ١١ ، ص ٧٠ و ٢٢٥ وأيضاً (Lane-Poole : Saladin, p. 5.) وكذلك (Enc. Isl. Art. Aiyūbids) .

(٦) أى حاكما على تلك القلعة (Dozy : Supp. Dict. Ar.) وانظر أيضاً ص ٣٥ حاشية ٥ .

سنا ، فخدم الشهيد زنكى لما انهزم ، فشكر له[١] ذلك . ثم إن شيركوه قتل رجلا بتكريت ، فطرد هو وأخوه من القلعة ، فسارا إلى زنكى فأحسن إليهما ، وأقطعهما إقطاعا حسناً ، ثم جعل أيوبَ مستحفظاً لقلعة بعلبك ، ثم ترقى وصار من أمراء دمشق . واتصل شيركوه بنور الدين محمود بن زنكى ، وخدمه فى أيام أبيه ، فلما مَلَكَ حلب بعد أبيه ، كان لنجم الدين أيوب عمل كبير فى أخذه دمشق ، فزادت مكانتهما عنده ، ولم ير أحداً يليق به أن يسير مع شاور إلى مصر سوى شيركوه[٣] ، فبعثه إليها ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف ، فكان من أمره ما ذكر فى أخبار العاضد[٤] ، فلما مات شيركوه قام من بعده صلاح الدين يوسف ، كما ستقف عليه فيما يأتى إن شاء الله تعالى[٥] .

(١٤ ا) السلطان الملك الناصر صلاح الدين[٦]

يوسف بن أيوب بن شادى بن مروان بن أبى على [بن عنترة] الحسن بن على بن أحمد بن أبى على بن عبد العزيز بن هُدْبَة بن الحصين بن الحارث بن سِنَان بن عمرو بن مرة بن عوف . ومن هنا اختلف النسابون : فقيل عوف[٧] بن أسامة بن نَبْهَش بن الحارثة [صاحب الحَمَالَة] ابن عوف بن ابن أبى حارثة بن مرة بن نُشْبَة بن غَيْظ بن مرة بن عوف بن[٨] سعد بن ذُبْيَان ابن بَغِيض بن رَيْث بن غطفان بن سعد بن قيس [بن] عيلان بن مضر[٩] بن نزار بن معد بن عدنان . ويقال إن على بن أحمد يعرف بالخراسانى ، مدحه المتنبى بقصيد منها : —

---

(١) انظر ص ٣٥ . (٢) وقعت هذه الحادثة سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨ م) .

(٣) بهامش الصفحة تفسير لهذا الاسم نصه : " معنى شيركوه اسد الغابة " .

(٤) لا يوجد كثير من أخبار العاضد هنا ، وليس بالنسخة المطبوعة من كتاب اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء شىء ، فإن آخر موضوعاته قتل الخليفة الحاكم بأمر الله (انظر ص ٩ ، حاشية رقم ٢) .

(٥) لكى يبتدىء المؤلف الموضوع التالى على ورقة جديدة ، ترك بقية هذه الصفحة (١٣ ا) والتى تليها بياضا .

(٦) يبدأ المؤلف فى س ، والناسخ فى ب ، عناوين الموضوعات الجديدة أول سطر دائما بقلم عريض ، بخط نسخ ، بمداد أحمر غالبا . غير أن بعضها طويل ، إذ ينتهى عنوان هذا الموضوع عند لفظ "شادى" (سطر ٩) فى المتن ، وقد اكتفى منه بالقطعة الأولى .

(٧) فى س "يبهس بن الحرث" . وبغير ضبط . (٨) فى س ذبيان بن بغيض ، وبغير ضبط .

(٩) ليس لهذه النسبة ، أو ما يشابهها من الأنساب العربية للأكراد ، نصيب من الصحة (انظر ص ٣ ، حاشية رقم ١) . ومع هذا فقد صححت الأعلام الواردة هنا على ماورد فى ترجمة صلاح الدين بالجزء المختار من وفيات الأعيان فى (Rec. Hist. Or. III, p. 400) .

شرق الجـو بالغبار إذا سار على بن أحمد القمقام

وقيل إن مروان من أولاد بنى أمية ، زعم ذلك إسماعيل بن طغتكين بن أيوب ، وأنكر ذلك عمه العادل أبو بكر . وذكر ابن القادسى[1] أن شادى كان مملوكا لبهروز الخادم . والحق أنه من الأكراد الروادية أحد بطون الهذبانية[2] ، من بلد دُوِيْن[3] فى آخر آذربيجان من جهة أران و بلاد الكرج . وكان له ابنان ، أكبرهما أيوب ثم شيركوه ، قدم بهما العراق فخدما عند بِهْرُوز ، فجعل أيوب على قلعة تكريت وكانت فى إقطاعه ، وقيل جعله بعد أبيه شادى ، فخدم أيوب وشيركوه عماد الدين زنكى لما انهزم إليها ، ثم قتل شيركوه رجلا ، فأخرجه بهروز من تكريت هو وأخاه أيوب ، وقد ولد يوسف بن أيوب تلك الليلة . فلحقا بزنكى ، واتصل أيوب بولده غازى بن زنكى ، وخدم شيركوه محمود بن زنكى. فأقام عماد الدين غازى أيوبَ بن شادى على قلعة بعلبك ، وما زال يترقى [حتى صار من أمراء دمشق]. ولد [صلاح الدين يوسف] بقلعة تكريت فى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وكان أبوه نجم الدين أيوب والياً بها ، ثم انتقل بابنه يوسف إلى الموصل ، وصار منها إلى الشام ، فأُعْطِى بعلبك ، فأقام بها مدّة . ونشأ يوسف وعليه لوائح السعادة ، وجالس مشايخ أهل العلم ، فجمع [له الشيخ[4] الإمام] قطب الدين أبو المعالى مسعود بن محمد بن مسعود النيسابورى[5] عقيدة تحوى

---

(١) انظر بعض أخباره فى (Blochet : Op. cit. p. 98,N. 1.) .

(٢) راجع ص ٤ ، وأيضا . (Rec. Hist· Or. III. p. 899) .

(٣) مضبوطة هكذا فى س .

(٤) الراجح أن المقريزى استعان بكتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد ، فى ترجمة صلاح الدين . غير أنه قضب العبارة كثيرا ، جعلها فى حاجة إلى كثير من الإضافة بين أقواس مربعة ، ولهذا رؤى إيراد ما جاء فى ابن شداد ، وهو : "وكان [صلاح الدين] رحمة الله عليه حسن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى ، قد أخذ عقيدته عن الدليل ، بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء . وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه ، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا حسنا ، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء . فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر الشبه ، غير مارق سهم النظر إلى التعطيل والتمويه ، جارية على نمط الاستقامة ، موافقة لقانون النظر الصحيح ، مرضية عند أكابر العلماء . وكان قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابورى عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه فى هذا الباب ..." (Rec. Hist. Or. III. p. 7.) .

(٥) بهامش الصفحة إشارة تاريخية ، ونصها : "ولد مسعود هذا فى سنة خمس وخمسمائة ، ومات بدمشق سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وكان إماما فاضلا فى علوم الديانة" .

جميع ما يحتاج إليه ، فمن شدة حرصه عليها كان يعلمها صغار أولاده ويأخذها عليهم ، وكان يواظب الصلاة مع الجماعة ، حتى قال يوما : "لى سنين ماصليت إلا فى جماعة" . وكان إذا مرض استدعى الإمام وحده ، وصلى خلفه . وصار فى خدمة نور الدين محمود بن زنكى ، فخرج مع عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر ، فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وقدمها . ثم عاد إلى الشام ، وقدّمها ثانيا مع عمه ، وحضر وقعة البابين[1] ، وحصره الفرنج بالإسكندرية . ثم خرج مع عمه إلى الشام ، وسار معه فى الكرة الثالثة على كرهٍ منه فى المسير إلى مصر ، فقدمها فى سنة أربع وستين ، ولما تقاعد شاور عن إجابة شيركوه . وإعطائه ماتقدّم به الوعد لنور الدين والعسكر ، تشاوروا على الإحاطة به والقبض عليه ، فلم يجسر عليه أحد منهم إلا صلاح الدين : فإنه لما قدم عليهم شاور على عادته فى كل يوم ، وساروا معه لقصد أسد الدين ، سار صلاح الدين إلى جانبه وأخذ بتلابيبه ، وأمر العسكر بأخذ أصحابه ، ففروا عن شاور ، ونهب الغز ما كان معهم ، وسيق شاور إلى المخيم وقتل[1] . فاستقر أسد الدين [شيركوه] بعده فى وزارة العاضد إلى أن مات ، فى ثانى عشرى جمادى الآخرة من سنة أربع وستين . ففَوَّض العاضد وزارته إلى صلاح الدين ، ونعته بالملك الناصر ، فمشَّى الأحوال ، وبذل الأموال ، واستعبد الرجال ، وتاب عن الخمر فترك معاقرته ، وأعرض عن اللهو . ودبَّر الأمر فى نوبة نزول الفرنج على دمياط أحسن تدبير ، حتى رحلوا عنها خائبين ، فنُهبت آلاتهم وأحرقت مجانيقهم ، وقُتل منهم خلق كثير . وتمكنَّ [صلاح الدين] فى مصر ، فقدم عليه أبوه نجم الدين أيوب وإخوته وأهله . ثم إنه دأب فى إزالة الدولة الفاطمية وقَطْع دابرها ومحو آثارها ، فأعانه الله على ذلك ،

---

(١) تقع هذه البلدة عند مسافة عشرة أميال جنوبى المنيا ، وقد اشتبك عندها ، فى ١٨ إبريل سنة ١١٦٧ م ، شيركوه مع شاور وحليفه عمورى (Amaury) ملك الدولة الصليبية ببيت المقدس ، وانتصر شيركوه عليهما بفضل قائد قلب جيشه صلاح الدين . (Lane-Poole : Saladin, pp. 88 - 89)

(٢) بعد قتل شاور ، طلب الخليفة العاضد أيضا "ولد شاور الملك الكامل ، وقتله فى الدهليز؛ وقتل أخاه" كذلك (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٠٠ ، وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٢٠ — ٢٢٤) .

(٣) فى س "مناجنيقهم" . ويشير المؤلف هنا إلى حصار الصليبيين دمياط فى نوفبر سنة ١١٦٩ م ، وإلى جلائهم عنها فى ديسمبر من السنة نفسها . (Lane-Poole : Saladin, pp. 103-105)

ومات العاضد وقد قطع [صلاح الدين] خطبته ، وأمر الخطباء بالدعاء (١٤ ب) للمستضىء [بأمر الله العباسى] ، فاستولى على القصر[١] وما يحويه ، فى عاشر المحرّم سنة سبع وستين . وأخذ يتأهب لغزو الفرنج ، وقد انفرد بسلطنة ديار مصر . وكتب العماد الإصفهانى بشارة تُقرأ فى سائر بلاد الإسلام بإقامة الخطبة العباسية بمصر ، و بشارة ثانية تقرأ بحضرة الخليفة المستضىء بنور الله فى بغـداد ، على يد القاضى شهاب الدين المطهر بن شرف الدين بن عَصْرُون . فسار [القاضى] ، ولم يترك مدينة ولا قرية إلا وقرأ فيها المنشور ، حتى وصل بغداد ، فخرج النـاس إلى لقائه ، ودخل يوم السبت ثانى عشريه ، فَعُلِّقَت أسواق بغداد بالزينة ، وخلـع عليه .

وفى يوم الجمعة رابع[٢] عشره أخرج الـكامل شجاع بن شاور ، من المكان الذى قُتل فيه بالقصر ودفن فيه ، فوجدت الجثة مختلطة بجثتى[٣] عمه وأخيه ، فجمعوا فى تابوت حمل[٤] إلى قبر شاور ، فنبش عنه وأُخرج منه ، وكان فى مكان غامض ، وحمل فى تابوت . وساروا بالتابوتين إلى تربة طى[٥] بن شاور فدفنوا بها . وفى تاسع عشره رحل السلطان الملك الناصر من القاهرة ؛ ونزل البئر البيضاء[٦] يريد بلاد الشام ، فوصل إلى الشوبك ، فواقع الفرنج ، وعاد على أيلة ، وهلك منه نحو الخمسة آلاف رأس ، ما بين جمل وفرس ، فى هذه السفرة .

وفيهـا فُرِّقت الزكوات فى ثالث ربيع الأوّل على الفقراء والمساكين ، وأبناء السبيل والغارمين ، ورفع إلى بيت المـال سهم العاملين والمؤلفة وفى سبيل الله وفى الرقاب ، وأُخذت

---

(١) قصور الفاطميين بالقاهرة كثيرة ، ولعل المقصود هو القصر الـكبير الذى بدأ بناءه القائد جوهر الصقلى سنة ٩٦٩ م . (Lane-Poole : Cairo 126-128) .

(٢) أى المحرم سنة ٥٦٧ م ويقع هذا التاريخ يوم الجمعة بالضبط .

(٣) لعل المقصود هو صبح أخو شاور ، الذى جرح جرحا بليغا مات منـه فى تلك الأيام (حسن إبراهيم حسن . الفاطميون فى مصر ، ص ٣٠٣) .

(٤) فى س "وحمل" .

(٥) أولاد شاور ثلاثة ، وهم : طى وشجاع وسليمان والأول أكبرهم ، وقد قتل سنة ١١٦٣ م ، بعد قليل من سفر أبيه شاور إلى الشام ، لاستنجاد نور الدين على ضرغام . (Enc. Isl. Art. Shawar) قارن هذا بما هو وارد فى حسن إبرهيم حسن : الفاطميون فى مصر ، ص ٢٩٩ — ٣٠٠) .

(٦) لم يرد هذا الاسم فى معجم البلدان لياقوت ، غير أن "البيضاء" فقط "اسم لأربع قرى بمصر ، الأولى من كورة الشرقية" ، والراجح أن هذه القرية هى ما قصد المقريزى هنا (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٩٣) .

الزكاة من البضائع ، وعلى ما اقتدر عليه من المواشى والنخل والخضراوات ، وقررت السكة باسم المستضىء بأمر الله ، وباسم الملك العادل نور الدين ، فنُقِش اسم كل منهما فى وجه ، وذلك فى سابع شهر ربيع الآخر . وفيه قُلِعت المناطق الفضة التى كانت بمحاريب جوامع القاهرة التى فيها أسماء الخلفاء الفاطميين ، وكان وزنها خمسة آلاف درهم فضة نُقْرة[١] . وفيه أنزل العز بالقصر الغربى ، وأخرج من كان ساكناً فيه . وَوَرَد الخبر بأن الخمور — بعد تعطيلها ، وغلق حاناتها وقطع ذِكرها ، بالإسكندرية — أعيدت ببذل مال لديوان نجم الدين أيوب ، ففُتحت مواضعها وظهرت مناكرها[٢] . وفى جمادى الآخرة قُرِّرَ دينار الأسطول[٣] بنصف وربع دينار ، بعد أن كان بنصف وثمن دينار . وفى سابعه وُلِد عثمان الملك العزيز[٤] وفى ثالث عشريه كشف حاصل القصر بالخزائن الخاصة ، فوجد فيها مائة صندوق كُسوة فاخرة ، ما بين مُوَشَّح ومُرَصَّع ، وعقود ثمينة ، وذخائر فخمة ، وجواهر نفيسة ، وغير ذلك من ذخائر عظيمة . وكان الذى تولى كشفها بهاء الدين قَرَاقُوش[٥] . وفيها كثرت عادية الفار فى أكل ثمار النخل والأقصاب والأشجار ، وانتهى الحال إلى أن اعتصر من مائة فدان مزروعة قصباً ستون أبلوجاً[٦] . ومع هذا فالأسعار[٧]

---

(١) الفضة النقرة عبارة عن سبيكة من الفضة والنحاس الأحمر ، بنسبة ثلثين من الفضة وثلث من النحاس الأحمر ، ومنها كانت تضرب الدراهم النقرة : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٣ ، ٤٦٦ — ٤٦٧) .

(٢) فى س "ففتحت مواضعه وظهرت مناكره" .

(٣) عنى الفاطميون بالأسطول ، وكان قواده فى أيامهم عشرة ومرتباتهم من ديوان الجيش ، وهذه تختلف من عشرين دينارا إلى دينارين وعبرتها راجعة إلى الإقطاعات التى تعرف بأبواب الغزاة ، والتى منها رواتبهم ، ولهذا كان يصل دينارهم — أى دينار الأسطول — بالمناسبة إلى النصف . وقد اعتنى صلاح الدين أيضا بالأسطول ، وأفرد له ديوانا خاصاعرف بديوان الأسطول ، وعين له نواحى عديدة من الخراج ، كما زاد فى إقطاعاته وفى ديناره إلى ما هو مبين بالمتن (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٨٢ — ٤٨٣ و ج ٢ ، ص ١٨٩ — ١٩٧) . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٢ ، ٤٤٠ — ٤٤٣ .

(٤) ثانى أولاد صلاح الدين . انظر أخبار سلطنته فيما يلى .

(٥) فى س ، ب (ص ١٦ ب) "قراغوش" ، وسيصحح إلى الرسم الوارد هنا فى سائر المتن بلا تنبيه . واسمه بهاء الدين بن عبد الله الأسدى الرومى المالكى ، وأصله عبد طواش ، أعتقه أسد الدين شيركوه ، وأصبح فى أوائل أيام وزارة صلاح الدين حاجبا ، وقد نيطت به بعد ذلك أعمال هامة كبناء قلعة الجبل بالقاهرة ، واستمر موضع ثقة صلاح الدين ، وولده عثمان من بعده كما سيأتى ذكره . (Enc· Isl· Art· Karakūsh)

(٦) فى س ابلوجه ، ويفسره (Dozy: Suqq. Dict· Ar.) بأنه (pain de sucre) أى قمع سكر .

(٧) فى س الأسعار .

رخيصة ، (١٥ ا) والغلة كل ثلاثة أرادب من القمح بدينار ، والشعير كل ثمانية أرادب بدينار ، والفول كل أربعة عشر أردبا بدينار ، والسكر كل قنطار بثلاثة دنانير . وفى تاسع رجب وصلت الخلع التى نُفِّذت إلى نور الدين من الخليفة ببغداد ، وهى فَرَجيَّة سوداء وطوق من ذهب ، فلبسها نور الدين ، وسيرها إلى الملك الناصر ليلبسها ، وكانت نفذت له خِلعة ذُكر أنه استقصرها واستنزرها واستصغرها دون قدرة . فبات الواصل بالخلع برأس الطابية ؛ فلما كان العاشر منه خرج قاضى القضاة صدر الدين بن دَرْبَاس[1] والشهود والمقرئون والخطباء إلى خيمة الواصل بالخلعة ، وهو من الأصحاب النجمية ، وزُيِّنت البلد . وفيه ضُربت نُوَب الطبلخاناه[2] بالباب الناصرى ثلاث مرات فى كل يوم ، وضربت بدمشق خمس مرات كل يوم بالباب النورى . وفى حادى عشره ركب السلطان بالخلع ، وشق بين القصرين والقاهرة ، فلما بلغ باب زويلة نزعها وأعادها إلى داره ، وبرز للعب الكرة . وفيها عمت بلوى الضائقة بأهل مصر ، لأن الذهب والفضة خرجا منها وما رجعا ، وعُدِما فلم يوجدا ، ولَهِج الناس بما عمّهم من ذلك ، وصاروا إذا قيل دينار أحمر فكأنما ذكرت حرمة الغيور له ، وإن حصل فى يده فكأنما جاءت بشارة الجنة له . ومقدار ما يُحْدَس أنه

---

(١) مضبوطة على منطوقها الفرنسى فى (Blochet : Op. cit. p 105) .

(٢) الطبلخاناه — بالهاء — لفظ مركب من كلة طبل وهى عربية ، وكلة خاناه وهى فارسية ، ومعناه مكان الفرقة الموسيقية السلطانية ، أو الفرقة الموسيقية نفسها . وكانت العادة أن تدق نوبة فى كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب ، وتكون صحبة السلطان فى الأسفار والحروب . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ح ٤ ، ص ٨ — ٩ و ١٣) . وانظر أيضا : (G. - Demombynes : La Syrie, Introd. P. LIV) .
وفى هامش الصفحة عبارة تفسيرية لأصل نظام نوبات الطبلخاناه ، وهذا نصها : "أصل ذلك أن السلطان علاء الدين خوارزم شاه لما عزم على المسير إلى العراق ، وخالف على الخليفة الناصر ، ضرب لنفسه نوبة ذى القرنين تعاظما ، وهى [فى] وقتى الشروق والغروب ، بعد ما كانت ، بعد ما كانت تضرب له خمس نوب فى أوقات الصلوات الخمس ، ووهبها لأولاده يضربونها فى الأقاليم التى سماها لهم على أبواب دور سلطنتهم ، فلذلك كان نور الدين يضرب بدمشق النوب الخمس . أول يوم ضربها خوارزم شاه اختار لضربها سبعة وعشرين ملكا من أكابر الملوك وأولادهم ، وكانت آلات النوبة من الذهب" .

(٣) فى س، "وم" ،وهى فى ب (ص ١٧ ا) " ثم لعب" .

من القصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وطبوس[١] وأثاث وقماش وسلاح ما لا يفى به مُلك الأكاسرة ، ولا تتصوره الخواطر ، ولا تشتمل على نيله الممالك ، ولا يَقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق فى الآخرة . وفيها عرض السلطان العربان الجذاميين[٢] ، وكانت عدتهم سبعة آلاف فارس ، فاستقرت على ألف وثلاثمائة فارس لا غير ، وأُخذ بهذا الحكم عُشر الواجب ، وكان أصله ألف ألف دينار ؛ وكُلِّف الثعالبة [مثل] ذلك فامتعضوا ، ولوّحوا بالتحيز إلى الفرنج . وفى ثانى عشرى رجب أقيمت الخطبة فى صلاة الجمعة بمصر والقاهرة ، وقد نصبت على المنابر الأعلام السود ، ولبس الخطباء ثياباً سوداً أُرسل بها من بغداد . وجُرِس فى البلد بألا يتأخر أحد عن الجمعة وحضورها ، والفريضة وأدائها ؛ ومن عُثر عليه (١٥ ب) عومل بالحبس والتقييد واللوم والتفنيد ، لحضر من لا يريد الحضور . وفى ثالث عشريه خُلع على الوفد الشامى خلع مذهبات من بقايا ما أخذ من القصر ، وأقيمت ضيافاتهم وأُدِرَّت أنزالاتهم.
وفى شعبان وقع بَرَد فى الدقهلية والمُرْتَاحية[٣] كأنه الأحجار المدوّرة ، فاستهلك الغلات ، وأصاب منها واحد رأس ثور فمات من ساعته ، و بلغ وزنها ما بين رطل كل بَرَدَة إلى رطلين . وفيه سارت الرسل من القاهرة إلى نور الدين بلبس الخلع ، و بتقرير ما أمر به [صلاحَ الدين] من المال فى كل سنة . وفيه أمر السلطان بصرف أهل الذمة والمنع من استخدامهم فى أمر سلطانى ولا شغل ديوانى ، فصُرف جماعة ، ولم ينصرف واحد منهم من كتابة الغز ، وأُرجف بإخراجهم من البلد وأَخْذ مساكنهم . فلما كان الخامس عشر منه صُرفت جماعة من وجوه [أهل] الذمة من الأشغال السلطانية ، و بقى بعضهم ، وكتاب الغز على حالهم ،

---

(١) كذا فى س والصحيح "الطباسى" جمع "طبسى" وهو الإناء الصغير . أما الطبوس فهى جمع طبس وهو الذئب . (Dozy: Supp· Dict· Ar.)

(٢) فى س "الجذاميون" .

(٣) الدقهلية والمرتاحية هما الجزء الشمالى من مديرية الدقهلية الحالية ، وكانا قسمين إداريين إلى عصر المماليك البحرية ، ثم صارا قسما واحدا . وتنسب الدقهلية إلى دقهلة ، التى تقع حسبما جاء فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٨١) على أربعة فراسخ جنوبى دمياط . وكان من حدود هذه الكورة أو القسم الإدارى الجديد فى الجنوب بلدة السمبلاوين ، وفى الشمال قرب بلدة شربين . وأما الأراضى الواقعة على ضفتى فرع دمياط ، فيما يلى هذه الكورة إلى البحر ، فكانت تسمى ثغر دمياط : (P· Omar Toussoun : La Geog. de L'Egypte ... Arabe, T. I. P. 221).

وامتنعوا من صرفهم بأنهم قد دَربوا أمرهم ، ويخشَوْن بإخراجهم ضَياعَ أمورهم . وفى حادى عشريه خرج السلطان إلى الإسكندرية ، وسبب خروجه إليها كثرة رجاله وقلة أمواله بحيث ضاق به التدبير ، فقيل له إن فى بلاد برقة أموالا[1] متسعة ، وليس بها إلا عربان غير مانعة ، فخرج لذلك . وعقد بالإسكندرية مشوراً ، حضره [أبوه] نجم الدين أيوب وشهاب الدين [الحارمى] وتقى الدين[2] [عمر] ، بسبب المسير إلى بلاد الغرب ، ومبادرة زرعها قبل حصاده . وكوتب مَن بمصر والقاهرة من الجند بالحضور ، وتجهيز الأسواق من السَّقَطِيين[3] والبياطرة وغيرهم ، وكوتب العربان بطلب الزَّكوات والإنكار عليهم فى قطع الطريق على الجلاّبين . واتضح أنه عُدم فى هذه السنة مائة ألف رأس من الغنم . واستقرّ الرأى على أن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن [نجم الدين] أيوب يتوجه بعسكره ومعه خمسمائة فارس أُخَر ، وتقررت حوالتهم فى النفقة عليهم على [كورة] البحيرة وفى ذى القعدة كثرت المناسر[4] وهجموا [على] الدروب بالسلاح والشموع ، وحاربوا الناس ، وأخذوا المنازل ، وأحرقوا الدور بمصر . وفى ذى الحجة وصل رسول متملك الحبشة بهدية وكتاب إلى [الخليفة] العاضد ، فقرئ كتابه وأخذت هديته . ووصل عسكر ملك النوبة إلى القرى المتاخمة لثغر أسوان .

وفيها ابتدأت الوحشة والنفرة بين الملك العادل (١٦ ا) نور الدين محمود وبين السلطان صلاح الدين يوسف : وذلك لأن نور الدين بعث إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية ، والمسير بها إلى بلاد الفرنج ومحاصرة الكرك ، ليجتمع هو وإياه على ذلك . فبرز [صلاح الدين] وكتب إلى نور الدين بذلك ، فخوّفه أصحابه من الاجتماع بنور الدين . وكان نور الدين قد جمع عساكره ، وأقام ينتظر الخبر ، فلما أتاه الخبر بأنه قد برز رحل عن دمشق ، ونازل الكرك وهو ينتظر قدوم صلاح الدين ؛ فأتاه كتابه يعتذر عن الوصول باختلال بلاد مصر والخوف

---

(١) فى س اموال .

(٢) شهاب الدين خال صلاح الدين ، وتقى الدين هو عمر بن شاهنشاه ، أى ابن أخى صلاح الدين (انظر ما يلى) .

(٣) الغالب أن المؤلف يقصد بهذا الاسم صغار الباعة عموما ، على أنه يحتمل أيضا أنه أراد باعة السقط والكروش . انظر (Dozy' Supp. Dict' Ar.) و(Blochet: Op. cit. p. 109) .

(٤) المنسر بفتح الميم وكسرها شرذمة من العسكر . (محيط المحيط) .

عليها ، ويعلمه أنه عاد إلى القاهرة ؛ فعظم ذلك على نور الدين ، وعزم على دخول مصر وقَلْع صلاح الدين منها . فبلغ ذلك صلاح الدين ، فخاف وجمع أهله وخواصه واستشارهم ، فقال تقى الدين عمر ابن أخيه : — "إذا جاء قاتلناه كلنا ، وصددناه عن البلاد" ، ووافقه جماعة من أهله على ذلك . فسبَّهم نجم الدين أيوب ، وأنكر عليهم ، وكان ذا رأى ومكر ، وقال لابن ابنه تقى الدين : "اقعد" ، وسبَّه . والتفت إلى ولده السلطان صلاح الدين وقال : "أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين الحارمى خالك ! أتظن فى هؤلاء من يحبك ويريد لك الخير أكثر منا ؟" قال : "لا" . فقال [نجم الدين] : "والله لو رأيتُ أنا وخالك هذا السلطانَ نورَ الدين لم يمكّنا إلا أن نترجل له ، ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا . فإذا كنا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا ؟ وكل من تراه من الأمراء والعساكر ، لو رأى السلطان نورَ الدين وحده لم يتجاسر على الثبات فى سرجه ، وما يسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه . وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها نائباً عنه ، فإن أراد عزلك فأى حاجة إلى المجىء ؟ يأمرك بكتاب مع نجّاب حتى تقصد خدمته ، ويولى البلاد من يريد" وقال للجماعة كلهم : "قوموا عنا ، فنحن مماليك السلطان نور الدين وعبيده ، يفعل بنا ما يريد" . فتفرقوا على هذا ، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بهذا الخبر . ثم إن نجم الدين خلا بابنه صلاح الدين وقال له : "أنت جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما فى نفسك ، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد ، جعلك أهم أموره وأولاها بالقصد ، ولو قصدك لم تَرَ معك أحداً من هذا العسكر ، وأسلموك إليه . وأما بعد هذا المجلس فإنهم سيكتبون إليه بقولى ، فاكتب أنت إليه أيضاً فى المعنى (١٦ ب) وقل له : "أى حاجة إلى قصدى ؟ نجاب يجىء فيأخذنى بحبل يضعه فى عنقى ، فإنه إذا سمع هذا عدل عن قصدك ، واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج ، والله عز وجل كل يوم هو فى شأن" . ففعل صلاح الدين ما أشار به أبوه ، فانخدع نور الدين وعدل عن قصده ، واندرجت الأيام كما قال نجم الدين ، ومات نور الدين .

---

(١) كذا فى س بغير ضبط .

وفيها اتخذ نور الدين محمود بالشام [الحَمَام الهَوَادِى لنقل البطائق[١]] . وفيها ولى أمير الينبع خطابة الجامع العتيق ، بعد موت الشريف تاج الشرف[٢] حسن بن أبى الفتوح ناصر فى الحرم .

* * *

سنة ثمان وستين وخمسمائة . فيها خرج صلاح الدين بعساكره يريد بلاد الكرك والشوبك : فانه كان كلما بلغه عن قافلة أنها خرجت من الشام تريد مصر خرج إليها ليحميها من الفرنج ، فأراد التوسيع فى الطريق وتسهيلها . وسار إليها وحاصرها ، فلم ينل منها قصداً وعاد . وفيها جهز [صلاح الدين] الهدية إلى السلطان نور الدين ، وفيها من الأمتعة والآلات الفضية والذهبية والبَلوْر واليَشْم[٣] أشياء يعز وجود مثلها ، ومن الجواهر واللآلئ شىء[٤] عظيم القدر ، ومن العين ستون[٥] ألف دينار ، وكثير[٦] من الغرائب المستحسنة ، وفيل وحمار عَتَّابى[٧] ، وثلاث قطع بَلَخْش[٨] فيها ما وزنه نيف وثلاثون مثقالا ، وكان ذلك فى شوال . وفيها خرج العبيد من بلاد النوبة لحصار أسوان ، وبها كنز الدولة[٩] ، فجهز السلطان الشجاع البعلبكى فى عسكر كبير فسار إلى أسوان ، وقد رحل العبيد عنها ، فتبعهم ومعه كنز الدولة ، وواقعهم وقتل منهم كثيراً ، وعاد إلى القاهرة . وفيها سار الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين تورانشاه بن أيوب ، أخو[١٠] السلطان صلاح الدين ، إلى بلاد النوبة ، وفتح قلعة إِبْرِيم[١١] وسبى وغنم ، وعاد إلى أسوان ؛

---

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٤٦) لتعذر قراءته فى س ، بسبب وروده بهامش بين ملتصق الصفحتين ١٦ ب ، ١٧ ا .

(٢) فى س الشرف .

(٣) حجر ثمين قريب من الزبرجد (Blochet : Op. Cit. P. 116)

(٤) فى س شيا . (٥) فى س ستين . (٦) فى س كثيرا .

(٧) الغالب أن المؤلف يقصد نوعا من حمير الوحش ، لأن كلمة "عتابى" تطلق على صنف من قماش خشن مخلط بحمرة وصفرة ، وفراء حمار الوحش مخطط أيضا . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٨) نوع من الياقوت ، والعامة تميزه من غيره بهذا الاسم ، غير أن التسمية الصحيحة هى "الياقوت البدخشى" نسبة إلى جهات بدخشان فى أقصى شرقى أفغانستان . انظر (Blochet : Op. cit. P. 110) وكذلك (Quatremére: Maml. II. I. P. 71).

(٩) اسمه أيضا "الكنز" فقط ، وهو مصرى من الصعيد ، انتزع إلى أسوان لما شرد صلاح الدين الجنود السودانية الفاطمية بعد كشف مؤامرة الطواشى مؤتمن الخلافة . وقد جمع الكنز إليه بقايا تلك الجنود ، وحاول معهم إعادة الدولة الفاطمية (ابن شداد النوادر السلطانية ، ص ٥٦ فى Rec. Hist. Or. (Vol, III. .

(١٠) فى س "اخى" .

(١١) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. P. III).

وأقطع إبريم رجلا يعرف بإبراهيم الكردى ، فسار إليها فى عدّة من الأكراد ، وانبثوا يشنون الغارات على بلاد النوبة ، حتى امتلأت أيديهم بالأموال والمواشى بعد فقر وجهد . فوافى كتاب ملك النوبة إلى شمس الدولة وهو بقوص مع هدية ، فأكرم رسوله وخلع عليه ، وأعطاه زوجين من نشاب ، وقال له : "قل للملك مالَكَ عندى جواب إلا هذا" . وجهز معه رسولا ليكشف له خبر البلاد ، فسار إلى دُمقلة[1] وعاد إليه ، فقال : "وجدت بلاداً ضيقة ، ليس بها من الزرع سوى الذرة ونخل صغير منه أدامهم ؛ ويخرج الملك وهو عريان على فرس عُرْى ، وقد التف فى ثوب أطلس ، وليس على رأسه شعر . فلما قدمت عليه وسلمت ضحك وتغاشى ، وأمر بى فكُويت على يدى هيئة صليب ، وأنعم علىّ بنحو خمسين رطلا من دقيق . وليس فى دمقلة[2] (١٧ ا) عمارة سوى دار الملك ، وباقيها أخصاص" . وفيها عظم همُّ [السلطان] نو الدين بأمر مصر ، وأخَذَه من استيلاء صلاح الدين عليها المقيمُ المقعد ، وأكثر من مراسلته بحمل الأموال ، ثم بعث بوزيره الصاحب موفق الدين خالد بن محمد بن نصر بن صغير[3] القيسرانى إلى مصر ، لعمل حساب البلاد ، وكشف أحوالها ، وتقرير القطيعة على صلاح الدين فى كل سنة ، واختبار طاعته ؛ فقدم إلى القاهرة وكان من أمره ما يأتى ذكره إن شاء الله .

وفيها مات أيوب بن شادى بن مروان بن يعقوب نجم الدين الملقب بالملك الأفضل أبى سعيد الكردى ، والد السلطان صلاح الدين يوسف . وذلك أنه خرج من باب النصر بالقاهرة ، فألقاه الفرس إلى الأرض يوم الثلاثاء ثامن عشر ذى الحجة ، فحمل إلى داره فى تاسع عشره وقيل لثلاث بقين منه ، فقُبر عند أخيه أسد الدين شيركوه ، ثم نقلا إلى المدينة النبوية فى سنة ثمانين وخمسمائة .

---

(١) كذا فى س دائما ، وهى أيضاً صحيحة بالنون بدل الميم (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٩٩ و ٦١١) .

(٢) بين الصفحتين ١٦ ب و ١٧ ا هامش على ورقة منفصلة . وقد لصق هنالك خطأ ، وموضعه المناسب حيث حوادث سنة ٥٧٥ ، فلينظر هناك .

(٣) فى س "صغير" ، وقد صححت على منطوقها فى (Blochet: Op. cit. P. 112) .

* * *

سنة تسع وستين وخمسمائة . فيها وصل إلى القاهرة موفق الدين أبو البقاء خالد ابن محمد بن نصر بن صغير المعروف بابن القيسرانى من عند السلطان الملك العادل نور الدين ، مطالباً لصلاح الدين بالحساب عن جميع ما أُخذ من قصور الخلفاء وحصّل من الارتفاع[1]. فشق ذلك عليه وقال : "إلى هذا الحد وصلنا ؟" وأوقفه على ما تحصل له ، وعرض عليه الأجناد ، وعرفه مبالغ إقطاعاتهم وجامكياتهم[2]، ورواتب نفقاتهم . ثم قال : "وما يُضبط هذا الإقليم العظيم إلا بالمال الكبير ، وأنت تعرف أكابر الدولة وعظماءها ، وأنهم معتادون بالنعمة والسعة وقد تصرفوا فى أماكن لا يمكن انتزاعها منهم ، ولا يسمحون بأن ينقص من ارتفاعها "، وأخذ يجمع المال . وفيها سار الأمير شمس الدولة تورا نشاه ، أخو السلطان صلاح الدين ، إلى اليمن : وذلك لشدّة خوف صلاح الدين وأهله من الملك العادل نور الدين أن يدخل إلى مصر وينتزعهم منها ، فأحبوا أن يكون لهم مملكة يصيرون إليها ، وكان اختيارهم قد وقع على النوبة ، فلما سار إليها لم تعجبه وعاد ، وكان الفقيه عُمارة اليمانى قد انقطع إلى الأمير شمس الدولة ، ومدحه واختص به وحدثه ، عن بلاد اليمن وكثرة الأموال بها ، وهون أمرها عنده ، وأغراه بأن يستبد بملك اليمن ، وتعرض لذلك فى كلمته التى أولها :

العِلْمُ[3] مذ كان محتاج إلى العَلَمِ * وشفرة السيف تستغنى عن القَلَمِ

ومنها : —

فاخْلُقْ لنفسك ملكا لا تُضاف به * إلى سواك وأوْرِ النار فى العلم

هذا ابن تومرت قد كانت بدايته * كما يقول الورى ، لحما على وضم

(١) الارتفاع ما يتحصل من الدواوين عامة . راجع الفهرس .

(٢) الجامكيات الرواتب عامة (Dozy : Supp. Dict. Ar.) وفى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٧) أن نفقة مماليك السلطان كانت عبارة عن "جامكيات وعليق وكسوة وغير ذلك" .

(٣) كثير من أبيات هذه القصيدة وارد فى ترجمة عمارة اليمنى وقد قوبل الوارد هنا عليها . انظر (Derenbourg: Oumara du Yemen, T. I. PP. 352—355, T. 2· PP. 619—620)

(١٧ ب) وكان شمس الدولة مع ذلك جوادا كثير الإنفاق ، فلم يقنع بمـاله من الإقطاع بمصر ، وأحب التوسع ، فاستأذن صلاح الدين فى السـير ، فأذن له واستعد لذلك ، وجمع وحشد ، وسار مستهل رجب . فواصل إلى مكة فزَارَ ، ثم خرج منها يريد اليمن ، وبها يومئذ أبو الحسن على بن مهدى ، ويقال له عبد النبى . فاستولى على زَبيد فى سابع شوّال ، وقبض على عبد النبى ، وأخذ ما سواها من مدائن اليمن ، وتلقب بالملك المعظم ، وخُطب له بذلك بعد الخليفة المستضىء بأمر الله فى جميع ما فتحه ، وبعث إلى القاهرة بذلك . فسير السلطان صلاح الدين إلى الملك العادل يعلمه بذلك ، فبعث بالخبر إلى الخليفة المستضىء ببغداد[(١)] .

وفى سادس شعبان قُبض على أولاد العاضد وأقاربه ، وأخرجوا من القصر إلى دار المظفر بحارة بَرْجَوَان ، فى العشر الأخير من رمضان .

وفيها اجتمع طائفة من أهل القاهرة على إقامة رجل من أولاد العاضد ، وأن يفتكوا بصلاح الدين[(٢)] ، وكاتبوا الفرنج : منهم القاضى المفضل ضيـاء الدين نصر الله بن عبد الله ابن كامل القـاضى ، والشريف الجليس ، ونجاح الحـامى ، والفقيه عمارة بن على اليمانى ، وعبد الصمد الـكاتب ، والقاضى الأعز سلامة العَوْريس[(٣)] متولى ديوان النظر[(٤)] ثم القضاء ، وداعى الدعاة عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوى ، والواعظ زين الدين بن نجا ، فوشى [ابن[(٥)] نجا] بخبرهم إلى السـلطان ، وسأله فى أن ينعم عليه بجميع ما لابن كامل الداعى من الدور

---

(١) قبالة هذه العبارة كلمة "انظر" بالهامش .

(٢) قصة هذه المؤامرة منشورة بنصها فى كتاب تاريخ عمارة اليمنى تحت عنوان "نبذة من كتاب السلوك ..." (Derenbourg: Onmara, T. II. PP. 650—652).. وقد قوبل ما هنا عليها .

(٣) بغير ضبط فى س .

(٤) تقاصر منصب الوزارة بمصر منذ عصر الأيوبيين ، وشارك الوزير فى أعماله وتصريفها النظار ، وتنوعت ألقاب هؤلاء بحسب الأعمال التى آلت إليهم : فناظر الجيش هو الذى يتحدث فى أموال الجيوش وينظر فى حسابها ؛ وناظر الخاص هو الذى ينظر فى خاص أموال السلطان ؛ وناظر الدولة وعمله مشاركة الوزير فى التصرف عامة ، والنظر فى المالية وأرزاق أصحاب القلم من الموظفين خاصة . واسمه أيضاً ناظر الدواوين ، وأحيانا ناظر النظار أو الصاحب الشريف ، ومقره ديوان النظر . ويعاونه فى أعماله متولى الديوان ، وهو ثانى رتبة الناظر . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٥ — ٤٦٦ ، (G. — Demombynes: Op. cit. P. LXVIII)

(٥) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن الأثير (الـكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٦٢ — ٢٦٤) .

والموجود كله ، فأجيب إلى ذلك ، فأحيط بهم وشنقوا فى يوم السبت ثانى شهر رمضان بين القصرين : فشُنق عمارة وصلب فيما بين بابى الذهب و باب البحر ؛ و ابن كامل فى رأس الخُرُوقِيين التى تعرف اليوم بسوق أمير الجيوش ، والعوريس على درب السلسلة ، وعبدالصمد وابن سلامة وابن المُطَّىّ[1] الأمير ومصطنع الدولة والحاج ابن عبد القوى بالقاهرة ، وشنق ابن كامل القاضى بالقاهرة يوم الأربعاء تاسع عشر شوّال ، وشنق أيضاً شُبْرُمًا[2] وأصحابه وجماعة من الأجناد والعبيد والحاشية و بعض أمراء صلاح الدين ، وقبض [صلاح الدين] سائر ما وجد عنهم من مال وعقار ، ولم يمكّن ورثتهم من شىء البتة ؛ وتتبع من له هوى فى الدولة الفاطمية ، فقتل منهم كثيراً وأسر كثيراً ، ونودى بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجلُ السودان إلى أقصى بلاد الصعيد . وقُبض على رجل يقال له قديد بالإسكندرية ، من دعاة الفاطميين ، يوم الأحد خامس عشرى رمضان وقُبض على كثير من السودان ، وكووا بالنار فى وجوههم وصدورهم[4] .

وفيها جهز السلطان مع الوزير ابن القيسرانى ما تحصل عنده من المال ، وأصحبه هدية نورالدين : وهى خمس خَتْمات إحداها فى ثلاثين جزءا ، مغشاة بأطلس أزرق ومُضَبَّبَة بصفائح ذهب ، وعليها أقفال من ذهب مكتوبة بخط ذهب ؛ وأخرى فى عشرة أجزاء مغشاة بديباج فُسْتُقى ؛ وأخرى فى جلد بخط ابن البوّاب بقفل ذهب وثلاثة أحجار بَلَخْش ، منها حجر زنته اثنان وعشرون مثقالا ، وحجر وزنة أثنا عشر مثقالا ، وآخر عشرة مثاقيل ونصف ، وست قصبات زمرد إحداها[5] وزنها ثلاثة مثاقيل ، وحجر ياقوت أحمر ، وزنه سبعة مثاقيل ، وحجر ياقوت أزرق وزنه ستة مثاقيل ، ومائة عقد جوهر زنتها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالا ، وخمسون قارورة دهن بلسان ، وعشرون قطعة (١٨ ا) بلور ، وأربع عشرة قطعة جَزْع مابين

(١) فى س المطي بغير ضبط . (٢) فى س شرما بشين منقوطه فقط . وبغير ضبط .
(٢) فى س قديم .
(٤) هنا تنتهى الفقرة المنشورة بكتاب تاريخ عمارة اليمنى (انظر ص ٥٣ ، حاشية ٤) .
(٥) فى س احدها .

زبادى وسكارج [١]، وإبريق يشم [٢] وطشت يشم، وسقرق [٣] مينا مُذَهَّب، بعروة فيها حبتا لؤلؤ وفى الوسط فص ياقوت أزرق، وصحون وزبادى وسكارج من صينى عدتها أربعون قطعة، وعود قطعتين كبارا، وعنبر منه قطعة زنتها ثلاثون رطلا، وأخرى عشرون رطلا، ومائة ثوب أطلس، وأربعة وعشرون بَقْياراً [٤] مذهباً، وأربعة وعشرون ثوباً وَشْياً حريرية بيضاء [٥]، وحلة فلفلى مذهب، وحلة مرايش [٦] أصفر مذهب، وحلة مرايش أزرق بذهب، وحلة مرايش بقصب أحمر وأبيض، وحلة فستقى بقصب مذهبة، وقماش كثير [٧]، قدر قيمتها بمائتى ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار. وساروا بذلك، فبلغهم موت نور الدين، فأعيدت وهلك بعضها.

وفيها مات السلطان العادل نور الدين محمود بن زنكى، فى يوم الأربعاء حادى عشر شوّال، بعلة الخوانيق [٨]، وكان قد تجهز لأخذ مصر من صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد خُطب له بالشام ومصر والحرمين واليمن. وقام من بعده أبنه الصالح إسماعيل، وعمره إحدى عشرة سنة فخطب له السلطانُ صلاحُ الدين بمصر، وضرب السِّكةَ باسمه. وفيها نزل أسطول الفرنج بصقلية على ثغر الإسكندرية، لأربع بقين من ذى الحجة [٩] بغتةً، وكان الذى جهز هذا الأسطول

---

(١) سكارج جمع سكرجة وهى الصحفة، وزبادى جمع زبدية وهى وعاء الشراب. أما الجزع فهو الخرز اليمانى، فيه سواد وبياض، وإنما المقصود هنا الآنية المصنوعة من الصينى المجزع، أى الذى فيه سواد وبياض، أو ذى الألوان المختلفة (محيط المحيط و (I) ozy: Supp, Dict, Ar, .

(٢) انظر ص ٥ حاشية ٣ .

(٣) كذا فى س بغير ضبط، وهى مترجمة مع التشكك إلى (Shakrak) فى (Blochet : Op. cit. P, 116). على أنه يوجد نوع من النبيذ الحبشى اسمه سقرقه (Lane : Lexicon)، وربما كان المقصود هنا الوعاء الخاص بهذا الشراب.

(٤) كلمة فارسية معناها سجادة سوداء مصنوعة من وبر الجمل (Johnson : Dict,)، ومعناها أيضا فى (Dozy : Op, cit,) نوع من العمائم الكبار، كالتى يلبسها الوزراء وأصحاب القلم.

(٥) فى س "وشى حريرية بيض". (٦) فى س "مراش". (٧) فى ش "قماشا كثيرا".

(٨) هى المرض المسمى بالذبحة (Dozy : Supp, Dict Ar.)، ومن أنواعه الذبحة الصدرية (Angina Pectoris) انظر (Price : Holbyn,s Dict. of Med, Terms)

(٩) كانت هذه الحملة البحرية ذيلا للمؤامرة الثورية التى اتهم بتدبيرها الشاعر عمارة اليمنى. وقد تقدم أن المتآمرين كاتبوا الفرنج (انظر ص ٥٣) ومن هؤلاء وليام الثانى (William II) النورماندى ملك صقلية، وهو ابن وليام الأول، وجده روجر الأول (Roger) مؤسس مملكة النورمانديين فى صقلية منذ سنة ١١٠٣ م. بعد التغلب على دولة المسلمين بها بقليل (Camb, Med. Hist. Vol. V. PP.184-207) أما عن هذه الحملة التى وصلت مراكبها إلى الاسكندرية بعد فشل المؤامرة، فالسبب فى ذلك أن ملك صقلية لم يعلم بما حاق بالمتآمرين، فبعث مراكبه إلى الإسكندرية حسب الاتفاق المبيت معهم. (Lane-Poole : Saladin. P. 127)

غليالم بن غليالم بن رجار[١] متملك صقلية ، ولى ملك صقلية بعد أبيه فى سنة ستين وخمسمائة وهو صغير ، فكفلته أمه ، وتولى التدبير خادم اسمه باتر[٢] مدة سنة ، ثم فر إلى السيد أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن [صاحب البلاد[٣] المغربية] . ثم استبد غليالم بتدبير ملكه ، واحتفل فى سنة إحدى وسبعين بعمارة [هذا] الأسطول ، فاجتمع له ما لم يجتمع لجده رجار ، وحمل فى الطرائد[٤] ألف فارس ، وقدّم على الأسطول رجلا من دولته يسمى أكيم موذقة[٥] ، وقصد الإسكندرية ، ومات غليالم فى سنة إحدى وثمانين وخمسمائه . ولما أرسى هذا الأسطول على البر ، أنزلوا من طرائدهم ألفاً وخمسمائة فرس ، وكانت عدتهم ثلاثين ألف مقاتل ، ما بين فارس وراجل ، وعدّة طرائدهم ستا وثلاثين طريده[٦] تحْمِل الخيل ، ومائتى شينى[٧] فى كل شينى مائه وخمسون رجلا ، وعدة السفن التى تحمل آلات الحرب والحصار ست سفن ، والتى تحمل الأزواد والرجال أربعين مركبا ، فكانوا نحو الخمسين ألف راجل . ونزلوا على البر مما يلى المنارة ، وحملوا على المسلمين حتى أوصلوهم إلى السور ، وقُتل من المسلمين سبعة . وزحفت مراكب الفرنج إلى الميناء ، وكان بها مراكب المسلمين فغرّقوا منها ، وغلبوا على البر وخيموا به ، فأصبح لهم على البر ثلاثمائة خيمة ، وزحفوا لحصار البلد ، ونصبوا ثلاث دبّابات بكباشها[٨] ، وثلاثة مجانيق

(١) كذا فى س ، وبغير ضبط . انظر الحاشية السابقة . (٢) كذا فى س ، وبغير ضبط . والاسم الصحيح هو . (Stephen of Perch) ولم يكن خادماً ، بل هو ابن عم الملكة مارجريت (Margaret) أم الملك وليام الثانى .(Camb. Med. Hi t Vol. V. P. 197) . (٣) ما بين القوسين من أبى شامة (كتاب الروضتين فى .Rec. Hist. Or Vol. IV. P. 164) . (٤) جمع طراد أو طرادة ، وهى نوع من المراكب الحربية ، أكثر شبهاً بالبرميل المائل من السفينة ، وكانت تستعمل غالباً فى حمل الخيول والفرسان: (.Dozy : Supp. Dict. Ar)وانظر أيضاً المرجع والصفحة المذكورين فى الحاشية السابقة .

(٥) كذا فى س ، وبغير ضبط . وهو مترجم إلى (Akim-Moudhaka) فى (Blochet : Op, cit, P, 117) مع عدم اهتداء المترجم إلى شخصية صاحب الإسم . هذا وليس بين أسماء مجلس الملك وليام الثانى من يشابه اسمه الرسم الوارد هنا . انظر (Camb, Med, Hist, Vol, V, P, 197) .

(٦) كذا فى س . (٧) سفينة حربية كبيرة ، يقابلها فى بالفرنسية (Galère) ، ومثلها الشينية ، والجمع شون وشوانى (.Dozy : Supp. Dict. Ar) (٨) الدبابات جمع دبابة ، وكانت عبارة عن شبه برج متحرك ، له أحيانا أربعة أدوار ، أولها من الخشب ، وثانيها من الرصاص (Plomb) ، وثالثها من الحديد ، ورابعها من النحاس الأصفر ، ويتحرك هذا البرج المائل على عجلات ، وتصعد إلى طبقاته الجنود لمهاجمة الحصون وتسلق الأسوار . أما لفظ الكباش ، فمفرده كبش ، ويجمع على كبوش وأكبش ، وهو آلة متصلة بالدبابة ، لها رأس ضخم وقرنان ، تدفعها الجنود نحو الأسوار لتهديمها (.Dozy : Supp. Dict. Ar)

كبارا تضرب بحجارة سود عظيمة . وكان السلطان على فَاقُوس ، فبلغه الخبر ثالثَ يوم نزول الفرنج ، فشرع فى تجهيز العساكر ، والقتال والرمى بالمجانيق[1] مستمر . فوصلت العساكر ، وفتحت الأبواب ، وهاجم المسلمون الفرنج ، وحرقوا الدبابات ، وأيدهم الله بنصره ، واستمر القتال يوم الأربعاء إلى العصر ، وهو الرابع من نزول الفرنج . ثم حملوا حملة ثانية عند اختلاط الظلام على الخيام ، فتسلموها بما فيها ، وقتلوا من الرجّالة عدداً كثيراً ومن الفرسان . فاقتحم المسلمون البحر ، وأخذوا عدّة مراكب خسفوها فغرقت ، (١٨ ب) وولت بقية المراكب مُنْهَزِمةً ، وقتل كثير من الفرنج ، وغنم المسلمون من الآلات والأمتعة والأسلحة مالا يقدر على مثله إلا بعناء ، وأقلع باقى الفرنج مستهل سنة سبعين .

وفيها ، أعنى سنة تسع وستين [وخمسمائة] ، وقف السلطان صلاح الدين ناحية نَقَادَة من عمل قوص بناحية الصعيد الأعلى ، وثلثَ ناحية سَنْدَبيسَ من القليوبية ، على أربعة وعشرين خادما لخدمة الضريح الشريف النبوى ، وضمن ذلك كتابا ثابتا تاريخه ثامن عشرى شهر ربيع الآخر منها ، فاستمر ذلك إلى اليوم . وكان قاع النيل ستة[2] أذرع وعشرين أصبعا ، وبلغ سبعة عشر[3] ذراعا وعشرين أصبعا .

* * *

[سنة سبعين وخمسمائة[4]] . وفيها جمع كنز[5] الدولة والى أسوان العرب والسودان ، وقصد القاهرة يريد إعادة الدولة الفاطمية ، وأنفق فى جموعه أموالا جزيلة ، وانضم إليه جماعة ممن يهوى هواهم ، فقَتل عدّة من أمراء صلاح الدين . وخرج فى قرية طود رجل يعرف بعباس ابن شادى ، وأخذ بلاد قوص ، وانتهب أموالها . فجهز السلطان صلاح الدين أخاه الملك

(١) فى س "بالمناجنيق" . (٢) فى س ست . (٣) فى س سبع عشرة .

(٤) ليس لعنوان هذه السنة وجود فى س ، ولعل السبب أن المقريزى اكتفى بكلمة "فيها" ، على أن تعود هاؤها إلى عبارة " سنة سبعين " الواردة بالسطر الثامن من هذه الصفحة . انظر ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص٢٧٣) حيث يرد ذكر هذه الحادثة أول سنة سبعين .

(٥) العبارة الآتية واردة بالهامش : "كنز الدولة هذا يرجع نسبه إلى مسروق بن معدى كرب (كذا) بن الحارث بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدؤل ، واسمه كنز الدولة" . ويلاحظ أن بعض هذه الأسماء مضبوط فى س .

العادل فى جيش كثيف ، ومعه الخطير مهذب بن ممّاتى[1]، فسار وأوقع بشادى و بدّد جموعه وقتله ، ثم سار فلقيه كنز الدولة بناحية طود ، وكانت بينهما حروب فرّ منها كنز الدولة ، بعد ما قُتل أكثر عسكره ، ثم قُتل [كنز الدولة] فى سابع صفر ، وقدم العادل إلى القاهرة فى ثامن عشريه .

وفيها ورد الخبر على السلطان بسير الملك الصالح مجير الدين إسماعيل بن نور الدين إلى حلب ، ومصالحته للسلطان سيف الدين غازى صاحب الموصل ، فأهمّه وخرج يريد المسير إلى الشام . فنزل ببركة الجب[2] أول صفر ، وسار منها فى ثالث عشر ربيع الأول ، على صَدْر[3] وأَيْلَة ، فى سبعمائة فارس ؛ واستخلف على ديار مصر أخاه الملك العادل . ونزل بُصْرَى وخرج منها ، فنزل الكُسوة يوم الأحد تاسع عشرى ربيع الأول ، وخرج الناس إلى لقائه ؛ فدخل إلى دمشق يوم الاثنين أول شهر ربيع الآخر ، وملكها من غير مدافع . وأنفق فى الناس مالا جزيلا ، وأمر فنودى بإطابة النفوس وإزالة المكوس ، و إبطال ما أحدث بعد نور الدين محمود من القبائح والمنكرات والضرائب ، وأظهر أنه إنما جاء لتربية الصالح بن نور الدين ، وأنه ينوب عنه و يدبر دولته ، وكاتب الأطراف بذلك . وتسلم قلعة دمشق بعد امتناع ، فأنزل بها أخاه ظهير الإسلام طغتكين بن أيوب ، و بعث بالبشارة إلى القاهرة ؛ وخرج مستهل جمادى الأولى ، فنازل حمص حتى تسلمها فى حادى عشره ، وامتنعت عليه قلعتها ، فأقام على حصارها طائفة ، وسار إلى حماة فنزل عليها فى ثالث عشريه ، وبها عز الدين جُرْديك[4]، فسلمها إليه .

(١) لعله ابن مماتى صاحب كتاب قوانين الدواوين (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٦) . وقد اخطأ كاتب نسخة ب (ص ٢١ ا) قراءة هذا الاسم فقال : ومعه الحطيب مهذب بمائتى فارس .

(٢) متنزه بظاهر القاهرة من بحريها ، وكان صلاح الدين يبرز إليها للصيد ، ويقيم فيها الأيام ، وفعل ذلك الملوك قبله وبعده . وقد تغير اسمها زمن المقريزى — أى فى القرن الثامن الهجرى — إلى بركة الحاج ، لنزول الحجاج بها عند مسيرهم من القاهرة وإليها موسم الحج (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٨٩) .

(٣) قلعة خراب بين القاهرة وأيلة (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٧٥) .

(٤) تصح كتابة هذا الاسم " جورديك " أيضا ، انظر (Rec. Hist. Or. Vol. III. Index.) . وأصل جورديك من مماليك السلطان نور الدين ، ولقبه النورى . وكان ممن رافقوا أسد الدين شيركوه إلى مصر ، وهو الذى اشترك مع صلاح الدين فى الفتك بالوزير شاور (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤) . أما عن تفصيل موقفه بإزاء مجىء صلاح الدين إلى الشام ، فانظر نفس المرجع والجزء ص ٢٧٦ ، وستأتى بقية أخباره فيما يلى .

وفى جمادى الأولى ولى ابنُ عصرون القضاء بديار مصر. وسار [صلاح الدين] إلى حلب، وبعث إلى الصالح [إسمعيل] فى الصلح مع جرديك، فأبى أصحابه ذلك، وقبضوا على جرديك وقيدوه، فبلغ ذلك صلاح الدين، وقد سار عن حماة يريد حلب، فعاد إليها. ثم سار منها إلى حلب، ونزل جبل جَوْشَن[1] ثالث جمادى الآخرة، واستعدّ أهل حلب وخرجوا لقتاله، وقاتلوه قتالا شديداً إلى أوّل رجب. فرحل (١١٩ ا) صلاح الدين يريد حمص، وقد بلغه مسير القومص[2] ملك الفرنج بطرابلس، بمكاتبة أهل حلب، وأنه منازل لحمص. فلما قرب من حمص عاد القومص إلى بلاده، فنازل صلاح الدين قلعتها، ونصب المجانيق عليها إلى أن تسلمها بالأمان، فى حادى عشرى شعبان؛ وسار إلى بعلبك، فحصرها حتى تسلم قلعتها فى رابع رمضان، وعاد إلى حمص. وكانت بينه وبين أصحاب الصالح وقعة على قُرُون حماة، فى يوم الأحد تاسع عشره، انتصر فيها صلاح الدين، وهزمهم وغنم كل ما معهم، ولم يقتل فيها أكثر من سبع[3] أنفس؛ وسار حتى نزل على حلب، وقطع الخطبة للصالح، وأزال اسمه عن السكة فى بلاده، فبعث أهل [الصالح] إليه يلتمسون منه الصلح، فأجاب إليه على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام، ولهم ما بأيديهم منها، واستزاد منهم المعرة وكَفَرطَاب[4]، وكُتبت نسخة يمين وعليها خط صلاح الدين، بعد ما حلف وعاد إلى حماة.

[وكان صلاح الدين] قد كتب إلى بغداد يعدد فتوحاته وجهاده للفرنج، وإعادته الخطبة العباسية بمصر، واستيلاءه على بلاد كثيرة من أطراف المغرب وعلى بلاد اليمن كلها، وأنه قدم

---

(١) فى س "حبل حوشن" بغير ضبط. انظر ياقوت؛ معجم البلدان. ج ٢، ص ١٥٥.

(٢) كذا فى س بغير ضبط، والقومس تعريب حرفى للكلمة اللاتينية (Comes) التى صارت إلى (Comte) فى اللغة الفرنسية. أما الشخص المقصود هنا، فهو الكونت ريمون الثالث صاحب إمارة طرابلس الصليبية، ولقبه الصنجيلى فى بعض المراجع الإسلامية (Le Comte Raymond descendant... de Saint Agilles Prince de Tripoli) راجع ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١١، ٢٧٧، وكذلك نفس المرجع فى (Rec. Hist, Or. Vol. I. p. 619) (٣) فى س سبعه

(٤) بغير ضبط فى س، وهى بلدة بين المعرة ومدينة حلب. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٨٩).

إليه فى هذه السنة وفد سبعين راكبا ، كلهم يطلب لسلطان بلده تقليدا . وطلب [صلاح الدين] من الخليفة تقليد مصر واليمن والمغرب والشام ، وكل ما يفتحه بسيفه[١] . فوافته بحماة[٢] رسل الخليفة المستضىء بأمر الله ، بالتشريف والأعلام السود ، وتوقيع بسلطنة بلاد مصر والشام وغيرها . فسار ونزل على بعرين ويقال بارين[٣] ، وحاصر حصنها حتى تسلمه فى العشرين منه ، ورجع إلى حماة . وفيها تقرر العماد الإصفهانى نائبا فى الكتابة عن القاضى الفاضل بسعاية نجم الدين محمد بن مُصَال[٤] . وسار صلاح الدين إلى دمشق ثم رحل عنها ، فنزل مرج[٥] الصُّفَّر ، ووافته به رسل الفرنج فى طلب الهدنة ، فأجابهم إليها بشروط أشترطها . وأذن للعساكر فى المسير إلى مصر لجدب[٦] الشام فساروا ، ورجع هو إلى دمشق فى محرم [سنة] إحدى وسبعين ، وفوّض أمرها إلى [ابن أخيه] تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب .

***

[سنة إحدى وسبعين وخمسمائة] . وفيها[٧] سار شرف[٨] الدين قراقوش — أحد أصحاب تقى الدين عمر — إلى بلاد المغرب فى حادى عشر محرم فى جيش ، فأخذ من صاحب أوْجَلَة[٩] عشرين ألف دينار فرّقها فى أصحابه ، وعشرة آلاف دينار لنفسه ، وسار منها إلى غيرها ؛ ثم بلغه موت صاحب أوجلة ، فعاد إليها وحاصر أهلها ، وقد امتنعوا عليه حتى أخذها عَنوة ، وقتل من أهلها سبعمائة رجل ، وغنم منها غنيمة عظيمة ، وعاد إلى مصر .

(١) كان الخطيب شمس الدين بن أبى الصفاء رسول صلاح الدين إلى الخليفة المستضىء بأمر الله ، تلك المرة .
(٢) فى س "بها" .

(٣) فى س " بعرين " والنطق الأول الذى فى المتن هو ما تقول به العامة ، والثانى هو الصحيح . وتقع بارين بين حلب وحماة . (ياقوت : معجم البلدان ، ح ١ ، ص ٤٦٥) .

(٤) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Rec. Hist. Or Iv. P. 130)

(٥) أحد المروج الواقعة حول مدينة دمشق . (ياقوت : معجم البلدان ، ح ٤ ، ص ٤٨٨) .

(٦) فى س لجذب .
(٧) ليس لعنوان هذه السنة وجود فى س ، انظر ص ٥٧ حاشية رقم ٤ ، وراجع أيضاً ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٨٢ ، وما بعدها) .

(٨) فى س بها الدين ، وقد خلط المقريزى بين بهاء الدين قراقوش المتقدم ذكره وبين شرف الدين هذا . انظر (Rec. Hist. Or. I. Index) .

(٩) مدينة فى جنوبى برقة (ياقوت : معجم البلدان ، ح ١ ، ص ٣٩٧) .

وفيها تجهز الحلبيون لقتال صلاح الدين ، فاستدعى عساكر مصر ، فلما وافته بدمشق في شعبان سار في أوّل رمضان[1] ، فلقيهم في عاشر شوال . وكانت بينهما وقعة(١٩ ب) تأخر فيها السلطان [سيف الدين] غازى صاحب الموصل ، فظن الناس أنها هزيمة ، فولّت عساكرهم . وتبعهم صلاح الدين ، فهلك منهم جماعة كثيرة ، وملك خيمة غازى ، وأسر عالما عظيما ، واحتوى على أموال وذخائر وفُرُش وأطعمة وتحف تجل عن الوصف . وقدم عليه [أخوه] الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه [بن أيوب] من اليمن ، فأعطاه سرادق السلطان غازى بما فيه من الفرش والآلات ، وفرق الإصطبلات[2] والخزائن على من معه ، وخلع[3] على الأسرى وأطلقهم . ولحق [سيف الدين] غازى بمن معه ، فالتجأوا [جميعا] لحلب ، ثم سار إلى الموصل [وهو لا يصدّق أنه ينجو ، وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات ويقصده[4] بالموصل] . ورحل صلاح الدين ونزل على حلب في رابع عشر شوّال ، فأقام عليها إلى تاسع عشره ، ورحل إلى بُزَاعة[5] ، وقاتل أهل الحصن حتى تسلمه . وسار إلى مَنْبِج ، فنزل عليها يوم الخميس رابع عشريه ، ولم يزل يحاصرها أياما حتى ملكها ، وأخذ من حصنها ثلاثمائة ألف دينار ، ومن الفضة والآنية والأسلحة ما يناهز ألفي ألف دينار . ورحل إلى عَزَاز[6] ، وحاصرها من يوم السبت رابع ذى القعدة إلى حادى عشر ذى الحجة ، فتسلمها وأقام فيها من يثق به ، وعاد إلى حلب .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره وثب عدّة من الإسماعيلية على السلطان صلاح الدين ، فظفر بهم بعد ما جرحوا عدة من الأمراء والخواص ثم سار[7] إلى حلب فنزل عليها في سادس عشره ،

(١) العبارة الآتية واردة بهامش الصفحة في س ، ونصها : " وفي يوم الاثنين ثامن عشرى رمضان كسفت الشمس جميعها ، وأظلم النهار ورؤيت النجوم " . وقد أدمجها كاتب ب (ص ٢٢ ا) في المتن بعد لفظ " رمضان " .

(٢) في س الاسطبلات .   (٣) في س اخلع .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٨٣) لتوضيح العبارة .

(٥) في س براعا ، وهي بلدة من أعمال حلب ، واقعة بينها وبين منبج . وينطق أهل حلب هذا الاسم أحيانا بكسر الباء ، وأحيانا بالألف المقصورة بدل التاء (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٦٠٣) .

(٦) في س عزار ، وهي بليدة شمالى حلب . (نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٦٦٧) .

(٧) قصة وثوب الاسماعيلية هذه واردة بهامش الصفحة في س ؛ وبالهامش أيضا فقرة طويلة عن حملة بحرية أتت من صقلية لمحاصرة الإسكندرية ، وهي في تفاصيلها وعدد مراكبها =

وأقطع عسكره ضياعها، وأمر بجباية أموالها، وضيق على أهل حلب من غير قتال، بل كان يمنع أن يدخلها أحد أو يخرج منها[١].

***

[سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة[٢]]. فلما كان رابع المحرّم سنة اثنتين وسبعين ركب العسكران وكانت الحرب، فقتل جماعة من أصحاب صلاح الدين. ثم تقرّر الصلح بينه وبين الملك الصالح، على أن يكون للصالح حلب وأعمالها. ورحل [صلاح الدين] فى عاشره، فنازل مصْيَاب[٣]، وفيها راشد الدين سنان بن سَلْمان بن محمد، صاحبُ قلاع الإسماعيلية ومقدم الباطنية، و إليه تنسب الطائفة السنانية. ونصب عليها المجانيق والعرّادات[٤] من ثالث عشريه إلى أيام، ثم رحل ولم يقدر عليهم، وقد امتلأت أيدى أصحابه بما أخذوه من القرى. وفوّض [صلاح الدين] قضاء دمشق لشرف الدين أبى سعد عبد الله بن أبى عصرون، عوضا عن

= وجنودها وأزوادها تشبه الحملة التى تقدم ورودها فى ص ٥٥، تحت سنة ٥٨٩، وليس فى المراجع المتداولة فى حواشى هذا الكتاب ما يشير إلى وصول حملة ثانية من صقلية إلى الإسكندرية، فأكبر الظن أن المؤلف نسى ما أورده أولا عن تلك الحملة، فكتبها مرة ثانيـة فى مكان غير مناسب تاريخيا. وهـذا نص الفقرة بتمامه: — " وفيها وصل من صقلية إلى الاسكندرية مائتان وستون مركبا تحمل الرجال، وستة وثلاثون طريدة تحمل الخيل، وستة مراكب تحمل آلة الحروب، وأربعون مركبا تحمل الزاد، فكانت [عدة] من فيها من الرجال خمسين ألفا، ومن الخيالة ألفا (فى س الف) وخمسمائة فارس، فقاتلهم أهل الثغـر أشد قتال، وأتتهم العساكر من القاهرة. ثم قدم السلطان صلاح الدين فهزم الله الفرنج، وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة، وأحرقوا عدة من مراكبهم، وأسروا طائفة، وذلك فى المحرم [سنة سبعين وخمسمائة]".

(١) العبارة الآتية واردة بهامش الصفحة، وليس لها علاقة بالمتن، ولذا وضعت هنا، ونصها: — " وفى سنة إحد[ى] وسبعين مات الشيخ أبو حفص عمر بن يحيي بن محمد بن وانودين (كذا) بن على بن أحمد بن والال (كذا) أحد العشرة أصحاب مهـدى الموحدين أبى عبـد الله محمد بن تومرت بسلا. وإلى أبى حفص هذا ينسب ملوك تونس من إفريقية فيقال لهم الحفصيون". انظر الزركشى (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص ١٤٩).

(٢) ليس لعنوان هذه السـنة وجود فى س، ولعل السبب هو اتصال أخبار السنة السابقة بحوادث هذه السنة، وعدم وجود علة حقيقية للفصل.

(٣) فى س مصيات وهو خطأ، واسمها مصياف أيضا عند العامة، وهى بساحل الشام قرب طرابلس (ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٥٦).

(٤) جمع عرادة، وهى من آلات الحرب، أصغر من المنجنيق، ترمى بالحجارة المرمى البعيد (محيط المحيط).

كمال الدين الشهرزورى بعد وفاته . وفيه أغار[1] الفرنج على البِقاع[2]، فخرج إليهم الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم من بعلبك ، فأوقع بهم وقتل منهم وأسر . وخرج إليهم المعظم شمس الدولة من دمشق فلقيهم بعين الجرّ ، وأوقع بهم ، ثم سار إلى حماة وبها صلاح الدين ، فوافاه فى الثانى من صفر . ثم سار السلطان منها ودخل دمشق سابع عشره ، فأقام بها إلى رابع شهر (٢٠ ا) ربيع الأول ، وخرج منها إلى القاهرة ، واستخلف على دمشق أخاه الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، فوصل إليها لأربع بقين منه .

وفيها أمر السلطان ببناء السور على القاهرة والقلعة ومصر ، وَدَوْرُه تسعة وعشرون ألف ذراع وثلثمائة وذراعان بذراع العمل . فتولى ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى ، وشرع فى بناء القلعة ، وحفر حول السور خندقاً عميقاً ، وحَفر واديه وضَيَّق طريقه . وكان فى مكان القلعة عدة مساجد منها مسجد سعد[3] الدولة ، فدخلت فى جملة القلعة ، وحفر فيها بئراً ينزل إليها بدرج منحوتة فى الحجر إلى الماء وفيها أمر السلطان ببناء المدرسة بجوار قبر الشافعى بالقرافة ، وأن تعمل خزانة الأشربة التى كانت للقصر مارستاناً للمرضى ، فعُمل ذلك . وسار السلطان إلى الإسكندرية فى ثانى عشرى شعبان ، ومعه ابناه الأفضل علىّ والعزيز عثمان ، فصام بها شهر رمضان ، وسمع الحديث على الحافظ أبى الطاهر أحمد السِّلَفى[4] . وأمر بتعمير الأسطول بها ، ووقف صادر الفرنج[5] على الفقهاء بالإسكندرية . ثم عاد إلى القاهرة ، فصام بها بقية رمضان . وفيها عاد [شرف الدين] قراقوش غلام تقى الدين إلى بلاد المغرب ، وعاد فأخذ جماعة من

---

(١) فى س غار . (٢) أرض واسعة بين دمشق وبعلبك وحمص ، فيها قرى كثيرة ، وأكثر شرب أهلها من عين تخرج من جبل ، ويقال لها عين الجر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٦٩٩ ، ج ٣ ، ص ٧٦٠) . (٣) لم يذكر المقريزى فى المواعظ والاعتبار اسم صاحب هذا المسجد كاملا (نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) ، ولعله سعد الدولة الطواشى مملوك الأفضل أمير الجيوش ، وزير الخليفة المستنصر الفاطمى (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٢٤٩) .

(٤) انظر ص ٧١ ، حاشية ٢ . (٥) لعل المقصود بذلك الضريبة التى كانت تفرض على تجار الفرنج الواصلين بالمتاجر من بلادهم إلى ثغر الإسكندرية ، وكان مقدارها زمن القلقشندى ، أى فى القرن الثامن الهجرى ، خمس قيمة البضائع التى يحملونها (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٣) .

الجند ، وخرج إلى المغرب ، فأمر العادلُ الأمير خطلبا[١] بن موسى و إلى القاهرة بالقبض عليه ، فسار إلى الفيوم وأخذه محمولا إلى القاهرة . وفيها أبطل السلطان المَكْس المأخوذ من الحجاج فى البحر إلى مكة على طريق عَيْذَاب[٢] ، وهو سبعة دنانير مصرية ونصف على كل إنسان ، وكانوا يؤدّون ذلك بعيذاب أو بجدّة ، ومن لم يؤدّ ذلك مُنع من الحج ، وعذب بتعليقه بأنثييه ؛ وعُوّض أمير مكة عن هذا المكس بألفى دينار ، وألف أردب قمح ، سوى إقطاعات بصعيد مصر و باليمن ؛ وقيل إن مبلغ ذلك ثمانية[٣] آلاف أردب قمح تحمل إليه إلى جدّة .

* * *

[سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة] . وخرج السلطان من القاهرة ، لثلاث مضين من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين ، لجهاد الفرنج . وسار إلى عَسْقَلان ، فسبى وغنم وقتل وأسر . ومضى إلى الرملة ، فاعترضه نهر تل[٤] الصافية فى يوم الجمعة ثانى جمادى الآخرة ، فازدحم الناس بأثقالهم عليه . وأشرف الفرنج عليهم ، ومقدّمهم البرنس أرناط[٥] صاحب الكرك ، فى جموع كثيرة . فانهزم المسلمون وثبت السلطان فى طائفة ، فقاتل قتالا شديداً ، واستشهد جماعة وأخذ الفرنج أثقال المسلمين ، فمر بهم فى مسيرهم إلى القاهرة من العناء ما لا يوصف ، ومات منهم ومن دوابهم كثير ، وأسر الفرنج جماعة منهم الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى . ودخل السلطان إلى القاهرة منتصف جمادى الآخرة ، فحلف لا تضرب له نوبة حتى يكسر الفرنج ،

---

(١) كذا فى س ، وبدون ضبط ، وهى فى ب (ص ٢٣ ا) خاطباى بدون ضبط أيضاً ، ومترجمة إلى (Khoutlobai) فى (Blochet : Op, cit, p' 129)

(٢) ثغر تجارى عظيم فى القرون الوسطى ، وهو واقع على الشاطئ المصرى للبحر الأحمر (بحر القلزم) قبالة جدة على الشاطئ الآخر ، (ياقوت معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧٥١) ، وهو فى س عيداب ، وأكثر وروده بهذا الرسم ، وسيصحح دائماً بغير تنبيه

(٣) فى ب (ص ٢٣_ا) ثلاثمائة [و] ثمانية آلاف .

(٤) حصن بنواحى الرملة قرب بيت جبرين (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٦٧) .

(٥) فى س ارباط ، وهو (Le prince Arauld seigneur de CaraC) واسمه الأصلى قبل أن يأتى الشام (Renaud de Chatillion) . انظر ابن الأثير (الكامل فى التاريخ Rec. Hist. Or. Vol. I. pp. 627, 675) .

وقطع أخباز[١] جماعة من الأكراد ، من أجل أنهم كانوا السبب فى هذه الكسرة ، وفيها نزل الفرنج على حماة ، فقاتلهم الناس أربعة أيام حتى رحلوا عنها ، ونزلوا على حارم فحاصروها أربعة أشهر ، ثم رحلوا إلى بلادهم . وفيها أُطلق شرف الدين قراقوش التقوى ، وسار (٢٠ ب) إلى أَوْجَلَة وغيرها من بلاد المغرب ، وخرج السلطان فى سادس عشرى شعبان سنة ثلاث وسبعين من القاهرة يريد الشام ، واستخلف بديار مصر أخاه العادل ، فلم يزل مقيما على بركة الجب إلى أن صلى صلاة عيد الفطر . فبلغه نزول الفرنج على حماة ، فأسرع فى المسير حتى دخل دمشق فى رابع عشرى شوّال ، فرحل الفرنج عن حماة . ووافته بدمشق رسل الخليفة بالتشريفات . وفيها سار الفرنج إلى قلعة صَـدْر ، وقاتلوا من بها فلم ينالوا قصدا ، فساروا يريدون الغارة على ناحية فاقوس ، ثم عادوا بنية الحشد والعود . وفيها عصى شمس الدين بن المقدم بمدينة بعلبك على السلطان . وفيها وُلد الملك الزاهر مجير الدين داود ، شقيق الظاهر غياث الدين غازى بن السلطان صلاح الدين ، لسبع بقين من ذى القعدة ، وفيها غلت الأسعار ببلاد الشام لكثرة الجدب ، واشتد الأمر بحلب . وفيها سار الأمير ناصر الدين إبراهيم ، سلاح[٢] دار تقى الدين [عمر] ، فى عسكر إلى بلاد المغرب فوصل إلى قراقوش التقوى ، وسارا إلى مدينة الرَّوْحان[٤] ، فنازلاها أربعين يومًا ، حتى فتحت وقتل حاكمها ، وقررا عليها أربعة عشر ألف دينار[٥] ، وملكا مدينة غُدَامِس[٦] بغير قتال ، وتقرر على أهلها أثنا عشر ألف

---

(٧) فى س أخبار . والأخباز جمع خبز بضم الخاء وسكون الباء ، ومعناه إقطاع من الأرض ، ويقابله (appanage) فى نظم العصور الوسطى فى غرب أوربا (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . ومما يوجب الالتفات أن هذه الكلمة مشتقة فى اللغات الأوربية من اللاتينية (panis) ، ومعناها خبزه .

(٢) فى س بها الدين . (٣) السلاح دار هو المنوط بحمل سلاح السلطان أو الأمير الذى هو فى خدمته ، ومن وظيفته أيضاً الإشراف على السلاح خاناه ، وما هو من توابع ذلك . ولفظ السلاح دار مركب من كلمتين ، أولاهما عربية ، ومعناها آلة القتال والثانية فارسية ومعناها ممسك ، ويكون المعنى ممسك السلاح (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٦ ، ٤٦٢) .

(٤) فى س دوح فقط ، وهى من نواحى برقة (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٨٢٩) .

(٥) فى س دينارا . (٦) يصح أيضاً نطق اسم هذه المدينة بفتح الغين ، وهى أقصى حدود برقة ، فيما يلى تونس الحالية (ياقوت : نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٧٧٦) .

دينا[١]، وسار إبراهيم إلى [جبال[٢]] نَفُوسَة، فملك عدة قلاع، وصار إليه مال كثير ورجال، وسار البعث من عند قراقوش إلى بلاد السودان، فغنموا غنيمة عظيمة. وفيها ظهر العمل فى سور القاهرة، وطلع البناء، وسلكت به الطرق المؤدية إلى الساحل بالمقس[٣].

وفيها مات الأمير شهاب الدين محمود تَكَش الحارمى[٤]، خال السلطان صلاح الدين ونائب حماة، فى سابع عشر جمادى الآخرة بحماة، وحمل إلى حلب فدفن بها، وكان شجاعا عاقلا سيوسًا ممدحًا.

* * *

[سنة أربع وسبعين وخمسمائة]. وفى أوائل شهر ربيع الآخر سنة أربع وسبعين، هجم العدو من الفرنج على مدينة حماة، فنهض إليهم المسلمون وأسروا مقدمهم فى جماعة، وبعثوا بهم إلى السلطان بدمشق، فضرب أعناقهم، وفيها جهز السلطان أخاه شمس الدولة توران شاه إلى محاربة شمس الدين بن المقدم ببعلبك، فى جيش كثيف، فحاصروها مدة. ثم سار إليه السلطان، وأقام على الحصار حتى دخل الشتاء، فوقع الصلح وتسلمها السلطان، وسلمها لأخيه توران شاه فى شوال. فبنى الفرنج فى مدة اشتغال السلطان ببعلبك حصنا على مخاضة بيت الأحزان، وهو بيت يعقوب عليه السلام، وبينه وبين دمشق نحو يوم، ومنه إلى طبرية وصفد نصف يوم. فعاد السلطان إلى (١٢١ ا) دمشق، وقدم عليه من الديوان العزيز[٥] خادم [اسمه فاضل]. فأصحبه معه للغزو، حتى وقف على الحصن؛ وتخطف من حوله من الفرنج،

---

(١) فى س اثنى ... دينارا

(٢) تقع هذه الجبال فى أقصى الشمال الشرقى من غدامس، وهى قريبة من شاطىء البحر الأبيض المتوسط، وبينها وبين مدينة طرابلس ثلاثة أيام، وتبعد عن القيروان مسافة ستة أيام (ياقوت: نفس المرجع، ج ٤، ص ٨٠٠).

(٣) فرضة القاهرة منذ عصر الفاطميين، ومكانها قرب الأزبكية الحالية ثم تحول مجرى النيل وانحسر ماؤه، فى أواخر القرن السادس الهجرى عن بولاق الحالية، فأصبحت هذه فرضة القاهرة منذ الدولة الأيوبية. (المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢١، ١٣٠).

(٤) فى س الحارى، وقد توفى ولده قبله بثلاثة أيام. أبو شامة (كتاب الروضتين، ص ١٩٣ فى (Rec. Hist. Or. Vol. IV).

(٥) اصطلح المؤرخون المسلمون على إطلاق هذه التسمية على ديوان الخليفة العباسى ببغداد. وقد ذكر اسم الرسول للتوضيح (نفس المرجع، ص ١٩٥ فى (Rec. Hist. Or. Vol. IV).

ثم عاد إلى دمشق . فتواترت الأخبار باجتماع الفرنج لغزو بلاد المسلمين ، فأخرج [السلطان ابن أخيه] الأمير عز الدين فَرُّخشَاه(١) أمامه ، فواقعه الفرنج وقعة قُتل فيها جماعة من مقدمى الفرنج وغيرهم ، منهم الهنفرى(٢) وصاحب الناصرة ، فانهزموا وأُسرمنهم جماعة . فبرز السلطان من دمشق إلى الكسوة لنجدة عز الدين ، فوافته الأسرى والرءوس ، فُسر بذلك وعاد إلى دمشق . وفيها أغار ابرنس ملك الفرنج(٣) بأنطاكية على شَيْزَر ، وغدر القومص(٤) ملك طرابلس بالتركمان . وفيها سار شمس الدولة إلى مصر بعدة من العسكر لجذب الشام فى سادس عشرى ذى العقدة . وأغار السلطان على حصن بيت الأحزان وعاد بالغنائم والأسرى ، ووالى الغارة والبعث إلى بلاد الفرنج . وفيها قوى قراقوش التقوى و إبراهيم السلاح دار ببلاد المغرب ، وأخذا عدة حصون .

* * *

ودخلت سنة خمس وسبعين [وخمسمائة] . والسلطان مواصل الإغارة على بلاد الفرنج ، وكان نازلا على بانياس . وسَرَّح العساكرَ ومقدمها عز الدين فرخشاه بن أيوب ، فأكثر من قتلهم وأسْرهم . وفتح بيت الأحزان فى رابع عشرى ربيع الآخر ، بعد قتال وَحصار ، فغنم منهم مائة ألف قطعة حديد من أنواع الأسلحة ، وشيئا كثيراً من الأقوات وغيرها ، وأسر عدّة نحو السبعمائة ، وخرَّب الحصن حتى سوى به الأرض ، وسدَّ البئر التى كانت به ، وعاد بعد ما أقام عليه أربعة عشر يوما . فأغار على طبرية وصور و بيروت ، ثم

(١) بغير ضبط فى س . انظر نفس المرجع والصفحة بالحاشية السابقة . (٢) فى س "الهنمرى" ، وهو (Honfroi) صاحب حصن بانياس جنوبى غربى دمشق . نفس المرجع والصفحة وما يليها . وانظر أيضاً (Lane-Poole Saladin, p. 157) حيث الاسم (Humphrey of Toron) (٣) اسمه (Boémond ou Bohémond II.) وسماه أبو شامة (نفس المرجع ص ٨٩ فى Rec. Hist. Or. V) "البرنس الأنطاكى بيمند" . انظر أيضاً (Hitti : Usamah, pp. 93, 155) حيث يسمى " ابن ميمون " .

(٤) انظر ص ٥٩ ، حاشية ٢ .

رجع إلى دمشق، وقدم رض كثير من العسكرومات عدّة من الأمراء. وفى يوم[١] الأحد ثامن المحرم ركب السلطان ومعه صمصام الدين[٢] أَجُك والى بانياس فى عسكره، فلقيه الفرنج فى ألف رمح وعشرة آلاف مقاتل ما بين فارس وراجل، فاقتتلوا قتالا كثيرا انهزم فيه الفرنج، وركب المسلمون أقفيتهم يقتلون ويأسرون حتى حال بينهم الليل. وعاد السلطان إلى مخيمه، وقد مضى أكثر الليل، وعَرَض الأسرى[٣]: فقدم أولهم بادين بن بارزان، ثم أود مقدم الدَّاوِية[٤]، وابن القومصية، وأخو صاحب جُبَيْل فى آخرين، فقيدوا بأجمعهم وهم نحو المائتين وسبعين، وحملوا إلى دمشق فاعتقلوا بها. وعاد السلطان إلى دمشق، ففُدى ابن بارزان بعد سنة بمائة وخمسين ألف دينار وألف أسير من المسلمين، وفدى ابن القومصية بخمسة وخمسين ألف دينار صُورية[٥]، ومات أود فأخذت جيفته بأسير أُفرج عنه. وقدم الخبر بأن الملك المظفر تقى الدين أوقع

---

(١) ليس للسطور التالية وجود بهذه الصفحة من س، ولكنها واردة فى ب (ص ٢٤ ب) على ترتيب ورودها هنا. وهى عبارة عن الهامش المكتوب على ورقة منفصلة بين الصفحتين (١٦ ب، ١٧ أ) انظر ص ٥١ حاشية ٢؛ وفى هذا ما يحمل على الاعتقاد بأن كاتب ب تدارك هذه الغلطة بنفسه، أو أنه نسخ من س قبل حدوث هذا الخطأ أثناء عملية التجليد، وهذا طبعا بفرض أن المقريزى أحل هذا الهامش محله المناسب من الأصل. (٢) مضبوطة هكذا فى س.

(٣) بعض أسرى هذه الواقعة من كبار الفرنج، كما جاء فى أبى شامة (كتاب الروضتين، ص ١٩٨ — ١٩٩ فى (Rec. Hist. Or. IV. هم "... (Odol le grand maltre des Templiers, celui des Hospitaliers, le seingneur de Tiberiade, le frère du seigneur de Djobeïl, le fils de la Comlesse (de Tripolile, le fils de Barizan (Balian II d'Iblin) seigneur de Ramla..." . قارن هذا بما جاء فى (Lane-Poole : Saladin. p. 157). (٤) أطلق المؤرخون المسلمون هذا الاسم على جمعية فرسان المعبد (Templiers)، كما أطلقوا لفظ الإسبتارية على جمعية فرسان الهسبتاليين (Hospitaliers). وقد أسس الجمعية الأولى (Hngh de Payns) سنة ١١١٩ م. لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس. أما الجمعية الثانية فيرجع تأسيسها الى سنة ١٠٩٩ م على يد (Blessed Gerard) بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، وكانت دارها (Hospice) به قبل ذلك بزمن طويل مأوى الحجاج والمرضى من المسيحيين. ثم تحول كل من الجمعيتين إلى هيئة حربية دينية، فكان لرؤسائهما وفرسانهما شأن كبير فى تاريخ الإمارات الصليبية بالشام. (King : Knight2 Hospitallers. pp. 1-33). (٥) الدنانير الصورية أو المشخصة أو الإفرنتية هى الإفرنجية، وميزتها عن الدنانير المصرية الإسلامية فى العصور الوسطى أن صور ملوكها منقوشة على وجوهها. (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤١).

بعسكر قلج أرسلان صاحب الروم [السلجوقية] ، فهزمهم وأسر منهم جماعة . فكتب السلطان البشائر بظفره على مَرْج[١] عُيُون ، و بظفر أخيه بعسكر الروم ، وسيرها إلى الأقطار فأتته تهانى الشعراء من الأمصار . ثم اهتم السلطان بأمر بيت الأحزان ، وكتب إلى الفرنج يأمرهم بهدمه فأبوا ، فراجعهم مرة ثانية فطلبوا منه ما غَرِموا عليه ، فبذل لهم حتى وصلهم إلى مائة ألف دينار فلم يقبلوا . فكتب حينئذ إلى التركمان وأجناد البلاد يستدعيهم ، وحمل إليهم الأموال والخيول والتشاريف ، فقدم إليه خلق كثير . وسار الملك المظفر من حماة ، فقدم دمشق أوّل شهر ربيع الآخر ، وقد تلقاه السلطان . ثم سار السلطان من دمشق يوم الخميس خامسة ، فى عسكر عظيم ، ونزل على حصن بيت الأحزان يوم الثلاثاء حادى عشره . وكانت قلعة صفد للداوية ، فأمر بقطع كروم ضياع صفد ، وحاصر الحصن ونقبه من جهات ، وحشاه بالحطب وأحرقه ، حتى سقط فى رابع عشريه ، وأخذه فقتل من فيه وأسَرَهم ، ووجد فيه مائة أسير من المسلمين ، فقتل عدّة من أسرى الفرنج ، و بعث باقيهم فى الحديد إلى دمشق . وأخرب الحصن حتى سوّى به الأرض ، فكانت إقامته عليه أربعة عشر يوما . وعاد إلى دمشق ، فمدحه عدّة من الأمراء والشعراء وهنأوه بالفتح[٢] .

وفى صفر ظهر قدام المقياس بمصر وسط النيل الحائطُ الذى كان فى جوفه قبر يوسف الصديق وتابوته ، ولم ينكشف قط منذ نقله موسى عليه السلام إلا حينئذ ، عند نقصان الماء فى قاع المقياس ، فإن الرمل انكشف عنه وظهر للناس ، وأكثر الناس ما علموا ما هو . وفيها نافق جَلْدَك[٣] الشهابى بالواحات ، فأخذه العادل بالأمان وسيره إلى دمشق . فيها أغار عز الدين فرخشاه على صفد ، فأكثر من القتل والسبى وأحرق الرَّبَض[٤] فى رابع عشر ذى القعدة ، وعاد إلى دمشق .

(١) بقعة بساحل الشام ، فيها نبت كثير تمرج فيها الدواب . (ياقوت: معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٤٨٨) .

(٢) هنا ينتهى الهامش المشار إليه فى ص ٦٨ حاشية ١ . (٣) فى س "الشهابى"، وقد ضبط الأسم على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. P. 137) ، ولعله الأمير شجاع الدين جلدك التقوى ، المذكور فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر فى Rec. Hist. Or. I. P. 98) . (٤) بغير ضبط فى س . وهو سور المدينة ، وما حولها من مساكن وبيوت ، ومأوى الغنم والأبقار (محيط المحيط) .

وفيها مات الخليفة المستضىء[١] بأمر الله أبو المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله محمد، يوم الجمعة لاثنتى عشرة مضت من شوّال، وكانت خلافته عشر سنين غير أربعة أشهر. واستخلف من بعده ابنه الناصر لدين الله أبو العباس أحمد؛ فخرج الشيخ صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل من بغداد رسولا إلى الملوك و إلى السلطان [صلاح الدين]، وسار (٢١ ب) معه إلى مصر [شهاب الدين بشير الخاص] كما يأتى ذكره[٢]. وفيها ختن السلطان ابنه الملك العزيز عثمان، وسلمه إلى [صدر][٣] الدين بن المجاور معلما له. وفيها فشا الموت بمصر والقاهرة وعامة أعمال مصر، وتغيرت رائحة الهواء، ومات بالقاهرة ومصر فى أيام يسيرة سبعة عشر ألف إنسان.

* * *

ودخلت سنة ست وسبعين [وخمسمائة]. فيها سار السلطان إلى حرب عز الدين قلج[٤] أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان [السلجوقى] صاحب قونية، وعاد بغير قتال، فدخل دمشق أوّل شهر[٥] رجب، وفيها مات السلطان سيف الدين غازى بن السلطان قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل، فى ثالث صفر، وجلس أخوه عز الدين مسعود مكانه. فكتب السلطان صلاح الدين إلى الخليفة الناصر يسأل أن يُفَوَّض إليه، فوصل شيخ الشيوخ صدر الدين أبو القاسم عبد الرحيم، وشهاب الدين بشير الخاص، بالتفويض والتقليد والتشريف فى رجب. فتلقاهم السلطان وترجَّل لهم، ونزلوا له و بلغوه سلام الخليفة، فقبّل الأرض، ودخل دمشق بالخلع، وأعاد الجواب مع بشير، وصحبته ضياء الدين الشهرزورى. وسار [السلطان] إلى بلاد الأمن لقمع ملكهم[٦]،

---

(١) فى س "المستضى بالله" (٢) انظر ما يلى. (٣) مكان هذه بياض فى س، ولكنها فى ب (ص ٢٥ ا). (٤) فى س قليج، بدون ضبط، وأحيانا بغير الياء، وسيحافظ على الرسم الوارد هنا بالمتن دائما. (Enc. Isl. Art. Kılidj Arslan). (٥) فى ب (ص ٢٥ ا) أوّل رجب. انظر ص ٣٩، حاشية ١. (٦) اسمه (Leon, roi d'Arménie) ويسميه المؤرخون المسلمون ليفون ولافون وابن لاوت. (Rec. Hist. Or. Vol. V. Index).

فأوغل فيها وأطاعه ملكهم ، ثم عاد بعد ما وصل إلى بَهَسْنَا[١] وأحرق حصنا وخربه ، وخرج من دمشق يريد مصر فى ثامن عشر رجب ، ومعه شيخ الشيوخ [صدر الدين] ، فوصل إلى القاهرة ثالث عشر شعبان ، وخرج شيخ الشيوخ إلى مكة فى البحر ، وعاد منها إلى بغداد .

وفيها مات الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن سِلَفَة السِّلَفِى[٢] فى يوم الجمعة خامس ربيع الآخر بالإسكندرية عن نحو مائة سنة ، ومات الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب بن شادى فى خامس صفر بالإسكندرية ، وحُمل إلى دمشق فدفن بها ، وفيها ولدت امرأة غرابا . و [فيها] كان قاع[٣] [النيل] ثلاثة أذرع وعشرين إصبعا ، وبلغت الزيادة ستة عشرة ذراعا وثلثى ذراع .

* * *

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة . فى محرّم خرج الأمر بالحوطة على مُسْتَغَلاَّت[٤] العربان بالشرقية ، وأُمروا بالتعدية إلى البحيرة ، ووقعت الحوطة على إيقاع جذام وثعلبة ، لكثرة حملهم الغلال إلى بلاد الفرنج . وكثر الفار بالمقاثى والغلال بعد حصادها ، فأتلف شيئاً كثيراً . واحترق النيل حتى صار يُخاض ، وتشمر الماء عن ساحل المقس ومصر ، وربى جزائر[٥] رَمْلَة خيف منها على المقياس أن يتقلص الماء عنه ، ويُحتاج إلى عمل غيره . وبُعد الماء عن السور بالمقس ، وصارت قوّته من بر الغرب . وخيم السلطان فى بركة الجب للصيد

(١) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة حصينة ، فى شمال الشام ، بقرب مرعش وسميساط ، وهى من أعمال حلب (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٧٠) (٢) مضبوطان عن ياقوت (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٨) . وقد اعتمد ياقوت على أبى الطاهر فى كثير من معلوماته (انظر فهرس الأعلام فى معجم البلدان) . (٣) فى س القاع . (٤) جمع المستغل بفتح الغين ، وهو كل ما أوغل من أرض أو عقار أو حانوت أو سوق أو طاحون . والمستغل بكسر العين ما يأتى من المال أو غيره من هذه الأشياء (Dozy. Supp. Dict. Ar.) . (٥) فى س حراير رميله . (٦) يحتمل أن يكون هذا بدء تغيير مجرى النيل الذى نشأت عنه بولاق فيما بعد ، إذ يقول المقريزى فى المواعظ والاعتبار ، (ج ٢ ، ص ١٣٠ — ١٣١) فى هذا الصدد : " إن الماء انحسر بعد سنة سبعين وخمسمائة عن جزيرة تعرف بجزيرة الفيل ، وتقلص الماء عن سور القاهرة الذى ينتهى إلى المقس . وصارت هناك رمال وجزائر ما من سنة إلا وهى تكثر ... " . انظر ص ٦٦ ، حاشية ٣ .

ولعب الأكرة ، وعاد بعد ستة أيام . وورد الخبر بأن الأبرنس أرناط[١] ملك الفرنج بالكرك جمع وعزم على المسير إلى تَيْماء ودخول المدينة النبوية ؛ فخرج عز الدين فرخشاه من دمشق بعساكره إلى الكرك ، ونهب وحرق ، وعاد إلى أطراف بلاد الإسلام فأقام به ، وورد الخبر من نائب قلعة أَيْلَة بشدّة الخوف من الفرنج .

وفى صفر قدِم رسول ملك (٢٢١) القسطنطينية إلى القاهرة ، فوقع الصلح مع صاحبها ، وأطلق فى جمادى الآخرة مائة وثمانين أسيراً من المسلمين . وسار صارم الدين خطلبا إلى الفيوم ، وقد أضيفت إليه ولايتها ، وأفردت برسمه الخاص ، ونقل عنها مقطوعها . ثم صُرف عن ولاية الفيوم بابن شمس الخلافة ، وأحضر خطلبا ليسير إلى اليمن ، وكُتب إلى دمياط بترتيب المقاتلة على البرجين[٣] ، وسدّ مراكب السلسلة وتسييرها ليقاتل عليها ، ويدافع عن الدخول من بين البرجين بها

وفى ربيع الأول طرق الفرنج ساحل تِنيس[٤] وأخذوا[٥] مركبا للتجار ؛ ووصلت مراكب من دمياط كانت استدعت من خمسين مركبا لتكون فى ساحل مصر ، وكمل بناء برج بالسويس[٦] يسع عشرين فارسا ورُتب فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد ، التى يجلب منها الشب إلى بلاد الفرنج[٧] ؛ وأمر بعمارة قلعة تنيس . وَوَرَدَ تجار الكارم[٨] من عدن ، فطُلبت منهم زكاة[٩] أربع

(١) فى س " ارياط " . (٢) فى س عا وهى بليد (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، س ٩٠٧) فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى ، على طريق حاج الشام ودمشق .

(٣) يرجع إنشاء هذين البرجين والسلسلة التى بينهما ، على سبيل الترجيح ، إلى سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) فى عهد الخليفة المتوكل العباسى (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢١٣ — ٢٢٧) .

(٤) فى س " تنيس " . وبغير ضبط ، وهى بلدة بجزيرة صغيرة اسمها تنيس أيضا ، واقعة بالناحية الشمالية الشرقية من بحيرة المنزلة قرب بور سعيد الحالية . انظر ياقوت معجم البلدان (ج ١ ، ص ٢٨٨) .

(٥) فى س " واحد " . (٦) فى هامش س قبالة هذه السطور العبارة الآتية : " انظر بناء البرج بالسويس لحفظ طريق الصعيد " . (٧) كان معدن الشب ، زمن القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٨٨ ، ٤٠٩) من محكرات الدولة المصرية ، يستخرج من أسوان والواحات وبلاد أخرى بالصعيد ، ويحمل منها إلى سواحل قوص وأخميم وأسيوط والبهنسى لينقل إلى الإسكندرية ، فيباع أكثره لتجار بلاد الفرنج ، حيث يستعمل فى أشياء كثيرة أهمها صبغ الأحمر . انظر أيضا (Blochet : Op. cit p. 143. N.I) . (٨) العنبر الأصفر ، وكان لتجاره فندق خاص بهم بالفسطاط (القلقشندى : نفس نفس المرجع والجزء ، ص ٤٦٩) . انظر أيضا (Blochet : Op. cit. p. 143. N. 3) .

(٩) كان التجار وغيرهم يدفعون الزكاة على ما يدخلون به إلى البلد من ذهب وفضة ، وعلى ما يأتون به من متجر ، وحال عليه الحول . ثم زادت كمية مايؤخذ على التاجر زمن القلقشندى (نفس المرجع والجزء ص ٤٦١ — ٤٦٢ ، ٤٦٨ — ٤٧٠) فأصبح " المرتب السلطانى " عشر قيمة البضائع ، " مع لواحق أخرى تكاد أن تكون نحو المرتب السلطانى أيضاً " .

سنين . وكثرت بيوت المِزْر[١] بالاسكندرية ، فهُدم منها مائة وعشرون بيتا . ووصل المُقْرَد[٢] فى حادى عشرى ربيع الأوّل بالوفاء فى سابع عشره ، فأوفى [النيل] بمصر فى سادس عشريه [الموافق] يوم السادس عشر من مسرى ، ولا يعرف وفاؤه بهذا التاريخ فى زمن متقدّم . فركب السلطان لتخليق المقياس فى غده ، وخلع على ابن أبى الردّاد فى سلخه . وفُتح الخليج فى رابع ربيع الآخر ، والماء على خمسة عشر إصبعا من سبعة عشر ذراعا ، بمحضر والى القاهرة[٣] .

وفيه أنفق السلطان فى الأجناد البَطَّالين وجردهم إلى الثغور ، وأنفق فى رجال الشوانى وجردهم للغزو . وورد الخبر بكثرة ولادة الحيوان الناطق والصامت للتوأم ، وأن ذلك خرج عن الحد فى الزيادة على المعهود ، وأن الغزال فى البرية كله أتأم ، وكذلك[٥] النسوان أتأمن أكثر من الإفراد ، وكذلك الطير فإنه كثر ظهوره كثرةً ظهرت .

وفيه ماتت امرأة الصالح بن رزيك عن سن كبيرة وضعف حال وعمى ، بعد الدنيا والملك الذى كانت فيه . وركب السلطان فى أوّل جمادى الأولى لفتح بحر أبى المنجا ، وعاد إلى قلعة الجبل ، وركب منها إلى المخيم بالبركة . وسار متسلم الأمير صارم الدين خطلبا إلى اليمن . وانتصب السلطان ليلا ونهارا فى ترتيب أحوال الأجناد ، واقتطع من إقطاعات العربان الثلثين ، وعُوض به مُقْطَعو الفيوم ، وصارت أعمال الفيوم كلها للسلطان . وفيه قُرر ديوان[٦] الأسطول (٢٢ب) وفيه الفيوم والحبس الجيوشى والخراجى والنطرون ، وضُمن الخراج بثمانية آلاف دينار .

---

(١) المزر نوع من الجعة يصنع من الذرة أو الشعير أو الحنطة . محيط المحيط . (٢) مضبوطة على منطوقها فى (Blochet : Op. cit. p. 193) حيث هى مترجمة أيضاً إلى (Maximum) أى غاية ارتفاع النيل . (٣) انظر وصف حفلات تخليق المقياس وفتح الخليج فى القلقشندى (صبح الأعشى ح ٣ ، ص ٥١٦ — ٥٢١ ، وفى المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٧٠ — ٤٧٩ ، ٤٩٣) .

(٤) البطالون من الأجناد والأمراء هم العاطلون من أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها ، نتيجة غضب السلطان أو كبر السن ، أو اضطراراً إلى الاعتكاف والاختفاء ، أو لمجرد حب الانزواء والابتعاد : (O.— Demombynes Op. cit. Introd. p. XLVII. .N 3). (٥) فى س كذلكن .

(٦) انظر ص ٤٥ ، حاشية ٣ .

[وفى هذه السنة[١] رُتبت المقاتلة على البرجين بدمياط] ، وجهزت خمسمائة دينار لعمارة سورها والنظر فى السلسلة التى بين البرجين . وعُمل تقدير برسم ما يحتاج إليه سور تنيس وإعادته كما كان فى القديم ، فجاء ثلاثة آلاف دينار . وكُتب إلى قوص بإبطال المكوس التى تستأدى من الحجاج وتجار اليمن . وورد كتاب إبراهيم السلاح دار من المغرب أنه فتح بلاد هَوّارة[٢] ، وزَوَاوَة[٣] ، ولَوَاتَة[٤] ، وجبل نفوسة ، وغدامس[٥] ، وأعمالا طولها وعرضها خمسة وعشرون يوما ، وأنه خطب على منابرها للسلطان وضربت السكة باسمه ، وأنه إذا أنعم عليه بتقوية بلغ أغراضا بعيدة ، وسير أموالا عتيدة . وأنشئت أربع حراريق[٦] بصناعة[٧] مصر برسم من تجرّد إلى بلاد اليمن ، وجردت أمراء العسكر السائرين إلى اليمن . وكبُر[٨] فى بحر تنيس تعدّى العربان على المراكب ، وعمرت عليهم حراريق فيها ، فلم يُظفر بهم لإيوائهم إلى الهيش .

وفى جمادى الآخرة قطع الفرنج أكثر نخل العريش وحملوه إلى بلادهم ؛ وسُيرت مراكب بالزاد والعلوفات والأسلحة إلى اليمن ؛ وأسند أمر الجسور إلى والى الغربية و[والى] الشرقية ،

---

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢١٥) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى قبيلة من البربر سكنت جبال نفوسة . (انظر ص ٦٦ حاشية ٢ ؛ وياقوت : معجم البلدان . ج ٤ ص ٩٩٥ ؛ و Blochet : Op. 145 .N 3.) .

(٣) فى س زوارة وبغير ضبط ، وزواوة بلد صغير بين إفريقية والمغرب . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٩٥٣) . (٤) فى س لسانة بفتحة على اللام والميم والنون ، وهى قبيلة من البربر أيضاً (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٦٧) . انظر أيضاً (Blochet : Op. cit. p. 148. .N 3) .

(٥) انظر ص ٦٥ ، حاشية ٦ . (٦) المفرد حراقة وتجمع على حرارق أيضاً ، وهى نوع من السفن الحفيفة (Dozy : Supp. Dict. Ar) ، والغالب أنها كانت تستعمل فى النيل فقط ، لنقل الأجناد إلى الثغور البحرية . انظر المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٩٤) .

(٧) كان بالقاهرة ثلاث دور لبناء السفن ، تعرف كل منها بالصناعة ، وأولها صناعة الجزيرة بالروضة الحالية ، إذ أنشئت سنة ٥٤ هـ ؛ ثم صناعة مصر ؛ بناها محمد بن طغج الإخشيد بساحل مصر القديم ، وكانت تعرف أيضاً بصناعة العمائر ؛ ثم صناعة المقس ، وهى من منشئات المعز لدين الله الفاطمى (المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ، ص ١٩٥ — ١٩٧) . (٨) كذا فى س ، بغير ضبط .

ليتوفروا على عمارتها ؛ وكُتب إلى الأمير فخر الدين[١] نشو الملك بن فرحون وإلى البحيرة ومشارفها بذلك.

وفى رجب استقرّت[٢] عدّة الأجناد ثمانية آلاف وستمائة وأربعين ، وأمراء مائة أحد عشر ، وطواشية ستة آلاف وتسعمائة [و] ستة وسبعين ، وقَراغُلاَمية[٣] ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسين . والمستقرّ لهم من المال ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف وسبعون ألفا وخمسمائة دينار ، خارج عن الحلولين[٤] وعن العربان المُقطَعين بالشرقية والبحيرة والكنانيين[٥] والمصريين والفقهاء والقضاة والصوفية والدواوين ، ولا يقصر [مامعهم] عن ألف ألف دينار .

ووصل الإبرنس [أرناط] إلى أيلة ، وسار عسكره إلى تبوك . وفى شعبان كثر المطر بأيلة حتى تهدمت قلعتها ، وشُرع فى بناء سور دمياط ، وذرعه أربعة آلاف وستمائة وثلاثون ذراعا ، و[شرع أيضاً] فى بناء برج [بها] .

وفى شوّال مات مَنكُورِس[٦] الأسدى أحد الأمراء المماليك ، وأخذ إقطاعه يازكُج[٧] الأسدى . وقُبض على سيف الدولة مبارك بن منقذ بن كامل الكنانى ، نائب شمس الدولة ببلاد اليمن ، وأخذ منه ثمانون ألف دينار وأفرج عنه . وسار خطلبا والى مصر واليا على زَبِيد ، وصحبته خمسمائة رجل ، و[معهم] الأمير باخل ، وقد بلغت النفقة فيهم عشرين[٨] ألف

---

(١) كذا بغير ضبط فى س . انظر (Blochet: Op. cit. P. 146) حيث تُرجم الاسم إلى "Fakhr-ad-Din Nasr (?) al-Moulk-ibn-Fardjoūu" . (٢) فى س " استقرت عدة الاجناد ثمانية الاف وستمائة وأربعون أمرماية واحد عشر طواشية ستة الاف وسبعماية ستة وسبعون قراغلامية الف وخسماية وثلاثة وخمسون". (٣) جماعات الضبطية ، وعملهم مراقبة الطرق أثناء سير الجيوش (Dozy : Supp. Dict, Ar.) . (٤) هذه الكلمة مترجمة إلى (indisponibles) أى من لا عمل لهم ولا منهم نفع ، (Blochet : Op. cit. 146) مع التشكك . غير أن المقصود هنا بالحلولين الذين انحلت عنهم إقطاعاتهم أو رواتبهم فأصبحوا بطالين . راجع ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٢ ؛ ج ٦ ، ص ٣٠٦ ، ٣٣٨ ، ٤٨٠ ، ٦٣٧ ؛ ج ٧ ، ص ١٠٧ ؛ وكذلك المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٧ . (٥) انظر القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٦٧ — ٧٢) لمعرفة قبائل العربان بديار مصر منذ الأيوبيين . (٦و٧) ضبط كل من هذين الاسمين على منطوقهما فى فهارس (Rec. Hist. Or I-V.) . (٨) فى س عشرون .

دينار ، وكُتب للطواشية بنفقة عشرة دنانير لكل (٢٣ ا) منهم على اليمن ، إن كان من الإقطاعية ، وللبطالين والمترجلة فى الشهر ثلاثة وثلاثون دينارا ؛ وسُيِّرت الحراريق — وهى خمس — وقد شحنت بالرماة ، وفى سابع عشرة سار السلطان إلى الإسكندرية ، فدخل خامس عشرى شوّال ، وشرع فى قراءة المُوَطَّأ يوم الخميس — ثانى يوم دخوله — على الفقيه أبى الطاهر ابن عوف ؛ وأنشأ بها مارستانا ودارا للمغاربة ، ومدرسة على ضريح المعظم توران[1] شاه ؛ وشرع فى عمارة الخليج[2] ، ونقل فوهته إلى مكان آخر . وسار منها أوّل ذى القعدة إلى دمياط ، وعاد إلى القاهرة فى سابعه . وفى تاسعه أمر بفتح المارستان الصلاحى ، وأفرد برسمه من أجرة الرِّباع الديوانية مشاهرة مبلغها مائتا دينار ، وغلاتٍ جهتها الفيوم ، واستخدم له أطباء وغيرهم . وفى حادى عشره خرج السلطان إلى بركة الجب ، لتجريد العساكر والمسير إلى الشام ، وخرج الملك العادل فى ثالث عشره إلى المخيم ، ونزل ناحية [بركة الجب ؟] . وسومح برسوم الولاة بمصر والقاهرة ، ورسوم الفيوم ورسوم الصعيد الأعلى ؛ وأُخرجت منجنيقات إلى الخيام برسم الغزاة . وفى حادى عشره سار سيف الإسلام [طُغْتَكين أخو[3] السلطان صلاح الدين] إلى أخميم ، لجباية الجَوَالى[4] والنظر فى أمر الشب ، وظفر وإلى قوص برجلين من أهل إسنا يدعوان إلى مذهب الباطنية . وفى ثالث عشريه عُقد نكاح بنات العادل على أبناء السلطان صلاح الدين ، وهم : غياث الدين غازى ، ومظفر الدين خِضْر ، ونجم الدين مسعود ،

---

(١) فى س تورنشاه .

(٢) يقصد المؤلف قناة الإسكندرية التى كانت تخرج من فرع رشيد عند بلدة زاوية البحر ، جنوبى مدينة كفر الزيات الحالية ، (P. Omar Toussoe : Mem. Sur Anc. Branches Du Nil. pp. 196 et seq.) ، على أنه لا يوجد فى هذا المرجع ذكر لما أحدثه صلاح الدين بذلك الخليج .

(٣) انظر (Lane-Poole : Saladin. Table II. in pocket)

(٤) " هى ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة على رقابهم فى كل سنة . وهى على قسمين : ما فى حاضرة الديار المصرية من الفسطاط والقاهرة ، وما هو خارج عن ذلك . فأما ما بحاضرة الديار المصرية فإن لهذه الجهة بها ناظرا يولى من جهة السلطان ... . وأما ما هو خارج عن حاضرة الديار المصرية من سائر بلدانها ، فإن جزية أهل الذمة فى كل بلد تكون لمقطع تلك البلد من أمير أو غيره ، تجرى مجرى مال ذلك الإقطاع ، وإن كانت تلك البلد جارية فى بعض الدواوين السلطانية ، كان ما يتحصل من الجزية من أهل الذمة بها جاريا فى ذلك الديوان " . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ — ٤٦٣) .

شرف الدين يعقوب ؛ والصداق فى كل كتاب عشرون ألف دينار . وعقد السلطان المدنة مع رسول القومص ملك الفرنج بطرابلس ؛ ونودى بمنع أهل الذمة من ركوب الخيل والبغال ، من غير استثناء طبيب ولا كاتب. ومات الملك الصالح مجير الدين إسماعيل بن العادل نور الدين محمود بن زنكى بن آقسنقر الأتابكى صاحب حلب فى يوم الجمعة خامس عشرى رجب ، فقام من بعده ابن عمه السلطان عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى . وكان موت الصالح هو المحرك للسلطان [صلاح الدين] على السفر ، وكتب لابن أخيه المظفر تقى الدين عمر صاحب حماة وغيره من النواب بالتأهب ، وكاتب الخليفة الناصر يسأل ولاية حلب .

***

[سنة ثمان وسبعين وخمسمائة] . وأهلت سنة ثمان وسبعين، والسلطان مبرز بظاهر القاهرة ؛ فلما خرج الناس لوداعه ، وقد اجتمع عنده من العلماء (٢٣ ب) والفضلاء كثير ، وهم يتناشدون ما قيل فى الوداع ، فأخرج بعض مؤدبى أولاد السلطان رأسه من الخيمة ، وقال :

تمتع من شميم عرار نجد   فما بعد العشية من عرار

فتطير الحاضرون من ذلك ؛ وصحت الطِّيَرَة ، فإن السلطان رحل من ظاهر القاهرة فى خامس المحرم من هذه السنة ، ولم يعد بعد ذلك إلى القاهرة ، فسلك فى طريقه على أيلة ، فأغار على بلاد الفرنج ، وسار على سمت الكرك ، و بعث أخاه تاج الملوك بالعسكر على الدرب . وخرج عزالدين فرخشاه من دمشق ، فأغار على طبرية وعكا ، وأخذ الشقيف(1) [أرنون] ، وعاد بألف أسير وعشرين ألف رأس غنم ، وأنزل فيه طائفة من المسلمين . وأتى الريح بُطْسَةً للفرنج إلى بر دمياط ، فأسر منها ألف وستمائة وتسعون نفساً سوى من غرق ، فدخل السلطان

(١) قلعة حصينة قرب بانياس ، من أرض دمشق ، بينها وبين الساحل . وتسمى فى كتب المؤرخين الفرنج (Beaufort) ، انظر (Rec. Hist. Or. V. Index) . وأضيف إليها اسم أرنون تمييزا لها من شقيف دركوش وشقيف دبين ، وكلها بالشام . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ — ٣١٠) .

(٢) نوع من السفن . انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) ، وانظر أيضاً (Makhairas : Chron. of Cyprus, Vol. II. p. 141) ، وكذلك (Rec. Hist. Or. IV. P. 216. N. 3) . وفى محيط المحيط : البطسة مركب للحرب أو التجارة بلغة إسبانيا ، ج بطس .

إلى دمشق ، يوم الإثنين لثلاث عشرة بقيت من صفر ، فأقام بها يسيراً ؛ ثم أغار على طبرية ، واشتدّ القتال مع الفرنج تحت قلعة[١] كَوْكَب ، واستُشهد جماعة من المسلمين ؛ وعاد إلى دمشق فى رابع عشر ربيع الأوّل ، وخيم بالفَوّار من عمل حوران ، وأقام به حتى رحل إلى حلب .

وخرج سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب بن شادى ، من القاهرة إلى اليمن ، بعد مسير السلطان ، ووصل إلى زَبِيد فملكها ، وأخذ منها ما قيمته ألف ألف دينار ، واحتوى على عدن أيضاً .

وخرج السلطان من دمشق يريد حلب ، فنزل عليها يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى ، ونازلها ثلاثة أيام ؛ ثم رحل إلى الفرات ، فخيم على غربى البيرة ، ومَدّ الجسر ، وكاتب ملوك الأطراف ؛ ورحل إلى الرها فتسلمها ، وسار عنها إلى حران فَرَتّبها ، وانفصل عنها إلى الرقة فملكها وما حولها ؛ ونازل نصيبين حتى ملكها وقلعتها . فورد الخبر بقصد الفرنج دمشق ونهبهم القرى ؛ فسار ونازل الموصل فى يوم الخميس حادى عشر رجب ، وألح فى القتال فلم ينل غرضاً ؛ ورحل يريد سنجار ، فنازلها وصابقها من يوم الأربعاء سادس عشرى شعبان ، ودخل رمضان فكف عن القتال ، ثم تسلمها بالأمان يوم الخميس ثانية ؛ وأعطاها [ابن أخيه] الملكَ المظفر تقى الدين [عمر] ، ورحل إلى نصيبين فأقام بها لشدّة البرد وسار عنها إلى حران ؛ ثم رحل ونزل على آمد لثلاث عشرة بقيت من ذى الحجة .

وفيها قصد الفرنج بلاد الحجاز ، وأنشأ البرنس أرناط[٣] صاحب الكرك سفناً ، وحملها على البر إلى بحر القُلزُم ، وأركب فيها الرجال ؛ وأوقف منها مركبين على حِزْزَة[٤] قلعة القلزم[٥] ، لمنع

(١) قلعة حصينة بالجبل المطل على مدينة طبرية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٢٨) .

(٢) الفوار واد بالقرب من حصن الأكراد من عمل طرابلس ، به بئر يعرف بهذا الاسم . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٧٤) .

(٣) فى س ارياط .

(٤) كذا فى س بغير ضبط . وهى فى محيط المحيط بكسر الحاء الموضع الحصين .

(٥) الراجح أن المؤلف يقصد بلدة أيلة كما فى ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٣٢٣) . أما القلزم فموضع على البحر قريب من مدينة السويس الحالية ، وكان فرضة مصر والشام ، ومنه تحمل المتاجر إلى الحجاز واليمن . ثم أنه أصبح خرابا زمن ياقوت ، فتحولت التجارة إلى موضع السويس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٥٨ — ١٦١) .

أهلها من أستقاء الماء . وسارت البقية نحو عَيْذَاب ، فقتلوا وأسروا ، وأحرقوا فى بحر القلزم نحو ست عشرة مركباً ؛ وأخذوا بعيذاب مركباً يأتى بالحجاج من جدّة ؛ وأخذوا فى الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب ،وقتلوا الجميع ؛ وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن ؛ وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدّة لميرة الحرمين ؛ وأحدثوا حوادث لم يسمع فى الإسلام بمثلها ، ولا وصل قبلهم رومى إلى ذلك الموضع ؛ فإنه لم يبق بينهم و بين المدينة النبوية سوى مسيرة يوم[1] واحد ، ومضوا إلى الحجاز يريدون المدينة (٢٤ ا) النبوية. فجهز الملك العادل ، وهو مخلف السلطان بالقاهرة ، الحاجبَ حسام الدين لؤلؤ إلى القلزم ؛ فعمر مراكب بمصر والإسكندرية ، وسار إلى أيلة ، وظفر بمراكب للفرنج ، فحرقها وأسر من فيها ، وسار إلى عيذاب ؛ وتبع مراكب الفرنج ، فوقع بها بعد أيام واستولى عليها وأطلق من فيها من التجار المأسورين ، وردّ عليهم ما أُخذ لهم ؛ وصعد البر ، فركب خيلَ العرب حتى أدرك من فرّ من الفرنج وأخذهم ، فساق منهم اثنين إلى منى ونحرها[2] بها كما تنحر البُدْن ، وعاد إلى القاهرة بالأسرى فى ذى الحجة ، فضربت أعناقهم كلهم ، وعاد الأسطول [من بحر[3] الروم] بعد نكاية أهل الجزائر ، ومعه بطسة للفرنج كانت تريد عكا ، بها أخشاب ونيف وسبعون رجــلا .

ومات عز الدين فرخشاه الملقب بالملك المنصور فى دمشق فى أول جمادى الآخرة . ومات الشيخ الزاهد رُوزْبِهَار بن أبى بكر بن محمد بن أبى القاسم الفارسى الصوفى[5] ، يوم الأربعاء الخامس من ذى القعدة ، ودفن بقرافة مصر . وفيها انقرضت دولة آل سبكتكين ، وكان ابتداؤها سنة ست وستين وثلاثمائة ، فملكوا مائتى سنة وثلاث عشرة سنه . وأولهم محمود بن

(١) توجد بالهامش إزاء هذه السطور العبارة الآتية : " انظر قصد الفرنج بلاد الحجاز " ، وهى بخط مخالف . (٢) فى س ونحرهم . (٣) الراجح أن هذه المعركة البحرية كانت قرب إحدى الجزائر والواقعة فى شرق البحر الأبيض المتوسط . انظر أبا شامة (كتاب الروضتين ، ص ٢٣٥ ، فى Rec' Hist. Or' IV.) ، وابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٣٢٦) .

(٤) انظر بعض أخباره فى (Blochet : Op. cit. p. 155. N. 1) .

سبكتكين ، وأخرهم خسروشاه بن بهرام بن شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين[١] . وقام بعدهم الغُورِيّة ، [وأولهم عز الدين حسن ، صاحب بلاد[٢] الغور] .

وفيها ورد الخبر بأن الماء الذى [فى] زُقَاق[٣] سَبْتَة قَلّ ، حتى ظهرت القنطرة التى كان يعبر الناس عليها فى قديم الدهر إلى أن غلب عليها البحر وطمّها ؛ فلما قل الماء فى هذه السنة عنها لم يبق عليها منه سوى قامتين ، ورأى الناس آثار بنيانها ، وأن مركباً انكسر عليها .

* * *

[سنة تسع وسبعين وخمسمائة] . وأهلت سنة تسع وسبعين والسلطان على آمد ، فتسلمها فى أوائل المحرّم ، فقدمت عليه رسل ملوك الأطراف يطلبون الأمان . وخرج الفرنج إلى نواحى الدَّارُوم[٤] ينهبون ، فبرز إليهم عدّة من المسلمين على طريق صدر وأيلة ، فأظفرهم الله ، وقتلوا وغنموا وعادوا سالمين . وفيه سار الأسطول من مصر فظفر ببطسة فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون عِلْجاً[٥] ، قدموا بهم فى خامس المحرم إلى القاهرة . وتوجه سعد الدين كُشبه[٦] [الأسدى] وعلم الدين قيصر إلى الداروم ، فأوقعوا بالفرنج على ماء ، وقتلوهم جميعاً وقدّموا بالرءوس [إلى]

(١) آخر ملوك هذا البيت هو تاج الدولة خسرو ملك ، وقد جاء بعد خسرو شاه المذكور هنا . (Lane-Poole : Muh. Dyns. p. 289)

(٢) راجع (Ibid : Op. cit. pp. 291 et seq) .

(٣) الزقاق مجاز البحرين بين طنجة والجزيرة الخضراء فى بلاد المغرب (محيط المحيط) ، وسبتة (Ceuta) مدينة حصينة بساحل مراكش قبالة جبل طارق . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٠ ، و (Enc. Isl. Art. Ceuta .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى بليدة بينها وبين غزة أربعة فراسخ ، وهى بعد غزة فى الطريق إلى مصر ، وبها قلعة ، الواقف عليها يرى البحر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٢٥ ، ٥٢٧) .

(٥) العلج الرجل الضخم من كفار العجم ، وبعض العرب يطلق العلج على الكافر مطلقاً ، ج علوج وأعلاج (محيط المحيط) . وفى (Dozy : Supp. Dic. Ar.) هو الرجل الشهوانى المستهتر ، والذى كان مسلماً فتنصر ، أو نصرانيا فأسلم . وقد ترجمها (Blochet : Op, cit, p, 166) إلى (Matelots) أى بحارة .

(٦) كذا فى س بغير ضبط ، وهو مترجم فى (Blochet : Op, cit, p, 166) إلى (Kamsaba) . انظر أبا شامة (كتاب الروضتين ، ص ٣٤٦ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، فى Rec, Hist, Or, IV) حيث ترجم إلى (Kemchebeh) .

(٧) هذا اللفظ غير واضح فى س ، وكذلك بعض الكلمة السابقة له .

القاهرة فى رابع عشريه . ورحل السلطان عن آمد ، وعبر الفرات يريد حلب ، فملك عَيْن تاب[(١)] وغيرها ، ونزل على حلب — بكرة يوم السبت سادس عشرى المحرم — وقد خرّب السلطان عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى قلعتها[(٢)] فى جمادى من سنة ثمان وسبعين [خمسمائة] . وتسلمها [صلاح الدين] بصلح ، يوم السبت ثامن عشر صفر ، على أن تكون لعماد الدين سنجار . ومات تاج الملوك بُورِى[(٣)] بن أيوب بن شادى فى يوم الخميس ثالث عشريه بحلب . وسار عماد الدين إلى سنجار . فولّى السلطان قضاء حلب محيى الدين محمد بن الزكى على القرشى قاضى دمشق ، فاستناب بها زينَ الدين ندا بن الفضل بن سليمان البانياسى ؛ وولّى يازكج قلعتها ، وجعل ابنه الملك الظاهر غياث الدين غازى[(٥)] ملكا بها ، ورحل عنها لثمان بقين من ربيع الآخر . فدخل دمشق ثالث جمادى الأولى ، وأقام بها إلى سابع عشرية ؛ وبرز وسار إلى بَيْسَان[(٦)] ، فعبر [نهر] الأرْدُن[(٧)] فى تاسع جمادى الآخرة ، وأغار على بيسان فأحرقها ونهبها . وفعل ذلك (٢٤ ب) بعدة قلاع ، وأوقع بكثير من الفرنج واجتمع بعين جالُوت من الفرنج خلق كثير ، ثم رحلوا ، وأسر [السلطان] منهم كثيرا ، وخرب من الحصون حصن بيسان وحصن عَفْرَبلا[(٩)] وزَرْعين[(١٠)] ، ومن الأبراج والقرى عشرة . وعاد إلى دمشق لست بقين من جمادى الآخرة ، ثم خرج فى يوم السبت ثالث رجب يريد الكرك ، فنازله مدّة ولم ينل منه

---

(١) فى س عنتاب ، وهى قلعة حصينة بين حلب وأنطاكية ، وكانت تعرف بدلوك . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧٥٩) . (٢) يتضح من (Blochet : Op. cit p. 157 N. 3) ، أن المقريزى خلط هنا بين حلب وعزاز .

(٣) انظر بعض أخباره فى (Blochet : Op. cit. 157. N. 4) .

(٤) فى س يازكوج . (٥) فى س ايلغازى . انظر (Blochet : Op. cit. p 157. N. 5) .

(٦) فى س نسان بغير ضبط ، وهى مدينة بين حوران وفلسطين . (ياقوت معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٨٨ ، و Blochet : Op. cit. p. 158. N. 3) .

(٧) بغير ضبط فى س . (انظر ياقوت : نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢٠٠ ، و Blochet : Op. cit. p. 158 N. 4) (٨) قرية صغيرة بين بيسان ونابلس (ياقوت : نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٧٦٠) . وبهامش الصفحة العبارة الآتية : " وكانت يومئذ بلدة عامرة ، يزرع بها قصب السكر على عينها التى يقال لها عين جالوت " .

(٩) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة بغور الأردن قرب بيسان وطبرية . (ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ، ص ٦٨٨) . (١٠) مضبوطة على منطوقها فى (Blochet : Op. cit. p. 159) ولعلها ادرين أو زرين المذكورة فى (G-Demembynes : Op. cit. p. 243, Le Strange : Palestine Under Moslems . 441.)

غرضًا . فسار إلى دمشق ، وقد وصل إليه أخوه الملك العادل من من مصر فى رابع شعبان . فاجتمع السلطان بأخيه الملك العادل على الكرك ، وقد خرج إليه بعسكر مصر . وفى يوم الخميس خامس عشره رحل الملك المظفر تقى الدين من الكرك إلى مصر ، عوضا عن العادل وارتجع عن العادل إقطاعه بمصر ، وهو سبعمائة ألف دينار فى كل سنة . فُجهز إليها الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، ومعه القاضى الفاضل ، وأُنعم على تقى الدين بالفيوم وأعمالها مع القايات[1] و بوش ، وأُبقى عليه مدينة حماة وجميع أعمالها .

ووصل السلطان إلى دمشق لثمان بقين من رمضان ، و بعث بالملك العادل إلى حلب فى ثانى رمضان . فقدم الظاهر على أبيه بدمشق ومعه يازكج[2] ؛ وقدم شيخ الشيوخ صدر الدين وشهاب الدين بشير من عند الخليفة الناصر ، ليصلحا بين السلطان و بين عز الدين صاحب الموصل ، و معهما القاضى محيى الدين أبو حامد بن كمال الدين الشهرزورى ، و بهاء الدين بن شدّاد ، فأقاموا مدّة ورحلوا بغير طائل ، فى سابع ذى الحجة .

وفيها ظهر بقرية بُوُصِيُر[3] بيت هرمس ، فخرج منه أشياء ، منها كباش وقرود وضفادع يَازَهْر[4] ودَهْنَج[5] وأصنام من نحاس . وفيها قتل شرف الدين بَرْغُش على الكرك فى ثانى عشرى

---

(١) فى س العايات ، انظر ص ٩١ حاشية ٣ ، والقايات بالمنيا الحالية ومركزها مغاغة على حافة الصحراء العربية ؛ وبوش فى بنى سويف ومركزها بنى سويف نفسها .

(٢) فى س تركوج .

(٣) يوجد بمصر أربع قرى بهذا الاسم (Blochet : Op. cit. p. 160. N. 2) ، والراجح أن المقصود هنا بوصير قوريدس بالفيوم ، التى قتل فيها مروان بن محمد ، آخر ملوك بنى أمية سنة ١٣٢ هـ . (المقريزى : الواعظ والاعتبار : ج ١ ، ص ٣٤ ؛ والقلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٨١) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهو حجر خفيف هش ينسب إليه قوى غريبة فى مقاومة السموم ، ويسمى أيضاً بادزهر ، وهو لفظ فارسى مركب من كلمتين ، الأولى باد ومعناها طارد ، والثانية زهر ومعناها سم . (محيط المحيط و Dozy : Supp. Dict. Ar.) . هذا وبالقلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١١١) فصل طويل عن الباد زهر وخصائصه .

(٥) بغير ضبط فى س ، وهو جوهر كالزمرد ، ويتكون من معدن النحاس . (محيط المحيط ، و Dozy : Supp. Dict.Ar.) . وبالقلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٢ ص ١٠٧) أن الدهنج مسكن للسموم أيضاً .

(٦) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. p. 161) ، وله سمى مترجم إلى (Barghash) فى (Rec. Hist. Or. I. Index)

رجب ، فحمل إلى زُرْع[1] ودفن فى تربته . [و] فى سنة تسع وسبعين هذه وقعت[2] بالوجه البحرى [قطع] برد كبيض الأوز أخربت ما صادفته من العامر ، ودَمَّرت الزروع ، وأهلكت كثيرا من الماشية والناس .

* * *

سنة ثمانين وخمسمائة فى خامس المحرم توجهت قافلة بغلات وسلاح وبَدَل[3] مجرّد إلى قلعتى أيلة وصدر وخرج من الشرقية جماعة يخفرونها مع قيصر و إلى الشرقية ، فأوصلها إلى أيلة وصدر . وعاد فى خامس عشريه ، وكان العدّو قد نهض إليها وعاد عنها . وأهلت [هذه السنة] والسلطان بدمشق ، فبعث إلى الأطراف يطلب العساكر ، فقدم عليه ابن أخيه تقى الدين بعساكر مصر ومعه القاضى الفاضل . [و] خرج السلطان من دمشق يوم الثلاثاء النصف من ربيع الأوّل إلى جِسْر الخَشَب[4] ، وقدم الملك العادل من حلب — ومعه نور الدين بن قرا أرسلان[5] — إلى دمشق يوم الخميس رابع عشريه ، وخرجا إلى الكسوة[6] . فرحل السلطان فى ثانى ربيع الآخر من رأس الماء يريد الكرك وخرج تقى الدين فى عسكر مصر ، ومعهم أولاد الملك العادل وأهله ، يوم الأربعاء مستهله ، فساروا إلى أيلة ، ووصلوا إلى السلطان فى تاسع عشره وهو على الكرك . وسارت أولاد العادل فى حادى عشريه ، فلقوا العادل وهو على الفوّار فى خامس عشريه ، ووصل معهم زرافة . فاجتمعوا به وساروا إلى حلب ، ومعهم بكمش[7] بن عين الدولة الياروق ، وعلىّ

(١) بغير ضبط فى س ، وهو اسم يطلق على بلاد بفلسطين والأردن (Le Strange : Palestine Under Moslems, p. 556 · also Index) .
(٢) فى س وقع .

(٣) المقصود بهذا اللفظ جماعة من الجند أرسلت خصيصا لإبدال ما هنالك من الذين طالت إقامتهم ، واستحقوا الرجوع إلى بلادهم . انظر (Dozy : Supp Dict. Ar.) .

(٤) موضع بظاهر دمشق ، ويعرف أيضاً بمنازل العساكر . (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٦٦ ، ٢٥٩ ، فى (Rec. Hist. Or. IV .
(٥) فى س قرارسلان .

(٦) بغير ضبط فى س ، وهى أول منزلة للقوافل الذاهبة من دمشق إلى مصر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٧٥) .

(٧) كذا فى س بغير ضبط ويرجح (Blochet : Op. cit. p. 162. N. 1) أن صحته (Bektash)

ابن سليمان بن جَنْدَر[١]، ونزل العسكر الحلبي على عَمَّان مدينة البلقاء[٢] في ثامن جمادى الأولى، ورحل عنها في ثاني عشره إلى الكرك. وقدم العادل وابن قرا أرسلان إلى الكرك في سابع عشرة، وعملت المجانيق إلى ليلة الخميس حادى عشريه، ثم رُميت تلك الليلة. ورحل العسكر كله لخبر ورد عن اجتماع الفرنج، وساروا إلى اللَّجُّون[٣]، ونزل الفرنج بالواله[٤]. ثم سار العسكر إلى ناحية البلقاء، فنزلوا حَسْبَان[٥] تجاه الفرنج، إلى نصف نهار الإثنين سادس عشريه. فرحل الفرنج إلى الكرك، والعسكر وراءهم إلى نابلس، فهاجمها[٦] العسكر يوم الجمعة سلخه. وحرقوها ونهبوها؛ وساروا فأخذوا أربعة حصون[٧]، ونزلوا على جِينين[٨]، ونقبوا قلعتها حتى وقعت، وقُتل تحتها من النقابين عدّة، وأُخذت عنوة وغنم منها شيء كثير. ورحلوا في ليلتهم إلى زرعين و[عين] جالوت، وأحرقوهما في الليل، وعبروا الأردن يوم الأحد ثاني جمادى الآخرة، ونزلوا الفوّار رابعة.

ودخل السلطان دمشق يوم السبت سابعة، ومعه عساكره كلها. وقدم أخوه العادل من حلب، وأتته العساكر المشرقية وعساكر الحصن[٩] وآمد؛ وسار بهم يريد الكرك لأخذها من الفرنج. فنازلها في رابع عشر جمادى الأولى، ونصب عليها تسعة مجانيق رماها بها. وقدمت الأمداد من الفرنج، فرحل السلطان إلى نابلس، ونهب كلّ ما مرّ به من البلاد؛ وأحرق نابلس وخربها ونهبها، وقتل وسبى وأسر، وأستنقذ عدّة من المسلمين كانوا أسرى، وسار إلى جينين، وعاد إلى دمشق. فقدم عليه رسل الخليفة، وهما الشيخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل بن أبي سعد أحمد، و[شهاب الدين][١٠] بشير الخادم، ومعهما خلع

(١) بغير ضبط في س. انظر (Rec. Hist. Or. I. pp. 663, 673).

(٢) جهات واسعة بين دمشق ووادى القرى. انظر (Blochet : Op. cit. p. 162. N. 2).

(٣) بغير ضبط في س، وهو بلد بالأردن، بينه وبين طبرية عشرون ميلا. (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٥١).

(٤) بغير ضبط في س، انظر (Rec. Hist. Or. IV. p.248).

(٥) بغير ضبط في س، انظر (Blochet : Op. cit. p. 162N. 4).

(٦) في س فهجمها.

(٧) في س اربع.

(٨) في س جينين، وبغير ضبط، وهي بليدة بين نابلس وبيسان. (ياقوت : معجم البلدان ج ٢، ص ١٨٠).

(٩) يقصد المؤلف حصن كيفا، وهو قلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧٧).

(١٠) انظر ص ٨٢، وكذلك ابن الأثير (الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٣٣٥).

للسلطان والملك العادل ، فلبساها . وطلب[1] [الرسولان] تقرير الصلح بين السلطان و بين عز الدين صاحب الموصل ؛ فلم يتقرّر بينهما صلح ؛ وخرجا من دمشق ، فماتا قبل وصولهما إلى بغداد .

وخلع السلطان على جميع العساكر ، وأذن لهم فى المسير إلى بلادهم ، بعد ما أعطاهم شيئا كثيرا ، فساروا . وفى نصف شعبان سار المظفر تقى الدين بعساكر مصر يريد العود إلى القاهرة ، وقُرئت وصية سلطانية ، تضمنت ولاية الملك العزيز عثمان ابن السلطان لمصر بكفالة ابن عمه تقى الدين عمر ، وولاية (٢٠ ١) الملك الأفضل [أكبر أبناء السلطان[2]] على الشام بكفالة عمه العادل صاحب حلب ؛ وأنّ مدة الكفالة إلى أن يعلم المسلمون باستقلال كل واحد بالأمر ، و يستقر الكافلان فى خبزيهما وما بأيديهما ، ومن عُدم من الولدين قام الأمثل من إخوته مقامه ، أو من الكافلين قام الباقى منهما مقام الآخر ، واستُخلِف الحاضرون من الأمراء ؛ وولى قراءة العهد بذلك القاضى المرتضى بن قريش . وسومح بهلالىّ البَهْنَسَا[3] ،

---

(١) ف س وطلبا (٢) انظر (Lane-Poole : Saladin, Table II., in pocket) .

(٣) البهنسا مدينة بصعيد مصر الأدنى غربى النيل ، وتضاف إليها كورة كبيرة ، وهى عامرة كثيرة الدخل . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٧١ ؛ والمقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨) . وهى الآن قرية صغيرة قرب بنى مزار (Enc. Isl. Art. Bahnasā) . والهلالى المكوس التى تجبى فوق الخراج بالديار المصرية ، وفيها يقول المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٠٣ وما بعدها) ما نصه : " أعلم أن مال مصر فى زمننا ينقسم إلى قسمين : أحدهما يقال له خراجى ، والآخر يقال له هلالى والمال الخراجى ما يؤخذ مسانهة من الأراضى التى تزرع حبوبا ونخلا وعنبا وفاكهة ، وما يؤخذ من الفلاحين هدية ، مثل الغنم والدجاج والكشك وغيره من طرف الريف والمال الهلالى عدة أبواب ، كلها أحدثوها (كذا) ولاة السوء شيئاً بعد شىء ... ... وأول من أحدث مالا سوى مال الخراج بمصر أحمد بن محمد بن مدبر ، بعد سنة خمسين ومائتين ، فإنه كان من دهاة الناس وشياطين الكتاب . فابتدع فى مصر بدعا سارت مستمرة من بعده لا تنقض : فأحاط بالنطرون ، وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس ، وقرر على الكلأ الذى ترعاه البهائم مالا سماه المراعى ، وقرر على ما يطعم الله من البحر مالا وسماه المصايد ، إلى غير ذلك . فانقسم حينئذ مال مصر إلى خراجى وهلالى ، وكان الهلالى يعرف فى زمنه بالمرافق والمعاون . فلما ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون إمارة مصر ، وأضاف إليه أمير المؤمنين المعتمد على الله (١٠٤) الخراج والثغور الشامية ، رغب وتنزه عن أدناس المعاون والمرافق ، وكتب بإسقاطها فى جميع أعماله ، وكانت تبلغ بمصر خاصة مائة ألف دينار فى كل سنة ... . ثم أعيدت الأموال الهلالية فى أثناء الدولة الفاطمية عند ما ضعفت ، وصارت تعرف بالمكوس . فلما استبد السلطان الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب بملك مصر أمر بإسقاط =

وهو ألف ومائتا دينار؛ وسومح بالأتبان، وما تَقْصُر عن ألفي دينار؛ ومنع من ضمان المزر والخمر والملاهي، وتُرِكَ ما كان يؤخذ من رسم ذلك للسلطان بديار مصر. وخرج السلطان من دمشق يريد البلاد الشرقية؛ فأقام بحماة بقية السنة، وكان نزوله عليها في عشرى ذى القعدة.

وفى هذه السنة أقيمت خطبة فى سابع المحرم عند قبر سَارِيَةَ[1] بِلِحْف[2] الجبل، فى غير بنيان وبغير سكان، وتم ذلك بعصبية جماعة. ثم أُحدث جامع عند قبة موسك[3] وبقيت سنين. وبلغ النيل ثلاث عشرة إصبعا من تسع عشرة ذراعا، فأضَرّ ذلك بالقرى، وخرج أهلها منها لسقوط جدرانهم. وغرقت البساتين والأقصاب، وفاضت الآبار، وانقطعت الترع[4]، وكثر الضرر، كما حصل فى سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

و[فى هذه السنة] مات السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن على ملك المغرب، لسبع خلون من رجب. ومات إِيلْغَازِى [بن نجم الدين] بن ألبى[5] بن تَمُرْتَاش بن إيلغازى بن أُرتق الأرتقى قطب الدين[6]، صاحب مارِدِين[7]، فى جمادى الآخرة. وفيها مات

= مكوس مصر والقاهرة، فكتب عنه القاضى الفاضل مرسوما بذلك، وكان جملة ذلك فى كل سنة مائة ألف دينار ... . (١٠٥) وذكر ابن أبى طى أن الذى أسقطه السلطان صلاح الدين، والذى سامح به لعدة سنين آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة، مبلغه عن نيف (كذا) ألف ألف دينار وألفى ألف أردب، سامح بذلك وأبطله من الدواوين، وأسقطه عن المعاملين، فلما ولى السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف أعاد المكوس وزاد فى شناعتها ... . " انظر أيضاً (نفس المرجع، ج ٢، ص ٢٦٧ — ٢٦٨، والقلقشندى: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧١).

(١) بغير ضبط فى س. وهذا القبر من مزارات القاهرة ومشاهدها، وهو بالقرافة، وصاحبه سارية ابن أبى زنيم الدؤلى، وهو الذى ناداه الخليفة عمر بن الخطاب على المنبر "يا سارية الجبل!". (ياقوت: معجم البلدان: ج ١، ٧٨٨، ج ٣، ص ٦٤٥، ج ٤، ص ٢٤٧، ٤٨٥، ٥٥٥)

(٢) أى قاعدة الجبل. (محيط المحيط).

(٣) بغير ضبط فى س، ولعله قبر موسك بن المحلى بن زعيم الأكراد الهذبانية. (انظر ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٩، ص ٤١٦). هذا وقد كان للسلطان صلاح الدين ابن خال اسمه عز الدين موسك، منشئ قنطرة الموسكى بالقاهرة، غير أنه مات بدمشق سنة ٥٨٤ هـ. (المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٤٧). (انظر ص ٣ ١). (٤) فى س الترع.

(٥) فى س التى. راجع ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١١، ص ٣٣٥).

(٦) ضبطت هذه الأسماء على منطوقها فى (Blochet : Op. cit., p. 165).

(٧) قلعة حصينة على قنة جبل الجزيرة، مشرفة على نصيبين. (ياقوت: معجم البلدان ج ٤، ص ٣٩٠).

آقسنقر الساقى ، صهر قراجا الهمام ، بحلب فى يوم الجمعة حادى عشر رجب . وفيها رسم السلطان بتقييد أولاد [الخليفة] العاضد [الفاطمى] ومن بقى من أقاربه .

* * *

(تتمة[١] سنة ثمانين وخمسمائة) . أول المحرم يوم الاثنين ، فيه ابتدئ بالتدريس فى المدرسة الفاضلية بدرب ملوخيا من القاهرة . وفى خامسه توجهت القافلة بالبدل المجرد[٢] إلى قلعتى صدر وأيلة مع قيصر والى الشرقية . وفى سابعه أقيمت الخطبة عند قبر سارية بلحف الجبل فى غير بنيان ولا سكان . وفى ثامنه وردت كتب السلطان من دمشق ، باستدعاء العساكر ، وجمع الأموال والأسلحة والأمتعة . وفى حادى عشره كانت فتنة بين العرب الجذاميين ، فخرج عسكر إلى الشرقية . وعدّى الملك المظفر إلى الجيزة بأولاده ، لدعوة عملها الطواشى قراقوش[٣] عند قناطر طُرَة[٤] ، وعاد من الغد . وفى ثامن عشره وردت كتب السلطان من دمشق ، لاستنهاض العساكر لغزاة الكرك ، وأن يستصحبوا من الراجل ماقدروا عليه فبرزت الخيام إلى بركة الجب فى عشريه وخرج من الغد الملك المظفر تقى الدين النائب بمصر . وفى ثانى عشريه ورد الخبر من ناظر قوص بغرق أربع جلاب[٥] ، بها ألف وثلثمائة رجل من الحجاج ، هلكوا [كلهم] . وفى خامس عشريه عاد قيصر والى الشرقية من صدر ، بعد أن أوصل القافلة إلى أيله، وعاد بالقافلة العائدة ، وكان العدو قد نهض إليها ، ثم عاد عنها . وفى سلخه ورد الخبر بأن المؤيد سيف الإسلام مَلَكَ بلاد اليمن ، واعتقل خطاب بن منقذ بزبيد .

[وأهَلّ] صفر ، فى رابعه ورد الخبر بوصول تابوتى نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ، إلى المدينة النبوية ، ودفنهما بها . وكان قد حُمِل بهما إلى قوص ، وعدّى بهما من بحر عيذاب

---

(١) هذا بدء هامش مكتوب على ورقتين منفصلتين فى س ، بين صفحتى ٢٤ ب ، ٢٥ ا . وليس لما ورد به وجود فى ب . (٢) انظر ص ٨٣ ، ويلاحظ أن هــذه الأخبار وبعض ما بعدها قد تقدم ذكره . (٣) فى س قراغوش ، وبالهامش العبارة الآتية بخط مخالف : " ذكر ابن الأثير أن هذا قراقوش بالقافين ، وأنه هو الذى عمر قلعة الجبل ، والمؤلف يسميه قراغوش ، والله أعلم " . انظر ص ٦٠ ، حاشية ٨ .

(٤) فى س قناطرة ، بغير ضبط . انظر (p. Omar Tousoun : Op. cit. T. I.I., p. 190) .

(٥) نوع من سفن التجارة خاص بالبحر الأحمر ، ومفرده جلبة . (Dozy : Supp. Dict.A r.) .

إلى المدينة ، وكان سيرها فى أول السنة الماضية . وفى سادسه سار الأسطول ، وهو أحد وثلاثون شينيا[١] وحراقة وفى سابعه جرت فتنة بين الأشاعرة والحنابلة ، سببها إنكار الحنابلة على الشهاب الطوسى تكلمه فى مسألة [من مسائل] الكلام فى مجلس وعظه . وترافعوا إلى [الملك] المظفر بمخيمه ، فرسم برفع كراسى وعظ الفريقين ؛ وقد أطلق كلٌّ من الفريقين لسانه فى الآخر . وفى ثامنه وقع مطر عظيم ، ورعد قاصف وريح عاصف ، وبرق خاطف وبرد كثير كبار[٢] . فحل بالعسكر المبرز بلاء شديد ، وعطبت الثمار ، وتفسّخت الأشجار ، وانقعر النخل ، وعمت الجائحة الثمار والزروع ، التى لم تُحصد وما حصِد ، وتلفت المقاثىء . وفى عاشره عقد مجلس لأصحاب الدواوين [للمفاضلة ما بين] ابن شكر وابن عثمان : فتسلم ابن عثمان الدواوين ، بعد أن أخذ خطه بزيادة خمسة عشر ألف دينار على الارتفاع ؛ ثم صُرف بابن شكر فى ثالث عشره .

[وأهّل] شهر ربيع الأول . فى ثانى عشره سار المظفر تقى الدين من بركة الجب ، يريد السلطان بدمشق . وعاد ابن السلار إلى القاهرة نائباً عن المظفر . وعاد ابن شكر ناظرُ الدواوين [إلى القاهرة ؟] فى خامس عشره ، ومعه ولد المظفر ، فخرج الناس لتلقيه

[وأهل] شهر ربيع الآخر . فى عشريه قدم المظفر على السلطان [صلاح الدين] بالقرب من الكرك .

[و] فى عاشر جمادى الآخرة أخْلت أهل بلبيس [بلدتهم] فى ليلة واحدة ، وقد سمعوا بمسير الفرنج إلى فاقوس . واضطرب الناس بالقاهرة ومصر والجيزة ، فسميت الهجة الكدابة . وقدم الخبر بأن سيف الإسلام قتل خطاب بن منقذ ومثّل[٣] به ، واستصفى أمواله باليمن ، وقبض على ألزامه . وكان العسكر عقيب الهجة خرج إلى بلبيس ، فنهبها الغلمان ، وأخذ الفرنج نحو مائتين وعشرين أسيراً ، وساقوا أغناماً لا تدخل تحت حصر .

وفى رابع عشرى شعبان قدم المظفر تقى الدين إلى القاهرة بالعسكر ، بعد شدّة لحقتهم فى طريقهم . وفى ذى القعدة ورد كتاب سيف الإسلام بأنه فتح باليمن مائة وثلاثة وأربعين

(١) فى س شيني .
(٢) فى س وبرد كبير كبار .
(٣) فى س وقتله

حصنًا ، وقدم أهــل خطاب بن منقذ وأخوه محمد إلى مصر . وخرج تقى الدين [ابن] أخى[1] صلاح الدين إلى البحيرة ليكشف أحوالها . و[كان] معه كاتبه الرضى بن سلامة ، فاستدفع من الدواوين حساباتهم ، وسار بهــا على بغل صحبــة تقى الدين ، فأرسل الله صاعقة من السماء أحرقت البغل وما عليه من الحساب ، وعاد تقى الدين[2] .

* * *

[سنة إحدى وثمانين وخمسمائة]. وأهلت سنة إحدى وثمانين ، فسار السلطان و بلغ حران فى يوم الجمعة ثامن عشرى صفر ، فقبض على صاحبها مظفر الدين كُوكُبُرى[3] ، واستولى عليها . ورحل عنها فى ثانى ربيع الأول ، فوافته رسل الملك قلج[4] أرسلان بن مسعود [السلجوقى] صاحب الروم ، باتفاق ملوك الشرق بأجمعهم على قصده ، إن لم يَعُد[5] عن الموصل وماردين . فسار يريد الموصل ، وكاتب الخليفة بما عزم عليه من حصر الموصل ، ونزل عليها وحاصر أهلها وقاتلهم . فورد الخبر بموت شاه[6] أرمن بن سقمان [الثانى ناصر الدين محمد بن إبراهيم] صاحب خِلَاط[7] فى تاسع ربيع الأول ، فرحل [صلاح الدين] فى آخره يريد خلاط ، ثم عاد ولم يملكها ، [وسار] إلى مَيَّافارِقين[8] فتسلمها . ثم عاد إلى الموصــل ، ونزل على دجلة فى شعبان ، وأقام إلى رمضان ، فمرض مرضًا مخوفًا ، فرحل فى آخر رمضان ، وهو لمــا به وقد أيس منه . فنزل بحران ، فتقرر فيها الصلح بينه و بين المواصلة فى يوم عَرَفة ، وخُطب

---

(١) فى س أخو ، وليس بالمراجع المتداولة فى هده الحواشى ما يشير إلى أخ لصلاح الدين بهدا اللقب .

(٢) آخر الهامش المشار إليه بصفحة ٧٨ حاشية ١ .

(٣) بغير ضبط فى س ، انظر ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٤١) .

(٤) فى س قلح .

(٥) فى س بضم الياء وفتح العين ، والظاهر أن المؤلف عكس موضع الحركتين خطأً .

(٦) فى س شاهر من بن سقمان . وقد أضيف ما بين القوسين من (Blochet : Op. cit. p. 166) . انظر أيضاً ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٣٣٨) .

(٧) بغير ضبط فى س ، وهى قصبة أرمينية الوسطى . (ياقوت معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠٩ ؛ و Blochet : Op. cit. p. 166N. 2.) .

(٨) بغير ضبط فى س ، وهى من مدن ديار بكر . (ياقوت: معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٧٠٣ — ٧٠٨) .

له بجميع بلاد الموصل ، وقطعت خطبة السلجوقية منها ؛ وخطب له فى ديار بكر وجميع البلاد الأرتقية ، وضُربت السكة باسمه ، وأمر بالصدقات جميع ممالكه .

[و] فى[1] يوم الثلاثاء سابع ربيع الأول حدثت بمصر زلزلة ، وفى مثل تلك الساعة كانت [زلزلة] فى بعلبك أيضا . وفيه كانت بالإسكندرية فتنة بين العوام ، نهبوا فيها المراكب الرومية ، فقُبض على عدّة منهم ومثل بهم[2] .

ومات [فى هذه السنة] الملك القاهر ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، ليلة عيد الأضحى . واتهم السلطان بأنه سمه : فإنه لما اشتدّ مرض السلطان تحدث بأنه يملك من بعده . ومات فخر الدولة إبراهيم بن محمد بن (٢٥ ب) إبراهيم بن أحمد بن نصر الأسوانى ابن أخت الرشيد والمهذب ابنى الزبير فيها . وهو أول من كتب الإنشاء للسلطان ، ثم كتب لأخيه العادل . ومات[3] سعد الدين بن مسعود بن معين الدين بآمد . ومات الأمير مالك بن ياروق فى منبج ليلة السبت مستهل رجب ، فحمل إلى حلب ودفن بها . وماتت آمنة خاتون بنت معين الدين [أنَار] ، التى تزوجها السلطان [صلاح الدين] بعد نور الدين محمود لما ملك دمشق ، وكانت وفاتها يوم الإثنين ثالث ذى العقدة .

[[4] و] فيها خرج المظفر [تقى الدين عمر] إلى كشف أحوال الاسكندرية . وشُرع فى عمل سور على مدينة مصر بالحجر ، فلم يبق فقير ولا ضعيف إلا[5] خَطَّ فيه ساحة (؟) من درب الصفا إلى المشهد النفيسى ، واتصلت العمارة فى خط الخليج إلى درب ملوخيا[6] بمصر حتى بين الكومين (؟) وبجوار جامع ابن طولون والكبش ، فعمر أكثر من خمسة آلاف موضع بشِقاف

(١ و ٢) ما بين الرقين وارد بهامش الصفحة فى س ، ولم يشر المؤلف كعادته إلى المكان المناسب له من المتن ، وليست فى ب (٣٠ ب) .

(٣) بقية تلك الوفيات واردة بهامش الصفحة فى س ، وليس بالمتن إشارة إلى مكانها المناسب منه ، هى موجودة فى ب (٣٠ ب) . على أنه لا شك فى وقوعها سنة ٥٨١ هـ . انظر (Enc. Isl. Art. Khātu) .

(٤) الفقرة الآتية أيضاً إلى آخر السنة ، واردة بهامش الصفحة فى س ، قبل بدء الكلام عن السنة التالية . وليس منها فى ب (٣٠ ب) شىء .

(٥) بغير ضبط فى س ، والعبارة كلها إلى علامة الاستفهام بالمتن ، غير واضحة تماما .

(٦) فى س المرخا . انظر المقريزى (المواعظ والاعتبار ج ٢ ، ص ٣٨) .

القَنْز[١] والخرشتف[٢] وتراب الأرض . وتحوّل الناس لجهة جامع ابن طولون والبركة وجانب القلعة . وفى شعبان ورمضان وقع وباء بأرض مصر و [فشا] موت الفجأة ، و [كثر الوباء] فى الدجاج أيضًا .

* * *

سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة . وأهلت سنة اثنتين وثمانين ، وقد أبل السلطان من مرضه ، فرحل من حرّان ؛ [و] نزل حلب فى رابع عشر المحرّم ، ومر من حلب إلى حمص ، فرتب أمورها وأسقط المكوس منها . ودخل إلى دمشق فى ثانى ربيع الأوّل ، واستدعى ابنه الأفضل عليا من مصر ، لمنافرة كانت بينه و بين ابن عمه المظفر تقى الدين ، فقدم عليه بأهله وحشمه ، لسبع بقين من جمادى الأولى . وصُرف العادل عن حلب ، وتقرّر عوضه بها الملك الظاهر غياث الدين غازى ابن السلطان ، وعوّض العادل الشرقية بديار مصر .

وصُرِف المظفر تقى الدين عمر من ديار مصر ونيابتها ، فغضب لذلك ، وعبر بأصحابه إلى الجيزة يريد اللحاق بغلامه شرف الدين قراقوش التقوى ، وأخذْ بلاد المغرب وجعل مملوكه

(١) فى س القند ، وبغير ضبط . والقنز الخزف — محيط المحيط . وفى (Dozy : Supp. Dict. Ar. القنزر الحجارة الكبيرة .

(٢) فى س الخرنشف ، بغير ضبط ؛ والخرشنف هو ما يتحجر مما يوقد به على مياه الحمامات من الأزبال وغيرها . هذا ومن أخطاط القاهرة خط الخرشنف ، بين حارة برجوان والكافورى ، ويتوصل إليه من بين القصرين ، ومدخله قبو يعرف بقبو الخرشنف . وإنما سمى هذا الخط بالخرشنف لأن الخليفة المعز الفاطمى بنى فيه الاصطبلات من هذه المادة المتحجرة . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

(٣) العبارة الآتية واردة فى هامش على ورقة منفصلة بين الصحفتين ٢٥ ب ، ٢٦ ا : " كان إقطاع المظفر تقى الدين عمر البحيرة جميعها وهى بأربعمائة ألف دينار ، والفيوم بثلثمائة ألف دينار ، وقاى وقايات وبوش وهى بسبعين ألف دينار ؛ ثم عوض عن بوش بسمنود والواحات ، وهى بستين ألف دينار ، وفوة والمزاحتين وهى بأربعين ألف دينار ، وحوف رمسيس وهو بثلاثين ألف دينار ، والمرتب فى كل شهر على الإسكندرية ألف وخمسمائة دينار " . ويلاحظ أن مدلول هذه الأقسام الإدارية أيام الأيوبيين ليس كمدلولها الحالى ، فقد تغير حكم بعضها منذ عصر المماليك البحرية ، بإضافته إلى غيره من الأعمال مع بقاء أسمائه ، ودرس اسم بعضها الآخر ونسى : فسمنود مثلا كانت كورة بذاتها ، ثم أضيفت إلى عمل الغربية ؛ وكورة المزاحتين كانت تشمل ما جاور قناة الإسكندرية من جهة الشمال إلى البحر الأبيض المتوسط ، فضلا عن بعض الأراضى بالبر الشرقى من فرع النيل ، وكانت حاضرتها فوة . وكان يلى كورة المزاحتين بالجهات الغربية البحيرة ، ثم حوف رمسيس . راجع القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٧٩ — ٤١٠ ؛ و P.Omar Toussonn : Op. cit. T. I. 1, 2.) .

(٤) فى س بها الدين .

بورى[١] فى مقدّمته . فبلغ ذلك السلطان ، فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه . فقبّح الأكابر عليه مشاقته[٢] السلطانَ وحذروه ، فأجاب وتوجه إلى دمشق ، فوصلها ثالث عشرى شعبان . واستمر على ما بيده من حماة والمعرة ومنبج وأضيف إليه ميافارقين ؛ وكتب إلى أصحابه فقدموا عليه من مصر ، ما خلا زين الدين بورى[٣] مملوكه ، فإنه سار إلى المغرب ، وملك هناك مواضع [كثيرة] . ثم قصده صاحب المغرب وأسره ، ثم أطلقه وقدمه . ووصل الأفضل عليُّ بن السلطان من القاهرة إلى دمشق يوم الخميس سابع عشر جمادى الأولى ؛ وهو أول قدومه إليها . وسار الملك العزيز عثمان إلى مَلك مصر ومعه عمه العادل أتابكا . وكان خروج العادل من حلب ليلة السبت رابع عشرى صفر ، فدخلا إلى القاهرة فى خامس رمضان .

ووقع الخلف بين الفرنج بطرابلس ، فالتجأ القومص[٤] إلى السلطان ، وصار يناصحه ؛ واستولى الإبرنس[٥] ملك الفرنج بالكرك على قافلة عظيمة ، فأسر من فيها ، وامتنع من إجابة السلطان إلى إطلاقهم ، فتجهز [السلطان] لمحاربته ، وكاتب الأطراف بالمسير لقتاله .

وفيها مات بمصر عبد الله بن أبى الوحش بَرِّى بن عبد الجبار بن النحوى ، ليلة السبت لثلاث بقين من شوال ، ومولده [بدمشق] فى خامس رجب سنة تسع وتسعين وأربعمائة .

* * *

[سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة] وأهلت سنة ثلاث وثمانين ، وقد برز السلطان من دمشق لجهاد الفرنج يوم السبت أول المحرم ، وأقر ابنه الأفضل على رأس[٧] الماء ، ونزل بُصْرَى[٨] ،

---

(١) فى س بوزته بغير ضبط ، انظر (Blochet : Op. citt. p. 169, N. 5.) . هـذا وإصلاح الدين أخ اسمه تاج الملوك بورى . (Lane-Poole: Saladin, Table II, in pocket).

(٢) فى س " فقبح الإكابر عليه مشاقة " . (٣) فى س بوزبه .

(٤) هو الكونت رايمون صاحب طرابلس الذى تقدم ذكره . (انظر ص ٥٩ حاشية ٢) .

(٥) هو الأمير أرنو صاحب الكرك الذى تقدم ذكره (انظر ص ٦٤ حاشية ٥) .

(٦) بغير ضبط فى س ، واسمه كما جاء فى (Enc. Isl. Art. Ibn Barri) أبو محمد عبد الله برى بن عبد الجبار ابن برى المقدسى المصرى .

(٧) بغير ضبط فى س ، واسمها أيضاً الديلى . (G. Demombynes : Op. cit. p. 244. N. 1) .

(٨) بغير ضبط فى س ، وموقعها بالشام من أعمال دمشق ، وهى قصبة كورة حوران . (ياقوت معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٦٥٤).

فأقام لحفظ الحاج حتى قدموا فى آخر صفر . فسار إلى الكرك ، فى اثنى عشر ألف فارس ، ونازلها وقطع أشجارها ؛ ثمّ قصد الشَّوْبك[١] ، ففعل بها [مثل] ذلك ، وخرج الحاجب (١٢٦ ا) لؤلؤ على الأسطول من مصر ، وهو خمسة عشر شينيا ، ليسير إلى الإسكندرية ، وخرج العادل من القاهرة فى سابع المحرم إلى بركة الجب ، وسار إلى الكرك ، فمرّ على أيلة ، والتقى مع السلطان على القَرْيَتَيْنِ[٢] ، وعادا لى الكرك ، فنازلاها فى ربيع الأوّل . وضايق [السلطان] أهلها ، ثم رحل عنها ، ونازل طبرية ؛ فاجتمع من الفرنج نحو الخمسين ألفا بأرض عكا ، ورفعوا صليب الصلبوت[٣] . فافتتح السلطان طبرية عنوة فى ثالث عشرى ربيع الآخر ، وغاظ ذلك الفرنج وتجمعوا ، فسار إليهم السلطان ، وكانت وقعة حِطِّين[٤] ، التى نصر الله فيها دينه ، فى يوم السبت رابع عشريه . وانهزم الفرنج بعد عدّة وقائع ، وأخذ المسلمون صليب الصلبوت ، وأسروا الإبرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك ، وعدّة ملوك [آخرين] ، وقتل وأسر [من سائر[٥] الفرنج] مالا يعد كثرة ، ثم قُدِّم الأبرنس [أرناط[٦]] ، وضرب السلطان عنقه بيده ، وقتل جميع من عنده من الفرنج الدّاوية والإسبتارية[٧] . ورحل [السلطان] إلى عكا ، فنازلها سلخ ربيع الآخر ، ومعه عالم عظيم .

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة حصينة فى أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٣٢ ؛ انظر أيضاً (Blochet : Op. cit. p. 4?2. N. 1) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة كبيرة من أعمال حمص ، وتدعى حوارين ، وبينها وبين تدمر مرحلتان . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧٨) .

(٣) جاء فى ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٣٠٢) أن صليب الصلبوت هو الصليب الأعظم عند المسيحيين ، وأنهم يسمونه بهذا الاسم لأن " فيه قطعة من الخشب التى صلب عليها المسيح عليه السلام فى زعمهم " . ولهذا الصليب أخبار كثيرة منها ، فضلا عما سيرد فيما يلى ، أنه نقل إلى جزيرة قبرص ، بعد خروج الصليبيين من الشام ، ثم استولى عليه المسلمون عند فتحهم لتلك الجزيرة سنة ١٤٢٦م على أنه بقى بقبرص ، ورآه هناك أحد الرحالة الأوربيين سنة ١٤٨٨ م . راجم (Ziada : Maml. Conquest of Cyprus, p. 102. N. 89).

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى قرية بالشام بين أرسوف وقيسارية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٩١) .

(٥) فى س منهم .

(٦) يوجد فى (Blochet : Op. cit. p. 173. N. 1) وصف مسهب لقتل هذا الأمير . وقد ذكر الكاتب الانجليزى (Sir Walter Scott) فى روايته (Talisman) تفاصيل تلك الحادثة .

(٧) استثنى صلاح الدين من القتل واحداً فقط من رجال هاتين الهيئتين الدينيتين ، وهو (Gerard de Ridfort) رئيس الداوية . (King : Knights Hossitallers. pp. 128 129) .

قال العلامة عبد اللطيف بن يوسف البغدادى : « كان السوق الذى فى عسكر السلطان على عكا عظيما ، ذا مساحة فسيحة ، فيه مائة وأربعون دكان بيطار . وعددتُ عند طباخ واحد ثمانيا وعشرين قدرا ، كل قدر تسع[1] رأس غنم . وكنت أحفظ عدد الدكاكين ، لأنها كانت محفوظة عند شحنة السوق ، وأظنها سبعة آلاف دكان ، وليست مثل دكاكين المدينة ، بل دكان واحد مثل مائة دكان ، لأن الحوائج فى الأعدال والجوالقات ، ويقال إن العسكر أزمنت منزلتهم لطول المقام ، فلما ارتحلوا غير بعيد ، وَزَن سَمَّان أجرة نقل متاعه سبعين ديناراً ، وأما سوق البَزّ العتيق والجديد ، فشىء يبهر العقل . وكان فى العسكر أكثر من ألف حمام ، وكان أكثر ما يتولاها المغاربة ، يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة ويحفرون ذراعين فيطلع الماء ، ويأخذون الطين فيعملون منه حوضا وحائطا ، ويستيرونه بحطب وحصير ، ويقطعون حطبا من البساتين التى حولهم ، ويُحَمُّون الماء فى قدور ، وصار حماما يغسل الرجل رأسه بدرهم وأكثر » .

فلم يزل [صلاح الدين] على محاصرة[3] عكا إلى [أن] تسلمها بالأمان ، فى ثانى جمادى الأولى ، واستولى على ما فيها من الأموال والبضائع ، وأطلق ما كان بها من المسلمين مأسورا ، وكانوا أربعة آلاف نفس . ورتّب فى كنيستها العظمى منبرا ، وأقيم فيها الجمعة ، وأقطع عكا لابنه الأفضل علىّ ، وأعطى جميع ما للداوية من إقطاع وضياع للفقيه ضياء الدين عيسى الهكّارى . وسار العادل بعساكر مصر إلى مَجْدَلِيَابَا[4] ، فحصره وفتحه وغنم مافيه . وافتتحت عدة حصون حول عكا . وهى الناشرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومَعْلِيَا[5] والشقيف والتَّوْلَع[6]

(١) هذه الكلمة مترجمة فى (Blochet : Op. cit. p 174) إلى (neuf) أى الرقم العددى تسعة

(٢) بغير ضبط فى س ، ويطلق على الثياب والأمتعة والأسلحة . (محيط المحيط) .

(٣) فى س " فلم يزل على محاصرتها " .

(٤) فى س " مجدل يافا " بغير ضبط ، انظر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤١٨) ، وموقعها قرب الرملة . انظر أيضاً (Bolchet : Op. cit. p 175, N. 2)

(٥) فى س " معلما " بغير ضبط ، وهى من نواحى الأردن بالشام . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٧٨) .

(٦) فى س " التوله " بغير ضبط ، وهى قرية بالشام (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٩٥) .

والطُّور[١] ، ونهب ما فيها ، وسبيت النساء والأطفال ، فقدموا بها سد الفضاء ، وأخذت سَبَسْطِيَّة[٢] ونابلس ، وكتب [السلطان] للخليفة بخبر فتح هذه البلاد[٣] . ونزل العادل على يافا ، حتى ملـكها عنوة ونهبها ، وسبي الحريم وأسر الرجال . ونازل المظفر تقى الدين عمر تِبْنِين[٤] ، وأدركه السلطان فوصل إليها فى حادى عشر جمادى [الأولى] ، وما زال محاصراً لها حتى تسلمها فى ثامن عشر بأمان ؛ وجلا أهلها عنها إلى صور ، وتسلم [السلطان] العدد والدواب والخزائن . وسار فأخذ صَرْخَدَ[٥] بغير قتال ، ثم رحل إلى صَيْدَاء[٦] ، ففر أهلها وتركوها ، فتسلمها السلطان فى حادى عشريه (٢٦ ب) . ونازل بيروت وضايقها ثمانية أيام ، إلى أن طلب أهلها الأمان ، فأجابهم واستولى عليها فى تاسع عشريه . وأخذ جُبَيْل[٧] فـكان من استنقذ الله من المسلمين المأسورين عند الفرنج ، فى هذه السنة ، ما يزيد على عشرين ألف إنسان ، وأسر المسلمون من الفرنج مائة ألف أسير .

وهلك [فى هذه السنة] القومص صاحب طرابلس . وقدم المركيس[٨] — أكبر طواغيت الفرنج — إلى صور ، وقد اجتمع بها أمم من الفرنج ؛ فتملك عليهم ، وحصن البلد . فسار السلطان بعد فتح بيروت ، وتسلم الرملة والخليل و بيت لحم ؛ واجتمع بأخيه العادل ، ونازلا عَسْقَلان[٩] فى سادس عشر جمادى الآخرة ، ونصبا المجانيق عليها. ووقع الجد فى القتال ،

---

(١) مير صبط فى س ، وهو جبل على بعد أربعة فراسخ من طبرية . راجع (Blochet : Op. cit. p. 175. N. 9)

(٢) بغير صبط فى س ، وهى من أعمال نابلس راجع (Blochet : Op. cit p. 176 N. 1)

(٣) انظر فى نفس المرجع والصفحة (N. 2) ، ترجمة لـكتاب أرسله صلاح الدين إلى حاكم تنيس بعد وقعة حطين .

(٤) فى س تنين بغير ضبط ، وهى بلدة صغيرة بين دمشق وصور ، وتقع فى جبال بنى عامر المطلة على بلد بانياس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٢٤) ، وراجع أيضاً (Blochet : Op. cit. p 177. N. 1) .

(٥و٦) بغير ضبط فى س فى الموضعين ، وصرخد بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق . وصيداء مدينة على ساحل الشام من أعمال دمشق أيضاً . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٨٠ ، ٤٣٩) .

(٧) بغير صبط فى س ، وهى من أعمال دمشق ، على بعد أربعة فراسخ من بيروت . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٣) .

(٨) يقصد المؤلف (Conrad, Marquis de Montferrat) الذى وصل الشام من أوربا قبل سقوط عكا بثلاثة أيام . (Stevenson : Crusaders In The East. p. 251) .

(٩) توجد فى (Blochet : Op. cit. p. 179. N. 1) تفاصيل مهمة عن أخذ السلطان ذلك الحصن منها أن ملك بيت القدس ورئيس الداوية نصحا لأهل البلد من الفرنج بالتسليم سريعا ، فلم ينتصحوا حتى وقع الجد فى القتال .

إلى أن تسلم [السلطان] البلد فى سلخه ، وخرج منه الفرنج إلى بيت المقدس بعد أن ملكوه خمسًا وثلاثين سنة . وتسلم [السلطان] حصون الداوية : وهى غزة والنَّطْرُون[1] و بيت جِبْرِيل[2] . وقدم عليه بظاهر عسقلان ابنه العزيز عثمان من مصر ، و [وافته[3]] الأساطيل [و] عليها الحاجب لؤلؤ . وكانت الشمس قد كُسِفت ، قبل أخذ عسقلان بيوم ، حتى أظلم الجو وظهرت الكواكب ، فى يوم الجمعة ثامن عشريه .

وسار السلطان — وقد اجتمعت إليه العساكر — يريد فتح بيت المقدس ، فنازله يوم الأحد خامس عشر رجب ، وبه حشود الفرنج وجميعهم[4] . فنَصَب المجانيق ، واقتتل الفريقان أشد قتال ، استشهد فيه جماعة من المسلمين . وأيد الله بنصره المسلمين ، حتى تمكنوا من السور ونقبوه ، وأشرفوا على أخذ البلد . فسأل الفرنج حينئذ الأمان ، فأُعطوه بعد امتناع كثير من السلطان ، على أن يعطى كل رجل من الفرنج عن نفسه عشرة دنانير مصرية ، سواء كان غنيًّا أو فقيرا ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن كل طفل من الذكور والإناث دينارين . ثم صولح عن الفقراء بثلاثين ألف دينار . وتسلم المسلمون القدس ، يوم الجمعة سابع عشرى رجب ، وأُخرج من فيه من الفرنج ، وكانوا نحو الستين ألفا ، بعد ما أسر [منهم] نحو ستة عشر[5] ألفا ، ما بين رجل وامرأة وصبى ، وهم من لا يقدر على شراء نفسه وقبض [السلطان] من مال المفاداة[7] ثلاثمائة ألف دينار مصرية ، سوى ما أخذه الأمراء ، وما حصلت فيه الخيانة .

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهو حصن كان للداوية قرب الرملة بجنوب فلسطين ، واسمه أيضا الأطرون . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣١٠) ؛ وانظر أيضا (Rec. Hist. Or. I. pp. 57 , 697)

(٢) بغير ضبط فى س ، وهو بليد بين بيت المقدس وغزة ، ويسمى أيضا بيت جبرين . (ياقوت : معجم البلدان ، ح ١ ، ص ٧٧٦)

(٣) أضيف ما بين القوسين للتوضيح ، وبعد مراجعة أبى شامة (كتاب الروضتين ، ص ٣١٦ ، فى (Rec. Hist Or. IV.   (٤) فى س " جايعهم " .

(٥) فى س الف .   (٦) توجد فى (Blochet :O .p cit. p. 179. Ns. 1, 2) نبذة طويلة عن أخذ صلاح الدين لبيت المقدس ، وهى من كتاب سير الأباء البطارقة ، وبها تفصيلات أخرى نادرة .   (٧) قبالة هذه السطور فى ب (ص ١٣٢ أ) العبارة الآتية: "Les Mahometans prennent Jerusalem sur les francs" ويوجد فى نسخة ب كثير من أمثال هذه الحاشية بالفرنسية ، ولا سيا قبالة أسماء كبار الصليبيين ، وربما كتبها المستشرق (Quatremère) أو (Blochet) بعده ، حين ترجم كل منهما جزءا من السلوك إلى الفرنسية .

والتحق من كان بالقدس من الفرنج بصور ، وتسامع المسلمون بفتح بيت المقدس ، فأتوه رجالا وركبانا من كل جهة لزيارته ، حتى (١٢٧ ا) كان من الجمع ما لا ينحصر . فأقيمت فيه الجمعة يوم الرابع من شعبان ، وخطب القاضي محيي الدين بن الزكي بالسواد خطبة بليغة ، دعا فيها للخليفة الناصر والسلطان صلاح الدين ؛ وانتصب بعد الصلاة زين الدين بن نجا ، فوعظ الناس . وأمر السلطان بترخيم المحراب العُمَرى القديم ؛ وحُمل منبر[1] مليح من حلب ، ونصب بالمسجد الأقصى ، وأزيل[2] ما هناك من آثار النصرانية ؛ وغسلت الصخرة بعدة أحمال ماء ورد ، وبخرت وفرشت ؛ ورتب في المسجد من يقوم بوظائفه ، وجعلت به مدرسة للفقهاء الشافعية . وغُلقت كنيسة قمامة[3] ، ثم فُتحت ، وقُرّر على من يرد إليها من الفرنج قطيعة يؤديها . وخرجت البَشائر إلى الخليفة بالفتح ، وإلى سائر الأطراف . ورحل السلطان عن القدس لخمس بقين من شعبان يريد عكا ؛ وسار العزيز عثمان إلى مصر فكان آخر العهد به . وسار العادل مع السلطان ، فنزلا على عكا أوّل شهر رمضان ؛ ثم رحل [السلطان] منها ؛ ونزل على صور في تاسعه ، وكانت حصينة ، وقد استعدّ الفرنج فيها ، فتلاحقت العساكر بالسلطان ، ونصب على صور عدّة من المجانيق وحاصرها . واستدعى [السلطان] الأسطول من مصر ، فقدم عليه عشر شواني ، وصار القتال في البر والبحر ، فأخذ الفرنج خمس شواني . ووردت مكاتبة الخليفة على السلطان ، وفيها غلظة وإنكار أمور ، فأجاب بالاعتذار ، ورحل عن صور في آخر شوّال . وعادت العساكر إلى بلادها ، وأقام السلطان بعكا ، وسار العادل

(١) لما أمر صلاح الدين بعمل منبر للمسجد الأقصى ، قيل له : " إن نور الدين محموداً كان قد عمل بحلب منبراً ، أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه ، وقال هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس ، فعمله النجارون في عدة سنين ، لم يعمل في الإسلام مثله ، فأمر [صلاح الدين] بإحضاره ، فحمل من - ونصب بالقدس " . (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢ ج ١١ ، ص ٣٦٥) .

(٢) في س " وارال " .

(٣) أطلق المسلمون هذا الاسم على كنيسة القيامة ببيت المقدس منذ عصر صدر الإسلام :itrange: Palestine Under Moslems. p. 202.)

إلى مصر ، فطرق الفرنج قملة كوكب ، وقتلوا بها جماعة من المسلمين ، ونهبوا ما كان بها .
وأتته على عكا رسل الملوك بالتهنئة من الروم[١] والعراق وخراسان بفتح بيت المقدس .

وفى هذه السنة ، أعنى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة[٢] ، اجتمع الشمس والقمر والمريخ والزهرة وعطارد والمشترى وزحل و [أظفار[٣]] الذئب ، فى برج الميزان ، أربع عشرة ساعة ، فاجتمع المنجمون كلهم ، وحكموا بكون طوفان الريح ، وأنه كائن وواقع ولا بدّ ، فتنقلب الأرض من أولها إلى آخرها ، وأنه لا يبقى من الحيوان شىء إلا مات ، ولا شجرة ولا جدار إلا سقط . وكان[٤] معظم هذه الحكومة عن بلاد الروم[٥] . وأرجفوا بأنها هى القيامة ، فاتخذ قوم الكهوف والمغائر فى الجبال ، وبالغوا فى الاعتداد لهول ذلك اليوم . وقال القوم : « كتب القدماء كلها أحالت على هذا الاجتماع ، وإن فيه دمار الدنيا » . وكان ذلك فى مسرى ، وفى جمادى الآخرة للسابع والعشرين منه ، [وهو] يوم الثلاثاء مع ليلة الأربعاء إلى يوم الأربعاء فلم تهب ريح ، ولا تحرك نيل مصر ، وهو فى زيادته فى مسرى ؛ ومن العادة أن تهب الريح من العصر إلى العشاء فى وجه الماء ، ليقف بإذن الله ، فتكون فيه الأمواج . فلم يحدث تلك الليلة ، ولا ثانى يوم ولا قبلها بيوم ، شىء من ذلك . وطلع الناس بالسُّرُج الموقدة على السطوحات لاختبار الهواء ، فلم تتحرك نار ألبتة . وكان أشد الناس إرجافا بهذه الكواكب الروم ، فأكذبهم الله ، وسلّط عليهم السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف .

---

(١) بعد فتح بيت المقدس ، أرسل صلاح الدين إلى إمبراطور الدولة البيزنطية إسحاق الثانى بعثاً ليخبره بما تم على يديه من الفتوح ، وليسلم إليه مائة وتسعين رجلا من رعايا الدولة البيزنطية ، كانوا قد وقعو فى يده أثناء حروبه ضد الصليبيين . ونتج عن هذا البعث أن عقد الإمبراطور والسلطان حلفا سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩) ، كان من آثاره عداء عواهل غرب أوربا للدولة البيزنطية .Blochet : Op. cit. p. 183. N. 1) وراجع أيضاً (Camb. Med. Hist. Iv. pp. 483, 603)

(٢) هنا مثل جديد من أمثلة الخلاف بين النسختين س ، ب إذ اكتفى كاتب النسخة الثانية (٣٢ بـ) بقوله " وفيها " بدل هذه العبارة كلها (٣) فى س الدئب ، وأظفار الذئب كواكب صغا قدام الذئبين ، وهما كوكبان أبيضان ، بين الموائذ والفرقدين . (محيط المحيط) .

(٤ ، ٥) هذه العبارة مترجمة فى (Blochet : Op. cit. p. 184) إلى : 'ce fut surtout de Roum (ar-Roum) qui fut maltraité par ce phénoméne surnaturel .. "

فأخذ كبارهم وكسرهم ، وملأ الأرض من الأسرى شرقا وغربا ، وأخذ القدس . وأصاب جماعة ممن كان يُزحف بهذه الريح آفات ، ما بين موت بعضهم واعتلال بعضهم .

وفيها خرج فى سادس عشر جمادى الآخرة قفل شامى إلى مصر ، وهو أوّل قَفل سلك بلاد الساحل ، بلا حق يدفعه ولا مكس يؤديه . وفيها سار قراقوش التقوى ، واستولى على القيروان ، وحارب به ابن عبد المؤمن سلطان المغرب على ظاهر تونس فانكسر منه ، وأقيمت الخطبة فى ربيع الأوّل بتلك البلاد للسلطان صلاح الدين . فجمع ابن عبد المؤمن ، وواقع قراقوش وهزمه ، ففر قراقوش فى البرية .

وفيها أمر [السلطان] بأن تبطل النقود التى وقع الاختلاف فيها وتضرر العامة بها ، وأن يكون ما يضرب من الدنانير ذهبا مصريا ، ومن الدراهم الفضة[1] الخالصة ، وابطل الدراهم السود لا ستثقال الناس الميزان[2] ، فَسَرّ الناس ذلك .

* * *

(٢٧ ب) سنة أربع وثمانين [وخمسمائة] . فيها نازل السلطان حصن كوكب أياما ، ولم ينل منها شيئاً ، فأقام الأمير صارم الدين قايماز النجمى فى خمسمائة فارس عليها ، ووكل بصفد الأمير طغرل الخازندار فى خمسمائة فارس ، وبعث إلى الكرك والشوبك الأمير سعد الدين كشبه[3] الأسدى . واستُدعى الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى من مصر ، فاستخلَف على عمارة سور القاهرة ، وقدم والسلطان على كوكب ؛ فندبه لعمارة عكا ، فشرع فى تجديد سورها وتعلية أبراجها ، بمن قدم به معه من مصر من الأسرى والأبقار والآلات والدواب .

وسار السلطان يريد دمشق ، فدخلها سادس ربيع الأول ، وقد غاب عنها سنة وشهرين وخمسة أيام ، كسر فيها الفرنج ، وفتح بيت المقدس . فلازم الجلوس فى دار

(١) الدراهم الفضة هى النقرة (انظر ص ٤٥ ، حاشية ١) . أما الدراهم السوداء فأسماء على غير مسميات ، كدينار الأسطول والدينار الجيشى (انظر ص ٤٥ حاشية ٣) . وكل درهم منها معتبر فى العرف بثلث درهم نقرة (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٤٤٣) .

(٢) فى س بالميزان بكسر الباء . (٣) فى س كشبا . انظر ص ٨٠ ، حاشية ١ .

العدل بحضرة القضاة ، وكتب إلى الجهات باستدعاء الأجناد للجهاد . وخرج بعد خمسة أيام على بعلبك ، فوافاه عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار على أعمال حمص ، فنزلا على بحيرة قُدْس[(١)] . و بعث [السلطان] ابنه الظاهر وابن أخيه المظفر صاحب حماة لحفظ طريق أنطاكية ، وسار أول ربيع الآخر وشن الغارات على صَافِيتَا وتلك الحصون [المجاورة] . وسار فى رابع جمادى الأولى على تعبية[(٢)] لقاء العدو ، فأخذ أَنْطَرْسُوس[(٤)] ، واستولى على ما بها من الغنائم ، وخرب سورها و بيعتها ، وكانت من أعظم البيع ، ووضع النار فى البلد فأحرق جميعه . وسار بريد جَبَلَة[(٥)] ، فنازلها لا ثنتى عشرة بقيت منه ، وتسلمها بغير حرب . ثم أخذ اللاذقية بعد قتال ، وغنم الناس منها غنيمة عظيمة . وسار إلى صِهْيَوْن[(٦)] ، فقاتل أهلها إلى أن ملكها ، فى ثانى جمادى الآخرة . واستولى على [قلعتى] الشُّغْر وبَكَاس[(٧)] وعدة حصون ، وأسر من فيها ، وغنم شيئاً كثيراً . فلما فتح بَغْراس[(٨)] ، بعث الإبرنس ملك[(٩)] أنطاكية يسأل الصلح ، فأجيب إلى ذلك ، على شريطة أن يطلق من عنده من الأسارى المسلمين ، وهم ألف إنسان . وعاد صاحب سنجار إلى بلده ؛ وسار السلطان إلى حلب ، فأقام بها ثم سار

---

(١) ورد هذا الاسم فى (Blochet · Op. cit. p. 187. N. 1) بهذا الضبط ، ولكن ياقوت فى (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٦١٦) ضبطه بفتح القاف والدال ، ومن هذه البحيرة يخرج نهر العاصى .

(٢) لم يرد ذكر هذا البلد فى معجم البلدان لياقوت ، وهو قرب بلدة عرقة (بكسر العين) آخر عمل دمشق . شرقى طرابلس . انظر (G. Demombynes: Op. cit. p. 117. N. 2)

(٣) كذا فى س بغير ضبط ، وهى صحيحة لغة ، على أن تعبئة أكثر شيوعا . (محيط المحيط) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى آخر أعمال دمشق من البلاد الشامية الساحلية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٨٨) . (٥) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة بساحل الشام ، من أعمال حلب قرب اللاذقية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٥) .

(٦) بغير ضبط فى س ، وهى حصن من أعمال حمص ، قرب ساحل البحر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤٣٨) .

(٧) بغير ضبط فى س ، وهما قلعتان حصينتان قرب أنطاكية ، على رأس جبلين بينهما واد كالخندق . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ص ٨٠٤ ؛ ج ٣ ، ص ٣٠٣) .

(٨) بغير ضبط فى س ، وهى مدينة فى لحف جبل اللكام ، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٦٩٣ — ٦٩٤) .

(٩) كان أمير أنطاكية فى ذلك الوقت (Boémond III) (Rec. Hist Or. III. Index) .

عنها ، ودخل إلى دمشق فى آخر شعبان . وما زال كشبه[١] محاصرا للكرك حتى تسلم قلعتها ، ومعها الشوبك والسَّلع[٢] ، وعدّة حصون هناك ، فى رمضان . فلما وردت البشرى بذلك على السلطان سار من دمشق ، ونازل صفد حتى ملك قلعتها [بالأمان[٣] ، فى رابع] عشر شوّال ، ولحق من كان فيها من الفرنج [بصور . ثم سار[٤] إلى كوكب] وضايقها حتى تسلمها ، فى نصف ذى القعدة (١٢٨ ا) بأمان ، وأرسل أهلها إلى صور . فكثر بها جموع الفرنج ، وكاتبوا إفرنج صقلية والأندلس ، وكتب السلطان إلى الخليفة الناصر بخبر هذه الفتوح ، ورحل فنزل فى صحراء بيسان .

وفيها ثار بالقاهرة اثنا عشر رجلا من الشيعة فى الليل ، ونادوا : «يال على ! يال على !» وسلكوا الدروب وهم ينادون كذلك ، ظنا منهم أن رعية البلد يلبُّون دعوتهم ، ويقومون فى إعادة الدولة الفاطمية ، فيخرجون من فى الحبوس ، ويملكون البلد . فلما لم يجبهم أحد تفرّقوا .

وسار السلطان إلى القدس ، فحلّ به فى ثامن ذى الحجة ، وسار بعد النحر إلى عسقلان ؛ وجهز أخاه العادل إلى مصر لمعاضدة الملك العزيز ، وعوضه بالكرك عن عسقلان ، وكان قد وهبها له . ثم نزل بعكا .

* * *

[سنة خمس وثمانين وخمسمائة] . ودخلت سنة خمس وثمانين ، فسار السلطان عن عكا ، ودخل دمشق أوّل صفر ، فورد عليه فى ثانى عشره ضياء الدين عبد الوهاب ابن سكينة ، رسول الخليفة الناصر ، بالخطبة لأبنه ولى العهد ، عدة الدنيا والدين أبى نصر محمد ، فأقيمت له . وجُهز الرسول ، ومعه ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزورى ؛ وبعث معه بهدايا وتحف وأسارى من الفرنج للخليفة ، ومعهم تاج ملك الفرنج والصليب الذى كان

---

(١) فى س كشبا . (٢) بغير ضبط فى س ، وهو حصن بوادى موسى عليه السلام بقرب بيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١١٧) . (٣و٤) ما بين الأقواس موجود فى ب (٣٣ ب) ، ولكنه فى س محجوب بورقة ملصوقة فوقه .

فوق صخرة بيت المقدس ، وأشياء كثيرة . فدفن الصليب تحت عتبة باب النُّوبِي [وهو أحد أبواب دار الخلافة ببغداد[١]] ، وديس عليه ، وكان من نحاس مطلى بالذهب .

وخرج السلطان من دمشق فى ثالث ربيع الأوّل ، ونازل شقيف أرنون وهو منزعج ، لانقضاء الهدنة مع صاحب أنطاكية ، ولاجتماع الفرنج بصور ، واتصال الأمداد بهم . فكانت للمسلمين من الفرنج فى بلادهم الساحلية عدّة وقائع ، قتل فيها من الفريقين عدّة ؛ وكثر القتل فى المسلمين ، واشتدّت نكاية الفرنج فيهم . فرحل السلطان إلى عكا ، وقد سبقه الفرنج ونزلوا عليها . ونزل السلطان بمرج عكا ، وصار محاصرا للفرنج ، والفرنج محاصرين للبلد . وتلاحقت به العساكر الإسلامية ، والأمداد تصل إلى الفرنج من البحر . فلم يقدر السلطان على الوصول إلى البلد ، ولا استطاع أهل عكا أن يصلوا إلى السلطان . وشرع [السلطان] فى قتال الفرنج من أول شعبان ، إلى أن تمكن من عكا ، ودخلها فى ثانيه ، فما زالت الحرب قائمة إلى رابع رمضان . فتحول إلى الخَرُّوبَة[٢] ، وأغلق من فى عكا من المسلمين أبوابها ؛ وحفر الفرنج خندقا على معسكرهم حول عكا من البحر إلى البحر ، وأداروا حولهم سورا مستورا بالستائر[٣] ، ورتبوا عليه الرجال ؛ (٢٨ ب) فامتنع وصول المسلمين إلى عكا . وقدم العادل بعسكر مصر فى نصف شوال ؛ وقدم الأسطول من مصر إلى عكا فى خمسين قطعة ، وعليه الحاجب لؤلؤ فى منتصف ذى القعدة ، فبدد شمل مراكب الفرنج ، وظفر ببطستين للفرنج . فاستظهر المسلمون الذين بعكا ، وقوى جأشهم بالأسطول ، وكانوا نحو العشرة آلاف . وبعث السلطان إلى الأطراف يحث الناس على الجهاد ، وأرسل إلى أخيه سيف الإسلام طغتكين[٤] باليمن ، يطلب منه الإعانة

(١) انظر (Blochet : Op. cit. P. 192. N. 2) ، حيث يذكر أن الملوك والقصاد كانوا يقبلون الأرض قرب ذلك الموضع ، قبل دخول دار الخلافة العباسية . انظر كذلك ابن شاكر الكتبى فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى حصن بساحل الشام مشرف على عكا . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٢٨) .

(٣) جمع ستارة ، وهى حائط خارجى مبنى من الخشب أو غيره يحتمى وراءه المدافعون عن حصن أو سور . ويستخدم المهاجمون الستائر أيضاً للوقاية من قذائف العدو (Dozy : Surpp. Dict. Ar.) . ويقابل هذا اللفظ فى الإنجليزية (Curtain) ، وفى الفرنسية (Courtine) .

(٤) فى س طغتكن .

بالمال ، وإلى مظفر الدين قزل[١] أرسلان صاحب العجم ، وكتب إلى الخليفة . ووصلت الأمداد إلى الفرنج ، وورد الخبر من حلب بخروج ملك الألمان[٢] من القسطنطينية ، فى عدة عظيمة تتجاوز الألف ألف ، يريدون البلاد الإسلامية ، فاشتدّ الأمر على السلطان ومن معه من المسلمين .

وتوفى فى هذه السنة حسام الدين سنقر الخلاطى[٣] ليلة الاثنين سابع عشرى رجب ، والأمير حسام الدين طُمَان[٤] يوم الأربعاء ثالث عشر شعبان ، والأمير عز الدين موسك ابن جكّو[٥] فى شعبان ، وهو ابن خال السلطان صلاح الدين . ومات شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبى عصرون بدمشق ، يوم الثلاثاء حادى عشر رمضان ، ومولده أوّل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة . ومات ضياء الدين عيسى الهكارى ، يوم الثلاثاء تاسع ذى القعدة بمنزلة الخروبة .

* * *

[سنة ست وثمانين وخمسمائة] . ودخلت سنة ست وثمانين ، والسلطان بالخروبة على[٦] حصار الفرنج ؛ وقدمت عساكر المسلمين من الشرق ومن بقية البلاد ، فرحل من الخروبة لاثنتى عشرة بقيت من ربيع الأوّل إلى[٧] تل كَيْسَان ، وتتابع مجىء العساكر . وكملت أبراج الفرنج الثلاثة ، التى بنوها تجاه عكا فى مدّة سبعة أشهر ، حتى علت على البلد ، وامتلأت بالعدد والعدة ، وطمّوا كثيراً من الخندق ، وضايقوا البلد . واشتد خوف المسلمين ، واشتدت الحرب بين

---

(١) يذكر (Blochet: Op. cit. 196. No. I.) أن ملك العجم هذا هو قزل أرسلان عثمان صاحب أذربيجان (انظر ص ٠ ٤ حاشية ٢) . (٢) يقصد المؤلف (Frédéric Barberousse) إمبراطور الدولة الغر، ولحملته أخبار طويلة كما سيأتى هنا ، آخرها أن فردريك سقط عن فرسه وهو يعبر نهر طرسوس (طشاى الحالى) يآ الصغرى ، فغرق ولم يصل من جيشه إلى عكا سوى شرذمة قليلة بقيادة ابنه (Frédéric, duc deS ouabe). :venson, Crusaders In The East. pp. 264-265 ; Rec. Hist. Or. IV. p. 452. N. 1.)

(٣) فى س الحلاطى ، وبغير ضبط . انظر (Blochet : Op. citp. 197·) . (٤) بغير ضبط (نفس المرجع والصفة). (٥) كذلك فى س (انظر نفس المرجع والصفحه) . هذا والأمير عز الدين هو الذى أنشأ قنطرة الموسكى على الخليج الكبير بالقاهرة . المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ، ص ٧

(٦) يوجد فى نفس المرجع والصفحة (N.4) تفصيلات عن حصار عكا من كتاب سير الآباء

(٧) موضع فى مرج عكا من سواحل الشام . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٦٩

الفريقين ، حتى احترقت الأبراج الثلاثة . وخرج أهل عكا منها ، فنظفوا الخندق ، وسدوا الثغر ، وغنموا ما كان فى الأبراج من الحديد ، فتقووا به . وكان بين أسطول المصريين و بين مراكب الفرنج عدّة معارك ، قتل فيها كثير من الفرنج . ودخل ملك الألمان [بجيوشه] إلى حدود بلاد الإسلام ، وقد فنى منهم كثير ، فواقعهم الملك عز الدين قلج بن أرسلان السلجوقى ، فانكسر منهم ، فلحق به الفرنج إلى قونية وهاجوها[1] ، وأحرقوا أسواقها ، وساروا إلى طرسوس يريدون بيت المقدس ، واسترجاع ما أخذ منهم السلطان من البلاد والحصون ، فمات بها ملكهم. وقام من بعده ابنه[2] ، فسار إلى أنطاكية . وندب السلطان كثيراً ممن كان معه على حرب عكا إلى جهة أنطاكية ، ووقع فيمن بقى معه مرض كثير ؛ [وأمر بتخريب سور[3]] طبرية ويافا وأرْسُوف[4] وقَيْسَارِيّة وصيدا [وجبيل فخرب[5] ذلك ، و] نقل من كان فيها إلى بيروت . وطمع (١٢٩) الفرنج فى السلطان لقلة من بقى معه ، فركبوا الحربه ، ونهبوا وِطَاق[6] الملك العادل . وكانت للمسلمين معهم حرب ، انكسر فيها الفرنج إلى خيامهم ، وقتل منهم آلاف ، فوَهَت فواهم . غير أن المدد أتاهم ، ونصبوا المجانيق على عكا فتحول السلطان إلى الخروبة ، فوافى كتاب ملك الروم بقسطنطينية ، يخبر بوصول المنبر من عند السلطان ، و [كذلك] الخطيب والمؤذنين والقراء ، وأن الخطبة أقيمت بالجامع القديم بالقسطنطينية للخليفة[7] الناصر [لدين الله] .

وسار ابن ملك الألمان عن أنطاكية إلى طرابلس فى جيوشه ، وركب منها البحر إلى عكا ، فوصل إليها سادس رمضان ، فأقام عليها إلى أن هلك ثانى عشر ذى الحجة ، بعد ما حارب المسلمين

(١) فى س هجموها . (٢) انظر ص ١٠٣ حاشية ٢ . (٣) ما بين القوسين محجوب بورقة ملصقة فوقه فى س ، لكنه موجود فى ب (٣٤ ب) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى مدينة على ساحل الشام بين قيسارية ويافا . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٠٧) .

(٥) ما بين القوسين محجوب بورقة ملصقة فوقه فى س ، لكنه موجود فى ب (٣٤ ب) .

(٦) لفظ تركى معناه الخيمة ، جمعه وطاقات . (محيط المحيط) .

(٧) الغالب أن هذا الكتاب نتيجة الحلف بين السلطان والإمبراطور . انظر ص ٩٨ ، حاشية ١ .

فلم ينل منهم كبير غرض . ودخل الشتاء وقد طالت مدة البَنْكَار[١] ، وضجرت العساكر من كثرة القتال ، فرحل صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل .

وفيها تولى سيف الدولة أبو الميمون مبارك بن كامل بن منقذ شدّ[٢] الدواوين بديار مصر ، وباشر الأسعد بن مماتى معه الديوان فى محرم .

***

[سنة سبع وثمانين وخمسمائة] ودخلت سنة سبع وثمانين ، فسار الظاهر صاحب حلب [إليها] ، وسار المظفر إلى حماة . و بقى السلطان فى جمع قليل ، والحرب بين أهل عكا وأميرهم بهاء الدين قراقوش و بين الفرنج . ودخل فصل الربيع ، فوافت العساكر السلطان ؛ ووصل إلى الفرنج مددهم ، فضايقوا عكا وجدّوا فى حصارها ، ونصبوا عليها المجانيق . وتوالت الحروب إلى أن ملكها الفرنج ، يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ، وأسروا من فيها من المسلمين وكانوا ألوفا . وخرجوا يريدون الحرب ، فواقعهم السلطان وكسرهم ووقع كلامه فى الصلح و إطلاق الأسرى ولم يتم . فلما كان فى سابع عشرى رجب ، برز الفرنج بخيامهم ، واحضروا اسارى المسلمين ، وحملوا عليهم حملة واحدة قتلوا [فيها] بأجمعهم فى سبيل الله صبرا ، والبَرَك[٣] الإسلامى ينظر إليهم . فحمل المسلمون عليهم ، وجرت بينهما حرب شديدة ، قُتل فيها عدة من الفريقين .

ولما أهل شعبان سار الفرنج إلى عسقلان ، ورحل السلطان فى أثرهم ، وواقعهم فى رابع عشره بأرسوف . فانهزم المسلمون ، وثبت السلطان إلى أن اجتمع عليه المسلمون ، وعاد إلى

---

(١) لفظ فارسى معناه الحرب عامة (Dozy : Supp. Dict. Ar. & Blochet : Op. cit. p. 201. N° 4) وفى (Quatremère : Maml. 1. 2. p. 18. N. 19) أمثلة عديدة لأوجه استعمال هذا اللفظ منها "وصل الأمراء من التجاريد والبياكير .

(٢) أقرب مرادف لهذا اللفظ كلمة تفتيش ، ويسمى متولى هذه الوظيفة الشاد ، مضافا إليها جه الاختصاص ، مثل شاد الجوالى وشاد دار البطيخ والفاكهة وشاد مراكز البريد وشاد الزكاة . انظا (Q, Demombynes : Op. cit, Index ili) . وكان عمل شاد الدواوين بمصر — أيام الأيو والمماليك — معاونة الوزير فى مراقبة الحسابات ومراجعتها .

(٣) لفظ فارسى معناه الطلائع (Dozy : Supp. Dict. Ar.) ، وفى .tremére : Maml. I. 1. p. 225. N. 101 أمثلة كثيرة لوجوه استعمال هذا اللفظ ، منها " كان يزكه وطلايعه لا تنقطع عن الفر

القتال ، حتى التجأ الفرنج إلى جدران أرسوف . ورحل السلطان فى تاسع عشره ، ونزل على عسقلان [يريد تخريبها،[١] لعجزه] عن حفظها ، ففرق أبراجها على الأمراء ، ووقع [الضجيج والبكاء فى الناس[٢]] أسفا (٢٩ ب) وغمًّا لخرابها ، وكانت من أحسن البلاد بناء ، وأحكمها أسواراً ، وأطيبها سكنا ، فلم يزل التخريب والحريق فيها إلى سلخ شعبان .

قال الحافظ عبد العظيم المنذرى فى المعجم[٣] المترجم : « سمعت الأمير الأجل أياز بن عبد الله — يعنى أبا المنصور البانياسى الناصرى — يقول : لما هدمنا عسقلان[٤] أعطيت أنا برج الداوية ؛ وهدم خُطْلُخ[٥] برجا وجدنا عليه مكتوبا « عُمِّرَ على يدى خطلج » ، وهذا من عجيب الاتفاق . وشبيه بذلك ما أخبرنى [به] القاضى الأجل أبو الحسن على بن يحيى الكاتب قال : رأيت بعسقلان برج الدم ، وخطلج المعزى يهدمه — يعنى فى شعبان . ورأيت عليه مكتوبا : مما أمر بعمارته السيد الأجل أمير الجيوش — يعنى بدرا [الجمالى] — على يد عبده ووليه خطلج فى شعبان . فعجبت من هذا الاتفاق . كيف عمر فى شعبان على يد خطلج ، وهدم فى شعبان على يد خطلج ؟ » .

ثم رحل السلطان عن[٦] [عسقلان] ، وقد خربت فى ثانى رمضان ، ونزل على الرملة فخرب حصنها ، و[هدم] كنيسة لُدّ[٧] ، وركب إلى القدس جَرِيْدَةً[٨] ، ثم عاد وهدم حصن النطرون .

(١ و ٢) ما بين الأقواس محجوب تحت ورقة ملصقة، فوقه فى س ، وهو موجود كله فى ب (٣٠ ا) .

(٣) راجع ملحوظات (Blochet : OP. cit. P. 204. N, 1) عن هذا الكتاب ، حيث يقول إنه معجم لتراجم الرجال ، وليس معجما لغويا كما ظن حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون . ولد المنذرى سنة ٥٨١ هـ بمصر ، ودرس الحديث والفقه والأدب ، وبرع فيها حتى أصبح شيخ المدرسة الكاملية التى أسسها الملك الكامل بن العادل بالقاهرة ، وكان من تلاميذه ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان ، وتوفى سنة ٦٥٦ هـ . (٤) فى س بيروت . (انظر نفس المرجع والصفحة (N. 3) .

(٥) ضبط هذا الاسم على منطوق سمى له فى (Rec. Hist Or III. IV, Indices.)

(٦) فى س عنها . (٧) بغير ضبط فى س . وهى قرية صغيرة قرب بيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٥٤) . انظر أيضاً (Blochet : Op. cit· P. 205. N. 2) .

(٨) الجريدة الفرقة من العسكر الخيالة لا رجالة فيها (محيط المحيط) ، على أن المقصود من هذه العبارة هى — وهى متداولة فى كتب المؤرخين — سير السلطان على وجه السرعة ، دون أن يأخذ معه أثقالا أو حشداً . وفى (Dozy : Supp, Dict, Ar.) أمثلة عديدة توضح هذا المعنى ، منها " جرد الفرنجى عسكره من أثقالهم وسار جريدة " .

وكانت بين المسلمين والفرنج عدة وقائع فى البر والبحر ، فعاد السلطان إلى القدس فى آخر ذى القعدة . وقدم أبو الهيجاء السَّمين بعسكر مصر ، ووقع الاهتمام فى عمارة سور بيت المقدس وحفر الخندق .

وفيها مات علم الدين سليمان بن جندر فى آخر ذى الحجة . ومات الملك المظفر تقى الدين عمر ابن نور الدولة شاهنشاه بن أيوب بن شادى صاحب حماة ، وهو الذى أوقف منازل العز بمصر مدرسة ، فى ليلة الجمعة تاسع رمضان ، ودفن بحماة . ومات نجم الدين محمد بن الموفق ابن سعيد ابن على بن حسن بن عبد الله الخَبُوشانى[١] الفقيه الشافعى الصوفى ، يوم الأربعاء ثانى عشرى ذى القعدة ، ودفن بالقرافة .

وفيها سُلِّمَ أمر الأسطول بمصر للملك العادل ، فاستخدم فيه من قبله ؛ وأفرد برسمه الزكاة بمصر والحبس[٢] الجيوشى بالبرّين والنطرون والخراج وما معه من ثمن القرظ وساحل السنط والمراكب الديوانية و إشْنِين[٣] وطَنْبَدَة . فاستناب العادل فى مباشرة ذلك ، واستخدم فى ديوان

(١) نسبة إلى خبوشان ، قصبة كورة استوا قرب نيسابور . (ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٠٠) .

(٢) العبارة الآتيـة منقولة عن المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٩٤) لتوضيح المقصود بالبرين ، ولضبط معرفة ماتعين لديوان الأسطول تلك الأيام ، وهى : " وعين [صلاح الدين] لهذا الديوان اليوم بأعمالها ، والحبس الجيوشى فى البرين الشرقى والغربى ، وهو من البر الشرقى بهتين والأميرية والمنية ، ومن البر الغربى ناحية سفط ونهيا ووسيم والبساتين خارج القاهرة . وعين له أيضاً الخراج ، وهو أشجار من سنط لا يحصى كثرة فى البهنساوية وسفط ريشين والأشمونين والأسيوطية والأخميمية والقوصية ، لم تزل بهذه النواحى لا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه ، وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد مائة دينار ... وعين له أيضاً النطرون ، وكان قد بلغ ضمانه ثمانية آلاف دينار . ثم أفرد لديوان الأسطول مع ما ذكر الزكاة التى كانت تجبى بمصر ، وبلغت فى سنة زيادة على خمسين ألف دينار ، وأفرد له المراكب الديوانية وناحية اشناى وطنبدى . وسلم هذا الديوان لأخية الملك العادل أبى بكر محمد بن أيوب ، فأقام فى مباشرته وعمالته صفى الدين عبد الله بن على بن شكر ... ..." انظر الحاشية التالية ، و : (Omar Toussoun : Op. cit. I. 1, 2) لتحقيق مواضع البلاد المذكورة . أما المراكب الديوانية فهى التى تحمل الغلات السلطانية . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٨٢) .

(٣) فى س اشنى وطنبدى ، بغير ضبط . واشنى هو ما تنطق به العامة ، وهى " قرية بالصعيد إلى جنب طنبذى على غربى النيل ، وتسمى هذه وطنبذى العروسين لحسنهما وخصبهما ، وهما من كورة البهنسا " (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٨٥ ؛ ج ٣ ، ص ٥٥٠) .

الأسطول صفى الدين عبد الله بن [على بن] شكر . وأحيل الزرنة الجيوشية على غير الحبس الذى لهم .

وعظمت زيادة النيل وغَرَقُ النواحى ؛ وكثر رخاء الأسعار بمصر ، فأبيع القمح كل مائة أردب بثلاثين دينارا ، والخبز البائت ستة أرطال بربع درهم ، والرطب الأمهات ستة أرطال بدرهم ، والموز ستة أرطال بدرهم ، والرمان الجيد مائة حبة بدرهم ، وحِمْل الخيار بدرهمين ، والتين ثمانية أرطال بدرهم ، والعنب ستة أرطال بدرهم — فى شهر بابه بعد انقضاء موسمه المعهود بشهرين ، والياسمين خمسة أرطال بدرهم ، وثمر الحناء عشرة أرطال بدرهم ، والبُسْر الجيد عشرة أرطال بدرهم ، وما دونه خمسة عشر رطلا بدرهم . وكثر بمصر والقاهرة التجاهر بمعاصى الله . وظفر الأسطول بمركب فيه اثنتان وعشرون ألف جُبْنَة[١] ، كل حبنة قدر الرحى لا يقلها الراجل[٢] . وحصلت بمصر زلزلة ، وهبت سموم حارة (١٠٣) فيها إعطار ثلاثة أيام ، أتلفت الحضروات التى فضلت من الغرق . وانشقَّب زَرِبْيَة جامع المقس لقوّة الزيادة ، وخيف على الجامع أن يسقط ، فأمر بعمارتها .

* * *

سنة ثمان وثمانين وخمسمائة . وأهلت سنة ثمان وثمانين ، والسلطان بالقدس مجتهد فى عمارته . وفى ثالث المحرم نزل الفرنج على ظاهر عسقلان ، لقصد عمارتها فما مُكِّنوا ، وواقعهم جماعة من الأسدية منهم يازكج[٣] وغيره ، وتوالت الوقائع بينهم وفى صفر سار الملك الأفضل نور الدين علىّ بن السلطان إلى البلاد الشرقية ، على ما كان بيد الملك المظفر تقى الدين عمر [من البلاد[٤] التى هى] قاطع الفرات ؛ وأطلق له السلطان عشرين ألف دينار سوى الخلع

(١) فى س "... حبة كل حبه قدر الرحى " .

(٢) بعض حروف هذا اللفظ متآكل فى س ، ولكنه واضح فى ب (١٣٦) .

(٣) فى س يازكوج . (٤) أضيف ما بين القوسين من ابن شداد (النوادر السلطانية، ص ١٩٨ — ١٩٩ ، فى .Rec. Hist. Or. III) ، حيث العبارة مترجمة (les pays au delà de l'Euphrate) ، ومنها حران والرها وسميساط .

التشريفات[1]. ثم نزل الملك العادل أبو بكر عن كل ماله فى الشام، ماخلا الكرك والشوبك والصّلت[2] والبلقاء، ونصف خاصّة بديار مصر، وعُوض البلاد الشرقية. وسار [السلطان] من القدس فى أوائل جمادى الأولى، وكتب يعود الملك الأفضل، فعاد منكسر القلب إلى السلطان. ولحق العادل بحران والرها وقرر أمرها، ثم عاد السلطان فى آخر جمادى الآخرة.

وفى[3] [جمادى الآخرة] ملك الفرنج قلعة الداروم، وخرج العسكر المصرى يريدون السلطان فكبسهم الفرنج وأخذوا جميع ما معهم، وتبدد الناس فى البرية. وأسر الفرنج منهم خمسمائة رجل، وأخذوا نحو ثلاثة آلاف جمل، وعادوا إلى خيمهم وقد طمعوا؛ فقصدوا المسير إلى القدس، ثم اختلفوا ونزلوا بالرملة، وبعثوا رسلهم فى طلب الصلح. فبرز السلطان من القدس

---

(١) فى س ونزل. ويلاحظ أن تلك التعديلات حدثت على أثر وفاة تقى الدين عمر، واستيلاء ولده الملك المنصور بن تقى الدين على البلاد الجزرية، بغير إذن السلطان صلاح الدين. وفى هذا يقول ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ٥٤) ما نصه: " قد تقدم ذكر موت تقى الدين عمر بن صلاح الدين واستيلاء ولده [الملك المنصور] ناصر الدين محمد على بلاد الجزيرة. فلما استولى عليها أرسل إلى صلاح الدين يطلب تقريرها عليه، مضافا إلى ما كان لأبيه بالشام. فلم ير صلاح الدين أن مثل تلك البلاد تسلم إلى صبى، فما أجابه إلى ذلك (كذا)، فحدث [الملك المنصور] نفسه بالامتناع على صلاح الدين، لاشتغاله بالفرنج فطلب الأفضل على بن صلاح الدين من أبيه أن يقطعه ما كان لتقى الدين، وينزل عن دمشق. فأجابه إلى ذلك، وأمره بالمسير إليها، فسار إلى حلب فى جماعة من العسكر. وكتب صلاح الدين إلى أصحاب البلاد الشرقية: مثل صاحب الموصل وصاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب ديار بكر وغيرها، يأمرهم بإنفاذ العساكر إلى ولده الأفضل. فلما رأى ولد تقى الدين ذلك علم أنه لا قوة له بهم، فراسل الملك العادل عم أبيه يسأله إصلاح حاله مع صلاح الدين. فأنهى ذلك إلى صلاح الدين، وأصلح حاله، وقرر قاعدته، بأن يقرر له ما كان لأبيه بالشام، وتؤخذ منه البلاد الجزرية. واستقرت القاعدة على ذلك، وأقطع صلاح الدين البلاد الجزرية: وهى حران والرها وسميساط وميافارقين وحانى [لأخيه] العادل. وسيره إلى ابن تقى الدين، ليتسلم منه البلاد، ويسيره إلى صلاح الدين، ويعيد الملك الأفضل أين أدركه. فسار العادل فلحق الأفضل بحلب، فأعاده إلى أبيه. وعبر العادل الفرات، وتسلم البلاد من ابن تقى الدين معه وعاد إلى صلاح الدين بالعساكر، وكان عوده فى جمادى الآخرة من هذه السنة". انظر أيضاً ابن شداد (النوادر السلطانية، ص ٢٨٠، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، فى Rec. Hist. Or. III).

(٢) بلد من أعمال الأردن، على مسيرة يوم من عجلون (Blochet :Op. cit.p. 209. N. 1).

(٣) فى س وفيه. انظر نفس المرجع والصفحة (N. 2).

فى عاشر رجب ، وسار إلى يافا لحاصرها ، ولم يزل يقاتل من فيها من الفرنج إلى أن أخذ البلد عنوة ، وغنم الناس منها شيئاً عظيما . وتسلم [السلطان] القلعة ، وأخرج من كان فيها من الفرنج . فقدم من الفرنج نجدة كبيرة فى خمسين مركبا ، فغدر أهل يافا بجماعة من المسلمين ، وعاد القتال والمراكب فى البحر لم تصل إلى البر . فسارع أهل المراكب إلى البر ، وحملوا على السلطان ، فرحل إلى يازُوْر[1] وأمر بتخريبها ، وسار إلى الرملة ومنها إلى القدس . وعزم على لقاء الفرنج ، فاختلف عليه أصحابه ، وأسمعه بعضهم كلاما جافيا ، فانثنى عن ذلك . وقدم عسكر مصر فخرج إلى الرملة ، ووقع الصلح بين السلطان والفرنج لثمان [بقين من[2] شعبان]. وعقدت هدنة عامة فى البر والبحر مدّة [ثلاث سنين وثلاثة[3] أشهر] ، أولها حادى (٣٠ ب) عشر شعبان — وهو أوّل شهر أيلول ، على أن يكون للفرنج من يافا إلى صور وطرابلس وأنطاكية ونودى فى الوطاقات وأسواق العسكر : « ألا إن الصلح قد انتظم ، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل » . وكان يوم الصلح يوما مشهودا ، عم فيه الطائفتين الفرح والسرور ، لما نالهم من طول الحرب . فاختلط عسكر الفرنج بعسكر المسلمين ، ورحل جماعة من المسلمين إلى يافا للتجارة ، ودخل خلق عظيم من الفرنج إلى القدس بسبب الزيارة ، فأكرمهم السلطان ومدّ لهم الأطعمة وباسطهم . ورحل ملوك الفرنج إلى ناحية عكا ، ورحل السلطان إلى القدس ، وسار منها إلى دمشق ، فلقيه الأمير بهاء الدين قراقوش — وقد تخلص من الأسر — على طبرية . ودخل [السلطان] إلى دمشق ، لخمس بقين من شوال ، فكانت غيبته عنها أربع سنين . وأذن للعساكر فى التفرق إلى بلادهم فساروا إليها ، وبقى عند السلطان ابنه الأفضل علىّ والقاضى الفاضل .

وفيها انتقل سعر الفول بديار مصر من خمسة عشر دينارا إلى ثلاثين دينار المائة أردب ، بحكم أن المُشْتَرَى لعلوفة الوُسِيَّة[4] العادلية خمسون ألف أردب . وفيها عثر على رجل اسمه عبد الأحد ،

---

(١) بليدة بساحل الشام قرب الرملة . (ياقوت معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٠٠٢) .

(٢ و ٣) ما بين القوسين محجوب فى س تحت ورقة ملصقة عليه ، ولكنه موجود فى ب (٣٦ ب) .

(٤) لفظ مشتق من الكلمة التركية الوس ، ومعناها الدار وكل ما يتبع صاحبها من حاشية وحشم وحيوان ومتاع . (Blochet : Op. cit. p. 212. N. 1) . ويفسر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) الوسية بالمرعى المشاع .

من أولاد حسن ابن الخليفة [الفاطمى] الحافظ لدين الله ، وأحضر إلى الملك العزيز بالقاهرة ، فقيل له : « أنت تدعى أنك الخليفة ؟ » قال « نعم ! » فقيل له : « أين كنت فى هذه المدة ؟ » فذكر أن أمه أخرجته من القصر فتاه ، ووصل إلى طَنْبَدَة[1] فاختفى بها ، ثم خرج إلى مصر ، فآواه رجل وشرع يتحدّث له فى الخلافة ، وأنه وقع بعدة بلاد وأقطع أناسا ممن بايعه ، فسُجن . وعُثر على بعض أقارب الوزير شاور ، وقد ثار بالقاهرة ، فسجن هو وجماعته .

وفيها انعقد ارتفاع الديوان الخاص[2] السلطانى على ثلاثمائة ألف وأربعة وخمسين ألف دينار وأربعمائة وأربعة وأربعين دينارا . ومات فيها جمال الملك موسى بن المأمون البطائحى[3] جامع السيرة المأمونية — وهو بقية بيته — فى سادس عشر جمادى الأولى بالقاهرة . وفيها وقع الشروع فى حفر الخندق من باب الفتوح إلى المقس . وكتب بنقل جماعة من أتباع الدولة الفاطمية المحبوسين فى الإيوان ودار المظفر ليلا ، بحيث لا يشعر بهم أحد ، حتى يوصلهم [المكلف بذلك] إلى صرخد . وفيها كتب بإجلاء مدينة تنيس ، ونقل أهلها إلى دمياط ، وقطع أشجار (١٣١) بساتين دمياط وإخراج النساء منها . فخلت تنيس ، إلا من المقاتلة ، وحفر خندق دمياط ، وعمل جسر عند سلسلة البرج بها . وفيها كثرت الأراجيف بالقاهرة ومصر ، وعظمت الشناعات ، وارتفعت الأسعار .

---

(١) فى س طنبدى . (٢) وظيفة الديوان الخاص هى النظر فى خاص أموال السلطان والتحدث فى جهاته ومضافاته . وأعظم بلاده وأغناها مدينة الإسكندرية ، ويليها تروجه وفوه ونستروه ، ومال جميعها يحمل إلى خزانة الخاص . (القلقشندى : صبح الأعشى : ج ٣ ص ٤٥٦) ، ويلاحظ أن القلقشندى يقول (نفس المرجع والجزء والصفحة) إن ديوان الخاص من منشآت السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ — ٧٤١ هـ) ، على أن ذلك لا ينفى وجود إدارة من شأنها النظر فى خاص أموال السلطان أيام الدولة الأيوبية . انظر ص ٥٣ حاشية ٤ ؛ وراجع أيضاً ابن شاهين (زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٧ ، ١٠٩) ، حيث يشرح جميع منابع إيرادات ومصروفات ديوان الخاص (٣) ليس فى المراجع المتداولة فى حواشى هذا الجزء من السلوك شىء يذكر عن موسى هذا . على أن المعروف أن أباه المأمون ، واسمه أبو عبد الله محمد بن مختار بن فاتك البطائحى ، كان وزيراً للخليفة الآمر الفاطمى (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ) ، وإليه يرجع الفضل فى تشييد الجامع الأقمر ، وتكميل بناء جامع الفيلة ، الذى كان يطل على بركة الحبش بالقاهرة ، وإليه أيضاً تنسب الدار المأمونية ، بجوار درب السلسلة . (Ibn Khallikan. Biog. Dict.) ، والمقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٦٣ — ٤٦٤ ؛ ج ٢ ، ص ٢٨٩ — ٢٩٠) .

وفيها ورد الخبر فى كتاب من اليمن بأن ثلاثة أنهار بالحبشة تغيرت بعد ما كانت عذبة : فصار أحدها أجاجا ، والآخر لبنا ، والأخر[١] دما . وفيها مات قلج[٢] أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان صاحب قونية ، وقد تغلب عليه ابنه قطب الدين — صاحب سيواس أقْصَرَا[٣] — وزاد فى أن حجر عليه . وكان موته فى شعبان ، فولى قونية بعده ابنه غياث الدين كَيخُسْرُو بن قلج أرسلان ، و بقيت أخوته على ولاياتهم من عهد أبيهم ، فاختلفوا . وثار عليه أخوه ركن الدين سليمان صاحب ووقاط[٤] ، وملك سيواس وأقصرا وقيسارية[٥] ، [وهى] أعمال أخيه قطب الدين . ثم ملك قونية من غياث الدين ، ففر غياث الدين ، ونزل حلب .

* * *

سنة تسع وثمانين وخمسمائة . أهلت والسلطان بدمشق ، فخرج العادل الكرك ، وقدم من اليمن الملك المعز إسماعيل بن سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين فى نصف صفر ، فسُر به السلطان . فلما كان ليلة السبت سادس عشره ، نزل بالسلطان[٦] مرض ، فأمر يوم السبت ولده الأفضل أن يجلس على الطعام ، فجلس فى موضع السلطان . وتزايد به المرض إلى اليوم[٧] الحادى عشر من مرضه ، فحلّف الأفضلُ الناس . واستمر السلطان فى تزايد من المرض إلى ليلة الأربعاء سابع عشرى صفر — وهى ليلة الثانى عشر من المرض — فاحتضر ومات بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء المذكور . فركب الأفضل ، ودار فى الأسواق ، وطيب قلوب العامة .

---

(١) يرى (Blochet : Op. cit. p. 212 N. 1.) أن هذه الأنهار هى بعض منابع النيل ، غير أنه ترجم عذبة إلى adbat معتبراً أنها إحدى بحيرات أواسط إفريقية . (٢) كثيراً ما يرسم هذا الاسم فى س بالخاء المهملة . (٣) بغير ضبط فى س ، ويطلق عليها الآن آق سراى ، وهى قرب قونية (Enc. Isl. Art. AK Blochet. Op. cit. p. 214. N. 2., Sarāl) (٤) كذا فى س بغير ضبط ، ولعلها توقات ، وهى قلعة حصينة تقع بين قونية وسيواس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٩٥) .

(٥) فى س قيصرية بغير ضبط ، وكانت عاصمة ملك بنى سلجوق بأسيا الصغرى . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢١٤) . (٦) فى س به . (٧) فى س يوم .

(٨) فى س عند كلمة " المذكور " إشارة كالتى يضعها المؤلف للتنبيه على مكان الهوامش المضافة ، وليس أمامها شىء من ذلك .

وكان رحمه الله كثير التواضع ، قريباً من الناس ، كثير الاحتمال ، شديد المداراة ، محباً للفقهاء وأهل الدين والخير محسناً إليهم ، مائلا إلى الفضائل ، يستحسن الشعر الجيد ويردّده فى مجلسه . ومدحه كثير من الشعراء ، وانتجعوه من البلدان . وكان شديد التمسك بالشريعة ، سمع الحديث من أبى الحسن على بن إبراهيم بن المسلم بن بنت أبى سعد ، وأبى محمد بن برّى النحوى ، وأبى الفتح محمود بن أحمد الصابونى ، وأبى الطاهر السلفى ، وابن عوف ، وجماعة [غيرهم] . وكان كريماً : أطلق من الخيل بمرج عكا لمن معه اثنى عشر ألف رأس ، سوى أثمان الخيل التى أصيبت فى الجهاد . ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به ، وصاحبه ملازم فى طلبه . وتأخر عنه الأمير أيوب بن كنان فى بعض سفراته لدين لزمه ، فتقبّل لغرمائه باثنى عشر ألف دينار مصرية . وكان ورعا : رأى يوما العماد الكاتب يكتب من دواة محلاة بالفضة فأنكرها ، وقال هذا حرام ، فلم يعد يكتب منها عنده . وكان لا يصلى إلا فى جماعة ، وله إمام راتب ملازم ؛ وكان يصلى قبيل الصبح ركعات إذا استيقظ . وكان يُسوى فى المحاكمة بين أكبر الناس و بين خصمه . وكان شجاعا فى الحروب ، يمرّ فى الصفوف وليس معه سوى صبى . وقُرئ عليه جزء من الحديث بين الصَّفَّين ، وهو على ظهر (٣١ ب) فرسه . وكان ذاكراً لوقائع العرب وعجائب الدنيا ، ومجلسه طاهر من المعايب ، رحمه الله وغفر له .

ولما مات جلس الأفضل للعزاء ، وكثر بكاء الناس عليه . وغسّله الفقيه خطيب دمشق ، وأخرج بعد صلاة الظهر ، وصلى الناس عليه أرسالا ، ودفن بداره التى مرض فيها بالقلعة ، ثم نُقل فى يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة إلى تربة بنيت له بجوار جامع بنى أمية . وكُتب [بوفاته] إلى العزيز بمصر ، وإلى العادل بالكرك . وكان عمره يوم مات نحواً[1] سبع وخمسين سنة . منها مدّة ملكه بعد موت العاضد اثنتان وعشرون سنة وأيام[2] من الأولاد سبعة عشر ذكراً و بنتاً واحدة صغيرة ؛ ولم يخلّف فى خزائنه سوى سبعة و

(١) فى س نحو . (٢) فى س اثنتين وعشرين سنة وأياما .

درهماً ، ولم يترك داراً ولا عقاراً . وكان القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى صاحب سره ، و بمنزلة الوزير منه .

وفيها قتل طغرل بن أرسلان بن طغرل[١] بن السلطان محمد بن ملك شاه بن ألب أرسلان ، ابن جغرى بك داود بن ميكائيل بن سلجوق فى ربيع الأوّل ، وهو آخر من ملك بلاد العجم من السلاطين السلجوقية ؛ وابتداء دولتهم فى سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ، وأوّلهم طغرلبك بن ميكائيل[٢] بن سلجوق ، فتكون مدّة دولتهم مائة سنة وثمانياً[٣] وخمسين سنة .

السلطان الملك العزيز عماد الدين

أبو[٤] الفتح عثمان بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولُد بالقاهرة فى ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة . ومات أبوه بدمشق وهو على سلطنة ديار مصر مقيم بالقاهرة ، وعنده جل العساكر والأمراء من الأسدية والصلاحية والأكراد . فلما بلغه موت أبيه جلس للعزاء ، وأخذ بالحزم ، وقرّر أمور دولته ، وخلع على الأمراء وأرباب الدولة بعد انقضاء العزاء . فقام أخوه الأفضل نور الدين علىّ بدمشق ، وكتب إلى الخليفة الناصر يطالعه بوفاة أبيه ، من إنشاء العماد الكاتب . و بعث بذلك مع القاضى ضياء الدين أبى الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزورى[٥] ، ومعه عُدد والده وملابسه وخيله ، وهدية نفيسة . وسار العادل من الكرك إلى بلاد المشرق ، فأقام بقلعة جَعْبَر[٦] ، و بعث نوابه إلى حرّان

---

(١) فى س طغريل وبغير ضبط فى الموضعين . (انظر ص ٤٠ ، حاشية ٢) .

(٢) صححت بعض الأسماء الواردة هنا بغير تنبيه وذلك لسبق ورودها والإشارة إلى رسم المؤلف لها .

(٣) فى س ثمان . (٤) فى س أبى .

(٥) فى س الشهرزوى .

(٦) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين ، واسمها قديما دوسر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٨٤) ، وراجع أيضاً (Blochet : Op. cit, p. 217. N. 1) .

والرها . واستوزر الأفضل الوزير ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير(١) ، وفوّض إليه أموره كلها ، فحسّن له إبعاد أمراء أبيه وأكابر أصحابه ، وأن يستجد أمراء غيرهم . ففارقه جماعة منهم الأمير فخر الدين جِهَارَكَس(٢) ، وفارس الدين ميمون القصرى ، وشمس الدين سنقر الكبير ، وكانوا عظماء الدولة . فصاروا إلى الملك العزيز بالقاهرة فأكرمهم ، وولّى فخر الدين أستاداره(٣) ، وفوّض إليه أمره ، وجعل فارس الدين وشمس الدين على صيداء وأعمالها ، وكان ذلك لهما ، وزادهما نابلس وبلادها . وسار القاضى الفاضل أيضاً من دمشق ولحق بالقاهرة ، فخرج العزيز إلى لقائه (١٣٢) وأجلّ قدومه وأكرمه . فشرع القوم فى تقرير قواعد مُلك العزيز ، والأفضل فى شغل عنهم . وكانت مدينة القدس مضافة للأفضل ، فكتب إلى أخيه العزيز يرغب عنها له . وكان [ذلك] من تدبير وزيره ابن الأثير ، لأنها كانت تحتاج حينئذ إلى أموال ورجال لمدافعة الفرنج . فسُر العزيز بذلك ، وجهز عشرة آلاف دينار إلى عز الدين جرديك النورى متولى القدس ، لينفقها فى عسكر القدس ، فخطب له به وخشى [العزيز] من نقض الهدنة بينه و بين الفرنج ، فبعث عسكرا إلى القدس احترازا من الفرنج . ثم بدا للأفضل أن يعود فيما رغب عنه لأخيه من القدس ، ورجع عن ذلك ، فتغيّر العزيز من هذا ، وأخذ الأمراء فى الإغراء بينهما ، وحسّنوا للعزيز الاستبداد بالملك والقيام مقام أبيه ، فبلغ ذلك الأفضل .

---

(١) أخو مؤلف كتاب الكامل فى التاريخ . وقد ترجم له المقريزى بهامش الصفحة بعبارة نصها : « نصر الله بن محمد بن أبى البركات محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى الجزرى ، المعروف بابن الأثير أبى الفتح ضياء الدين ، رئيس الكتاب فى زمانه . ولد بالجزيرة العمرية يوم الخميس العشرين من شعبان سنة ٥٥٨ [هـ] ، ومات ببغداد سلخ ربيع الآخر سنة ٦٣٧ [هـ] ، وله مصنفات منها المثل السائر [فى آداب الكاتب والشاعر] » . ولهذين النابغتين أخ ثالث اسمه مجد الدين أبو السعادات ، اشتغل بعلوم القرآن والحديث والنحو ، ومن مؤلفاته كتاب النهاية فى غريب الحديث ، وهو أكبرهم سنا ، ويليه صاحب الكامل فى التاريخ (Enc. Isl. Art. Ibn al-Athîr) .

(٢) مضبوط على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. p. 218) ، انظر أيضاً (Rec. Hist. Or. Ip.86) .

(٣) الأستادار هو الذى يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير وصرفه ، وتنفذ فيه أوامره . وبين القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠ ، ج ٥ ، ص ٤٥٧) وبين عامة المستشرقين خلاف فى أصل هذا اللفظ الفارسى المركب ، فانظر (G.-Demombynes : Op. cit. Introd. p. LX. & N. 4) .

***

[سنة تسعين و خمسمائة]. ودخلت سنة تسعين ، وقد تنافرت القلوب ، وقويت الوحشة بين الأخوين واجتمعت الأمراء الصلاحية على أن يكون الأمر كله للعزيز ، فاضطربت أحوال الأفضل . وخرج العزيز من القاهرة بعساكر مصر ، من الصلاحية والأسدية والأكراد وغيرهم ، يريد الشام وانتزاعها من أخيه الأفضل ، من أجل أمور منها أن جبيل — وهو[1] من جملة الفتوح الصلاحية[2] — كان مع رجل كردى [فقيه أقامه صلاح الدين مستحفظا[3] بها] ، فأرغبه الفرنج بمال حتى سلّمه لهم . وخرج الأفضل من دمشق ليستنقذه من الفرنج ، فتعذر عليه ، وظهر العجز عن استخلاصه فامتعض الأمراء لذلك ، وخوّفوا العزيز من عاقبة أمر الفرنج ، فسار فى [صفر[4]] ، واستخلف أخاه الملك المؤيد نجم الدين مسعود ، وترك بالقاهرة بهاء الدين قراقوش الأسدى وصيرم[5] وسيف الدين يازكج وخطلج فى تسعمائة فارس . واتفق أن الأمير صارم الدين قايماز النجمى — أحد أكابر الأمراء الصلاحية — استوحش من الأفضل لإعراضه عنه ، فخرج من دمشق يريد إقطاعه ، ولحق بالعزيز فأكرمه ورفع محله .

وهمّ الأفضل بمراسلة أخيه العزيز واستعطافه ، فمنعه من ذلك وزيره ابن الأثير وعدة من أصحابه ، وحسنوا له محاربته ، فمال إليهم . و بعث إلى عمه العادل وهو بالشرق ، وإلى أخيه الظاهر بحلب ، و إلى المنصور بحماة ، و إلى الأمجد صاحب بعلبك ، و إلى المجاهد شيركوه صاحب حمص ، يستنجدهم على أخيه العزيز . فوردت رسلهم فى جمادى الآخرة ، يعدون بالقدوم عليه . ثم إنه برز من دمشق ، ونزل برأس الماء فلما وصل العزيز إلى القصير[6] من الغور ضاق الأفضل ، ورجع من الفوار إلى رأس الماء . فأدركت مقدّمة العزيز ساقته ، وكادوا يكبسونه

(١) فى س وهى . (٢) فى س الصلاحى . (٣) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة أبى شامة (كتاب الروضتين ، ص ١١١ ، ١٥٢ ، فى Rac. Hist. Or. V.) .

(٤) انظر نفس المرجع والصفحة بالحاشية السابقة . (٥) كذا فى س ، وبغير ضبط ، وهو مترجم فى (Sarim al-Din) (Blochet : Op. cit. p. 219) ، على أن المقصود ليس صارم الدين قايماز النجمى الوارد اسمه فيما بلى ، سطر ١٠ . (٦) بغير ضبط فى س ، واسمه قصير معين الدين ، بالغور من أعمال الأردن . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٢٦) .

فانهزم إلى دمشق ، ودخلها لخمس مضين منه . ونزل العزيز فى غده على دمشق فى قوة قوية ؛ ونازل البلد . وكان الأفضل قد استعد لقتاله ، فقدم العادل والظاهر (٢٨ ٢٣) والمنصور والمجاهد والأمجد إلى دمشق . و بعث العادل إلى ابن أخيه الملك العزيز يشفع فى الأفضل ، ويستأذنه فى الاجتماع به ، فأذن له . وخرج العادل فاجتمع بالعزيز —وكل منهما راكب— وتحدث معه فى الصلح ، وأن ينفّس الخناق عن البلد ؛ وكان قد اشتد الحصار ، وقطعت الأنهار ، ونهبت الثمار ، والوقت زمن المشمش . فوافق العزيز عمه ، وتأخر إلى دَارَيَا[1] ، ونزل على الأَعْوَج[2] ؛ وسيّر الأميرَ فخر الدين جهاركس الأستادار — وهو يومئذ أجلّ الصلاحية — إلى العادل ، فقرّر الصلح على شروط ، وعاد إلى العزيز . فرحل ونزل مرج الصُّفَر[3] ، فحدث له مرض شديد ، وأرجف بموته ، ثم أبل منه . وأمر بعمل نسخة اليمين ، وهى جامعة لمقترحات جميع الملوك ؛ وحَسَم مواد الخلاف ، وأن الملك الأمجد بهرام شاه بن عز الدين فرخشاه ، والملك المجاهد شيركوه ، يكونان مؤازرين للملك الأفضل وتابعين له ، وأن الملك المنصور صاحب حماة يكون فى حيِّز الملك الظاهر صاحب حلب ومؤزرا له . و بعث كل من الملوك أميراً من أمرائه ليحضر الحلف ، فاجتمعوا يوم السبت ثانى عشر شهر رجب ، وجرت أمور آلت إلى الحلف على دَخَنٍ . وتزوّج العزيز بابنة عمه العادل ، وقبل العقد عنه القاضى المرتضى محمد بن القاضى الجليس عبد العزيز السعدى . ووكل العادل القاضى محيي الدين محمد بن شرف الدين بن عصرون فى تزويج أُبنته من ابن عمها الملك العزيز ، وعقد بينهما قاضى القضاة محيي الدين . وكَتب العماد الكاتب الكتاب فى ثوب أطلس ، وقُرِئ بين يدى الملك الظاهر ، وعُقد العقد عنده .

فلما كان يوم الجمعة أول شعبان ، خرج الملك الظاهر غازى صاحب حلب لوداع أخيه العزيز ، فركب العزيز إلى لقائه وأنزله معه ، وأكلا ثم تفرّقا ، بعد ما أهدى كل منهما لأخـ

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة . (ياقوت : معجم البلدان ج س ٥٢٦) .

(٢) بغير ضبط فى س ، انظر أبا شامة (كتاب الروضتين ، ص ١١٢ (Rec. Hist. Or. V. .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهو من نواحى دمشق . (ياقوت : البلدان ، ج ٢٤ ص ٤٤٨) ، انظر أيضاً (Blochet : Op. cit. p. 221, N. 3) .

هدية سنية . ثم خرج العادل لوداع العزيز فى خواصه ؛ ثم خرج الأفضل فودّعه أيضاً ، وهو آخر من ودّعه . ورحل العزيز من مرج الصفر فى ثالث شعبان يريد مصر ، فلما كان ثالث عشره عمل الأفضل دعوة عظيمة لعمّه و بقية الملوك وودعهم . ثم رحلوا من الغد إلى بلادهم إلا العادل ، فإنه أقام إلى تاسع شهر رمضان ، ثم رحل إلى بلاده بالشرق .

وقدم العزيز إلى القاهرة فى (١٣٣) يوم ... .[١] . . وأما الأفضل فإنه همّ بمكاتبة العزيز بما يؤكد أسباب الصلح ، فأماله عن ذلك خواصه ، وأغروه بأخيه ، ورموا جماعة من أمرائه بأنهم يكاتبون العزيز ، فاستوحش منهم ، وفطنوا بذلك فتفرقوا عنه . وسار الأمير عز الدين أسامة[٢] صاحب [كوكب] وعجلون عن الأفضل ، ولحق بالعزيز فأكرمه غاية الإكرام ، وأخذ يحرضه على الأفضل ، ويحثه على المسير إلى دمشق وانتزاعها منه ، ويقول له : « إن الأفضل قد غلب على اختياره ، وحَكم عليه وزيرة الضياء [ابن الأثير] الجزرى ، وقد أفسد أحوال دولته برأيه الفاسد ويحمل أخاك على مقاطعتك ، ويحسن له نقض اليمين . فإن من شرطها صفو الوداد وصحة النية ، ولم يوجد ذلك ، فحنثهم فى اليمين قد تحقق ، و برئتَ أنت من العهدة فاقصد البلاد فإنها فى يدك ، قبل أن يحصل فى الدولة من الفساد ما لا يمكن تلافيه » و بينا هو فى ذلك إذ فارق الأفضل الأمير شمس الدين أيدمر بن السلار[٣] ، ووصل إلى العزيز ، فساعد أسامة[٤] على قصده . ثم وصل أيضاً إلى العزيز القاضى محيى الدين[٥] أبو حامد محمد بن الشيخ شرف الدين عبد الله ابن هبة الله بن أبى عصرون ، فاحترمه وولاه قضاء الديار المصرية ، وضم إليه نظر الأوقاف

وأقبل الأفضل بدمشق على اللعب ليله ونهاره ، وتظاهر بلذاته ، وفوّض الأمور إلى وزيره ؛ ثم ترك اللعب من غير سبب ، وتاب وأزال المنكرات وأراق الخمور ، وأقبل على العبادة ،

---

(١) بياض فى الأصل . (٢) فى س سامة وبغير ضبط . راجع أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ٧٠ ، ٨٦ ، فى Rec. Hist. Or. I.) .

(٣) ترجم (Blochet : Op. cit pp. 223) هـذا الأسم إلى (Ibn as-Salat) ؛ وفى فهارس (Rec. Hist. Or. I-V) شخصان بهذا الاسم (Ibn es-Sellar) .

(٤) فى س سامة . (٥) فى س أبى .

وليس الخشن من الثياب ؛ وشرع فى نسخ مصحف بخطه ، واتخذ لنفسه مسجداً يخلو فيه بعبادة ربّه ؛ وواظب على الصيام ، وجالس الفقراء ، وبالغ فى التقشف ، حتى صار يصوم النهار ويقوم الليل . وأما العزيز فإنه قطع خبز الفقيه الكمال الكردى من مصر ، فأفسد جماعة على السلطان ، وخرج إلى العرب لجمع ونهب الإسكندرية ، فسار إليه العسكر فلم يظفروا به . وقطع [العزيز] أيضاً خبز الجناح وعَلْكَان[1] ومجد الدين الفقيه وعز الدين صهر الفقيه ، فساروا من القاهرة إلى دمشق ، فأقطعهم الملك الأفضل الإقطاعات .

وفى شهر رمضان كُسِر بحر أبى[2] المُنَجَّا بعد عيد الصليب بسبعة أيام ، وتجاهر الناس فيه بالمنكرات من غير نكر عليهم . وفيه وقعت الآفة فى البقر والجمال والحمير ، فهلك منها كثير . وفيه كثر حمل الغلة من البحيرة إلى بلاد المغرب ، لشدّة الغلاء بها . وكثرت[3] بين الأمراء إشاعة أن إقطاعاتهم تؤخذ منهم ، فقصّروا فى عمارة البلاد وارتفع السعر بالإسكندرية ، ونقص ماء النيل بعد ما بلغ اثنين وعشرين إصبعاً من سبعة عشر ذراعا ؛ فرفعت الأسعار ، وشرقت البلاد . وبلغ القمح كل أردب بدينار ، وأخذ فى الزيادة ؛ وتعذر وجود الخبز ، وضجّ الناس . وكثرت المنكرات ، وغلا سعر العنب لكثرة من يعصره . وأقيمت طاحون لطحن الحشيش بالمحمودية ، وحُميت بيوت المزر ، وجعل عليها ضرائب ، فمنها ما كان عليه فى اليوم ستة عشر ديناراً ، ومنع من عمل المزر البيوتى . وتجاهر الكافة بكل قبيح ، فترقب أهل المعرفة حلول البلاء .

---

(١) بغير ضبط فى س ، انظر ابن شداد (النوادر السلطانية ، ص ٣٦٥ ، فى Rec. Hist Or. III).

(٢) أسلف المقريزى ذكر بحر أبى المنجا (ص ٧٣) ، وقد أرجئ الكلام عليه الى هذا الموضع ، لمناسبة إسهاب المقريزى فى وصف ما حدث تلك السنة عند الاحتفال بفتحه . وكانت هذه القناة تخرج من النيل قرب بلدة شبرا الحالية ، ثم تمر ببلبيس ، وتلتقى فى شمالها ببحر الفرما ، الذى يسير مخترقا برزخ السويس إذ ذاك حتى مدينة الفرما على البحر الأبيض المتوسط ، غربى بور سعد الحالية . وقد بدىء حفر بحر أبى المنجا سنة ٥٠٦ هـ فى عهد الخليفة الآمر الفاطمى (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ) ، ونيط بحفره أبو المنجا بن شعيا اليهودى وكان يوم فتح هذه القناة من أيام القاهرة وأعيادها ، يشترك فيه السلطان والأمراء والناس جيعاً . على أن السلطان العزيز لم يباشر فتح القناة بنفسه تلك السنة ، واشتد إفراط الناس ذلك اليوم ، إذ غلبت « المجاهرة بالمنكرات والإعلان بالفواحش . . . ولم ينسلخ شهر رمضان إلا وقد شهد ما لم يشهده رمضان قبله فى الإسلام ... » (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٧١ (٤٨٧ ، وأيضاً (P. Omar Toussoun : Anc, Branches du Nil, pl. III) .

(٣) فى س وكثر .

وفيها قدم رسول متملك القسطنطينية[١] (١٤٠) يطلب صليب الصلبوت ، فأُحضر من القدس ، وكان مرصعا بالجوهر ، وسُلم إليه على أن يعاد [ثغر] جبيل من الفرنج . وتوجه الأمير شمس الدين جعفر بن شمس الخلافة [بذلك] .

* * *

تتمة سنة تسعين وخمسمائة . [فى] يوم الخميس رابع محرم عُقد مجلس بحضرة السلطان ، حضره أصحاب الدواوين . وفى عاشره قدم الأمير حسام الدين ببشارة من عند الملك العادل وبقية الأولاد الناصرية ، فتلقاه السلطان والأمراء ، وحمل إليه سماط السلطنة ، فطلب الموافقة بين الأهل . وفى سادس عشره ركب السلطان للصيد بالجيزة ، ومر بباب زويلة ، فأنكر بروز مصاطب الحوانيت فى الأسواق ، ورسم بهدمها ، فهدمت بمباشرة مُحْتَسِب[٢] القاهرة . ومر بصناعة العمائر[٣] ، فرسم بسد طاقات الدور المجاورة للنيل فسدّت .

---

(١) إمبراطور الدولة البيزنطية إذ ذاك هو (Isaac II Angelus, 1185-1195) ، وقد تقدم ذكر ما كان بينه وبين صلاح الدين من العلاقات الحسنة قبل تلك السنة . انظر ص ٩٨ حاشية ١ .

(٢) أفاض المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٦٣ — ٤٦٤) فى شرح وظيفة المحتسب ولا عجب فإنه قد تولى هذه الوظيفة سنة ٨٠١ هـ (Quatremère : Maml. I. Pref. p. I) . وهذا نص ما كتبه عنها « وأما الحسبة فإن من تسند إليه لا يكون إلا من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين ، لأنها خدمة دينية . وله استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع أعمال الدولة ، كنواب الحكم . وله الجلوس بجامعى القاهرة ومصر يوما بعد يوم . ويطوف نوابه على أرباب الحرف والمعايش ، ويأمر نوابه بالختم على قدور الهراسين ونظر لحمهم ومعرفة من حراره ، وكذلك الطباخون ويتتبعون الطرقات ، ويمنعون من المضايقة فيها . ويلزمون رؤساء المراكب أن لا يحملوا أكثر من وسق السلامة ، وكذلك مع الحمالين على البهائم . ويأمرون السقائين بتغطية الروايا بالأكسية ، ولهم عيار وهو أربعة وعشرون دلوا ، كل دلو أربعون رطلا ، وأن يلبسوا السراويلات القصيرة الضابطة لعوراتهم وهى زرق . وينذرون معلمى المكاتب بأن لا يضربوا الصبيان ضربا مبرحا ولا فى مقتل ، وكذلك معلمى العوم بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس ، ويقفون على من يكون سيء المعاملة ، فينهونه بالردع والأدب . وينظرون المكاييل والموازين . وللمحتسب النظر فى دار العيار . ويخلع عليه ، ويقرأ سجله بمصر والقاهرة على المنبر ، ولا يحال بينه وبين مصلحة إذا رآها ، والولاة تشد معه إذا احتاج إلى ذلك ، وجاريه ثلاثون دينارا فى كل شهر » . هذا ويذكر القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٧) أن قد كان بالقاهرة محتسب له التصرف بها وبالوجه البحرى عامة ، خلا الإسكندرية ، فإن لها محتسبا يخصها . وبالفسطاط محتسب ثالث مرتبته أقل أهمية من الأول ، ودائرة اختصاصه الفسطاط والوجه القبلى بكماله . انظر أيضاً القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ، ص ٤٨٧ ، ج ٥ ، ص ٤٥١ ؛ و (G,-Demom- bynes : Op. cit., Introd p. LXXVII. etc.) . انظر كذلك عبد الرحمن العدوى البندارى الشيزرى : كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، نشر السيد الباز العرينى (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٦) .

(٣) اسم أطلق فيما بعد على صناعة مصر . انظر ص ٧٤ ، حاشية ٧ ، والمراجع التى بها .

وفى صفر غُيِّرت ولاة الأعمال . وفى عاشره حلف العزيز لعمه العادل . وفى ثالث عشريه عاد العزيز من الصيد بالجيزة . وفى هذا الشهر غلت الأسعار ، فبلغ كل مائة أردب ثمانين دينارا . وفى خامس عشره قدم فارس الدين ميمون [القصرى[1]] مقطع صيداء ، وسيف الدين سنقر المشطوب ، وشمس الدين سنقر الكبير مقطع الشقيف ، مفارقين الملك الأفضل . فدفع [العزيز] لميمون خمسمائة دينار ، ولسنقر أربعمائة دينار ، وللمشطوب ثلاثمائة دينار .

وفى ربيع الأول اشتد الأمر فى الزحام على الخبز لقلته فى الأسواق ؛ ووقع الحريق فى عدة مواضع بالقاهرة . وفى عاشره أُخرجت خيمة السلطان للسفر . وفى ثالث عشره انحل السعر قليلا ، ووُجد الخبز فى الأسواق . وفى نصفه ورد كتاب [علم[2] الدين] قيصر بأنه تسلم القدس من جرديك فى تاسعه ، وتسلم صليب الصلبوت ؛ وقُرِّر [أيضاً] إعادة جبيل من الفرنج . وفى سادس عشره قدم بدر الدين لؤلؤ بكتاب الأفضل بخبر جبيل ، وسبب قدوم ميمون ورفيقيه . وفيه نَزَع[3] السعر ، وبلغ كل مائة أردب إلى مائة وخمسة وسبعين دينارا ، وعظم ضجيج الناس من الجوع . وفى سابع عشريه وصل صليب الصلبوت من القدس ، وهو خشبة مرصعة بجواهر فى ذهب . وفى ثامن عشريه ولى زين الدين على بن يوسف الدمشقى قضاء القضاة بديار مصر ، عوضًا عن صدر الدين بن درباس ، بعناية جماعة من المماليك به ، وخُلع عليه . وفى سلخه قدم رسول الملك العادل .

وفى تاسع ربيع الآخر هدم المحتسب حوانيت وإصطبلاً كان صدر الدين بن درباس أنشأها[4] فى زيادة الجامع الأزهر بجوار داره ، ورفع صدرُ الدين نقض ذلك إلى داره . وقوى عزم السلطان على السفر ، وبعث بهرام يقترض له مالا من تجار الإسكندرية ؛ وطلب من قاضى القضاة زين الدين أن يقرضه مال الأيتام ، وكان يبلغ أربعة عشر ألف دينار ، فحملت

(١) انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ٨٧ ، فى Rec. Hist. Or. I.) .

(٢) انظر ابن شداد (النوادر السلطانية ، ص ٣٢٩ ، فى Rec. Hist. Or. III.) .

(٣) فى س نرع بغير ضبط . (٤) فى س انشاهم .

إلى الخزانة . وكتب السلطان خطه بذلك وأشهد عليه ، وأحال به على بيت المال ، وقرر استخراجه [منه] ، وأمر بحمله إلى القاضى . هذا وقد تأخر القرض الذى كان السلطان صلاح الدين أقرضه فى نوبة عكا ، وهو ثلاثون ألف دينار ، فلم يوف منه إلا يسيرا . وفى سادس عشره توجه جعفر بن شمس الخلافة إلى الفرنج لإعادة جبيل . وفى يوم الخميس تاسع عشره خرج السلطان إلى مخيمه ببركة الجب ، واستناب فى غيبته بهاء الدين قراقوش[1] ، ومعه ثلاثة عشر أميراً ، ونحو سبعمائة فارس . وتوجه مع السلطان سبعة وعشرون أميرا ، فى ألفى فارس وألف من الحلقة[2] .

وفى ثالث جمادى الأولى استقل السلطان بالمسير ، ونزل على دمشق فى تاسع جمادى الآخرة ، ورحل عنها فى ثامن عشريه بشفاعة عمه الملك العادل .

وفى تاسع رجب دخل الأفضل دمشق ، بعد أن تقرر الصلح بينه و بين أخيه الملك العزيز فى سادسه .

(١) فى س قراغوش .

(٢) كانت الجيوش النظامية فى مصر منذ الأيوبيين مكونة من ثلاث فئات من الغرباء والأجانب ، وأصلها كلها من الأرقاء ، وليس بينها صفات مشتركة سوى أنها من أسواق النخاسة ، بالقوقاز وآسيا الصغرى وشواطىء البحر الأسود . وأول تلك الفئات المماليك السلطانية ، وهـذه عبارة عن مشتريات السلطان وأجلابه — أوجلبانه — وما يتبقى عنده من مماليك من سبقه فى السلطنة . ومن هـذه الفئة المماليك الخاصكية ، وتتميز من بقية المماليك السلطانية بانضواء أفرادها وهم صغار فى خدمة السلطان ، فهو الذى يتولى تربيتهم وعتقهم ، ومرتبات المماليك السلطانية جميعاً من ديوان المفرد . أما الفئة الثانية من الجيوش النظامية فهى أجناد الحلقة ، وهـذه مكونة من محترفى الجندية ، من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم ، وهى أقرب الفئات إلى نظام الجيش الثابت فى العصور الحديثة ، ومرتباتها من ديوان الجيش . والفئة الثالثة مماليك الأمراء ، وهى شبه فرقة المماليك السلطانية ، غير أن أفرادها تابعون مباشرة لأمرائهم . ومنهم تتكون الوحدات الحربية التى يذهب بها الأمراء مع السلطان فى حروبه . هذا ولم يكن فى هـذه الجيوش من العناصر المصرية أو الشامية سوى ما يلحق الحملات الحربية عادة من الفقهاء والمقرئين والصناع والأتباع وزعر العامة .(G.-Demombynes : Op. cit. Pref. p. XXX et seq.)

وفى رابع شعبان دُقّت البشائر (١) بالقاهرة ، فرحاً بالصلح بين الأولاد الناصرية ، وزُيّنت الأسواق وفيه انحط السعر . وقدم السلطان الملك العزيز إلى القاهرة سلخ شعبان .

وفى سابع رمضان وصل الملك المعظم توران شاه وإخوته وعيالهم من دمشق ، والديوان فى ضائقة شديدة ، فعجزوا عن إقامة وظائفهم ومطابخهم وجراياتهم ، فنزلوا فى الدار العزيزية . ونزعت الأسعار فى المأكولات كلها . وفى تاسع عشر وصل عز الدين أسامة (٢) مفارقا للأفضل .

* * *

[سنة إحدى و تسعين و خمسمائة] . ودخلت سنة إحدى وتسعين ، والعزيز على عزم المسير إلى الشام . فاستشار الأفضل أصحابه ، فمنهم من أشار [٣٣ب] عليه بمكاتبة العزيز واسترضائه . وأشار الوزير [ابن الأثير] عليه بالاعتصار بعمه العادل ، واستنجاده على العزيز ، فأصغى إليه . وكثرت الإشاعة بقصد العزيز إقامة الخطبة فى دمشق باسمه ، وضرب السكة (٣) له . فانزعج الأفضل ، وخرج من دمشق فى رابع عشر جمادى الأولى ، وسار جريدة إلى عمه العادل ، فلقيه بصفين . فلما نزلا ألحف الأفضل فى المسألة له أن ينزل [العادل] عنده بدمشق ، ليجيره من أخيه العزيز ، فأجابه وأنزله بقلعة جعبر . ثم سار معه إلى دمشق أول جمادى الآخرة ، فوصل إليها فى تاسعه . ودخل الأفضل إلى حلب على البَرِّيّة (٤) ، مستصرخا بأخيه الملك الظاهر ، فتلقاه وحلف له على مساعدته . ثم رحل عنه إلى حماة ، فتلقاه ابن عمه الملك المنصور محمد بن المظفر ، وحلف له . ثم سار عنه إلى دمشق ، فدخلها فى ثالث عشره وبها العادل ؛ فأفضى إليه بأسراره . وعلم العادل اختلال أحوال الأفضل ، وسوء تدبيره وقبيح سيرته ، فانحرف

---

(١) كثيراً ما يذكر المؤرخون هـذه العبارة بعد إيراد حادث سار ، وكان يقوم بإعلان البشائر فرقة موسيقية بالقلعة ، ولعلها فرقة الكوسية المذكورة فى القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٩ ، ١٣ ؛ والبشائر أيضاً الرسائل التى كان السلاطين يبعثون بها إلى البلاد والأعمال ، فى الأعياد والمواسم والحوادث السارة ، وكانوا يخلقونها عادة بالطيب . (نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٥٠٩) . انظر أيضاً (Dozy : Supp. Dict. Ar. & Lane : Lexicon) ؛ وكذلك (Enc. Isl. Art. Bashir) .

(٢) فى س سامة . (٣) فى س الصكة ، وهى بالسين أفصح . (محيط المحيط) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى الصحراء الواقعة بين أراضى الفرات والشام (Blochet : Op. cit. p. 230. N. 1) .

عنه ونهاه فلم ينته ، إلا أنه مبالغ فى كرامة عمه ، حتى أنه ترك له السنجق[1] . وصار العادل يركب بالسنجق السلطانى فى كل يوم ، ويركب الأفضل فى خدمته .

فما هو إلا أن استقر ذلك إذ حدث بين الظاهر صاحب حلب وبين أخيه الأفضل وعمه العادل وحشة ، من أجل ميل الملك المنصور صاحب حماة إلى العادل . فسير [الظاهر] إلى أخيه العزيز يحرضه على قصد الشام ، ووعده بالمساعدة له على الأفضل ، فوافق ذلك غرضه ، وخرج من القاهرة[2] بعساكره فى ....[3]

فلما قارب [العزيز] دمشق كاتب الملك العادل الأمراء سرا واستمالهم ، وكان الأمراء الصلاحية قد وقع بينهم وبين الأمراء الأسدية تنافس ، لتقديم العزيز الصلاحية على الأسدية . فعملت حيل العادل حتى وقعت الوحشة بين الطائفتين ، ونفرت الأسدية من الملك العزيز . وكاتب [العادل] العزيز سرا يخوفه من الأسدية ، ويحثه على إبعادهم عنه ؛ وكاتب الأسدية ، يخوفهم من العزيز ويستميلهم إليه . فحاق ما مكره وتم له ما دبره ، وعزموا على مفارقة العزيز ، وحسنوا

(١) لفظ تركى يطلق فى الأصل على الرمح ، والمراد به هنا الراية التى تربط به ، والجمع سناجق . وهى رايات صفر صغار ، يحملها السنجقدار . ويظهر أن العادة كانت أن يركب السلطان فى المواكب زمن السلم بالسناجق فقط ، أما مواكب الحرب ، فكان مسير السلطان فيها بالأعلام ، ومنها السناجق ، ثم راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب ، عليها ألقابه واسمه وتسمى العصابة ، ثم راية عظيمة فى رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش . ويتولى أمر هذه الأعلام كلها الأمير علم . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٨ ؛ ج ٥ ، ص ٤٥٦ ، ٤٥٨) . هـذا وفى ركوب الأفضل فى خدمة العادل إشارة إلى استعداده للاعتراف بعمه ملكا بدلا من العزيز (Blochet : Op. cit. p. 230. N. 2) .

(٢) يعزو ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٧٩) ما حدث تلك السنة من الوحشة إلى عدم وثوق الظاهر صاحب حلب بحسن نية عمه العادل نحو أولاد أخيه . وابن الأثير معاصر معروف بالتحيز ، وهذه عبارته : « وكان أبلغ الأسباب فى ذلك وثوق الأفضل بالعادل ، وأنه بلغ من وثوقه أنه أدخله بلده وهو غائب عنه . ولقد أرسل إليه أخوه الظاهر غازى صاحب حلب يقول له : أخرج عمنا من بيننا فإنه لا يجيء علينا منه خير ، ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد . وأنا أعرف به منك وأقرب إليه ، فإنه عمى مثل ما هو عمك ، وأنا زوج ابنته . ولو علمت أنه يريد لنا خيراً لكنت أنا أولى به منك . فقال له الأفضل : أنت سيء الظن فى كل أحد . أى مصلحة لعمنا فى أن يؤذينا ؟ ... ... وهذا كان أبلغ الأسباب ، ولا يعلمها كل أحد » .

(٣) بياض فى س بقدر خمس كلمات ، وليس فى ب (٤١ أ) أى إشارة إليه .

للأكراد والمهرانية موافقتهم ، فانقادوا إليهم . وكان مقدّم أمراء الأكراد الأمير حسام الدين أبو الهيجاء[1] السمين ، فاجتمع بالأكراد مع الأسدية . واتفقوا بأجمعهم على مفارقة العزيز (١٢٤ ا) والانضمام إلى العادل والأفضل ، ومضايقة العزيز . و [عقدوا النية على] مكاتبة من بقى منهم بمصر ، أن يستقبلوا العزيز ويحولوا بينه وبين القاهرة ، فيصير [بذلك] بين الفريقين ، ويؤخذ باليد .

فلما كان فى عشية الرابع من شــوّال رحل الأمير أبو الهيجاء بالأكراد والمهرانية والأسدية ، وهم لابسون لامة الحرب ، ولحقوا بالعادل فسرّبهم ، لأنهم معظم الجيش . فلما أصبح نهار الخامس من شوّال رحل العزيز يريد مصر ، وهو متخوف من الأسدية المقيمين بالقاهرة . وكان نائبه بها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى فلم يتغير على العزيز ، ووصل إلى القاهرة فى ... ...[2] ... فاستقر بها .

ثم إن العادل خرج بالأفضل من دمشق ، ومعه العساكر يريد أخذ القاهرة ، لما داخله من الطمع فى العزيز . واتفق مع الأفضل على أن يكون للعادل ثلث البلاد المصرية ، ويكون ثلثاها للأفضل . فأجابه إلى ذلك ورحلا من دمشق ، وخرج [معهم] أيضاً [المنصور] صاحب حماة ، وعز الدين بن المقــدم ، وسابق[3] الدين [عثمان] بن الداية صاحب شَيْزَر[4] . واستخلف [الأفضــل] بدمشق [أخاه] الملك الظافر خضر [صاحب

(١) فى س أبا .   (٢) بياض فى س وليس فى ب (٤١ ب) إشارة ما إليه .

(٣) فى س سايق . انظر بعض أخباره بالحاشية التالية .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة تشتمل على كورة بالشام ، على حد قول ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٥٣) . وتقع قرب المعرة ، بينها وبين حماة يوم ، فى وسطها نهر الأرند (Orontes) . ولقلعة شيزر شهرة كبرى فى التاريخ ، فقد كانت مقر إمارة بنى منقذ الـكنانيين ، منذ ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) حتى سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) . وبها ولد أسامة بن منقذ الشاعر ، صاحب كتاب الاعتبار ، فى اليوم السابع والعشرين من شهر جمادى الثانية سنة ٤٨٨ هـ (٤ يوليه ١٠٩٥ م) ، أى قبل ابتداء الحروب الصليبية ببضع سنين . وقد خب أسامة فى تلك الحروب ووضع ، وكتابه الاعتبار المذكور ثبت لمذكرات طلية ضافية عنها ، وقد وصف فيها ابن منقذ تجاربه وأعماله . هذا وملاحظاته عن عادات الفرنج وأزيائهم زمن الحروب الصليبية فريدة فى بابها . (Hitti : Usāmah Ibn Munqidh) وقد انتهى ملك المناقذة لقلعة شيزر سنة ٥٥٢ هـ ، بوفاة آخر أمرائها تاج الدولة ناصر الدين محمد ، من جراء زلزال عنيف حاق بشيزر ، فنى فيه معظم أهل بيته أيضاً . وفى نفس العام استولت الإسماعيلية على شيزر ، ثم أخذها منهم =

بصرى[١]] . وانضم إليهم عز الدين جرديك النورى نائب القدس . فلما وصلوا تل[٢] العجول ، أخلع [الأفضل] على جميع الأسدية ، وعلى الأكراد الأفضلية ، وأعطاهم الكوسات[٣] . وسار الأفضل إلى القدس ، وتسلمه من جرديك ، وأعطاه بيسان وكوكب والجولان[٤] والمَنيحة[٥] . ثم سار العسكر حتى نزل على بلبيس ، وبها جموع الصلاحية والعزيزية ، ومقدمهم فخر الدين جهاركس على الصلاحية ، والأمير هكدرى بن يعلى الحيدى على طائفة الأكراد ، فنازلهم العادل والأفضل .

وكانت أيام زيادة ماء النيل ، والأسعار غالية والعلف متعذر . فبلغ العسكر الواصل الجهد ، وندم أكابرهم على ما كان منهم . هذا والعزيز يمد أهل بلبيس بالمراكب المشحونة بالرجال والعدد . فبلغ ذلك الأسدية ، فركبوا إلى المراكب ، وأخذوا بعضها وغرقوا بعضها . وأسروا خلقًا ، وسلم ثمانية مراكب عادت إلى القاهرة . واشتدّ الحصار على بلبيس حتى كادت تؤخذ ، وضاق العزيز بالقاهرة ، وقلت الأموال عنده . وكان محببًا إلى الرعية ، لما فيه من حسن السيرة ، وكثرة الكرم والرفق . فلما نازل العادل والأفضل (٣٤ ب) بلبيس احتاج إلى استخدام الرجال ، فلم يجد عنده مالا ، فبذل له الأغنياء جملة أموال ، فلم يقبلها .

= السلطان نور الدين محمود بن زنكى سنة ٥٦٤ هـ ، وأقام عليها مجد الدين أبا بكر بن الداية ، وهو أخوه من الرضاع ، ولهذا سمى بابن الداية . ومات مجد الدين سنة ٥٦٥ هـ ، وخلفه على شيزر أخوه شمس الدين على بن الداية ، ثم سابق الدين عثمان المذكور بالمتن . انظر (Enc. Isl. Art. Shaizar) ، وكذلك أبا شامة : كتاب الروضتين ، ص ٩٥ ، ١٤٩ — ١٥٠ ، فى Rec. Hist Or. IV. ، وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٢٠ .

(١) راجع (Lane-Poole : Saladin. Table II, in pocket) .

(٢) جهة بين عكا والمائدية (ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ١٥٣ ، حاشية ١ ، فى Rec. Hist. Or. III.) .

(٣) الكوسات من رسوم السلطنة وآلاته ، « وهى صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص » ، ويتولى ذلك الكوسى . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٩ ، ١٣) أما إعطاء الكوسات لهؤلاء الأمراء ، بعد خلع الأفضل عليهم ، فالراجح أن معناه أنه منح كلا منهم رتبة أمير طبلخاناه ، فيصبح من حق الواحدة منهم أن يكون له طبلخاناه خاصة تدق كوساتها على بابه . (انظر خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٣ ؛ وأيضاً (Quatremère : Maml. II. pp. 147.) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى قرية — وقيل جبل — من نواحى دمشق ، ثم من عمل الأردن . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٥٩) .

(٥) بغير ضبط فى س ، وهى قرية من قرى دمشق بالغوطة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٦٧٣) .

وكان القاضى الفاضل قد تَنَزَّه عن ملابسة الدولة ومخالطة أهلها ، واعتزل لما رأى من اختلال الأحوال .

وكان عبدالكريم بن على البيسانى يتولى الحكم والإشراف[١] فى البحيرة مدّة طويلة ، فحصل من ذلك مالا جمًّا . ثم حدثت بينه وبين أخيه القاضى الفاضل مشاجرة اقتضت اتضاع حاله عند الناس بعد احترامهم إياه ، فصرف عن عمله . وكان متزوجًا بامرأة موسرة من بنى ميسر[٢] ، فسكن بها فى ثغر الإسكندرية ، وأساء عشرتها ، لسوء خلق كان فيه . فسار أبوها إلى الإسكندرية ، وأثبت عند قاضيها ضرر ابنته . فمضى القاضى بنفسه إلى الدار ، فلم يقدر على فتح الباب الذى من داخله المرأة . فأمر بنقب الدار ، وأخرج المرأة وسلمها لأبيها ، وأعاد بناء النقب . فغضب عبد الكريم وسار إلى القاهرة ، وبذل للأمير فخر الدين جهاركس خمسة آلاف دينار مصرية ، ووعد خزانة الملك العزيز بأربعين ألف دينار على ولاية قضاء الإسكندرية ؛ وحمل ذلك بأجمعه إلى فخر الدين جهاركس . فأحضره جهاركس إلى العزيز ، وهو حينئذ فى غاية الضرورة إلى المال ، وقال : « هذه خزانة مال قد أتيتك بها من غير طلب ولا تعب » ، وعرّفه الخبر . فأطرق [العزيز] مليا ، ثم رفع رأسه وقال : « أعد المال إلى صاحبه ، وقل له إياك والعود إلى مثلها ، فما كل ملك يكون عادلا ، وعرِّفه أنى إذا قبلت هذا منه أكون قد بعت به أهل الإسكندرية ، وهذا لا أفعله أبداً » فلما سمع هذا جهاركس وجم ، وظهر فى وجهه التغير . فقال له العزيز : « أراك واجمًا ، أظنك أخذت على الوساطة شيئاً » . قال : « نعم ! خمسة آلاف دينار » . فأطرق العزيز ، ثم قال : « أعطاك مالا تنتفع به ، وأنا أعطيك فى قبالته

---

(١) اختصاص وظيفة الإشراف المقصود هنا مراقبة الأمور المالية عامة فى جهة معينة ، من قبل سلطان أو أمير ، ويسمى متوليها المشرف . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٦٤ — ٦٦) . انظر أيضاً (Supp. Dict. Ar & Blochet : Op. cit. p. 283. N. I.) . وبالقلقشندى (نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٤٥٤) وظيفة أخرى ، يسمى صاحبها المشرف أيضاً ، وإنما عمله الإشراف على المطبخ السلطانى ، ومراقبة الأطبخة به .

(٢) لعلها سليلة البيت الذى منه ابن ميسر ، صاحب كتاب تاريخ مصر ، الذى نشره (Henri Massé) . (انظر فهرس الكتب العربية بدار الكتب الملكية المصرية ، ج ٥ ، ص ١٧) .

ما تنتفع به مرّات عديدة » ؛ ثم وقع له بخطه إطلاق جهة طنبذة[١] ، ومغلها فى السنة سبعة آلاف دينار . فلامه أصحابه ، وألحوا عليه فى الاقتراض من القاضى الفاضل ، فاستدعاه إلى مجلسه ، بمنظرة من دار الوزارة كانت تشرف على الطريق . فعند ما عاين القاضى الفاضل استحيا منه ، ومضى إلى دار الحرم ، احترامًا له من مخاطبته فى القرض . فلم يزل الأمراء به حتى أخرجوه من (١٣٥) عند الحرم . فلما اجتمع بالفاضل قال له ، بعد أن أطنب فى الثناء عليه : « قد علمتَ أن الأمور قد ضاقت علىّ ، وقلت الأموال عندى ، وليس لى إلا حسن نظرك ، وإصلاح الأمر إما بمالك أو برأيك أو بنفسك » . فقال [القاضى الفاضل] : « جميع ما أنا فيه من نعمتكم ، ونحن نقدم أوّلا الرأى والحيلة ، ومتى احتيج إلى المال فهو فى يديك » .

واتفق أن العادل — لما اشتد على أصحابه الغلاء والضيق — استدعى القاضى الفاضل برسول قدم منه على العزيز ، فسيره إليه . وقد قيل إن العزيز لما جرى على المراكب التى جهزها إلى بلبيس ما جرى ، خاف على الملك أن يخرج من يده ، فسير إلى عمه فى السر يعرفه أنه قد أخطأ ، وأنه قد عزم على اللحاق ببلاد المغرب ، ويسأله الاحتفاظ بحرمه وأولاده . فرقّ له العادل ، واستدعى [القاضى] الفاضل[٢] . فلما قرب منه ركب إلى لقائه وأكرمه ، وما زالا حتى تقرر الأمر على أن الأسدية والأكراد يرجعون إلى خدمة العزيز ، من غير أن يؤاخذهم بشىء ، ويرد عليهم إقطاعاتهم ، ويحلف العزيز لهم ويحلفون له ؛ وأن يكون العادل مقيما بمصر عند العزيز ، ليقرّر قواعد ملكه ؛ وأن العزيز والأفضل يصطلحان ، ويستقر كل منهما على ما بيده . فعاد [القاضى] الفاضل ، وقد تقرّر الأمر على ما ذكر ، وحلف كل منهم لصاحبه على الوفاء .

وخرج العزيز من القاهرة إلى بلبيس ، فالتقاه عمه العادل وأخوه الأفضل ، ووقع الصلح التام فى الظاهر . ورحل الأفضل يريد الشام ، ومعه الأمير أبو الهيجاء السمين ،

(١) فى س طنبدى . (٢) فى س بالفاضل فقط .

وصار الساحل جميعه مع الأفضل . وعاد العزيز إلى القاهرة ، وصحبته عمه العادل ، فأنزله فى القصر من القاهرة . وأخذ [العادل] فى إصلاح أمور مصر ، والنظر فى ضياعها ورباعها ، وأظهر من محبة العزيز شيئًا زائدًا ؛ وصار إليه الأمر والنهى ، والحكم والتصرف ، فى سائر أمور الدولة ، جليلها وحقيرها . وصُرف القاضى محيى الدين محمد بن أبى عصرون عن قضاء مصر ، ووُلِّى زين الدين[1] أبو الحسن على بن يوسف بن عبد الله بن بُنْدَار[2] الدمشقى .

وفيها جدّد العزيز الصلح بينه وبين الفرنج . وفيها ورد كتاب ملك الروم[3] ، يتضمن أن كلمة الروم اجتمعت عليه ، وأنه أحسن إلى المسلمين وأمرهم بإقامة الجامع ، فأقيمت الصلاة فيه يوم الجمعة الصلاة مع الخطبة ، و [أنه] عمر جانبا منه كان انهدم من ماله ، فتمكن من فى القسطنطينية من المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة بها . والتمس [ملك الروم] الوصية بالبطرك والنصارى ، وأن يُمَكَّنوا من إخراج موتاهم بالشمع الموقد ، و إظهار شعائرهم بكنائسهم ، وأن يُفرج عن أسارى الروم بمصر . وفيها عزل زين الدين على بن يوسف [بن بندار] عن القضاء فى حادى عشر جمادى الأولى ، بمحيى الدين أبى حامد محمد بن عبد الله ابن هبة الله بن عصرون .

* * *

[سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة] . وأهلت سنة أثنتين وتسعين ، ففى أولها وصل الملك الأفضل إلى دمشق ، وتفرقت العساكر إلى بلادها . ولزم الأفضل الزهد ، وأقبل على العبادة ، وصارت أمور الدولة بأسرها مفوّضة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير ؛ فاختلت به الأحوال غاية الاختلال ، وكثر شاكوه . وضبط العادلُ أمور مملكة مصر ، وغ[...] الإقطاعات ، ووفر الإرتفاعات وعمال (٣٥ ب) الأعمال ، وثمّر الأموال ؛ وقرب إلى العز[...] الأمير عز الدين أسامة[4] ، فصار صاحب سره وحاجبه ، والواسطة بينه و بين عمه . واخت[...] الأمير صارم الدين قايماز النجمى بالعادل ، وصار صفوته .

---

(١) فى س أبى . (٢) مضبوط على سميه فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٦ ، فهرس الأ[...] ص ٣٥٢) ، وكذلك ضبط فى القاموس المحيط للفيروزابادى . (٣) دأب الأمبراطور إسحاق الثانى ع[...] المسلمين حتى آخر حكمه سنة ١١٩٥م . (انظر ص ١٢٠ ، حاشية ١) . (٤) فى س سا[...]

[وفى] يوم السبت ثانى عشر[١] [المحرم] رفعت يد ابن أبى عصرون وأيدى نوابه من الحكم ، وامر أن يعتزل فى بيته ، وان يخرج عن مصر ؛ فأغلق بابه ، وشرع فى تجهيز[٢] نفسه ، وتوسل فى إقامته . وفى سابع عشريه خلع على زين الدين على بن يوسف [بن بندار] ، وأعيـد إلى القضاء ، عوضا عن ابن أبى عصرون .

وفى أول صفر حَبَس الملك العزيز ناحية الخَرِبة[٣] من المنوفية على زاوية الأمام الشافعى بالجامع العتيق بمصر ، وفوض تدريسها إلى البهاء بن الجميزى .

وفى صفر وشهر ربيع [الأول] كثرت الطَّرْحَى من الأموات على الطرقات ، وزادت عدتهم بمصر والقاهرة فى كل يوم عن مائتى نفس ؛ و بقى بمصر من لم يوجد من يكفنه ، وأكثرهم يموت جوعا . وانتهى القمح إلى مائه وثمانين ديناراً المـائة أردب ، والخبز إلى ثلاثة أرطال بدرهم . وعمد الضعفاء إلى شراء الجرار ، وغَدَوا إلى البحر وترددوا إليه ، ليستقوا منه فى الجرار ، ويبيعوها بثمن درهم الجرة . وقد لا يجدون من تشتريها منهم فيصيحون : "من يتصدق علينا بثمن هذه الجرة ، ومن يشتريها منا بكسرة ؟" . وزاد السعر ، وضاق الخناق ، وهلك الضعفاء ، وفشا الموت ، وأكثره فى الجياع . وصارت الأقفاص التى يحمل فيها الطعام يحمل فيها الأموات ، ولا يقدر على النعوش إلا بالنوبة . وامتدت الأيدى إلى خطف ألواح الخبز ، — ويضرب من يهب، ويُشَجُّ رأسه ، ويسال دمه ، ولا ينتهى ولا يرمى ما فى يده مما خطفه . وعدم القمح إلا من جهة الشريف ابن ثعلب[٤] ، فإن مراكبه تتواصل وتبيع بشونه[٥] .

---

(١) فى س عسره . (٢) فى س تجهيره . (٣) بغير ضبط فى س ، واسمها أيضا العامره . (P. Omar Toussoun : Op. cit. T. I. 2. 297.).

(٤) كان ابن ثعلب من أغنياء الصعيد ، وكان محل إقامته غالبا بلدة دروت (ديروط؟)سربام بالصعيد ، وهى قرية كثيرة البساتين والنخل ، أنشأ فيها الشريف المذكور جامعا على فم ترعة المنهى ، وهى بحر يوسف الحالى. (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٧٠) . انظر أيضا المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٧١ ، ٢٠٥ ؛ و (P. Omar Toussoun : Auc. Branches Du Nil. P. 71). (٥) العبارة الآتية واردة فى ورقة منفصلة بين الصفحتين ٣٥ ب ، ٣٦ ا ، وليست لها علاقة بالمتن ، وقد أوردت هنا لوقوعها =

وورد[1] الخبر فى تاسع صفر بأن تابوت الملك الناصر صلاح الدين نُقل فى يوم عاشوراء ، من قلعة دمشق إلى تربة عملت له ، فكان يوماً مشهوداً . وفى تاسع عشريه قدم الملك الزاهر داود[2] [مجير الدين] صاحب البيرة ، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر ، وبهاء الدين بن شداد قاضى حلب ، فخرج العادل لتلقيهم ببركة الجب ، وقدم العماد الكاتب[3] [أيضاً] .

وورد الخبر بأن عربان الغرب هبطوا إلى البحيرة واشتروا القمح كل وَيْبَة بدينار ، وأن بلاد الغرب قد عدمت فيها الأقوات فى السنة الخالية ، وانقطعت عنها الأمطار السنة الحاضرة ، وزاد الجراد بالشام ، وعظم خطبه . وكثرت بمصر والقاهرة الأمراض الحادة والحميات المحرقة ، وزادت وأفرطت . وغلت الأشربة والسكر وعقاقير العطار ، و بيعت بطيخة بأربعة وعشرين درهما . وصار الفروج لا يقدر عليه ، وانتهى سعر القمح إلى مائتى دينار كل مائة أردب . وغلظ الأمر فى الغلاء ، وعدم القوت ، وكثرت السُّؤَّال ، وكثرت الموتى بالجوع ،

= قبالة الكلام السابق . ونصها :"قال القاضى الفاضل فى مياوماته : وفى يوم الإثنين السادس والعشرين من صفر ، يعنى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، ورد خبر من عدة ألسنة ، وتضمنته كتب ، واستبعده كل سامع ، ومحه كل فهم ، فذكرناه بتخيير الشعراء (كذا) . وهو أنه حضر إلى ديوان الخليفة ببغداد جماعة من حجاج خراسان ، وأخبروا بتواطىء الأخبار على ألسنة السفار ، بأن مولودا ولد فى بلغار ، كما يولد غيره من البشر ، وأنه ساعة وقوعه على الأرض ربا ونما نموا خارقا للعادة . وبعد ثلاثة أيام من ولادته تكلم بكلام محصل ، وخاطب كل قوم بلغتهم مدة ثلاثة أيام أخرى . وقال لما سئل عن كلامه قبل أوانه ، وقيل إنه ماتكلم فى المهد إلا عيسى المسيح ، فقال لى أسوة به ، ولاتتعجبوا منى ولا من خلق ، فأنى الذى يجىء بعدى يملك الدنيا وأقاليمها السبعة . وهذا آخر ما سمع منه ، ثم سكت . واستمر نموه إلى ثلاث سنين ، وبقى على حالته وصورته ، وهى صورة جميلة مرضية ، لا تقابله عين إلا ارتدت عنه ، وقد ستر وجهه عن العيون . وشعره أبيض كأنه شريط الفضة ، ولا يحمله جمل ولافيل . وقيل له وقت كلامه : مامركوبك ؟ ، فقال يخلق الله لى دابة تحملى . ويأكل لحوم الخيل والغنم ذبيحة ، ولايحمل ميتة ، ويشرب ابن الخيل ، وإذا قعد كان قاعدا فى طول الرجل الطويل" . هذا ولعل مياومات القاضى الفاضل هى المسماة بالمتجددات فى (Enc. Isl. Art. Al-kadi al-fadil).

(١و٣) هذه العبارة الواردة بين الرقين فى المتن موجودة بهامش الصفحة فى س ، غير أن المؤلف لم يشر كعادته إلى الموضع المناسب لها بالمتن ، على هذا الترتيب فى ب (١٤٢) . (٢) آخر أولاد صلاح الدين ، حسبما جاء فى (Lane Poole : Saladin. Table II. in pocket) ومولده سنة ٥٧٤ ﻫ . انظر أيضا أبا شامة (كتاب الروضتين ، ص١٠٦ ، فى Rec. Hist. Ar. V,) . (٣) انظر حاشية ٣

وخطف الخبز متى ظهر ، وشوهد من يستف التراب ، ومن يأكل الزبل . وازدحم الناس على الطير الذى يرمى من مطابخ السكر . وكثرت الأموات أيضاً بالإسكندرية ، وتزايد وجود الطرحى بها على الطرقات . وعدمت[١] المواساة ، وعظم هلاك الأغنياء والفقراء وانكشاف الأحوال . وشوهد من يبحث المزابل القديمة على قشور الترمس ، وعلى نقاضات الموائد وكناسات الآدُر[٢] ، ومن يقفل[٣] بابه ويموت ، ومن عمى من الجوع(١٣٦ ا)ويقف على الحوانيت ويقول : " أشمونى رائحة الخبز " .

واستُخدم رجل فى ديوان الزكاة ، وكتب خطه بمبلغ اثنين وخمسين ألف دينار ، لسنة واحدة من مال الزكاة . وجُعل الطواشى [بهاء الدين] قراقوش[٤] الشاد فى هذا المال ، وألا يتصرف فيه ، وأن يكون فى صندوق مودعاً للمهمات التى يؤمر بها . ووُقِّع لابن ثعلب [الشريف] الجعفرى بخبز[٥] مبلغه فى السنة ستون ألف دينار ، ودفع له كوس[٦] وعلم . وآل الأمر إلى وقوف وظيفة الدار العزيزية [عليه] من لحم وخبز ، وإلى أن يَتَمَحَّل فى بعض الأوقات لا كلها ، لبعض مايتبلغ به [أهلها[٧]] من خبز ، وكثر ضجيجهم وشكواهم فلم يسمع .

وفى شهر ربيع الآخر صُرف صارم الدين خطلج الغزى عن شد الأموال بالدواوين ، وسُلِّم الشدّ إلى بهاء الدين قراقوش[٨] ، مضافاً إلى شد الزكوات فكمل شد المال له . وفيه كثر الموت ، بحيث لم تبق دار إلا وفيها جنازة أو مناحة أو مريض . واشتد الأمر ، وغلت العقاقير ، وعدم الطبيب ، وصار من يوجد من الأطباء لا يُخلص إليه من شدّة الزحام . وصار أمر الموتى أكثر أشغال الأحياء ، وما ينقضى يوم إلا عن عدة جنائز من كل حارة . وعدم من يحفر ، وإذا وجد لم يعمق الحفر ، فلا يلبث الميت أن تظهر له رائحة . وصارت الجبانات لا يستطاع مقابلتها ، ولا زيارة قبورها . وأخذت الأسعار فى الانحلال .

---

(١) فى س عدم . (٢) فى س الأدر بغير ضبط ، وهو بالمد جمع دار . (القاموس المحيط للفيروزابادى) .

(٣) فى س يقول لبابه . (٤) فى س قراغش . (٥) فى س بحر . (٦) انظر ص ١٢٦ ، حاشية ٣ .

(٧) أضيف ما بين الأقواس بعد مراجعة (Blochet : Op, cit, P, 239) . (٨) فى س قراغش .

وفى جمادى الأولى تواترت الأخبار باختلال الحال بدمشق ، فوقع العزم على المسير إلى الشام . ووقع الشروع فى الإنفاق فى الحاشية ، فقبضوا شهراً واحداً . وكان قد استحق لهم أربعة عشر شهراً ، فإن المادة قصرت عن نفقة ذلك لهم ، فأحيل بعضهم على جهات . وامتنع الجاندارية[1] من قبض شهر ؛ وانهى ذلك إلى العزيز ، فكتب إلى خطلبا بإخراجهم إلى المخيم ومن تقاعد عن الخروج قيده الطواشى قراقوش[2] ، واستخدمه فى السور . فخرجوا بأنفس غير طيبه ، وألسنة بالشكوى معلنة . وكان المال الذى أنفق فى الحاشية قد اقترض من الأمراء ، وأحيل به على الجوالى لسنه ثلاث وتسعين . وخرج العزيز إلى المخيم ، وحرك الأمراء تحريكا قويا ، وسير الحجاب[3] إلى البلاد تحث الأجناد ، فتتابع خروج الناس . ووقع الرحيل من بركة (٣٦ ب) الجب فى ثامنة ، فرحل السلطان العادل والعزيز ، وجميع الأسدية والمماليك

وفشت الأمراض الحادة ، فما ينقضى وقت إلا عن عدد كثير من الجنائز . وغلت الأدوية ، وبلغ الفروج إلى ثلاثين درهما ، والبطيخة إلى مائة درهم . وورد الخبر بأن قوص وأعمالها فيها أمراض فاشية ، وأموات لا تُتَلاحق . وكثر الوباء والموت بالإسكندرية . وفى آخره انحلت الأسعار ، ونزلت الغلة إلى ثمانين ديناراً كل مائة أردب ، وأبيع الخبز سبعة أرطال بدرهم . وقل السؤال ، وارتفع الموتان ، بعد أن جُلب من قوص فراريج أبيع كل

---

(١) الجاندارية فئة من مماليك السلطان أو الأمير ، ومثلها الخاصكية . وهى مركبة من لفظين فارسيين أحدهما جان ومعناه سلاح ، والثانى دار ومعناه ممسك . أما الجمدار بالميم فوظف آخر ، وهو «الذى يتصدى إلباس السلطان أو الأمير ثيابه ، وأصله جاما دار ... من لفظين فارسيين ، أحدهما جاما ومعناه الثوب ، والثانى دار ومعناه ممسك» . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص٤٥٩) . هذا وموضوع وظيفة أمير جاندار السلطان «أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ، ويدخل أمامهم إلى الديوان ...» (نفس المرجع، ج٤، ص٢) . انظر أيضا (Enc. Isl. Art. Djandar) ، وما هنالك من المراجع .

(٢) فى س قراغش . (٣) مر ذكر وظيفة الحاجب أكثر من مرة ، غير أنه أرجىء شرحها إلى هنا ، وعمل صاحبها أن «ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه ، وتارة بمراجعة النائب إن كان ، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد ، وعرض الجند وماناسب ذلك...» (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٩) . انظر أيضا . (Enc. Isl. Art. Hadjib) ، وما بذيلها من المراجع .

عشرة فراريج بسبعة دنانير ، وهذا لم يسمع بمثله فى مصر قبل ذلك . وفيه نودى فى القاهرة ومصر بأن الشريف ابن ثعلب مقدم[١] على الحاج ، فليتجهز أرباب النِّيات .

وفى جمادى الآخرة وقف الحال فيما ينفق فى دار السلطان ، وفيما يصرف إلى عياله ، وفيما يقتات به أولاده . وأفضى الأمر إلى أن يؤخذ من الأسواق مالا يوزن له ثمن ، وما يُغصب من أربابه . وأفضى هذا إلى غلاء أسعار المأكولات ، فإن المتعيشين من أرباب الدكاكين يزيدون فى الأسعار العامة بقدر ما يؤخذ منهم للسلطان . فاقتضى ذلك النظر فى المكاسب الخبيثة : وضُمِّن باب المزر والخمر باثنى عشر ألف دينار ، وفُسح فى إظهاره و بيعه فى القاعات والحوانيت ، ولم يقدر أحد على إنكار ذلك . وصار ما يؤخذ من هذا السحت ينفق فى طعام السلطان وما يحتاج إليه ، وصار مال الثغور والجوالى إلى من لا يبالى من أين أخذ المال . وفيه وصل العادل والعزيز إلى الداروم ، وأمر باخراب حصنها ، فقُسِّم على الأمراء الجاندارية ؛ فشق على الناس تخريبه ، لما كان به من الرفق للمسافرين . وانتهى الملكان إلى دمشق — وقد استعد الأفضل للحرب فى أول شهر رجب — فحاصراها إلى أن ملكاها فى العشرين منه ، بعد عدّة حروب ، خان الأفضلَ فيها[٢] أمراؤه . فلما أخذا المدينة نزل الأفضل من القلعة إليهما ، فاستحيا العادل منه ، لأنه [هو] الذى حمل العزيز على ذلك ، ليوطىء لنفسه ، كما يأتى . وأمره [العادل][٣] أن يعود إلى القلعة ، فلم يزل بها أربعة أيام ، حتى بعث إليه العزيز أيبك فُطَيْس[٤] أمير جاندار ، وصارم الدين خطلج الأستادار ، فأخرجاه وأخرجا (١٣٧ ا) عياله وعيال أبيه[٥] . وأنزل [الأفضل] فى مكان ، وأوفى ما كان عليه من دين ، وما للحواشى من الجوامك . فبلغ ذلك نيفا وعشرين ألف دينار ، بيع فيها بَرْكه وجماله وبغاله ، وكتبه ومماليكه وسائر ماله ؛ فلم توف بما عليه ، وقسا عليه

---

(١) فى س مقدما . (٢) راجع تفصيلات تلك الخيانة فى ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ص ٨٠) . (٣) انظر نفس المرجع والجزء والصفحة المذكورة بالحاشية السابقة . (٤) مضبوط على منطوقه فى (Blochet : Op. cit P. 241) (٥) فى س ابيه ، وإذا صح هذا فقد اشترك العزيز فى إخراج أخوته ، والراجح أنهم من أم أخرى . (٦) البرك المتاع الخاص من ثياب وقماش ، وفى (Quatremére : Maml. I. I. P. 253) أمثلة عديدة لاستعمال هذا اللفظ ، منها "أخذ ما تخلف ... من مال ودواب وبرك" . انظر أيضا (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

أخوه وعمه لسوء حظه . ثم بعث إليه عمه العادل يأمره أن يسير إلى صرخد ، فلم يجد عنده من يسير بأهله ، حتى بعث إليه جمال الدين محاسن عشرة أوصلوه إلى صرخد. وأخذت[1] من الملك الظافر مظفر الدين خضر بصرى ، وأعطيت للملك العادل ؛ وأمر [الظافر] أن يسير إلى حلب ، فلحق بأخيه الظاهر [صاحبها] .

و يقال إن العادل كان قد قرّر مع الملك العزيز — وهو بالقاهرة — أن الملك العزيز إذا غلب أخاه الأفضل على دمشق وأخذها منه أن يقيم بها ، و يعود العادل إلى مصر نائباً عن العزيز فلما ملك العزيز دمشق ، وأخرج أخاه الأفضل منها ، انكشفت له مستورات مكائد عمه . فندم على ماقرّره معه ، و بعث إلى أخيه الأفضل سراً يعتذر إليه ، و يقول له : "لا تنزل عن ملك دمشق". فظن الأفضل هذا من أخيه خديعة ، وأعلم عمه العادل به ، فقامت قيامته ، وعتب [على] العزيز وأنّبه . فأنكر [العزيز] أن يكون صدر هـذا منه ، وحنق على أخيه الأفضل ، وأخرجه إلى صرخد على أقبح صورة[2] . واختفى الوزير ضياء الدين [ابن الأثير] الجزرى[3] خوفا من القتل ، ثم لحق بالموصل .

واستقر الأمر بدمشق للعزيز فى رابع عشر شعبان : فأظهر العدل ، وأبطل عدّة مكوس، ومنع[4] من استخدام أهل الذمة فى شيء من الخدم السلطانية ، وألزموا لبس الغيار[5] . ثم رحل عنها ليلة التاسع منه يريد القاهره ، واستخلف عمه [العادل] على دمشق ، وسار إلى القدس ،

---

(١) فى س واخد .

(٢) لابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، س ٨٠) رواية أخرى فى هذا الصدد ، ونصها : "... فجلس [العزيز] يوما فى مجلس شرابه ، فلما أخذت منه الخمر ، جرى على لسانه أنه يعيد البلد إلى الأفضل . فنقل ذلك إلى العادل فى وقته ، فحضر المجلس فى ساعته ، والعزيز سكران . فلم يزل به حتى سلم البلد إليه ، وخرج منه ، وعاد إلى مصر . وسار الأفضل إلى صرخد . وكان العادل يذكر أن الأفضل سعى فى قتله ، فلهذا أخذ البلد منه ، وكان الأفضل ينكر ذلك ويتبرأ منه ، والله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون". (٣) فى س الجررى بغير ضبط ، والنسبة إلى بلدة جزيرة ابن عمر ، على الفرات ، وهى موطن آل الأثير . (Enc. Isl. Art. Ibn al-Athfr) .

(٤و٥) العبارة التى بين الرقين واردة فى س ، ب (١٤٥) ، غير أنها لاتوجد فى ترجمة : (Blochet Op. cit. P. 242) أما الغيار فهو الملبوس الذى تميز به أهل الذمة عن المسلمين فى القرون الوسطى ، ومثله الزنار . (محيط المحيط ، و Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

فملكها من أبى الهيجاء [السمين] ، وسلمها إلى الأمير شمس الدين سنقر الكبير ، وسار أبو الهيجاء[١] إلى بغداد .

ووصل العزيز إلى القاهرة يوم الخميس رابع شهر رمضان ، فصارت دمشق وأعمالها إقطاعا للملك العادل ، وليس للعزيز بها سوى الخطبة والسكة فقط . وفى ثامن عشرة ركب العزيز إلى مقياس مصر وخلّقه ، ونودى فيه بزيادة ثلاثة أصابع من الذراع السابعة عشر[٢] . وفى العشرين منه فُتح سد الخليج ، فركب العزيز لذلك ، وكثر المتفرّجون وازدحم الغوغاء ، وحملوا العصىّ وتراجموا بالحجارة ، وقُلعت أعين ، وخُطفت مناديل . وكانت(٣٧ ب)العادة جارية بأن يوقر شهر رمضان من اعتصار الخمر ، وألا يجهر بشراء العنب والجرار ، ولايحدّث نفسه أحد بفسخ الحرمة وهتك الستر . وفى هذا الشهر غلا سعر الأعناب لكثرة العصير منها ، وتظاهر به أربابه لتحكير تضمينه السلطانى ، واستيفاء رسمه بأيدى مستخدميه . و بلغ ضمانه سبعة عشر ألف دينار ، وحصل منه شىء حمل إلى العزيز فصنع به آلات الشرب . وفيه كثر اجتماع النساء والرجال على الخليج — لما فتح — ، وعلى ساحل مصر ، وتلوّث[٣] النيل بمعاصى قبيحة . واستمر جلوس العزيز للمظالم فى يومى الإثنين والخميس .

وفى ثانى شوّال كان النَّوْرُوز[٤] ، فجرى الأمر فيه على العادة من رش الماء .

---

(١) جاء فى سبط الجوزى : مرآة الزمان ، ص ٥٩٣ ، إن أبا الهيجاء هذا كان مفرط السمن ، وكان رأسه صغيراً وبطنه كبيرا بحيث كان على رقبة البغله فلما رآه أهل بغداد افت سمه أنظار الحرافين هناك ، وصنعوا قدورا تشبهه فى صخامتها ، وأسموها أبا الهيجاء ، ورآها هو فى أسواق بغداد ، فضحك منها .

(٢) فى س عشر . (٣) فى س وتلقيب . (٤) يقول المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ح١، ص٤٩٣ — ٤٩٤) عن النوروز ما نصه :"وكان النوروز القبطى ... ... من جملة المواسم [بمصر] ، فتعطل فيه الأسواق ، ويقل فيه سعى الناس فى الطرقات ، وتفرق فيه الكسوة لرجال أهل الدولة وأولادهم ونسائهم ، ... ... وقال القاضى الفاضل فى تعليق المتجددات لسنة أربع وثمانين وخمسمائة ، يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النوروز القبطى ، وهو مستهل توت ، وتوت أول سنتهم . وقد كان بمصر فى الأيام الماضية والدولة الخالية ، يعنى دولة الخلفاء الفاطميين ، من مواسم بطالاتهم ... ... فكانت المنكرات ظاهرة فيه ، والفواحش صريحة فى يومه . ويركب فيه أمير موسوم بأمير النوروز ، ومعه جمع كثير ، ويتسلط على الناس فى طلب رسم رتبه على دور الأكابر بالجمل الكبار ، ...... ويقنع بالميسور من الهبات . ويتجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة ، وبأيديهم الملاهى . وترتفع =

واستجد[1] فيه التراجم بالبيض والتصافع بالأنطاع[2] . وتوالت زيادة النيل ؛ فأفحش الناس فى إظهار المنكرات ، ولم ينههم أحد . وفيه وقفت وجوه المال ، وانقطعت جباية الديوان بمصر ، وأحيل على الجهات بأضعاف ما فيها ، و بقيت وجوه قصرت الأيدى عن استخراجها . وانتمى[3] العاملون[4] إلى من حماهم ، فلم يجسر صاحب[5] الديوان على ذكر من يحميهم ، فضلا عن أخذ الحق منهم ، ورفع يده عن حماية من حماه . وآل الأمر إلى أن صار ما يقام برسم طوارئ السلطان وراتب داره من ضمان الخمر والمزر . وكانت هذه سنة ما تقدمها أفحش منها ، ولا عُلم أن همة من الهمم القاصرة انحطت إلى مثلها .

وفى رابع عشرة خرج الشريف ابن ثعلب سائراً بالحاج ، وخيَّم على سقاية رَيْدَان[6] . وكثر

= الأصوات ، وتشرب الخمر والمزر شربا ظاهراً بينهم ، وفى الطرقات . ويتراش الناس بالماء ، وبالماء والخمر ، وبالماء ممزوجا بالأقذار . فإن غلط مستور وخرج من داره لقيه من يرشه ، ويفسد ثيابه ، ويستخف بحرمته . فإما فدى نفسه ، وإما فضح . ولم يجر (س ٤٩٤) الحال فى هذا النوروز على هذا ، ولكن قد رش الماء فى الحارات ، وأحيا المنكر فى الدور أرباب الحسارات . وقال [القاضى الفاضل] فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة : وجرى الأمر فى النوروز على العادة من رش الماء ، واستجد فيه هذا العام التراجم بالبيض والتصافع بالأنطاع ، وانقطع الناس عن التصرف ، ومن ظفر به فى الطريق رش بمياه نجسة ، وخرّق به . قال مؤلفه (المقريزى) رحمه الله تعالى ، إن أول من اتخذ النوروز جمشيد ، ويقال فى اسمه أيضاً جمشاد ، أحد ملوك الفرس الأول ، ومعناه اليوم الجديد ، وللفرس فيه آراء وأعمال على مصطلحهم ، غير أنه لا يقع فى هذا اليوم" ، الذى اتخذه القبط فى مصر عيداً لهم ، بل يقع يوم الاعتدال الربيعى ، أى ٢١ مارس من كل سنة . انظر (Blochet : Op. cit. p. 243. N. I.) .

(١ و ٢) العبارة التى بين الرقمين موجودة فى س ، ب (ص ٤٠ ا) ، لكنها غير واردة فى ترجمة (Blochet : Op. cit. p. 243) . (٣) فى س أعت . (٤) جمع عامل ، وهو من يتولى تنظيم الحسابات الديوانية وكتاباتها . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٦) . وكان هذا اللقب يطلق فى الأصل على أمير العمل أو الجهة ، ثم نقله العرف إلى هذا الكاتب ، وخصه به دون غيره . ويسمى المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٠٥) القائمين بتلك الوظيفة بالمعاملين . (٥) حلت هذه التسمية محل لقب " متولى الديوان" . (انظر ص ٥٣ حاشية ٤ ؛ وكذلك القلقشندى نفس المرجع والجزء والصفحة المذكورة بالحاشية السابقة ؛ (G. - Demombynes. Pref. P. LXXII. N. I.,) .

(٦) جهة قرب العباسية الحالية بالقاهرة ، وقد ذكر ياقوت (معجم البلدان ج ٣ ، ص ١٠٠) أنها بين القاهرة وبلبيس . وكانت فى الأصل بستاناً لريدان الصقلبى ، أحد خدام الخليفة العزيز بالله الفاطمى . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٣٩) . وعرفت فيما بعد بالريدانية ، وعندها انهزم آخر جيوش المماليك الجبلية سنة ٩٢٢ هـ أمام الجيش العثمانى ، بقيادة السلطان سليم الأول وصارت مصر بعد ذلك ولاية عثمانية .

القتل بالقاهرة بأيدى السكارى ، وأعلن المنكر بها ، فلم تنسلخ ليلة إلا عن جراح وقتل بين المعر بدين . وكثر ذلك حتى خطفت الأمتعة والمآكل من الأسواق ، نهارًا نادرًا وليلا راتبًا واستقرت المظالم للطواشى قراقوش[1] ، يجلس فيها بظاهر الدار السلطانية ؛ وحماية الديوان وشدّ الأموال لفخر الدين جهاركس ، مع انقباضه عنها ؛ وأستادارية الدار لصارم الدين خطلج .

وفى تاسع عشره كسر بحر أبى المنجا ، وباشر العزيز كسره . وزاد النيل فيه أصبعا ، وهى الأصبع الثامنة عشرة[2] ، من ثمانى عشرة ذراعا ؛ وهذا الحديسى عند أهل مصر اللجة الكبرى .

وفى ثانى عشريه رحل الحاج . وتجدد ما كان قد درس ذكره ونسى حكمه فى (١٣٨ ا) مصر ، منذ عهد الخليفة الحافظ لدين الله ، من سنة أربعين وخمسمائة ، من الرقايع[3] التى كان القبط يختلقونها ، ويتوصلون بها إلى المصادرات ، وخراب البيوت ، وعمارة الحبوس ، وإساءة السمعة عن سلطان الوقت . فأجمع ابن وهيب وكاتب نصرانى وغيرهما على أوراق عُملت ، وانتُدب الأسعد بن مماتى والشادّ للكشف والرفع إلى فخر الدين جهاركس .

وفى ذى القعدة كثر وثوب السكارى بمن يلقونه ليلا ، وضربهم إياه بالسكاكين فلا تخلو ليلة من قتيل أو قتيلين . ولم يؤخذ لأحد بثأر ، ولا وقع كشف عن مقتول منهم . ولا تمكن والى القاهرة من منعهم . ووُجد فى الخليج ستة نفر قتلى مربطين ، فلم يسأل عنهم ، ولا وقع إنكار لأمرهم .

وفى ذى الحجة عزم العزيز على نقض الأهرام ، ونقْل حجارتها إلى سور دمياط . فقيل له إن المؤونة[4] تعظم فى هدمها ، والفائدة تقل من حجرها . فانتقل رأيه من الهرمين إلى الهرم الصغير — وهو مبنى بالحجارة الصوان — فشرع[5] فى هدمه . وفيه سار العزيز إلى الإسكندرية ، واستخلف بالقاهرة بهاء الدين قراقوش ، وفخر الدين جهاركس .

---

(١) فى س قراغش . (٢) فى س عشر . (٣) جمع رقيعة ، وهى الرقعة ترفع إلى السلطان لتبليغ ظلامة أو غيرها . (محيط المحيط و Dozy : Supp Dict. Ar.) . (٤) فى س المونة . (٥) اقتدى السلطان العزيز عثمان بأبيه صلاح الدين فى هدم الأهرام واستخدام أحجارها فى بناء الأسوار فى أيام =

وتوفى فى هذه السنة القاضى الأشرف أبو المكارم الحسن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحباب قاضى الإسكندرية . وولى عوضه الفقيه أبو القاسم شرف الدين عبد الرحمن ابن سلامه فى سابع عشرى شوال . ومولد ابن الحباب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ، وأقام حاكما بالإسكندرية ثمانيا وعشرين سنة . وكان كريم النفس صحيح المودة ، وطالت مدته فى الحكم بالإسكندرية ، من سنة أربع وستين إلى أن مات بها فى ثالث جمادى الآخره . وفى خامس ذى الحجة مات القاضى الرشيد[١] ... ... ابن سناء الملك . قال القاضى الفاضل فيه : " ونعم الصاحب الذى لا تخلفه الأيام ، ولا يعرف له نظير من الأقوام : أمانة سمينة ، وعقيدة ود متينة ، ومحاسن ليست بواحدة ، ومساع فى نفع المعارف جاهده . وكان حافظا لكتاب الله ، مشتغلا بالعلوم الأدبية ، كثير الصدقات ، نفعه الله ، والأعمال الصالحات ، عرّفه الله بركاتها " .

وفيها حج بالناس الشريف ابن ثعلب . وخرجت المراكب الحربية من مصر ، فظفروا ببطس للفرنج ، وفيها أموال فغنموها . وفيها بنى الأمير فخر الدين جهاركس قيساريته[٢] بالقاهرة . وفيها زلزلت مصر . ومات العلم عبد الله بن على بن عثمان بن يوسف المخزومى ، يوم الجمعه حادى عشر جمادى الأولى ؛ ومولده فى شهر رمضان سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، [وقد] قرأ على ابن برى ، وله شعر .

= صلاح الدين هدمت بعض أهرام الجيزة ، على يد بهاء الدين قراقوش ، وبنيت بأحجارها قلعة الجبل ، والسور المحيط بالقاهرة ومصر ، وكذلك فعل العزيز لبناء سور دمياط ، كما فى المتن . غير أن المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١١٤ و ١٢١) يقول إن العزيز أراد نقض الهرم الصغير لإخراج ما تحته من كنوز ، وأقام عماله على ذلك شهوراً ، ثم تركوه عن عجز . هذا وليس بالفصل الوارد بالمواعظ والاعتبار عن الأهرام إشارة إلى أن العزيز أراد بناء سور دمياط من أحجارها . (نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١١١ — ١٢٢) .

(١) بياض فى س . (٢) يذكر المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٨٧) هذه القيسارية ، ويقول : "رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون لم نر فى شىء من البلاد مثلها ، فى حسنها وعظمها وإحكام بنائها . [وقد] بنى [فخر الدين] بأعلاها مسجداً كبيراً ، وربعاً معلقا " .

* * *

[سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة] . ودخلت سنة ثلاث وتسعين ، وفيها أقيمت الخطبة للعزيز بحلب ، وضربت السكة باسمه ، بصلح وقع بين العزيز وبين أخيه الظاهر . [وقد] تولاه القاضى بهاء الدين [أبو المحاسن][1] بن شداد ، وغرس الدين قلج ، قدما من حلب إلى العزيز بالقاهرة بهدايا ، فانعقد الصلح بين الأخوين على ذلك . وعادا إلى الظاهر ، فخطب للعزيز فى شهر ربيع الأول ، (٣٨ ب) وضربت[2] السكة باسمه . وفيه تحرك الفرنج على بلاد الإسلام ، فخرج العادل من دمشق ، وسير جيشا إلى بيروت لهدم ربضها . .

وفيها مات الملك العزيز ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن نجم الدين أيوب ملك اليمن فى شوال ، وقام من بعده بمملكة اليمن ابنه الملك المعز فتح الدين أبو الفداء إسماعيل .

وفيها فتح الملك العادل صاحب دمشق يافا عنوة ، وغنم وأسر كثيراً ، يقال إنهم سبعة آلاف نفس ، ما بين ذكر وأنثى . وفيها سار [العادل] من يافا إلى صيداء وبيروت[3] فأخربهما ونهبت بيروت ، وفر من كان بها . وبعث [العادل إلى الملك العزيز يستنجده ، فسير إليه عسكراً خرج من القاهرة أول شوال ، وسار إلى بلبيس . ثم بدا للعزيز [أمر] ، ففرق العسكر ولم يسر

* * *

[سنة أربع وتسعين وخمسمائة] ودخلت سنة أربع وتسعين ، فانتشر من وصل فى البحر من الفرنج ببلاد الساحل[4] ، وملكوا قلعة بيروت ، وقتلوا عدة من المسلمين

---

(١) موضع مابين القوسين بياض فى س واسم القاضى وألقابه : " الإمام العالم بهاء الدين قاضى قضاة المسلمين ، مرتضى أمير المؤمنين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد ، قاضى حلب المحروسة ". وهو مؤلف كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، المذكور بحواشى هذا الجزء . انظر (Rec. Hist. III. P. 3.)

(٢) فى س وضرب . (٣) عبارة المقريزى عن هذه الحوادث مختصرة إلى حد مخل ، فراجع ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٨٤) .

(٤) يوجد فى (Blochet : Op. cit. P. 246. N 1.) ترجمة لنبذة من كتاب سير الآباء البطارقة عن وصول تلك المراكب الفرنجية إلى الشام ، وحوادث الملك العادل مع جيوشها .

فى أطراف بلاد القدس ، وأسروا وغنموا شيئا كثيرا . فبعث الملك العادل إلى القاهرة يطلب من العزيز نجدة ، فسارت إليه العساكر من مصر ، ومن القدس وغيرها . ثم خرج الملك العزيز بنفسه ، ومعه سائر عساكر مصر لقتال الفرنج ، فنزل على الرملة فى سادس عشرى صفر ، وقَدِم الصلاحية والأسدية ، وعليهم الأمير شمس الدين سنقر الدَّوَادَار[١] ، ومَيَرَا سُنْقُر وعلاء الدين شَقِير[٢] ، وعدّة من الأكراد ؛ فلحقوا العادل وهو على تِبْنِين[٣] . وسار العزيز فى أثرهم ، فكانت بينهم و بين الفرنج وقائع شهيرة ، آلت إلى رحيل الفرنج إلى صور . وركب العادل والعزيز أقفيتهم . فقتلوا منهم . وترك العزيز العساكر عند العادل ، ورجع إلى القاهرة فى ثامن جمادى الآخرة ، قبل انفصال الحال مع الفرنج ، من أجل أن ميمون القصرى ، وأسامة[٤] وسرا سنقر ، والحجاف ، وابن المشطوب ، كانوا قد عزموا على[٥] قتله فلما بلغه ذلك رحل إلى القاهرة فخرج الناس إلى لقائه ، وكان يوما مشهودا . ووقعت الهدنة بين العادل و بين العادل و بين الفرنج لمدّة ثلاث سنين ، وعاد العادل إلى دمشق .

وفى رجب تجدد للعادل والعزيز رأى فى تخريب عسقلان ، وتعفية جدرانها وهدم بنيانها . فَنَدب من القدس جماعة لتغليقها[٦] وحطَّ أبرجة سورها ؛ فتلفت مدينة لا مثل

---

(١) الدوادار اسم فارسى مركب من لفظين ، أحدهما عربى وهو الدواة . والثانى دار ومعناه ممسك ، وصاحب وظيفة الدوادارية هو الذى يحمل دواة السلطان [أو الأمير] أو غيرهما ، ويتولى أمرها مع مايلحق ذلك من المهمات ، نحو " تبليغ الرسائل عن السلطان أو الأمير وإبلاغ عامة الأمور ، وتقديم القصص إليه ، والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف ، وتقديم البريد ، ... ... " . (القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤ ، ص ١٩ ؛ ح ٥ ، ص ٤٦٢ ؛ والمقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٢٢) . انظر أيضا (Enc. Isl. Art. Dawatdar) .

(٢) ضبطت هذه الأسماء على منطوقها فى Blochet : Op. cit. P. 247 وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ص ٨٩ ، فى (Rec. Hist. Or. II. I.) .

(٣) بعير ضبط فى س ، وهى بلدة فى جبال بنى عامر المطلة على بانياس ، بين دمشق وصور . (ياقوت: معجم البلدان ج ١ ، ص ٨٢٤) .

(٤) فى س سامة ، وبقية الأسماء مضبوطة عن المرجعين المذكورين بحاشية ٣ .

(٥) اعتمد المقريزى فى حوادث هذه المؤامرة على ابن الأثير مع تعديل طفيف. (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٨٤) .

(٦) فى س " لعلقها وحط ابرجه سورها فتلفت مدينة ... " وفى محيط المحيط : الغلق عند البنائين حجر يجعل فى وسط الدماك يسكر به ، فلعل المقصود هنا أن المندوبين هدموا الأسوار بشد أغلاقها .

لها ، وثغر لا نظير له فى الثغور ، وعمارة لا تخلف الأيام ما تلف بها ، لعجز الملوك عن ممانعة الفرنج بالسلاح ، واضطرارهم إلى هدم المدن وتعفية رسومها .

وفى شعبان ركب قاضى القضاة صدر الدين بن درباس لرُقبة الهلال ، (٣٩ ا) وكلف الشهود ما بين شمعتين كل شاهد إلى شمعة . فخرجوا بالشموع ، وقد كثر الجمع والشمع ، واحتفل الموكب ، وثقلت على الشهود الوطأة . وفيه أمر الملك العزيز بمنع البناء فى المواضع التى كان الأمراء قد شرعوا فى بنائها على النيل ، واستولوا فيها على الساحل ، فخرّج الجاندارية وألزموا كل من حفر أساسا بردمه ، فامتثل الأمر .

وفى شهر رمضان أمر العزيز بقطع أشجار بستان البغدادية تجاه [قصر[1]] اللؤلوة ، وجعله ميدانا . وفيه كثر التظاهر بعصير العنب واستباحة الحرمات ، وعدم المُنْكِر لهذا الأمر ، فغلا العنب حتى بلغ أربعة أرطال بدرهم . وفيه قصر مدّ النيل ، وارتفعت الأسعار ، وعدمت الأرزاق من جانب الديوان ، وتعذرت وجوه المال حتى عم المرتزقة الحرمان . واستبيح ما كان محظورا من فتح أبواب التأويلات ، وأخذ ما بأيدى الناس بالمصادرات : فأخذ خط شخص يعرف بابن خالد بمبلغ ألف دينار ، وصودر جماعة [آخرون] ، وصار الإنفاق فى السماط السلطانى فى هذه الوجوه .

وفى يوم عيد الفطر أقيمت سُنّة العيد بظاهر البلد ، وحضر العزيز الصلاة والخطبة ، وعمّ الأمراء وأرباب العمائم بخلعه ، وقدم سماط توسعت الهمة فيه . وفى ثالث عشره وفى النيل ستة عشر ذراعا ؛ فركب العزيز فى سادس عشر لتخليق المقياس ؛ وفتح الخليج فى ثامن عشره ، وتظاهر الناس فى هذه الأيام بالمنكرات من غير منكِر . وفى ثالث عشريه كان النوروز ، فجرى الرسم فى لعبه على العادة

(١) أحد مبانى الفاطميين ، واسمه أيضاً منظرة اللؤلؤة ، وموقعه على الخليج بالقرب من القنطرة ، ويشرف من شرقيه على البستان الكافورى ، ويطل من غربيه على الخليج والبساتين إلى نهر النيل . ومع أن البستان البغدادى من هذه البساتين ، على سبيل الترجيح ، فإن المقريزى لم يذكره فى باب بساتين القاهرة (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٦٧ ، ٤٨٧ ؛ ج ٢ ، ص ٤٢٧) .

وفى يوم السبت سابع عشر ذى القعدة قُتل ابن مرزوق بالقاهرة ، قتله ابن المنوفى قاضى بلبيس غيلة ، بدار سكنها بالفهادين[1] ، وحفر له فيها ودفنه ، ومملوكا صغيرا معه ، و بلط فوقه ، وجعل عليه شعيرا . فشنق ابن المنوفى ، بعد ما طيف به على جمل مصر والقاهرة .

وفى هذه السنة توجه العادل من دمشق إلى مدينة ماردين ، ونازلها وأخذ ربضها . وفيها خرج الملك الكامل محمد بن العادل من حران ، وقاتل عسكر المواصلة . وفيها غار الفرنج ، ونهبوا وأسروا خلقا ، وانتهوا إلى عكا . فعاد العادل إلى دمشق فى رمضان ، ثم خرج بعد شهر إلى الشرق يريد ماردين . وفيها ادعى [معز[2] الدين إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين] ملك اليمن الإلٰهية نصف نهار ، وكتب كتابا وأرخه من مقر الإلٰهية . رجع عن ذلك ، وادعى الخلافة ، وزعم أنه من بنى أمية ، ودعا لنفسه فى سائر مملكته بالخلافة ، وقطع الدعاء من الخطبة لبنى العباس ، ولبس ثيابا خضرا وعمائم خضرا مذهبه . وأكره من كان فى مملكته من [أهل] الذمة على الإسلام ، وخطب بنفسه ، وعزم (٣٩ ب) على قصد مكة ، وجهز من بنى له بها دارا ، فأسرهم الشريف أبوعزيز قتادة .

* * *

[سنة خمس وتسعين وخمسمائة] . ودخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، والعادل مضايق مدينة ماردين ، والمعز صاحب اليمن قد تجهز يريد مكة ، والعزيز صاحب مصر قد سار إلى الإسكندرية ، من آخر ذى الحجة . فتصيد [العزيز] إلى سابع المحرم ، وركض خلف ذئب فسقط عن فرسه ، ثم ركب وقد حم ، فدخل القاهرة يوم عاشوراء[3] فلم يزل لما

(١) يقع خط الفهادين بالقاهرة فيما بين الجوانية والمناخ (كذا) . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٦) .

(٢) فى س "وفيها ادعى المعز بن العزيز" . ويظهر أن المقريزى خلط فى هذه التسمية ، فليس فى ملوك اليمن ، حسبما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٠) من تسمى بهذا الاسم ، ويرجع هذا الخلط إلى أن المعز هذا كان يسمى العزيز إسماعيل . (Lane-Poole : Muh. Dyns. pp. 79, 98) . وتولى المعز هذا ملك اليمن بعد وفاة أبيه بزبيد ، سنة ٥٩٣ هـ .

(٣) توجد فى (Blochet: Op. cit. p. 249. N. 1) عدة روايات من مراجع مختلفة عن سبب موت العزيز .

به حتى مات ، منتصف ليلة السابع والعشرين منه ، ودفن بجوار قبر الشافعى ، رحمة الله عليه . وكان عمره سبعا وعشرين سنة وأشهرا ، ومدة ملكه ست سنين تنقص شهرا وستة أيام . وكان ملكا كريما ، عادلا رحيما ، حسن الأخلاق شجاعا ، سريع الانقياد مفرط السخاء . سمع الحديث من السلفى ، وابن عوف ، وابن برى ، وحدث . وكانت الرعية تحبه محبة كثيرة وكان يعطى العشرة آلاف دينار ، و يعمل سماطا عظيما يجمع الناس لأكله ، فإذا جلسوا للأكل كره منهم أكله ولا يطيب له ذلك ، وهذا من غرائب الأخلاق[١] .

وفيها[٢] عظمت الفتنة فى عسكر غياث الدين محمد [بن بهاء الدين سام] ملك الغورية[٣] ، وسببها أن الإمام فخر الدين محمد بن عمران الرازى [الفقيه الشافعى المشهور] ، كان قد بالغ غياث الدين فى إكرامه ، و بنى له مدرسة بقرب جامع هراة ، ومعظم أهلها

---

(١) يوجد فى (Blochet: Op. cit pp 250. N. 2) تعليل لطيف لتلك الناحية من خلق العزيز، وهو أنه كان يكره بعثرة الأموال العامة فى أغراض خاصة .

(٢) بقية الأخبار الواردة هنا تحت هذه السنة منقولة بتصرف طفيف عن ابن الأثير . (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٩٩ — ١٠١) أو عن مرجع آخر مصدره ابن الأثير .

(٣) انظر ص ٨٠ ؛ تقع بلاد الغور الجبلية بأفغانستان بين هراة وغزنة ، وعاصمتها فيروزكوه . وكانت مملكة إسلامية، مستقلة بشؤونها منذ أوائل القرن الخامس الهجرى ، ثم فتحها محمود الغزنوى سنة ٤١١ هـ ، واستمرت تابعة للدولة الغزنوية ، وصاهر ملوكها سلاطينهم حتى سنة ٥٣٦ هـ ، حين قضى الغز التركمان على الدولتين الغزنوية والغورية معا . ثم جاء غياث الدين بن سام المذكور ، فأسس ملكا جديداً على أنقاض الدولتين ، من سنة ٥٦٩ هـ ، وعاونه فى ذلك أخوه معز الدين . ومات غياث الدين سنة ٥٩٩ هـ ، فخلفه معز الدين ، حتى قتل غيلة سنة ٦٠٢ هـ : ولم يطل عمر الدولة الغورية بعده ، بل دالت أجزاؤها للأمراء والقواد ، حتى أزالها السلطان خوارزم شاه . (Lane-Pole: Muh. Dyns. pp. 176, 289-294) وكذلك (Enc. Isl. Art. Ghorids) .

(٤) الكرامية إحدى الفرق الدينية فى الإسلام . ويذكر المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٤٩) فى باب ذكر الفرق ، عنها ما نصه : " الكرامية أتباع محمد بن كرام السجستانى ، وهم طوائف: الهيصمية والإسحاقية والجندية ، وغير ذلك . إلا أنهم يعدون فرقة واحدة ، لأن بعضهم لا يكفر بعضا . وكلهم مجسمة ، إلا أن فيهم من قال هو (الله) قائم بعينه ، ومنهم من قال هو أجزاء مؤتلفة ، وله جهات ونهايات . ومن قول الكرامية إن الإيمان هو قول مفرد ، وهو قول لا إله إلا الله ، وسواء اعتقدوا أو لا . وزعموا أن الله جسم ، وله حد ونهاية ، من جهة السفل ، وتجوز عليه ملاقاة الأجسام التى تحته . وأنه على العرش ، والعرش مماس له . وأنه محل الحوادث ، من القول والإرادة ، والإدراكات والمرئيات والمسموعات . وأن الله لو علم أحداً من عباده لا يؤمن به ، لكان خلقه إياهم عبثا . وأنه يجوز أن يعزل نبياً من الأنبياء والرسل ، ويجوز عندهم على الأنبياء كل ذنب لا يوجب حداً ، ولا يسقط عدالة . وأنه يجب على الله تعالى تواتر الرسل ، وأنه يجوز أن يكون إمامان فى وقت واحد . وأن علياً =

كَرّامية فأجمعوا على مناظرته ، وتجمعوا عند غياث الدين معه ، وكبيرهم القاضى [مجد[1] الدين] عبد المجيد بن عمر بن القدوة . فتكلم الإمام فخر الدين مع ابن القدوة ، واستطال عليه وبالغ فى شتمه ، وهو لا يزيده على أن يقول : "لا يفعل مولانا ! لا آخذك[2] الله ! [استغفر الله ! "] فغضب الملك ضياء الدين[3] له ، ونسب الإمام [الرازى] إلى الزندقة ومذهب الفلاسفة . وقام من الغد ابن عمر بن القدوة بالجامع ، وقال فى خطبته : " ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول ، فاكتبنا[4] مع الشاهدين . أيها الناس ! إنا لا نقول إلا ما صحّ عندنا عن رسول الله ، وأما علم أرسطو ، وكفريات ابن سينا ، وفلسفة الفارابى ، فلا نعلمها . فلأى حال يُشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام ، يذب عن دين الله وسنة نبيه ؟ و بكى وأبكى ، فثار الناس من كل جانب ، وامتلأت البلد فتنة . فسكّنهم السلطان غياث الدين ، وتقدّم إلى الإمام فخر الدين بالعود إلى هراة ، فخرج إليها . ثم فارق غياث الدين ملك الغورية مذهب الكرامية ، وتقلد الشافعى رحمه الله .

السلطان الملك المنصور ناصر الدين

محمد بن الملك العزيز عماد الدين عثمان بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وُلد بالقاهرة فى ... ...[5] جمادى الأولى ، سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، ومات أبوه

= ومعاوية كانا إمامين فى وقت واحد ، إلا أن علياً كان على السنة ، ومعاوية على خلافها . وانفرد ابن كرام فى الفقه بأشياء ، منها أن المسافر يكفيه من صلاة الخوف تكبيرتان . وأجاز الصلاة فى ثوب مستغرق فى النجاسة . وزعم أن الصلاة والصوم والزكاة والحج ،وسائر العبادات ، تصح بغير نية ، وتكفى نية الإسلام ، وأن النية تجب فى النوافل . وأنه يجوز الخروج من الصلاة بالأكل والشرب والجماع عمداً ، ثم البناء عليها . وزعم بعض الكرامية أن لله علمين ، أحدهما يعلم به جميع المعلومات ، والآخر يعلم به العلم الأول . انظر أيضاً (الشهرستانى : الملل والنحل ص ٧٩ — ٨٥ ؛ والسمعانى : كتاب الأنساب ، ص ٤٧٧) .

(١) أضيف ما بين القوسين ، وكذلك بقية الإضافات فى هذه الفقرة ، من ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٩٩) .

(٢) فى س لا واخذك ، وفى ابن الأثير (نفس المرجع والجزء والصفحة) الا وأخذك .

(٣) ابن عم الملك غياث الدين وزوج ابنته ، وكان أشد الناس كراهة للفخر الرازى . انظر نفس المرجع .

(٤) بعض حروف هذا اللفظ ضائع فى س .

(٥) بياض فى س .

وعمره تسع سنين وأشهر . وقد أوصى له أبوه بالملك من بعده ، وأن يكون مدبر أمره الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى . فأجلس على سرير الملك فى غد وفاة أبيه ، يوم الإثنين حادى عشر المحرم ، وجُعل قراقوش أتَابَكا[١] . وحلف له الأمراء كلهم ، ما خلا عماه الملك المؤيد نجم الدين مسعود والملك المعز ؛ فإنهما أرادا أن تكون الأتابكية لهما ، وجرت منهما منازعة ، ثم حَلَفا . ووقع الخلف بين أمراء الدولة ، فطعن عدّة منهم فى قراقوش ، بأنه مضطرب الرأى ضيق العطن ، ولا يصلح لهذا الأمر . وتعصب جماعة معه ، ورأوا أنه أطوع من غيره . وكثر النزاع فى ذلك ، وصاروا إلى القاضى الفاضل ، ليأخذوا رأيه ؛ فامتنع من المشورة عليهم ، فتركوه . وأقاموا ثلاثة أيام يمحصون الرأى ، حتى استقرّ على مكاتبة الملك الأفضل ليحضر أتابكا عوض قراقوش ، بشرط ألا يرفع فوق رأسه السنجق ، ولا يذكر له اسم فى خطبة (١٠٤٠) ولا سكة ، وأن يدبر أمر الملك المنصور مدّة سبع سنين فإذا تم هذا الأجل سلم إليه الأمر والتدبير ، وسيروا إليه القصاد بذلك . وأقيم الملك الظافر مظفر الدين خضر بن السلطان صلاح الدين مباشر نيابة السلطنة ، حتى يقدم الأفضل . فخرج الأفضل من صرخد لليلتين بقيتا من صفر ، فى تسعة عشرة[٢] نفساً ، متنكراً ، خوفاً من العادل .

وكان الأمير فخر الدين جهاركس — لما قرّر أمراء الأفضل ، وكتبوا إليه بالحضور — كره ذلك ، وكتب إلى الأمير فارس الدين ميمون القصرى صاحب نابلس ، ينهاه عن الموافقة على إقامة الأفضل . فوق الأفضل على القاصد ، وأخذ منه الكتاب ، وعلم ما فيه ، وقال له :

---

(١) فى س اتابك بغير ضبط . ويتألف هذا اللقب من لفظين تركيين ، وهما أطا بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير . وأصله أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) كانوا يطلقون لفظ أطابك على كبير من أمرائهم ، يولونه الوصاية والرعاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير . وكثيراً ما تزوج الأطابك من أم الموصى به ، فتصبح العلاقه بين السلطان ووصيه شبه أبوية ثم أطلق هذا اللقب ، فى أيام المماليك بمصر ، على مقدم العساكر أو القائد العام ، على اعتبار أنه أبو العساكر والأمراء جميعاً ، وكان يسمى أتابك العساكر . انظر (Gibb : Damascus Chronicle. pp. 83 - 84) ، وكذلك (G. - Demombynes : Op. cit. Pref. pp. XXVII, LVI.) ؛ والقلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨ ، وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ (Glossary) ؛ وأيضاً (Enc. Isl. Art. Ata).

(٢) فى س تسعة عشر .

" ارجع فقد قضيت الحاجة " . وسار الأفضل ، ومعه ذلك القاصد ، حتى وصل بلبيس ، وقد خرج الأمراء إلى لقائه ، فى خامس شهر ربيع الآخر . فنزل فى خيمة أخيه الملك المؤيد [مسعود] . وكان فخر الدين جهاركس يؤمل أنه ينزل فى خيمته ، فشق ذلك عليه من فعل الأفضل ، ولم يجد بدأ من المجىء إلى عنده ، فأكرمه الأفضل . ثم لما فرغ [الأفضل] من طعام أخيه ، صار إلى خيمة فخر الدين وأكل طعامه ، لحانت من فخر الدين التفاتة ، فرأى القاصد الذى بعثه إلى نابلس ، فدهش وخاف من الأفضل ، وأخذ يستأذنه فى التوجه إلى العرب المخالفين ليصلح أمرهم ، فأذن له . وللحال قام [فخر الدين] واجتمع بزين الدين قراجا وأسد الدين سراسنقر ، وسار بهما مجدًّا إلى القدس ، فإذا بشجاع الدين طغرل السلاح دار سائر إلى مصر . فألفتوه عن الأفضل ، وساروا به إلى القدس ، فاتفق معهم الأمير صارم الدين صالح نائب القدس ، ووافقهم أيضاً الأمير عز الدين أسامة[1] وميمون القصرى ، وقدما إلى القدس ، ومع ميمون سبعمائة فارس منتخبة . وكاتبوا الملك العادل ، يستدعونه لأتابكة الملك المنصور .

وأما الأفضل فإنه سار من بلبيس إلى القاهرة ، فخرج المنصور وتلقاه ، فى سابع ربيع الآخر ، وكانت مدته شهرين و...[2] وتحكم الأفضل[3] . ولما استقرا بالقاهرة كتب الأفضل إلى عمه الملك العادل ، يخبره بوصوله إلى مصر ، حفظاً لدولة ابن أخيه ، وأنه لا يخرج عما يأمره به . فورد جوابه بأن العزيز إن كان مات عن وصية فلا يُعدل عنها ، وإن كان مات عن غير وصية ، فيكتب الأعيان خطوطهم لك بذلك ، حتى نرى الرأى . فاستولى الأفضل على أمر مصر كله ، (٤٠ ب) ولم يبق للمنصور غير مجرّد الإسم فقط . وعزم [الأفضل] على قبض من بقى من الأمراء الصلاحية [بمصر] ، ففرّ منهم جماعة ، ولحقوا بفخر الدين جهاركس بالقدس . وقبض الأفضل على جماعة منهم الأمير علاء الدين شقير ، والأمير

---

(١) فى س سامه .
(٢) بياض فى س .
(٣) النصف الثانى من هذا الاسم محجوب بورقة ملصقة فى س ، ولكنه فى ب (٤٨ ب) .

عز الدين البكى الفارس ، والأمير عز الدين أيبك فطيس ، وخطلبا ؛ ونَهَب أموالهم . ثم برز إلى بركة الجب ، فأقام أربعة أشهر ، وحلَّف بها الأمراء والأجناد . فبلغه عن أخيه الملك المؤيد [مسعود] أنه يريد الوثوب عليه ، فقبضه وسجنه .

و بعث الملك الظاهرى [غازى صاحب حلب] إلى أخيه الأفضل يحثه على سرعة[(١)] القدوم من مصر إلى دمشق ، واغتنام الفرصة فى أمرها ، [والملك العادل غائب عنها فى[(٢)] حصار ماردين] . فقبض الصلاحية [بالشام ؟] على القاصد ، وأهانوه ثم أطلقوه ؛ فسار إلى الأفضل ، و بلغه رسالة أخيه الظاهر . فرحل [الأفضل] من بركة الجب ثالث شهر رجب ، ومعه الملك المنصور ، فأقام بالعباسة[(٣)] خمسة أيام . واستخلف على القاهرة [سيف الدين] يازكج[(٤)] [الأسدى] ، ثم سار إلى دمشق ، فنزل عليها فى ثالث عشر شعبان . وقد بلغ العادل خروجه من مصر ، وهو على حصار ماردين ، فرتب ابنه الكامل محمدا[(٥)] على حصارها ، وسار فى مائتى فارس إلى دمشق فقدمها فى ثمانية أنفس ، لكثرة ما أسرع فى السير ، قبل منازلة الأفضل لها [بيومين][(٦)] ، وتلاحق به أصحابه . وقدم الأفضل فنزل الشرفين[(٧)] والميدان الأخضر ، وهجم بعض أصحابه [على] البلد وأحرقوا ، وصاحوا : " يا أفضل يا منصور ! " . فصاحت العامة معهم بذلك ، لميلهم إلى الأفضل . فبرز إليهم

---

(١) أرسل أسد الدين شيركوه ابن عم الأفضل إلى مصر رسلا تحث الأفضل أيضاً على الإسراع إلى دمشق . (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٩٤) .

(٢) انظر نفس المرجع والجزء ، ص ٩٣ — ٩٤

(٣) قرية بين بلبيس والصالحية ، وهى (ياقوت : معجم البلدان ، ح ٣ ، ص ٥٥٩ — ٦٠٠) أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية ، وسميت باسم العباسة بنت أحمد بن طولون ، فإنها خرجت إلى هذا الموضع مودعة لبنت أخيها قطر الندى ، بنت خمارويه بن أحمد بن طولون ، لما حملت إلى الخليفة المعتضد العباسى ، وضربت هناك فساطيطها ؛ ثم بنيت هناك قرية ، فسميت باسمها . راجع المقريزى : (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢٣٢ ؛ P. Omar Taussoun. Op. cit. 1. 1. P. 58 ؛ و Blochet : Op. cit. P. 254. N I.)

(٤) فى س ايازكوح ، وقد تقدم ذكره أكثر من مرة .

(٥) فى س محمد .

(٦) راجع ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ح ١٢ ، ص ٩٤) .

(٧) كذا فى س وبغير ضبط . انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ ، حيث ورد فى وفاة الصاحب الوزير أبى على المزدقانى ، أن من أعماله بناء المسجد على الشرف شمالى دمشق ، ويسمى مسجد الوزير .

العادل ، وأخرجهم من البلد ، وامتنع بها . ففر من أمراء الأفضل عدّة ، فتأخر حينئذ عن دمشق إلى نحو الكسوة . فدس العادل إلى جماعة ممن فى صحبة الأفضل [بكلام منه] : " إنى أريد الرجوع إلى الشرق ، وأترك الشام ومصر لأولاد أخى " ، ففتّروا[١] الأفضل عن الحرب . و بذل [العادل] لهم مالا ، فمشى ذلك من مكره عليهم . وخذلوا الأفضل ، بأن أشاروا عليه بترك القتال حتى يقدم [أخوه] الظاهر من حلب . فأمسك [الأفضل] عن الحرب مدّة ، والعادل يكاتب الأمراء و يستميلهم شيئاً بعد شىء ، وهم يأتونه فيبذل لهم المال ، و يوسع عليهم ، إلى أن قدم الظاهر من حلب فى آخر شعبان . فقوى به الأفضل ، ورحلا إلى مسجد القدم[٢] ، وحار با العادل وحاصراه ، حتى غلت الأقوات بدمشق لشدّة الحصار . فقدمت الصلاحية من القدس نصرة للعادل ، فاشتد عضد العادل بقدومهم ، (٤١ ا) وجهز إلى القدس من يمنع الميرة الواصلة من مصر إلى الأفضل ، فوجدوا يازكج[٣] قد أخرج سبعمائة من عسكر مصر نجدة للأفضل ، فقاتلوهم وكسروهم وغنموا ما معهم . وصارت أهل دمشق فى جهد من الغلاء ، واحتاج العادل إلى القرض ، فأخذ مالا من التجار . وقوى الزحف على البلد حتى أشرف على الأخذ ، وهم العادل بالتسليم ، فاتفق وقوع الخلف بين الظاهر و بين أخيه الأفضل .

* * *

[سنة ست وتسعين وخمسمائة] . وأهلت سنة ست وتسعين ، والأخوان على حصار عمهما العادل بدمشق ، وقد خربت البساتين والدور ، وقطعت الأنهار ، وأحرقت الغلال ، وقلت الأقوات . وعزم العادل على تسليم دمشق ، لكثرة من فارقه وخرج عنه إلى الأفضل ، فكتب إلى ابنه الكامل يستدعيه ، وكتب إلى نائب قلعة جعبر أن يسلمه ما يستدعيه من المال ، وكانت أموال العادل بها . فسار إليه الكامل فى العسكر الذى معه ، وأخذ

(١) فى س فقدوا .

(٢) مسجد بدمشق وبه دفن صلاح الدين . (أبوشامة : كتاب الروضتين ، س ٩٥ — ٩٦ ، ١٢٣ ، فى .Rec. Hist Or. V).

(٣) فى س ايازكوج .

من قلعة جعبر أر بمماية ألف دينار ، وقدم على أبيه فقوى بقدومه قوّة عظيمة ، ووقع الوهن فى عسكر الأفضل والظاهر ، لكثرة من خامر منهم . ودسّ العادل مكيدة بين الأخوين ، وهى أن الظاهر كان له مملوك يقال له أيبَك[1] ، وقد شغفه حبا ، ففقده وظن أنه دخل دمشق فَمُلِّق . و بلغ ذلك العادل ، فبعث إليه [بكلام فيه] : "أن محمود بن الشُّكْرِى[2] أفسد مملوكك ، وحمله إلى الأفضل" . فقبض [الظاهر] حينئذ على ابن الشكرى ، وظهر المملوك عنده ، فما شك فى صدق ما قاله عمه ، ونفر من أخيه وامتنع من لقائه . وكان البرد قد اشتد ، فرحلا إلى الكسوة ، وسارا إلى مرج الصفر ، ثم سارا إلى رأس الماء . فغلت الأسعار ، وقوى البرد ، فرحل الظاهر على القريتين . ورحل الأفضل [بعساكره] يريد مصر ، وتركوا من أثقالهم ما عجزوا عن حمله فأحرقوه ، وهلك لهم عدّة مماليك ودواب . ودخل الأفضل إلى بلبيس فى خامس عشرى (شهر ربيع الأول ، فأشير عليه بالإقامة بها .

وورد الخبر بأن العادل خرج من دمشق ، ونزل تل العجول ، وأنه كتب الإقامات[3] للعربان ، واستدعى الكنانية . فجمع الأفضل الأمراء ، وركب ودار على سور بلبيس ، وأمر قراقوش (٤١ ب) بحفظ قلعة الجبل ، وأن يهتم بحفر ما بقى من سور مصر والقاهرة ، وأنه يعمق الحفر حتى يصل إلى الصخر ، ويحمل التراب داخل المدينة على حافة الحفر ، ليكون مثل الباشورة[4] ، ويستعمل الأبقار فيه ويعمل ذلك فيما بين البحر وقلعة المقس ، حتى لا يبقى إلى البلد طريق من أبوابها .

---

(١) فى س ابك بغير ضبط .

(٢) فى س السكرى بغير ضبط . (انظر أبا الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، س ٧٦ ، فى (Rec. Hist. Or. I.)

(٣) جمع إقامة ، وهو مايلزم العساكر من المؤونة والعلف . انظر (Quatrémere : Maml. I. 1. P.) حيث توجد أمثلة عدة لاستعمال هذا اللفظ ، وأوضحها " وخرجت الإقامات من الشعير والدقيق . . " . أيضا (Dozy. Supp. Dict. Ar.) .

(٤) الباشورة هنا سدّ من التراب ، لمنع وصول الخيالة والرجالة والسهام إلى مواضع المحاربين ، جمع على بواشير ، ويقابلها فى الفرنسية كلمة (Bastion) أو (Guérite) . راجع أيضا (Dosy : Supp. Dict. Ar.)

وفى ثانى ربيع الآخر نزل العادل قَطْيَة[١] . فهمّ الأفضل بتحريق بلبيس . فنفرت القلوب منه ، وقطع أرزاق المرتزقة من جانب السلطان ، ومن الأحباس على مكة والمدينة والفقهاء وأرباب العمائم ، ليُغَلِّق الذى للجند . فما سدّ المأخوذ ، ولا انقطع الطلب من الأجناد ، وثار الضجيج من المساكين . ووصل العادل فواقعه الأفضل ، فانكسر منه وانهزم . فتبعهم العادل إلى بركة الجب ، فخيم بها وأقام ثمانية أيام . ولحق الأفضل بالقاهرة ، فدخلها يوم الثلاثاء سابع ربيع الآخر[٢] ، وخامر جماعة عليه ، وصاروا إلى العادل . وألجأت الضرورة الأفضل إلى مراسلة العادل ، فطلب [منه أن يعوضه عن ديار مصر بدمشق ، فامتنع [العادل] ، وقال : "لا تحوجنى أن أخرق ناموس القاهرة ، وآخذها بالسيف . اذهب إلى صرخد ، وأنت آمن على نفسك" . فلم يجد [الأفضل] بدا من التسليم ، لتخاذل أصحابه عنه . فتسلم العادل القاهرة ، ودخلها يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر ، وخرج منها الأفضل منهزما فى ذلك اليوم . وكان الوزير ضياء الدين بن الأثير قد قدم إلى مصر ، وتمكن من الأفضل ؛ فلما تسلم العادل القاهرة فر ولحق بصرخد . وكانت مدّة استيلاء الأفضل على ديار مصر سنة واحدة وثمانية وثلاثين يوما ، وخرج إلى بلاد الشرق فأقام بسُمَيْسَاط[٣] . وكان مدّة إقامته بالقاهرة لا يقدر أن يخلو بنفسه فى ليل ولا نهار ، وكان الأمراء قد حجروا عليه أن يخلو بأحد ، وكانت الضرورة ملجئة إلى موافقتهم .

وأقام العادل بالقاهرة على أتابكية الملك المنصور ، وحلف له الأمراء على مساعدته ، ليقوم بأتابكية المنصور إلى أن يتأهل للاستقلال بالقيام بأمور المملكة ، فلم يستمر ذلك ....[٤]

---

(١) فى س قطيا بغير ضبط ، وهى قرية فى طريق مصر إلى الشام ، فى وسط الرمل ، قرب العرما . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٤٤) .

(٢) فى تلك الليلة توفى القاضى الفاضل عبدالرحيم بن على البيسانى . (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٠٢) .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى مدينة فى طرف بلاد الروم ، على الشاطىء الغربى للفرات . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٥١) . أنظر أيضاً (Blochet : Op. cit. P. 260. N. I.)

(٤) بياض فى س ، يشغل سطرين تقريباً وبه آثار كتابة ممحوة .

فانتقض الأمر فى الحادى والعشرين من شوال ، وذلك أن الملك العادل أحضر جماعة من الأمراء وقال لهم : " إنه قبيح بى أن أكون أتابك صبى ، مع الشيخوخة والتقدّم والملك ليس هو بالإرث ، وإنما هو لمن غلب وإنه كان يجب أن أكون بعد أخى الملك الناصر (١٤٢ ا) صلاح الدين ، غير أنى تركت ذلك إكراما لأخى ، ورعاية لحقه . فلما كان من الاختلاف ما قد علمتم ، خفت أن يخرج الملك عن يدى ويد أولاد أخى . فسست الأمر إلى آخره ، فما رأيت الحال ينصلح إلا بقيامى فيه ، ونهوضى بأعبائه . فلما ملكت هذه البلاد ، وطّنت نفسى على أتابكية هذا الصبى ، حتى يبلغ أشده . فرأيت العصبيات باقية ، والفتن غير زائلة ، فلم آمن أن يطرأ علىّ ما طرأ على الملك الأفضل ، ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبون إقامة إنسان آخر ، وما يعلم ما يكون عاقبة ذلك . والرأى أن يمضى هذا الصبى إلى الكُتَّاب ، وأقيم له من يؤدبه ويعلمه . فإذا تأهل وبلغ أشدّه نظرتُ فى أمره ، وقمت بمصالحه " . هذا والأسدية كلهم مع العادل على هذا الرأى ، فلم يجد من عداهم بدأ من موافقته ، فحلفوا له ، وخلعوا المنصور فى يوم الخميس . وخُطب للعادل من الغد يوم الجمعة حادى عشرى شوّال ، فكانت سلطنة المنصور سنة واحدة وثمانية أشهر وعشرين يوما .

السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب

ولما حلف له الأمراء استولى على سلطنة مصر ، فى حادى عشرى شوّال ، وخطب له بديار مصر وأرض الشام وحران والرها وميافارقين ، واستحلف الناس بهذه البلاد ، وضربت السكة باسمه . واستدعى [العادل] ابنه الملك الكامل ناصر الدين محمداً[1] ، فحضر إلى القاهرة فى يوم [الخميس[2]] لثمان بقين من رمضان ، ونصبه نائبا عنه بديار مصر ، وجعل الأعمال الشرقية إقطاعه ، كما كانت إقطاعا للعادل فى أيام السلطان صلاح الدين ، وجعله ولىّ عهده ، وحلف له الأمراء .

(١) فى س محمد .

(٢) بياض فى س . ويقع أول رمضان سنة ٥٩٦ هـ يوم الخميس ١٥ يونيه سنة ١٢٠٠ م ، ويوافق الثانى والعشرين منه الخميس أيضاً . (Wüstenfeld-Mahler'sche : Tabellen)

وفيها أقيمت الخطبة للعادل بحماة وحلب ، وضربت السكة باسمه . وفيها توقفت زيادة النيل ، فلم يجر إلا ثلاثة عشر ذراعا تنقص[1] ثلاثة أصابع . وشرق معظم أرض مصر ، فارتفعت الأسعار . وفيها استناب العادل بدمشق ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى ، واستناب ببلاد الشرق ابنه الملك الفائز ، وأقرّ بحلب ابن أخيه الملك الظاهر [غازى بن صلاح الدين] ، و بحماة الملك المنصور [بن تقى الدين عمر[2]] .

وفيها أخرج الملك العادل ابن ابن أخيه الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان ابن صلاح الدين من مصر ، ومعه إخوته وأخواته [ووالديه[3]] ، فساروا إلى الشام . ثم سيرهم إلى الرها ، فهربوا منها إلى حلب ، و بقى الملك[4] المنصور بمدينة الرها[5] ، حتى مات سنة عشرين وستمائة ، وكان [قد أصبح] أميرا عند الظاهر صاحب حلب .

ومات فى هذه السنة إبراهيم بن منصور بن المسلم أبو إسحاق المعروف بالعراق ، خطيب الجامع العتيق بمصر ، فى حادى عشرى جمادى الأولى ، عن ست (٤٢ ب) وثمانين سنة . و [مات] القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على بن الحسن بن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمى ، العسقلانى مولدا ، البيسانى[6] ، أبو على محيى الدين ،

---

(١) فى س إلا .

(٢) راجع أبا الفداء (المختصر فى تاريخ البشر ، ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٧ و Rec. Hist. Or. I.) .

(٣) نفس المرجع ، ص ٨١ .

(٤) معظم هذا اللفظ مطموس ببقعة من المداد فى س .

(٥) يقول أبو الفداء (المختصر فى تاريخ البشر ، ص ٨١ ، و Rec. Hist. Or. I.) إن المنصور هذا " أقام بحلب عند عمه الظاهر" .

(٦) كان والد القاضى الفاضل يتقلد القضاء بمدينة بيسان ، فلهذا نسبوا إليها . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٦٦) . هذا وبنفس المرجع والجزء والصفحة ترجمة طيبة للقاضى الفاضل منها : " قال ابن خلكان : وزر [القاضى الفاضل] للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وتمكن منه غاية التمكن . وبرز فى صناعة الإنشاء ، وفاق المتقدمين ، (ص ٣٦٧) وله فيه الغرائب مع الإكثار . أخبرنى أحد الفضلاء الثقات المطلعين على حقيقة أمره ، أن مسودات رسائله — فى المجلدات والتعليقات فى الأوراق — إذا جمعت ما تقصر عن مائة ، وهو مجيد فى أكثرها . وقال عبد اللطيف البغدادى : دخلنا عليه فرأيت شيخا ضئيلا ، كله رأس وقلب ، وهو يكتب ويملى على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات ، لقوة حرصه فى إخراج الكلام ، وكأنه يكتب بجملة أعضائه . وكان له غرام فى الكتابة وتحصيل الكتب ، وكان له الدين والعفاف والتقى ، والمواظبة على أوراد الليل ، والصيام وقراءة القرآن . وكان قليل اللذات ، كثير الحسنات ، دائم التهجد ، ويشتغل بعلوم الأدب وتفسير القرآن . غير أنه كان خفيف البضاعة من النحو ، ولكن قوة الدراية توجب له قلة اللحن . وكان لا يكاد يضيع من زمانه شيئاً إلا فى طاعة ، وكتب فى الإنشاء ما لم يكتبه غيره .... " راجع أيضاً (Enc. Isl. Art. Al-Kadī al-Fādil) .

فى سابع ربيع[١] الآخر . و [مات] الأثير ذو الرياستين أبو الطاهر محمد بن ذى الرياستين أبى الفضل محمد بن محمد بن بنان الأنبارى[٢] فى ليلة الثالث من ربيع الآخر ، ومولده بالقاهرة سنة سبع وخمسمائة .

وفى هذه السنة ولد بالقاهرة مولود له جسد واحد ، ورأس فيه وجهان ، فى كل وجه عينان ، وأذنان وأنف وحاجب . ووُلد أيضا بها مولود له غرة كغرّة الفرس ، ويداه ورجلاه محجلتان ، وأليته ملمعة . وولد بها أيضا مولود أشيب الرأس ؛ ونعجة لها أربع أيادى ، وأربع أرجل[٣] . ووُجد فى بطن نعجة ذبحت خروفٌ ، صدره ووجهه صورة إنسان ، وله أظافير الآدمى .

* * *

سنة سبع وتسعين[٤] وخمسمائة . فيها قبض الملك العادل على أولاد أخيه [صلاح الدين[٥]] ، وهما الملك] المؤيد مسعود و [الملك] المعز إسحاق ، وسجنهما فى دار بهاء الدين قراقوش بالقاهرة . [و] تسلم الأمير فخر الدين جهاركس بانياس من الأمير حسام الدين بشارةَ ، بعد حصار وقتال . وفيها حدثت الوحشة بين الملك العادل و بين الصلاحية ، من أجل أنه خلع المنصور بن العزيز . وكتب الأمير فارس الدين ميمون القصرى من نابلس إلى العادل بإنكار خلع المنصور ، فأجابه العادل جوابا خشنا ، وتكررت المكاتبة بينهما غير مرّة . فكتب ميمون إلى الصلاحية يغريهم بالعادل ، فلم يجد فيهم نهضة للقيام .

وفى أثناء ذلك حدثت وحشة بين الظاهر صاحب حلب و بين عمه العادل ، وسير إليه وزيره علم الدين قيصر ونظام الدين[٦] ، فنعهما العادل أن يعبرا إلى القاهرة ، و [أمرهما]

(١) اعتبر (Blochet : Op. cit' p. 264) هذا تاريخ مولده ببيسان ، والمقرر أنه ولد بعسقلان فى ١٥ جمادى الثانية سنة ٥٢٩ هـ (٣ أبريل سنة ١١٣٥ م) ، انظر المرجعين المذكورين بالحاشية السابقة .

(٢) انظر ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ، س ٨٥ ، ٨٩ ، فى (Rec. Hist. Or. II.) .

(٣) ف س اربعة ايادى واربعة ارجل .

(٤) وقع خطأ فى عنوان هذه السنة فى ترجمة (Blochet : Op. cit. p.265) حيث كتب سنة ست وتسعين وخمسمائة ، والصواب ما هنا . (انظر أبا شامة : كتاب الروضتين ، س ١٤٦ ، فى Rec. Hist. Or. V.) . وقد جرّ هذا إلى اضطراب ترتيب الحوادث فى هذه الترجمة حتى أول سنة ٥٩٨ هـ . أما عن منشأ هذا الخطأ فانظر س ١٥٧ حاشية ٣ .

(٥) انظر أبا شامة (نفس المرجع والجزء والصفحة المذكورة بالحاشية السابقة) .

(٦) لم يشر ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، س ١٠٦) إلى ذلك الرسول الثانى ، وكل ما ورد به أن " الظاهر أرسل أميراً كبيراً من أمرائه إلى عمه العادل ... " .

أن يقيما ببلبيس ، ويُحَمِّلا قاضى بلبيس ما معهما من الرسالة . فعادا مغضبين ، واجتمعا بميمون القصرى فى نابلس ، وما زالا به حتى مال إلى الأفضل وإلى أخيه الظاهر . فلما وصلا إلى حلب شق على الظاهر ما كان من عمه ، وكاتب الصلاحية ورغبهم ، وكاتب ميمون القصرى . وشرع الأفضل أيضاً فى مكاتبتهم وهو بصرخد ، وانضوى إلى الأفضل الأمير عز الدين أسامة[١] ، صاحب عجلون وكوكب ، وحلف له . فبلغ ذلك العادل فتيقظ لنفسه ، وكتب إلى ابنه المعظم صاحب دمشق بمحاصرة الأفضل فى صرخد ، فجمع وخرج من دمشق . فاستخلف الأفضل على صرخد أخاه الملك الظافر خضر ، وسار إلى أخيه الظاهر بحلب فى عاشر جمادى الأولى فنزل المعظم على بصرى ، وكاتب فخر الدين جهاركس وميمون القصرى ، يأمرهما بالمسير إليه لحصار صرخد . فلم يجيبا ، وجمعا من يوافقهما ، وصارا إلى الظافر بصرخد . وكتبوا إلى الظاهر بحلب يحثونه[٢] على الحركة وأخذ دمشق ، فوافته الكتب وعنده الأفضل ، فجمع الناس وعزم على المسير . ثم سار [الظاهر] ، فلم يوافقه المنصور صاحب حماة ، فحاصره مدّة ، ثم رحل عنه بغير (١٤٣) طائل ، فنازل دمشق ومعه الأفضل ، وأتته الصلاحية [هناك[٣]] .

فخرج العادل من القاهرة بعساكره ، واستخلف على القاهرة ابنه الملك الكامل محمداً[٤] ، وسار حتى نازل نابلس . وقدّم [العادل] طائفة من العسكر ، فساروا إلى دمشق ، واستولوا عليها ، قبل نزول الأفضل والظاهر عليها . فقدما بعد ذلك ، وضايقا دمشق ، فى رابع عشر ذى القعدة ، واشتدّ القتال حتى كادا يأخذان البلد . فوقع بينهما الاختلاف ، بمكيدة دبرها العادل ، ففترت الهمة عن القتال . وذلك أن العادل كتب إلى [كل من] الأفضل وإلى الظاهر سرًّا ، بأن : "أخاك لا يريد دمشق إلا لنفسه ، وقد اتفق معه العسكر فى الباطن على

(١) فى س سامه .

(٢) فى س يحثوه . (٣) راجع ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ١٠٥ — ١٠٧) ، لتتبع هذه الحوادث بتفصيل . والراجح أن المقريزى اقتبس الوارد هنا باختصار من ابن الأثير أو من مصدر اخر مرجعه ابن الأثير . (٤) فى س محمد .

ذلك". فانفعلا لهذا الخبر، وطلب كل منهما من الآخر أن تكون دمشق له فامتنع. فبعث العادل فى السر إلى الأفضل يعده بالبلاد التى عينت له بالشرق، وهى رأس عين، والخابور، وميافارقين، وغير ذلك. وبذل له مع ذلك مالا من مصر فى كل سنة، بمبلغ خمسين ألف دينار. فانخدع [الأفضل] وقال للأمراء الصلاحية ومن قدم إليه من الأجناد: "إن كنتم جئتم إلىّ فقد أذنت لكم فى العود إلى الملك العادل، وإن كنتم جئتم إلى أخى فأنتم به أخبر". وكانوا يحبون الأفضل من أجل أنه لين العريكة، فقالوا كلهم: "لا نريد سواك، والعادل أحب إلينا من أخيك". فأذن لهم فى العود إلى العادل، فسار إليه الأمير فخر الدين جهاركس، والأمير زين الدين قراجا، وعلاء الدين شقير، والحجاف، وسعد الدين بن علم الدين قيصر. فوقع الوهن والتقصير فى القتال، بعد ما كانوا قد أشفوا على أخذ دمشق.

وانقضت هذه السنة والأفضل والظاهر على منازلة دمشق. وفيها تعذرت الأقوات بديار مصر، وتزايدت الأسعار، وعظم الغلاء حتى أكل الناس الميتات، وأكل بعضهم بعضا، وتبع ذلك فناء عظيم. وابتدأ الغلاء من أول العام، فبلغ كل أردب قمح خمسة دنانير. وتمادى الحال ثلاث سنين متوالية، لا يمد النيل فيها إلا مدّا يسيرا، حتى عدمت الأقوات. وخرج من مصر عالم كبير بأهاليهم وأولادهم إلى الشام، فماتوا فى الطرقات جوعا. وشنع الموت فى الأغنياء والفقراء، فبلغ من كفنه العادل من الأموات — فى مدّة يسيرة — نحوا من مائتى ألف إنسان، وعشرين ألف إنسان. وأكلت الكلاب بأسرها، وأكل (٤٣ ب) من الأطفال خلق كثير، فكان الصغير يشويه أبواه ويأكلانه بعد موته، وصار هذا الفعل لكثرته بحيث لا ينكر. ثم صار الناس يحتال بعضهم على بعض، ويؤخذ[1] من قدر عليه فيؤكل، وإذا غلب القوى ضعيفا ذبحه وأكله. وفُقِدَ كثيرُ الأطباء، لكثرة من كان يستدعيهم إلى المرضى، فإذا صار الطبيب إلى داره ذبحه وأكله. واتفق أن شخصا استدعى طبيبا، فخافه الطبيب وسار معه على تخوف. فصار ذلك الشخص يكثر فى طريقه من ذكر الله تعالى، ولا يكاد يمرّ بفقير

(١) فى س ويأخذ.

إلا و يتصدق عليه ، حتى وصلا إلى الدار ، فإذا هى خربة . فارتاب الطبيب مما رأى ، و بينا هو يريد الدخول إليها إذ خرج رجل من الخربة ، وقال للشخص الذى قد أحضر الطبيب : "مع هذا البطء جئت لنا بصيد واحد ؟" فارتاع الطبيب ، وفرّ[١] على وجهه هاربا . فلولا عناية الله به ، وسرعة عدوه ، لقبض عليه[٢] .

وخلت مدينة القاهرة ومصر من أكثر أهلها ، وصار من يموت لا يجد من يواريه ، فيصير عدّة أشهر حتى يؤكل أو يبلى[٣] . واتفق أن النيل توقف عن الزيادة فى سنة ست وتسعين ، فخاف الناس ، وقدم إلى القاهرة ومصر من أهل القرى خلق كثير . فلما حلّت الشمس برج الحمل تحرّك هواء أعقبه وباء وكثر الجوع ، وعدم القوت ، حتى أكلت صغار بنى آدم : فكان الأب يأكل ابنه مشويا ومطبوخا ، وكذلك الأم . وظفر الحكام منهم بجماعة ، فعاقبوهم حتى أعيام ذلك . وفشا الأمر : فكانت المرأة توجد وقد خبأت فى عبها كتف الصغير أو فخذه ، وكذلك الرجل . وكان بعضهم يدخل بيت جاره فيجد القدر على النار ، فينتظرها حتى تنزل ليأكل منها ، فإذا فيها لحم الأطفال ؛ وأكثر ما كان يوجد ذلك فى أكابر البيوت . و يوجد النساء والرجال فى الأسواق والطرقات ، [و] معهم لحوم الأطفال . وأحرق فى أقل من شهرين ثلاثون امرأة ، وجد معهن لحوم الأطفال . ثم فشا ذلك حتى اتخذه الناس غذاء وعشاء وألفوه ، وقلّ منعهم منه ، فإنهم لم يجدوا شيئا من القوت ، لا الحبوب ولا الخضروات .

فلما كان قبل أيام زيادة النيل — فى سنة ست وتسعين [هذه] — احترق الماء فى برمودة ، حتى صار فيما بين المقياس والجيزة بغير ماء ، وتغير طعم الماء وريحه . وكان

---

(١) فى س وص .

(٢) فى س وإلا قبض عليه .

(٣) الموضع المناسب للعبارة التالية إلى سطر ١٨ ، ص ١٥٨ — وقد وردت فى س على ورقة منفصلة بين الصفحتين ٤٣ ب ، ٤٤ أ — هو تحت سنة ست وتسعين وخمسمائة . غير أن المؤلف أشار بعلامة عند لفظ " يبلى " ، وكتب " واتفق أن النيل " بهامش الصفحة ، فى اتجاه الورقة المذكورة ، ثم بدأ الكتابة كما هنا ، مكرراً الجملة الافتتاحية المشار إليها . والراجح أن المؤلف قصد بإيراد هذه الأخبار ، التابعة لسنة ست وتسعين ، استقصاء أمر الوباء والمجاعة فى سنة سبع وتسعين من أوله فى العام السابق . وقد أدّى هذا إلى تضليل (Blochet Op. cit. pp. 266-271) فى ترتيب السنين . انظر ص ١٥٤ حاشية ٣ .

القاع ذراعين ، وأخذ يزيد زيادة ضعيفة إلى سادس عشر مسرى ، فزاد إصبعا ، ثم وقف .
ثم زاد زيادة قوية ، أكثرها ذراع ، حتى بلغ خمسة عشر ذراعا وست عشرة إصبعا .
ثم انحط من يومه ، فلم يُنتفع به . وكان الناس قد فنوا ، بحيث بقى من أهل القرية الذين
كانوا خمسمائة نفر إما نفران أو ثلاثة . فلم تجد الجسور من يقوم بها ، ولا القرى من يعمل
مصالحها . وعدمت الأبقار ، بحيث أبيع الرأس بسبعين دينارا ، والهزيل بستين دينارا .
وجافت الطرقات بمصر والقاهرة وقراهما . ثم أكلت الدودة ما زُرع ، فلم يوجد من التقاوى
ولا من العقر ما يمكن به رده .

ودخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة والناس تأكل الأطفال ، وقد صار أكلهم طبعا
وعادة ، وضجر الحكام من تأديبهم . وأبيع[1] القمح — إن وجد — بثمانية دنانير
[الأردب] ، والشعير والفول بستة دنانير . وعدم الدجاج من أرض مصر ، فجلبه رجل
من الشام ، وباع كل فروج بمائة درهم ، وكل بيضتين بدرهم . هذا وجميع الأفران إنما
تقد بأخشاب المساكن ، حتى دخلت سنة ثمان وتسعين . وكان كثير من المساتير يخرجون
ليلا ، ويأخذون أخشاب الدور الخالية ، ويبيعونها نهارا . وكانت أزقة القاهرة ومصر
لا يوجد بها إلا مساكن قليلة ، ولم يبق بمصر عامر إلا شط النيل . وكانت أهل القرى تخرج
للحرث فيموت الرجل وهو ماسك المحراث .

وفى هذه السنة قدم غلام سنه نحو عشر سنين — من عرب الحوف بالشرقية — إلى
القاهرة ، أسمر حلو السمرة ، على بطنه خطوط بيض ناصعة البياض ، متساوية القسمة ،
من أعلاه إلى أسفله ، كأحسن ما يكون من الخطوط . وفيها مات [الأمير بهاء الدين]
قراقوش الأسدى ، فى غرة[3] شهر رجب بالقاهرة ، ودفن بسفح المقطم .

* * *

سنة ثمان وتسعين وخمسمائة . فى أول المحرم رحل الأفضل والظاهر عن
دمشق . فصار الظاهر إلى حلب ، ومعه جماعة من الأمراء الصلاحية ، منهم فارس الدين
ميمون القصرى ، وسرا سنقر ، والفارس البكى ، فأقطعهم الإقطاعات وأكرمهم وتوجه

(١) فى س بلغ . (٢) فى س ويبيعونه .
(٣) فى س عره ، وقد أثبت هذا الرسم لاحتمال قراءته « عشرة » .

الأفضل إلى حمص ، وبها أمه وأهله عند الملك المجاهد . وقدم العادل إلى دمشق ، ونزل بالقلمة ؛ ثم سار منها إلى حماة ، ونزل عليها بعساكره . فقام له الملك المنصور بجميع كلفه ونفقاته ، وأظهر أنه يريد حلب . فخافه الظاهر واستعد للقائه ، وراسل العادل وبعث إليه بهدايا جليلة ولا طفه . فانتظم الصلح بينهما : على أن يكون للعادل مصر ودمشق ، والسواحل وبيت المقدس ، وجميع ما هو فى يده ويد أولاده من بلاد الشرق ؛ وأن يكون للظاهر حلب وما معها ، وللمنصور حماة وأعمالها ، وللمجاهد حمص والرَّحَبَة[١] وتَدْمُر[٢] ، وللأمجد بعلبك وأعمالها ، وللأفضل سميساط وبلادها لا غير ؛ وأن يكون الملك العادل سلطان البلاد [جميعها] . وحلفوا على ذلك . فخُطب للعادل بحلب ، فى يوم الجمعة حادى عشر جمادى الآخرة . وأقطع الأفضلَ قلعة[٣] النجم مع سَرُوْج[٤] وسميساط . وجهز العادل ابنه الأشرف مظفر الدين موسى إلى [الجزيرة] ، ليتسلم حران والرها وما معهما ، ويستقر بالجزيرة ؛ و [يستقر] الأوحد أيوب أخوه[٥] فى ميافارقين . وتَرَتب بقلعة جعبر ابنه[٦] الحافظ نور الدين أرسلان . وأقر [العادل] ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى بدمشق . وعاد العادل من (١٤٤) حماة إلى دمشق ، وقد اتفقت كلمة بنى أيوب .

وفيها قتل المعز إسماعيل بن سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن نجم الدين أيوب : وذلك أنه لما ملك اليمن ـ بعد أبيه ـ خرج عليه الشريف عبد الله الحسنى . ثم خرج عليه

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى التى تعرف برحبة مالك بن طوق ، بينها وبين دمشق ثمانية أيام ، وبين حلب خمسة أيام ، وبين بغداد مائة فرسخ ، وبين الرقة نيف وعشرون فرسخا . وهى بين الرقة وبغداد ، على شاطئ الفرات ، جنوبى قرقيسيا . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٧٦٤) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى مدينة قديمة مشهورة فى برية الشام ، بينها وبين حلب ستة أيام . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٢٨) ؛ انظر أيضاً (Blochet : Op. cit. p. 272, N. 2.)

(٣) فى س قلعة نجم ، بلا تعريف ، وبغير ضبط . وهى قلعة جبلية مطلة على الفرات ، وعندها جسر تعبر عليه القوافل من حران إلى الشام . وكانت تعرف قبلا بقلعة منبج ، وعرفت كذلك بجسر منبج ، فإنها تبعد عنها خمسة وعشرين ميلا فقط . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٦٥) . انظر أيضاً (Blochet : Op. cit. p. 273. N. 2.) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة قريبة من حران (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٨٥) . راجع أيضاً (Blochet : Op. cit. p 372. N. 2) .

(٥) ضمير الهاء على الأشرف موسى .

(٦) الهاء هنا عائد على الملك العادل .

نحو ثمانمائة من مماليكه ، وحاربوه وامتنعوا منه بصنعاء ، فكسرهم وجلاهم عنها . فادعى الربوبية ، وأمر أن يُكتب عنه ويُكاتب بذلك ، وكُتب : "صدرت هذه المكاتبة من مقر الإلهية" . ثم خاف [المعز إسماعيل] من الناس ، فادعى الخلافة ، وانتسب إلى بنى أمية ، وجعل شعاره الخضرة . ولبس ثياب الخلافة ، وعَمِل طول كل كُمّ خمسة وعشرين شبرا فى سعة ستة أشبار . وقَطَع من الخطبة الدعاء لبنى العباس ، وخطب لنفسه على منابر اليمن ، وخطب هو بنفسه يوم الجمعة . فلما بلغ ذلك عمه العادل سير بالإنكار عليه ، فلم يلتفت إلى قوله ، وأضاف إلى ذلك سوء السيرة وقبح العقيدة . فثار عليه مماليك أبيه ، لهوجه وسفكه الدماء ، وحاربوه وقتلوه . ونصبوا رأسه على رمح ، وداروا به بلاد اليمن ، ونهبوا زبيد تسعة أيام . وكان قتله فى رابع عشر رجب ، من سنة ثمان وتسعين . وقام من بعده أخوه الناصر أيوب — وقيل محمد ، وترتب سيف الدين سنقر أتابك العساكر ، ثم استقل سنقر بالسلطنة .

وفيها كان الغلاء بمصر ، فلما طلع النيل رويت البلاد ، وانحل السعر .

* * *

سنة تسع وتسعين وخمسمائة . فيها وصل الفرنج إلى عكا ، وتحرّك أهل صقلية لقصد ديار مصر . فقدم من حلب خمسمائة فارس ومائة راجل ، نجدة إلى العادل وهو بدمشق . فورد كتاب ناصر الدين منكورس بن خُمَارتكين[1] ، صاحب صهيون ، يخبر بنزول صاحب الأرمن[2] على جسر الحديد[3] لحرب أنطاكية ، وأن أكثر الفرنج عادوا من عكا إلى البحر ، ولم يبق بها إلا من عجز عن السفر ، وأن بها غلاء عظيما[4] .

---

(١) مضبوط على منطوقه فى أبى شامة (كتاب الروضتين ، ص ٣٦٧ ، فى Rec. Hist. Or. IV . وقد ضبطه (Blochet: Op. cit. p. 275) بضم الخاء . (٢) صاحب الأرمن فى تلك السنة (Leon II) ، أى ابن لاون الذى تقدم ذكره . راجع أيضا (Enc. Isl. Art. Armenia) . (٣) بلدة على نهر حماة أو العاصى ؛ يمر بها النهر فى مجراه من حماة إلى شيزر ، ثم إلى بحيرة أفامية ؛ فدركوش فجسر الحديد ؛ ومنها إلى أنطاكية (G.-Demombynes : Op. cit. p. 171) . (٤) فى س عظيم .

وفيها نازل الأشرف موسى بن العادل ماردين مدة، ومعه الأفضل[١] . ثم تقرر الصلح على أن يحمل [ناصر الدين أرسلان الأرتقى صاحب ماردين[٢]] للعادل مائة ألف وخمسين ألف دينار صورية ، ويخطب له بها ، ويضرب السكة باسمه . فعاد الأشرف إلى حرّان . وفيها جهز العادل الملكَ المنصور بن العزيز [عثمان] من مصر إلى الرها بأمه وإخوته ، خوفا من شيعته . وفيها شرع العادل فى بناء فَصِيل[٣] دائر على سور دمشق بالحجر والجير(٤٤ ب) ، و [فى] تعميق الخندق وإجراء الماء إليه . وقدم من عند العادل إلى القاهرة خلق لحفظ دمياط من الفرنج .

وفيها قصد الفرنج من طرابلس ، ومن حصن الأكراد وغيرها ، مدينة حماة فركب إليهم المنصور فى ثالث رمضان ، وقاتلهم فهزمهم وأسر منهم وغنم ، وعاد مظفراً . فورد الخبر بوصول الفرنج إلى عكا من البحر فى نحو سبعين ألفا ، وأنهم يريدون الصلح مع الأرمن على حرب المسلمين . وخرج جمع من الإسبتار[٤] من حصن الأكراد والمرقب ، فى شهر رمضان أيضا . فخرج إليهم المنصور ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأسر جماعة ، وانهزم من بقى .

وفيها بلغ العادل أن الملك الأفضل علىّ ابن أخيه كاتب الأمراء ، فأمر ابنه الأشرف [موسى] أن ينتزع منه رأس عين وسروج ، وكتب إلى الظاهر أن يأخذ منه قلعة نجم ، ففعلا ذلك ، ولم يبق معه سوى سميساط لا غير . فسير [الأفضل] أمه إلى العادل لتشفع فيه ، فقدمت عليه إلى دمشق ، فلم يقبل شفاعتها ، وأعادها خائبة . وكان هـذا عبرة ، فإن

---

(١) فى س ومعه الأفضل مده .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١١٧ ؛ وكذلك Lane-Poole : Muh. Dyns. p. 168) .

(٣) الفصيل حائط قصير دون الحصن ، أو دون سور البلد . (محيط المحيط) . ويقابله فى الفرنسية (Avant-Mur.) ، وفى الإنجليزية (Barbecan) أو (Screen-wall) . راجع (Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٤) فى س الاستبار بتاء ثم باء ، وتحريف الاسم هكذا شائع فى هذا الجزء من السلوك ، ولعله النطق الذى تواتر فى اللغة العربية ، لخفته على اللسان . وسيصحح إلى الرسم الوارد بالمتن بالباء أولا ، بغير تنبيه ، لقربه من أصل منطوقة فى اللغات الأوروبية .

صلاح الدين لما نازل الموصل خرجت إليه الأتابكيات[١]، ومنهن ابنة نور الدين محمود بن زنكى ، يستغثن إليه فى أن يبقى الموصل على عز الدين مسعود ، فلم يجبهن وردّهن خائبات . فعوقب [صلاح الدين] فى ولده الأفضل علىّ بمثل ذلك . وعادت أمه خائبة من عند العادل . ولما بلغ الأفضل امتناع عمه عن إجابة سؤال أمه قطع خطبته ، ودعا للسلطان ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان السلجوقى ، صاحب الروم .

وفيها زاد ماء النيل زيادة كثيرة ، ورخصت الأسعار . وفيها انقضت دولة الهواشم بمكة[٢] وقدم إليها حنظلة بن قتادة بن إدريس بن مطاعن من ينبع . فخرج منها مكثر بن عيسى بن فُلَيْتَة[٣] إلى نَخْلة ، فأقام بها ومات سنة ستمائة . ثم وصل محمد بن مكثر إلى مكة ، فحاربوه وهزموه . ثم قدم قتادة أبو عزيز بن إدريس ، فاستمرّ بمكة هو وولده من بعده أمراء إلى أعوام كثيرة .

* * *

سنة ستمائة . فيها تقرّر الصلح بين العادل و بين الفرنج ، وانعقدت الهدنة بينهما ، وتفرّقت العساكر . وفيها نازل ابن لاون أنطاكية حتى هجم عليها ، وحصر الإبرنس[١] بقلعتها .

---

(١) يقصد المؤلف آل بيت نور الدين محمود زنكى وعبارة المقريزى هنا أيضا تدل بوضوح على أنه اقتبس بحرية من ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١١٩) .

(٢) كان أمراء مكة ، منذ سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٦ م) ، من بيت أبى جعفر بن موسى الحسنى الهاشمى وكانوا تابعين للدولة الفاطمية ، بشمال إفريقية ومصر ، حتى استقل أبو الفتوح بن أبى محمد جعفر عنها لمدة قصيرة . ثم تغلب بنو فاتق على مكة ، وانتزعوها من بنى موسى . وتلاهم فى إمارتها بيت حسنى هاشمى آخر سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) ، وبقيت فى يد أمراء هذا البيت الأخير إلى سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) ، حين جاء قتادة بن إدريس المذكور فى المتن ، وهو السبط العاشر من ولد موسى الحسنى الهاشمى المتقدم ذكره والسادس عشر من على بن أبى طالب . هذا وقد بقيت مكة فى يد أمراء بنى قتادة حتى مجىء الوهابيين . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٦٧ـ٢٧٥) ؛ و (Hogarth : A Hist. of Arabia, pp. 82 et aeq.) . انظر أيضا (Enc. .Isl Arts. Mecca, Ḳatāda)

(٣) ضبط فى س بفتح الفاء فقط . انظر (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٢٧١) .

(٤) فى س الايرنس . ويقصد المؤلف الأمير بيمند الرابع (Bohemond IV of Antioch) ، وهو الذى حالف الظاهر صاحب حلب ، كما فعل أبوه (Bohemond III) من قبله ، ضد (Leon I) صاحب أرمينية . انظر (Stevenson : Crusadcrs In The East, PP. 298—800) .

فخرج الظاهر من حلب نجدة له ، ففرّ ابن لاون . وفيها أوقع الأشرف [موسى بن العادل] بعسكر الموصل ، وهزمهم ونازلها ، وبها[1] السلطان نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكى أتابك بن آقسنقر . ونهب [الأشرف] البلاد نهبا قبيحا ، و بعث إلى أبيه العادل بالبشارة ، فاستعظم ذلك وما صدّقه ، وسُرَّ به سرورا كثيرا .

وفيها ملك الإفرنج مدينة القسطنطينية من الروم[2] . وفيها تجمع الإفرنج بعكا من كل جهة (١٤٠ ا) يريدون أخذ بيت المقـدس . فخرج العادل من دمشق ، وكتب إلى سائر الممالك يطلب النجدات ، فنزل قريبا من [جبل] الطُّور[3] على مسافة يسيرة من عكا . وعسكر الفرنج بمرج عكا ، وأغاروا على كَفْر كَنَّا[4] ، وأسروا من كان هناك ، وسبوا ونهبوا . وانقضت هذه السنة والأمر على ذلك .

وفيها مات ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج[5] أرسلان بن سليمان ابن قطلومش بن بيغو أرسلان بن سلجوق صاحب الروم ، فى سادس ذى القعدة . وقام من بعده ابنه عز الدين قلج أرسلان ، وكان صغيرا ، فلم يستتب أمره . وفيها عاد الأشرف [موسى] ابن العادل إلى حران بأمر أبيه . وهم العادل برحيله إلى مصر ، فقدم عليه ابنه الأشرف ، ثم عاد إلى حران .

وفيها خرج أسطول الفرنج إلى مصر ، وعبر النيل من جهة رشيد . فوصل إلى فوّة ، وأقام خمسة أيام ينهب ، والعسكر تجاهه ليس له إليه وصول ، لعدم [وجود] الأسطول [العادلى[6]] .

---

(١) فى س وفيها . وقد صححت حتى لا يحدث لبس مثل الذى وقع فيه كاتب نسخة ب (٣٠ ب) ، وأدى إلى اضطراب (Blochet : Op. cit. P. 282. N. 2) فى ترجمته .

(٢) لم يعن المقريزى بذكر تفاصيل هذا الحادث التاريخى العظيم ، كما فعل ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٢٤ — ١٢٦) .

(٣) بغير ضبط فى س ، ويسمى أيضاً جبل طابور ، وهو أقرب إلى طبرية وحطين منه إلى عكا . (انظر ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٥٠٧ ؛ و .(G.-Demombynes: Op. cit. p. 124. N. 4 .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى بلد بين طبرية والناصرة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٩٠) ؛ وكذلك .G.-Demombyness : Op. cit. pp. 123, 124)

(٦) عبارة المقريزى هنا ، وفيما يلى عن الزلزال (سطر ٢ بالصفحة التالية) منقولة بنصها تقريبا عن ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٣٠) .

وفيها أوقع الأمير شرف[1] الدين قراقوش [التقوى] المظفرى ببلاد المغرب ، فقُبض عليه وحمل إلى ابن عبد المؤمن . وفيها كانت زلزلة عظيمة ، عمت أكثر أرض مصر والشام ، والجزيرة و بلاد الروم ، وصقلية وقبرس ، والموصل والعراق ؛ و بلغت إلى سبتة ببلاد المغرب . وفيها ملك الفرنج قسطنطينية من أيدى الروم ، فلم يزالوا بها حتى استعادها الروم منهم ، فى سنة ستين وستمائة .

* * *

سنة إحدى وستمائة . فيها تم الصلح بين الملك العادل و بين الفرنج ، وتقرّرت الهدنة مدّة ، وشرطوا أن تكون يافا لهم ، مع مناصفات لد والرملة ، فأجابهم [العادل] إلى ذلك . وتفرّقت العساكر ، وسار العادل إلى القاهرة ، فنزل بدار الوزارة ، واستمرّ ابنه الكامل بقلعة الجبل ، وشرع فى ترتيب أمور مصر . وفيها مات الأمير عز الدين إبراهيم بن الجُوَيْنِى[2] ، والى القاهرة ، فى سلخ جمادى الأولى . وفيها ورد الخبر بأن الفرنج أخذوا القسطنطينية[3] من الروم . [وفيها] غارت الفرنج الإسبتارية على حماة فى جمع كبير ، لأن هدنتهم انقضت ، فقتلوا ونهبوا ، ثم عادوا . وفيها قدم الملك المنصور صاحب حماة على عمه الملك العادل بالقاهرة ، فسر به وأكرمه ، ثم رجع بعد أيام . وفيها أغار الفرنج على حمص ، وقتلوا وأسروا . فخرج العادل من القاهرة إلى بركة الجب ، ثم عاد . وفيها أغار فرنج طرابلس على جبلة واللاذقية ، وقتلوا عدة من المسلمين ، وغنموا وسبوا شيئا كثيرا .

وفيها أخذ الصاحب صفى الدين عبد الله بن شكر يُغْرِى الملك العادل بأبى محمد مختار ابن أبى محمد بن مختار ، المعروف بابن قاضى دارا ، وزير الملك الكامل ، حتى نقم عليه وطلبه . فخاف عليه الكامل ، وأخرجه (٥٤ ب) من مصر — ومعه ابناه فخر الدين وشهاب الدين — إلى حلب ، فأكرمهم الملك الظاهر . ثم ورد عليه من الكامل كتاب يستدعيه إلى مصر ،

(١) فى س بها الدين . (٢) بغير ضبط فى س ، والجوينى نسبة إلى بلدة جوين ، وهى إحدى ثلاث بلاد بهذا الاسم . انظر (Enc. Isl. Arts. Djuwain & Djunwaini) .

(٣) فى س قسطنطينه ، ويوجد فى (Blochet : Op. cit. p. 84. N.1.) ترجمة من الفارسية لما جاء فى كتابه جامع التواريخ لرشيد الدين عن فتح الفرنج اللاتين للقسطنطينية .

فخرج ونزل بعين المباركة ظاهر حلب . فلما كان فى ليلة الرابع والعشرين[(١)] من ذى القعدة ، أحاط به نحو الخمسين فارسا فى أثناء الليل ، وأيقظوه وقتلوه . ثم قالوا لغلمانه : "احفظوا أموالكم ، فما كان لنا غرض سواه" . فبلغ ذلك الظاهر فارتاع له ، وركب بنفسه حتى شاهده ، و بعث الرجال فى سائر الطرقات ، فلم يقف لقتلته[(٢)] على خبر ، فكانت هذه القضية من أعجب ما سمع .

سنة اثنتين وستمائة[(٣)] . فيها قُبض على الأسعد أبى المكارم بن المهذّب بن مماتى صاحب الديوان ، فى جمادى الآخرة ، وعُلق برجليه . وفيها قُبض على الأمير عبد الكريم[(٤)] ، أخى القاضى الفاضل ، وأُخذ خطه بعشرين ألف دينار وأدّاها . وأُخذ من [شرف الدين[(٥)]

(١) فى س الرابع عشرين . (٢) فى س لقتله .

(٣) أخبار هذه السنة كلها مكتوبة على هامش الصفحة ، ويسبقها هامش مشطوب نصه : " وفيها مات ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان بن مسعود صاحب قونية ، وملك بعده ابنه قلج ارسلان بن سليمان" . وقد تقدمت هذه الوفاة فى ص ١٦٣ .

(٤) فى س الأثير . (٥) موضع ما بين القوسين بياض فى س . وكان ابن قريش هذا كاتب ديوان الإنشاء ، ويغلب أنه كان موسرا ، فقد ابتنى بالقاهرة فندقا عرف باسمه ، وعن هذا الفندق وبانيه كتب المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٩٣) فى باب ذكر الخانات والفنادق ، مانصه : " فندق ابن قريش ، استجده القاضى شرف الدين إبراهيم بن قريش ، كاتب الإنشاء ... [واسمه] إبراهيم بن عبد الرحمن بن على بن عبد العزيز بن على بن قريش ، أبو إسحاق القرشى المخزومى المصرى ، الكاتب شرف الدين ، أحد الكتاب المجيدين خطا وإنشاء . خدم فى دولة الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وفى دولة ابنه الملك الكامل ، بديوان الإنشاء . وسمع الحديث بمكة ومصر ، وحدّث . وكانت ولادته بالقاهرة ، فى أول يوم من ذى القعدة ، سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة . وقرأ القرآن وحفظ كثيراً من كتاب المهذب فى الفقه ، على مذهب الإمام الشافعى . وبرع فى الأدب ، وكتب بخطه ما يزيد على أربعمائة مجلد . ومات فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى ، سنة ثلاث وأربعين وستمائة " .

هذا وقد تقدم ذكر والد شرف الدين هذا فى ص ٨٥ ، واسمه القاضى المرتضى عبد الرحمن بن قريش ، وهو الذى تولى قراءة العهد الذى أوصى به السلطان صلاح الدين يوسف فى حياته لآل بيته ، سنة ٥٧٩ هـ . وكان للقاضى المرتضى قيسارية بالقاهرة ، عرفت باسمه ، كما عرف الفندق الذى بناه ابنه من بعده بفندق ابن قريش . ووصف المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٨٦) تلك القيسارية ، فى باب ذكر القياسر ، وترجم أيضاً لصاحبها ، بما نصه : " هذه القيسارية فى صدر سوق الجملون الكبير ، بجوار باب سوق الوراقين . ويسلك إليها من الجملون ومن سوق الأخفافيين ، المسلوك إليه من البندقانيين . وبعضها الآن سكن الأرمنيين (كذا) ، وبعضها سكن البزازين . قال ابن عبد الظاهر : استجدها =

إبراهيم بن عبد الرحمن] بن قريش خمسة آلاف دينار . وفيها باشر التاج ...[١] بن الكمكى ديوان الجيش . وفيها ضَرب الصاحب صفى الدين عبد الله بن علىّ بن شكر الفقيه نصرا فى وجهه بالدواة ، فأدماه[٢] .

* * *

سنة ثلاث وستمائة . فيها كثرت الغارات من الفرنج على البلاد ، فخرج الملك العادل إلى العباسة ، ثم أغَذَّ[٣] السير إلى دمشق . ثم برز منها إلى حمص ، فأتته العساكر من كل ناحية ، فاجتمع عنده عشرات الآلاف . وأشاع أنه يريد طرابلس ، فلما انقضى شهر رمضان توجه إلى ناحية حصن الأكراد فنازله ، وأسر خمسمائة رجل وغنم . وافتتح قلعة أخرى . ثم نازل طرابلس ، وعاثت العساكر فى قراها ، ولم يزل على ذلك إلى أيام من ذى الحجة . ثم عاد إلى حمص — وقد ضجرت العساكر — فبعث صاحب طرابلس يلتمس الصلح ، وسيَّر مالا وثلاثمائة أسير وعدّة هدايا ، فانعقد الصلح فى آخر ذى الحجة .

وفيها حدثت وحشة بين العادل و بين ابن أخيه الملك الظاهر ، صاحب حلب . فتردّدت بينهما الرسل حتى زالت ، وحلف كل منهما لصاحبه . وكثر فى هذه [السنة] تخريب العادل لقلاع الفرنج وحصونهم . وفيها عزل الصاحبُ ابن شكر البدرَ ابن الأبيض قاضى العسكر ، وقرّر مكانه نجم الدين خليل بن المصمودى الحموى . وفيها[٤] قدم مانع بن سليمان شيخ آل دُعَيْج[٥] من غُزَيَّة[٦] ، التى فيما بين بغداد ومكة[٧] .

= القاضى المرتضى بن قريش ، فى الأيام الناصرية الصلاحية ، وكان مكانها إسطبلا (...) ... وهو القاضى المرتضى صفى الدين أبو المجد عبد الرحمن بن على بن عبد العزيز بن على بن قريش المخزومى ، أحد كتاب الإنشاء فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . قتل شهيدا على عكا ، فى يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى ، سنة ست وثمانين وخمسمائة . ودفن بالقدس ، ومولده فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة . وسمع السلفى وغيره " .

(١) بياض فى س . (٢) يظهر أن قلة أخبار هذه السنة فى السلوك راجع إلى وقوع معظم حوادثها بحلب ، فلتراجع فى تاريخ حلب لابن العديم . انظر (Blochet : Op. cit. p. 286. N. 1.) .

(٣) أغذ السير ، وفى السير : أسرع . (محيط المحيط) . (٤ و ٧) العبارة الواردة بين الرقمين موجودة بهامش الصفحة فى س ، وهى فى ب (١٥٥) آخر أخبار السنة خطأ ، وليست فى : (Blochet Op. cit. P. 287) بتاتا . (٥) بغير ضبط فى س ، انظر قاموس المحيط .

(٦) بغير ضبط فى س ، وهى فى الطريق بين مكة والكوفة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٨٠٠ ، ٩٢٧) . (٧) انظر حاشية ٤ .

ومات [فى هذه السنة] عبد الرحمن بن سـلامة قاضى الإسكندرية بها ، يوم الأربعاء ثامن صفر . وفيها نفى الأشرف...[1] بن عثمان الأعور ، واعتقل أخوه علم الملك . و [فيها] ماتت أم الملك المعظم بن العـادل بدمشق ، فى يوم الجمعة عشرى ربيع الأول ، ودفنت بسفح قاسيون .

* * *

سنة أربع وستمائة . فيها عاد الملك العادل إلى دمشق ، بعد انعقاد الصلح بينه وبين ملك الفرنج بطرابلس . و [فيها] بَعَث [العادل] أستاداره الأمير ألْدَكُز[2] العادلى ، وقاضى العسكر نجم الدين خليل المصمودى ، إلى الخليفة فى طلب التشريف والتقليد ، بولاية مصر والشام والشرق وخلاط . فلما وصلا إلى بغداد أكرمهما الخليفة الناصر لدين الله ، وأحسن إليهما وأجابهما ، وسيَّر الشيخ شهاب الدين أبا عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عَمُّويَه السُّهْرَوَرْدِى[3] ، ومعه التشريف الخليفتى[4] والتقليد ، وخلعة للصاحب صفى الدين بن شكر ، وخلع[5] لأولاد العادل : وهم الملك (١٤٦ ا)[6] المعظم ، والملك الأشرف ، والملك الكامل . فعندما قارب [الشيخ أبوحفص] حلب خرج الملك الظاهر بعساكره إلى لقائه ، وأكرم نزله . وفى ثالث يوم من قدومه أمر بكرسى فنصب له ، وجلس عليه للوعظ . وجلس الظاهر ومعه الأعيان ، فصدع بالوعظ حتى وجلت القلوب ودمعت العيون . وأخبر [الشيخ] فى وعظه بأن الخليفة أطلق — فى بغداد وغيرها — من المؤن والضرائب ، ما مبلغه ثلاثة آلاف ألف دينار .

---

(١) بياض فى س . (٢) مضبوطة هكذا فى س .

(٣) نسبة إلى سهرورد ، وهو بلد بأرض الجبال ، جنوبى السلطانية ، على الطريق بين همذان وزنجان . وقد خرج من هذا البلد جماعة من العلماء والصالحين ، ومنهم أبو حفص عمر المذكور هنا ، وكنيته فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ — ٢٠٤) أبو نصر . وهو صوفى شافعى المذهب ، وكان إمام وقته لسانا وحالا . وقد تقدم عند أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، حتى جعله مقدما على شيوخ بغداد ، وأرسله فى الرسائل العظيمة . وقد صنف السهروردى هـذا كتابا سماه عوارف المعارف . انظر (Enc. Isl. Arts. Suhraward & Suhrawardi) .

(٤) اصطلح عامة المؤرخين على هذه النسبة رغم خطئها . (٥) فى س وخلعا .

(٦) توجد بين ملتصق الصفحتين ٤٥ ب ، ٤٦ ا ورقة ، بها نبذة طويلة ، يرجح أنها من أخبار حصار الفرنج دمياط سـنة ٦١٥ هـ ، وقد لصقت بين هاتين الصفحتين خطأ ، فأرجئ إيراد ما بها إلى موضعه المناسب .

ثم سار من حلب ، ومعه القاضى بهاء الدين بن شدّاد ، وقد دفع إليه الظاهر ثلاثة آلاف دينار ، برسم النِّثَار[١] إذا لبس عمه العادل خلعة الخليفة . و بعث الملك المنصور من حماة أيضا مبلغا للنثار . وخرج العسكر من دمشق إلى لقائه ، ثم خرج العادل بابنيه الأشرف موسى والمعظم عيسى ، و برز سائر الناس لمشاهدة ذلك ، فـكان يوما مشهودا . ولما دخل [الشيخ أبو حفص دمشق] جلس العادل فى دار رضوان ، وأفيضت عليه الخلع ، وهى جبة أطلس أسود واسعة الكم بطراز مذهب ، وعمامة سوداء بطراز ذهب ، وطوق ذهب بجوهر ثقيل . وقُلِّد [العادل أيضا] بسيف محلى ، جميع قرابه من ذهب . ورَكِب حصانا أشهب بركب ذهب ، ونُشر على رأسه علم أسود ، مكتوب فيه بالبياض ألقاب الخليفة ، مركب فى قصبة ذهب وتقدم القاضى ابن شداد فنثر الذهب ، وقدم له خمسين خامة ؛ ونثرت رسل الملوك بعده . ثم لبس الأشرف والمعظم خلعتيهما وهما عمامة سوداء ، وثوب أسود واسع الكم . ثم خُلع على الصاحب صفى الدين بن شكر الوزير كذلك . وركب العادل — ومعه ابناه ووزيره — بالخلع الخليفتية ، وقد زينت البلد . ثم عادوا إلى القلعة ، واستمرت زينة البلد ثمانية أيام . وقرأ التقليدَ الصاحب صفى الدين على كرسىّ ، وخوطب العادل فيه بشاهنشاه ، ملك الملوك ، خليل أمير المؤمنين . وكان الوزير فى حال قراءته قائما على الـكرسى ، والعادل وسائر النـاس أيضا قيام ، إجلالا للخليفة . ثم سار الشهاب السهروردى إلى مصر ، فأفاض على الملك الـكامل الخلعة الخليفتية ، وجرى من الرسم كما وقع بدمشق ، ثم عاد إلى بغداد .

وفيها أمر العادل بعمارة قلعة دمشق ، وفرق أبراجها على الملوك ، فعمروها من أموالهم .

وفيها اتسعت مملكة العادل ، فلما تمهدت له الأمور قسم مملـكته بين أولاده . فأعطى ابنه الملك الـكامل ناصر الدين (٤٦ ب) محمدا[٢] مملكة مصر ، ورتب عنده القاضى الأعز فخر الدين مقدام بن شكر . وأعطى ابنه المعظم شرف الدين عيسى من العريش إلى حمص ، وأدخل

---

(١) النثار ، بكسر النون ، ما ينثر فى العرس للحاضرين ؛ وبضم النون ، ما ينتثر من المائدة فيؤكل للثواب . (المحيط) .

(٢) فى س محمد .

فى ولايته بلاد الساحل الإسلامية ، و بلاد الغور وأرض فلسطين ، والقدس والكرك ، والشوبك وصرخد . وأعطى ابنه الملك الأشرف مظفر الدين موسى البلاد الشرقية ، وهى الرها وما معها من حران وغيرها ، وأعطى ابنه الملك الأوحد نجم الدين أيوب خِلاط وميافارقين وتلك النواحى . وكان الأوحد قد بعث إليه أهل خِلاط ليملكها ، فسار من ميافارقين وملكها .

وفيها كَمَّل الملك الكامل محمد بناء قلعة الجبل ، وتحوّل إليها من دار الوزارة بالقاهرة ، فكان أوّل من سكنها من ملوك مصر . ونُقل إليها أولاد [الخليفة] العاضد [الفاطمى] وأقاربه ، فى بيت [على] صورة حبس ، فأقاموا به إلى أن حُوِّلوا منه ، فى سنة إحدى وسبعين وستمائة[1] .

وفيها[2] توفى الأمير داود بن العاضد فى محبسه ، وكانت الإسماعيلية تزعم أن العاضد عهد إليه ، وأنه الإمام من بعده . فاستأذن أصحابُه [الملكَ] الكامل أن ينوحوا عليه ويندبوه ، فأذن لهم . فبرزت[3] النساء حاسرات ، والرجال فى ثياب الصوف والشعر . وأخذوا فى ندبه والنياحة عليه ، واجتمع معهم من كان فى الاستتار من دعاتهم . فلما تكامل جمعهم أرسل الكامل إليهم طائفة من الأجناد نهبوا ما عليهم ، وقبضوا على المعروفين منهم فملأ بهم السجون ، واستصفى أموال ذوى اليسار منهم ففر من بقى ، وزال من حينئذ أمر الإسماعيلية من ديار مصر ، ولم يجسر أحد بعدها [أن] يتظاهر بمذهبهم .

* * *

سنة خمس وستمائة . فيها سار الكرج[4] ونهبوا أعمال خلاط ، وأسروا وغنموا ؛ فلم يجسر الأوحد أن يخرج إليهم من مدينة خلاط فلما بلغ ذلك العادل أخذ فى

(١) قبالة هذه الفقرة ، بهامش الصفحة فى س ، ما نصه : " انظر أوّل من سكن قلعة الجبل من الملوك ، ومدّة اعتقال [بقايا] الفاطميين " . وهو بخط مخالف . (٢) بقية أخبار هذه السنة واردة بورقة منفصلة بين ملتصق الصفحتين ٤٦ ب ، ٤٧ ا تحت عنوان نصه : " سنة أربع وستماية " .

(٣) فى س فبرز . (٤) فى س الكرح ، بغير ضبط ، والكرج أمة من المسيحيين ، مساكنها بجبال القوقاز (جبال قبق) ، المجاورة لتفليس . وكانت جهة أبخاز معقلهم ، ثم استولوا على تفليس من المسلمين سنة ٥١٥ هـ ، حسبما جاء فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٨ ، ٨٥٨) . ولم يزالوا متملكين على تفليس ، وأبخاز معقلهم ، حتى أغار عليهم خوارزم شاه جلال الدين ، سنة ٦٢١ هـ ، فاستولى على تفليس منهم .

(Allen : History Of The Georgian, People. pp. 85 - 112).

التجهيز لحرب الكرج ، وسار الأشرف من دمشق يريد بلاده بالشرق . وفيها قتل الملك معز الدين سنجرشاه ابن غازى بن مودود بن زنكى بن آقسنقر الأتابكى ، صاحب الجزيرة . قتله ابنه محمود ، وقام فى الملك من بعده . وفيها بعث الأمير سيف الدين سنقر ، أتابك اليمن ، عشرة آلاف دينار مصرية إلى الملك العادل ، عليها اسمه .

وفيها مات القاضى مكين الدين مظهر بن حمدان ، بقلعة بصرى فى شهر رجب . ومات هلال الدولة وشاب بن رَزِين[1] ، والى القاهرة . وعُزل الأمير سيف الدين علىّ بن كِهْدَان[2] عن ولاية مصر ، وعُزل الأسعد بن حمدان عن الشرقية ، وباشرها خشخاش الوراق . وفيها توفى قاضى القضاة صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس المارانى ، يوم الأربعاء خامس رجب . و[كان قد] قدم مصر فى رابع رجب ، سنة خمس وستين وخمسمائة ، فتكون مدّة مقامه بديار مصر أربعين سنة .

* * *

سنة ست وستمائة . فيها خرج العادل من دمشق يريد محاربة الكرج ، ومعه الملوك [من بنى أيوب : وهم الملك المنصور صاحب حماة ، والملك المجاهد صاحب حمص ، والملك الأمجد صاحب بعلبك[3] . وأرسل إليه الملك الظاهر غازى صاحب حلب جيشا] . فنزل [العادل] حران ، وأتته النجدات [مع ولديه الملك الأوحد صاحب خلاط وميافارقين ، والملك الأشرف موسى ، وغيرهما][4] . فاستولى على نصيبين ، ونازل سنجار ، وبها الملك قطب الدين محمد بن زنكى . فكانت بينهما عدّة وقائع ، بعث فى أثنائها صاحب سنجار إلى الخليفة الناصر [لدين الله] ، وإلى الملك[5] [الظاهر غازى صاحب حلب ، وإلى كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب الروم ، وغيرهما] يستنجد بهم على العادل . فقال

---

(١) مضبوط على ما هى له فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٥) .

(٢) مضبوط على منطوقه فى أبى شامة (كتاب الروضتين ، ص ١٢٤ ، ١٦٦ ، فى Rec. Hist. Or. V.) .

(٣ و ٤) راجع Blochet : Op. cit. p. 292. N. I. ؛ وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٨٧ — ١٨٩) .

(٥) فى س الملوك . وقد أضيف ما بين القوسين من المرجعين المذكورين بالحاشية السابقة .

إليه عدّة من الملوك ، عونا له على العادل ، ففارقه عدة ممن كان معه على حصار سنجار ، ودسوا إلى جماعة من أصحابه الدسائس ، ففسدت أحواله ، وقدم عليه رسول الخليفة ، [وهو[1] هبة الله بن المبارك بن الضحاك] يأمره بالرحيل ، فقال له الإمام [الخليفة] الناصر : " قال لك بحياتى يا خليلى ارحل " . فعاد [العادل] إلى حران ، وتفرّقت العساكر عنه .

و [فيها] حصلت بين العادل و بين [وزيره] الصاحب ابن شكر منافرة ، أوجبت غضبه وسفره فى البرية ، فركب المنصور صاحب حماة ، وفخر الدين جهاركس صاحب بانياس ، حتى لحقاه فى رأس عين ؛ وقدما به على العادل فرضى عنه ، ومن حينئذ انحطت منزلته .

وفيها مات الملك المؤيد نجم الدين مسعود بن صلاح الدين يوسف بن أيوب برأس عين ، وقيل إنه سُمّ ، فحمل إلى حلب ليدفن بها . وفيها عاد الملك العادل إلى دمشق . وفيها ولى الأمير المكرم بن اللمطى قوص ، فى ذى القعدة .

***

سنة سبع وستمائة . فيها ظفر الملك الأوحد بن العادل بملك الكرج ، (٤٧ ا) ففدى نفسه منه بمائة ألف دينار ، وخمسة آلاف أسير من المسلمين . وأن يلتزم الصلح ثلاثين سنة ، وأن يزوّجه ابنته بشرط ألا تفارق دينها . فأطلقه [الأوحد] ، وردّت[2] على المسلمين عدة قلاع .

وفيها مات الأوحد ، وملك خلاط بعده أخوه الأشرف . وفيها تحرك الفرنج إلى الساحل ، واجتمعوا فى عكا ، فخرج الملك العادل من دمشق ، فوقع بينه و بينهم صلح . وأخذ العادل فى عمارة قلعة الطور بالقرب من عكا ، وسار إلى الكرك ، فأقام بها أياما . ثم رحل إلى مصر ، فدخل القاهرة ونزل بدار الوزارة .

وفيها مات الأمير فخر الدين جهاركس . وفيها تحرك الفرنج [ثانيا] ، فتجهز العادل للسفر إلى الشام . وفيها كُفت يد الصاحب صفى الدين بن شكر عن العمل . وفيها مات السلطان

(١) رافق ابن المبارك إلى الملك العادل رسول ثان ، أتى معه من بغداد ، وهو الأمير آق باش ، أحد خواص مماليك الخليفة الناصر لدين الله . (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٨٩) .

(٢) فى س ورد .

نور الدين أرسلان شاه بن السلطان مسعود الأتابكى صاحب الموصل ، فى شهر رجب . وكانت مدّة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهراً وأقام من بعده ابنه الملك القاهر عز الدين مسعود ، وقام بتدبيره الأمير بدر الدين لؤلؤ الأتابك ، مملوك أبيه .

وفيها شرب ملوك الأطراف كأس الفتوّة[1] للخليفة الناصر ، ولبسوا سراويل الفتوة [أيضاً] فوردت عليهم الرسل بذلك ، ليكون انتماؤهم له . وأمِر كلُّ ملك أن يسقى رعيته و يلبسهم ، لتنتمى كل رعية إلى ملكها ، ففعلوا ذلك . وأحضر كل ملك قضاة مملكته ، وفقهاءها وأمراءها وأكابرها ، وألبس كلا منهم له ، وسقاه كأس الفتوة . وكان الخليفة الناصر مغرما بهذا الأمر ، وأمَرَ الملوكَ أيضا أن تنتسب إليه فى رمى البندق[2] ، وتجعله قدوتها فيه .

---

(١) فى س الفتوة بغير ضبط ، وتكررت بنقط الفاء فقط ، وبغير ضبط أيضا . وبهامش الصفحة العبارة الآتية : " انظر كاس الفتوة وسراويلها " ، بخط مخالف . وبالحاشية التالية شرح لذلك كله .

(٢) يذكر زيدان (تاريخ التمدن الإسلامى ، ج ٥ ، ص ١٥٣ — ١٥٤) نبذة عن البندق ، فى باب ألعاب الخلفاء وملاهيهم ، وقد أشار إلى أنه اقتبسها من عدة مراجع موثوق بها ، كالمقريزى وابن الأثير وابن خلدون وأبى الفداء وأبى الفرج صاحب الأغانى ، ونصه : "البندق كرات تصنع من الطين ، أو الحجارة أو الرصاص ، أو غيرها ، وهى فارسية بلفظها واستعمالها ، ويسمونها أيضاً الجلاهقات ، جمع جلاهق ... واقتبس العرب هذه اللعبة فى أواخر أيام [الخليفة] عثمان بن عفان ، وعدّوا ظهورها فى المدينة منكرا ، ثم ألفوها حتى شكلوا فرقاً من الجند ترمى بها ... ... وكان رماة البندق فى العصر العباسى طائفة كبيرة ، يخرجون إلى ضواحى المدن ، يتسابقون فى رميه على الطير ونحوه ، ويعدون ذلك من قبيل الفتوة . ويغلب فى رماة البندق أن يشتغلوا بتطيير الحمام ، ولهم زى خاص ، يمتاز بسراويل كانوا يلبسونها ، ويسمونها سراويل الفتوة ، وكان العيارون من أهل بغداد يلبسونها فى أواخر الدولة ، حتى إذا أفضت الخلافة إلى الناصر لدين الله العباسى ، المتوفى سنة ٦٢٢ هـ ، جعل لرمى البندق شأنا ، لأنه كان ولعاً به ، وباللعب بالحمام المناسيب ، وكان يلبس سراويل الفتوة ، وقد بلغ من رغبته فى ذلك ، حتى جعل رمى البندق فنا ، لا يتعطاه إلا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها ، على أن يكون بينهم روابط وثيقة ، نحو ما عند بعض الجمعيات السرية . وجعل [الخليفة] نفسه رئيس هذه الطائفة ، يدخل فيها من شاء ، ويحرم من شاء . وكتب [الناصر] سنة ٦٠٧ هـ إلى ملوك الأطراف ، الذين يعترفون بخلافته ، أن يشربوا له كأس الفتوة ، ويلبسوا سراويلها ، وأن ينتسبوا إليه برمى البندق ، ويجعلوه قدوتهم فيه ، فأجابوه إلى ذلك . فمن أراد الانتظام فى سلك هذه الطائفة يأتى بغداد ، فيلبسه الخليفة السراويل بنفسه . فبطلت الفتوة فى البلاد جميعها ، إلا من لبس سراويلها منه ؛ ومنع الرمى بالبندق ، إلا من ينتسب إليه . فأجابه الناس فى فى العراق وغيره ، إلا إنسانا [واحدا] اسمه ابن السفت من بغداد ، فإنه] هرب إلى الشام . فأرسل الخليفة إليه يرغبه ببذل المال ، ليرمى عنه وينتسب فى الرمى إليه ، فلم يفعل . فلامه بعضهم على ذلك ، فقال : يكفينى فخراً أنه ليس فى الدنيا أحد لا يرمى للخليفة إلا أنا . وكان لرمى البندق شأن كبير فى العصور الإسلامية الوسطى ، بالعراق والشام ومصر وفارس وغيرها . وخط البندقانيين بالقاهرة ينسب=

وفيها قدم إلى القاهرة كليام[١] الفرنجى الجنوى تاجرا ، فاتصل بالملك العادل ، وأهدى إليه نفائس فأعجب [العادل] به ، وأمره بملازمته . وكان [كليام] فى باطن الأمر عَيْنًا للفرنج ، يطالعهم بالأحوال ، فقيل هذا للعادل ، فلم يلتفت إلى ما قيل عنه .

ومات فيها يوسف بن الأسعد بن مماتى ، فى رابع من جمادى الأولى ، بالقاهرة . ومات الأمير سياروخ[٢] ، فى خامس عشر رجب .

وفيها قتل غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان [السلجوقى] صاحب قونية ، [وقد حدث ذلك فى أوائل السنة ، وهو يواقع الأرمن حلفاء الروم ، عند بلدة خونا من أعمال آذر بيجان] . وكان قد [غلبه[٣] أخوه ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان على قونية ، وألجأه إلى الفرار منها سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة . ثم مات ركن الدين سليمان سنة ستمائة ، وقام بعده فى قونية ابنه قلج أرسلان بن ركن الدين وعند ذلك] عاد كيخسرو [إلى بلاده] ، بعد فراره إلى حلب [وغيرها] . وملك [كيخسرو] قونيـة ثانيا ، بعد خطوب جرت له ،

= إلى صناعة أقواس البندق . ثم تفننوا فى رمى البندق بالمزاريق أو الأنابيب ، بضغط الهواء من مؤخر الأنبوب ، بما يشبه (٤٠ ا) أنابيب النادق . فلما اخترعوا البارود ، صاروا يرمون البندق به من تلك الأنابيب ، وسموا هـذه الآلة بندقية ، نسبة إليه . ومن قبيل رمى البندق رمى النشاب فى البرجاس ، وهو غرض فى الهواء ، أو على رأس رمح أو نحوه . يطلبون إصابته بالنشاب ، وهى لعبة فارسية ، أول من لعبها من الخلفاء الرشيد " . راجع أيضا ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧ ؛ والمقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣١ — ٣٢ ؛ و (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . هـذا ويرى (Blochet : Op cit. P. 297. N. I.) أن النظام الذى ابتدعه الخليفة الناصر العباسى أصل هيئات وجميات الفروسية الأوربية فى القرون الوسطى .

(١) كذا فى س بغير ضبط ، والراجح أن هذا الرسم تعريب اسم (Guillaume) ، على أنه يوجد فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥ ، فى (Rec. Hist. Or. I.) ، تحت سنة ٥١٨ هـ ، أى فى أوائل أيام الحروب الصليبية بالشام ، أن جوسلين كورتنيه ، صاحب تل باشر والرها فيما بعد ، وقع أسيراً فى يد المسلمين ، "وأسر معه ابن خالته كليام" ، واسمه الصحيح (Galeran) . انظر (Rec. Hist. Or. I. Index) .

(٢) كذا فى س وبغير ضبط ، وترجمه (Blochet : Op. cit. p. 297) إلى (Shâhrokh) .

(٣) أضيف ما بين الأقواس فى هذه الفقرة لتوضيح العبارة ، وذلك بعد مراجعة (Enc. Isl. Art. Kaikhusraw I.)

وقد قبض أهلها على قلج أرسلان بن ركن الدين . ثم قُتل كيخسرو بعد ما استفحل أمره ، وولى ابنه [عز الدين] كيكاوس بن غيات الدين .

وفيها كانت وقعة بين حاج العراق و بين أهل مكة بمنى ، قُتل فيها عبد للشريف قتادة اسمه بلال ، فقيل لها سنة بلال .

* * *

سنة ثمان وستمائة . فيها قبض الملك العادل على الأمير عز الدين أسامة[1] الصلاحى ، نائب كوكب وعجلون ؛ واعتقله وأخذ جميع ماله ، وسيره إلى الكرك ، فاعتقل فيها هو وولده . وتسلم الملك المعظم قلعة كوكب وعجلون ، وهدم قلعة كوكب ، وعفى أثرها . وفيها توجه الملك العادل إلى الإسكندرية ، لكشف أحوالها . وفيها قدم بهاء الدين بن (٤٧ ب) شدّاد من حلب إلى القاهرة ، يخطب ضيفة [خاتون] ابنة العادل شقيقة الكامل ، لابن عمها الظاهر[2] . فأجيب إلى ذلك ، وعاد مكرما . وفيها ماتت أم الملك الكامل ، يوم الأحد خامس عشرى صفر ؛ فدفنت عند قبر الإمام الشافعى . ورتب ابنها عند قبرها القرّاء والصدقات ، وأجرى الماء من بركة الحبش إلى قبة الشافعى ، ولم يكن قبل ذلك . فنقل الناس أبنية القرافة الكبرى إلى هذه القرافة من حينئذ ، وعمروها .

---

(١) فى س سامة .

(٢) كان ابن شداد وزير الظاهر صاحب حلب بعد سنة ٥٩١ هـ ، وهو القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع المشهور ، صاحب كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية . ويوجد ابن شداد آخر ، وهو مؤرخ أيضاً ، واسمه عز الدين أبو عبد الله محمد ، توفى سنة ٦٨٤ هـ ، وله كتاب العلائق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة (Enc. Isl. Art. Ibn Shaddād) .

(٣) كانت هذه البركة تعرف أولا ببركة المعافر وببركة حمير ، وعرفت أيضاً بإصطبل قرة . وهى من أشهر برك مصر فى القرون الوسطى ، وموقعها بظاهر مدينة الفسطاط من قبليها ، فيما بين الجبل والنيل . وكانت أرضها مواتا ، فزرعها قرّة بن شريك العبسى أمير مصر (٩١ — ٩٦ هـ) من قبل الأمويين ، وأحياها وغرسها قصبا ، ولهذا عرفت بإصطبل قرة ، كما عرفت بإصطبل قامش أيضاً . ثم تعاقبت عليها الأسماء ، حتى صارت تعرف ببركة الحبش ، وجعلت وقفا على الطالبيين ، بنى على بن أبى طالب ، فاشتهرت ببركة الأشراف . وكانت بركة الحبش من أكبر متنزهات مصر ، يهرع إليها الناس فى أعياد النوروز والغطاس والميلاد والمهرجان وعيد الشعانين . وقد بنى عندها الخليفة الآمر الفاطمى منظرة ، سميت بمنظرة بركة الحبش . وكان ماء النيل يدخل إلى هذه البركة من خليج بنى وائل ، مما يلى باب مصر من الجهة القبلية ، وهو الذى عرف أيام المقريزى بباب القنطرة . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٨٦ ؛ ج ٢ ، ص ١٥٢ — ١٥٧) .

وفيها خرج العادل من القاهرة ، فسار إلى دمشق ، وبرز منها يريد الجزيرة ، فواصل إليها ورتب أحوالها ، وعاد إلى دمشق ، ومعه كليام الفرنجى .

وفيها انقضى أمر الطائفة الصلاحية ، بانقضاء الأمير قراجا ، والأمير [عز الدين] ، أسامة[1] ، والأمير [فخر الدين] جهاركس ، وصَفَت حصونهم للعادل وابنه المعظم ، وفيها نقل أولاد العاضد [الفاطمى] وأقاربه إلى قلعة الجبل ، فى يوم الخميس ثانى عشرى رمضان ، وتولى وضع القيود فى أرجلهم الأمير فخر الدين ألطونبا[2] أبو شعرة بن الدويك ، والى القاهرة . و [كانت] عدّتهم ثلاثة وستون نفسا .

وفيها كانت بمصر زلزلة شديدة ، هدمت عدّة دور بالقاهرة ومصر . وزلزت الكرك والشوبك ، فمات تحت الهدم خلق كثير ، وسقط عدّة من أبراج قلعتها . وروى بدمشق دخان نازل من السماء إلى الأرض ، فيما بين المغرب والعشاء ، عند أرض قصر عاتكة .

وفيها[3] مات الموفق بن أبى الكرم التنيسى ، فى يوم الأحد سابع عشر ربيع الأول . ومات ظافر بن الأرسوفى بمصر ، فى سلخ رجب . وفيها اجتمع بالإسكندرية[4] ثلاثة آلاف تاجر ، وملكان من الفرنج . فسار العادل وقبض [على] التجار ، وأخذ أموالهم ، وسجن الملكين .

وفيها[5] ، أعنى سنة ثمان وستمائة ، كانت فتنة بين حاج العراق وبين أهل مكة ، سببها أن حشيشيا جاء لقتل الشريف قتادة ، فقَتل شريفاً اسمه أبو هارون عزيز ، ظنًّا منه أنه قتادة . فثارت الفتنة ، وانهزم أمير الحاج ، ونهب الحاج عن آخره . وفر من مكة من بمكة

---

(١) فى س سامه بفتح السين والميم .

(٢) كذا فى س ، وبغير ضبط . وليس بالمراجم المتداولة بالحواشى ما يشير بشىء يذكر إلى هذا الأمير ، على أنه يوجد فى ابن شداد (النوادر السلطانية ، ص ٣٠٦ ، فى Rec. Hist. Or. III) من اسمه الطن با ، وقد صححه الناشر إلى التون بغا مع التشكك ، وعرفه بأنه كان عتيقا للملك العادل .

(٣) يلى هذه الكلمة العبارة الآتية ، وهى مشطوبة ، لتدارك المؤلف ذكرها قبل ذلك (ص ١٧٤) ، ونصها : " ماتت أم الملك الكامل بالقلعة فى يوم الأحد خامس عشرى صفر " .

(٤) فى س سكندريه .

(٥) العبارة التالية ، إلى آخر حوادث السنة ، موجودة على ورقة منفصلة ، بين الصفحتين (٤٨ب ، ٤٩ ا) . وواضح أن هذه الورقة لصقت هناك خطأ ، إذ بالعبارة الدليل الكافى لبرهنة ذلك .

من نواب الخليفة ، ومن المجاورين . فبعث الشريف قتادة ولده راجح بن قتادة إلى الخليفة يعتذر له عما جرى ، فقبل عذره ، وعفى عنه .

***

سنة تسع وستمائة . فيها نزل العادل بعساكره حول قلعة الطور ، وأحضر الصناع من كل بلد ، واستعمل جميع أمراء العسكر فى البناء ونقل الحجارة فكان فى البناء خمسمائة بنَّاء ، سوى الفعلة والنحاتين . وما زال مقيما حتى كملت . وفيها قدم ابن شدّاد من حلب إلى دمشق بمال كثير وخِلَع ، برسم عقد نكاح ضيفة [خاتون] ابنة العادل ، على ابن عمها الظاهر صاحب حلب ، فخرج إلى لقائه عامة الأمراء والأعيان . وعقد النكاح فى المحرم ، على مبلغ خمسين ألف دينار ونُثِر النثار على من حضر بقلعة دمشق ، وذلك فى المحرم . ثم جُهِّزت إليه بحلب فى تجمل عظيم ، من جملة[١] قماش وآلات ومصاغ ، يحمله خمسون بغلا ، ومائة بُختى[٢] ، وثلاثمائة جمل ، وجوارى فى المحامل ، على مائة جمل ، منهن مائه مغنية يلعبن بأنواع الملهى ، ومائة جارية يعملن أنواع الصنائع البديعة . فكان دخولها إلى حلب يوما عظيما . وقدّم لها الظاهر تقادم : منها خمسة[٣] عقود جوهر بمائة وخمسين ألف درهم ، وعصابة جوهر لا نظير لها ، وعشر قلائد عنبر مذهب ، وخمس قلائد بغير ذهب ، ومائة وسبعون[٤] قطعة من ذهب وفضة ، وعشرون تختا من ثياب ، وعشرون[٥] جارية ، وعشرة خدّام .

وفيها عزل الهمام بن هلال الدولة من ولاية القاهرة ، وولى فخر الدين الطونبا[٦] أبو شعرة مملوك المهرانى فى . . .[٧] [وفيها] تغير الملك العادل على الوزير صفى الدين بن شكر ، ورفع يده من الوزارة ، وأبقى عليه ماله وأخرجه إلى آمد ، فلم يزل بها حتى مات العادل وفيها فوّض العادل تدبير مصر ، والنظر فى أموالها ومصالحها ، إلى ولده الملك الكامل ؛ فرتب [الكامل]

---

(١) فى س حمله .

(٢) البختى الواحد من الإبل الخراسانية ، وهى جمال ضخمة ، ذات سنامين ووبر أسود ، تستعمل فى أسفار الشتاء ، والجمع بخاتى وبخت . (محيط المحيط ؛ Lane : Lexicon)

(٣) فى س خمس . (٤) فى س وسبعين .

(٥) فى س وعسرىن ، فى الموضعين . أما التخت فقماش يصان فيه الثياب . (محيط المحيط) .

(٦) انظر ص ١٧٥ ، حاشية ٢ . (٧) بياض فى س .

القاضى الأعز فخر الدين مقدام بن شكر ، ناظر الدولتين . وفيها خرج العادل من الشام يريد خلاط ، (١٤٨) فسار إليها ودخلها ، وفيها ابنه الأشرف ، [و] قد استولى على ما بها من الأموال[1] .

* * *

سنة عشر وستمائة . فيها تخوّف الظاهر صاحب حلب من عمه العادل ، وأخذ فى الاستعداد ، ثم تراسلا حتى سكن الحال . وفيها وَلَدَت صفية ابنة العادل لابن عمها الظاهر مولودا ، سمّاه محمدا ، ولقبه بالملك العزيز غياث الدين ، وذلك فى خامس ذى الحجة . فزينت حلب ، واحتفل الظاهر احتفالا زائداً ، وأمر فصيغ له من الذهب والفضة جميع الصور والأشكال ما وُزن بالقناطير ، وصاغ [له] عشرة مُهُود من ذهب وفضة ، سوى ما عمل من الأبنوس والصندل والعود وغيره . ونُسِج للصبى ثلاث فرجيات من لؤلؤ ، فى كل فرجية أربعون[2] حبة ياقوت ولَعْل[3] وزُمُرُّد ، ودِرعان وخوذتان[4] وبَرْكُسْتُوان[5] ، كل ذلك من لؤلؤ ؛ وثلاثة[6] سروج مجوهرة ، فى كل سرج عدّة قطع من جوهر رائع وياقوت وزمرد ؛ وثلاثة[7] سيوف ، علائقها وقَبْضَاتها من ذهب مرصع بأنواع الجواهر ؛ وعدّة رماح من ذهب ، أسنتها جوهر .

وفيها حج الظافر خضر بن صلاح الدين يوسف بن أيوب من حلب ، فلما قارب مكة صدّه قصاد الملك الكامل محمد بن العادل عن الحج ، وقالوا : "إنما جئتَ لأخذ بلاد اليمن" ؛

(١) توجد قبالة هذا اللفظ ، بهامش الصفحة فى س ، العبارة التالية : " وفيها مات شهاب الدين ابن ظهيرالدين ... ابن العطار بالقاهرة فى رجب . ومات الملك الأوحد [أيوب] بخلاط " . ويظهر أن المقريزى أخطأ مكان هاتين الوفاتين ، لأن الأوحد نجم الدين أيوب بن العادل ، وصاحب خلاط ، توفى سنة ٦٠٧ هـ . (انظر ما سبق هنا ، ص١٧١ . المختصر فى أخبار البشر ، ص٨٦ ، و Rec. Hist. Or I. ؛ و (Lane - Poole : Saladin. Table II, in pocket) .

(٢) فى س اربعين .

(٣) اللعل هو البلخش ، حسبما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٩٩ — ١٠٠) . انظر ص ٥٠ ، حاشية ٨ ، وكذلك (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٤) فى س وذرعين وخوذتين .

(٥) فى س وبرك اسطوان ، بفتحة على الواو فقط . والبركستوان لفظ فارسى معرب ، معناه حارس البدن ، وهو ما يوضع حول أبدان الخيول كالدروع ، ويكون للفيلة كذلك . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . ويقابل هذا فى الإنجليزية (Caparison) وفى الفرنسية (Caparaçon) ، وأصلهما من اللفظ الإسبانى (Caparazon) ، كما جاء فى المعاجم الإنجليزية والفرنسية . وحل هذا اللفظ الفارسى منذ الأيوبيين فيما يبدو محل لفظ عربى قديم وهو التجفاف . انظر ابن الجواليقى : المعرّب ...

(٦) فى س ثلث .

(٧) فى س ثلاث .

فقال [الظافر خضر] : "ياقوم ! قيدونى ، ودعونى أقضى مناسك الحج" . فقالوا : "ليس معنا مرسوم إلا بردك" . فردّ إلى الشام ، من غير أن يحج ، فتألم الناس لذلك .

وفيها مات الأمير فخر الدين إسماعيل والى مصر بها . وفيها دخل بنو مَرِين إحدى قبائل زناتة من القفر ، ونهبوا أعمال المغرب ، وحاربوا الموحدين وهزموهم ، وكان أمير بنى مرين إذ ذاك عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة بن محمد بن ورصيص بن فكُوس[1] بن كوماط بن مرين .

* * *

[تتمة[2]] سنة عشر وستمائة . فيها حُفر خندق مدينة حلب ، فوجد فيه بلاطة صَوّان ، عليها أحرف مكتوبة بالقلم السريانى ، فترجموه بالعربية ، فإذا هو : "لما كان العالم محدثا دل أن له محدثا[3] ، لا كَهُوَ" ؛ وكتب [تحت هذه الأحرف] : "لخمسة آلاف من السنين خلون من الأسطوان[4] الصّغير" . فقُلعت البلاطة ، فوجد تحتها تسع عشرة قطعة من ذهب وفضة وصورى[5] ، على هيئة اللَّبِن ، فاعتبرت فكان الحاصل منها ذهبا ثلاثة وستين[6] رطلا بالحلبى ، وكان منها فضة أربعة وعشرين[7] رطلا ، وحلقة ذهب وزنها رطلان ونصف رطل ، وصورى[8] عشرة أرطال ونصف ، فكان الجميع زنته قنطار واحد بالحلبى[9] .

---

(١) كذا فى س .

(٢) العبارة الآتية إلى آخر السنة ، واردة فى ورقة منفصلة فى س ، بين الصفحتين (٤٧ ب ، ٤٨) . وقد حذف كاتب النسخة ب (٨ء ب) العنوان كعادته ، واكتفى بكتابة " وفيها حفر خندق ... " . (٣) فى س : محدث

(٤) أشكلت هذه الكلمة على المقريزى ، فكتب فوقها " كذا " ، وضبط كلمة الصغير بفتح الصاد ، ولم يستطع الناشر أن يصل الى توضيحها من المراجع والوسائل التى تيسرت له . هذا وقد ترجم العبارة كلها إلى : "Ces inscriptions étaient datées de cinq mille ans a très pen de chose prés". (Blochet : Op. cit. p. 304

(٥) كذا فى س ، وقد كتب المقريزى فوق هذا اللفظ أيضا " كذا " .

(٦) فى س وستون . (٧) فى س وعشرون .

(٨) توجد "كذا" فوق هذا اللفظ أيضا .

(٩) وردت أخبار هذا الحفر ، وظهور البلاطة ، وما تحتها من معدن ، فى العينى (عقد الجمان ، ج ١ قسم ٢ ، ص ٣٤٣) ، وفى ابن العماد (شذرات الذهب ، ح ٥ ، ص ٣٩) دون أية إشارة إلى لفظى " الأسطوان " و " صورى " ، ولا إلى الكتابة السريانية .

* * *

سنة إحدى عشرة وستمائة . فيها فرّ الملك المنصور بن العزيز [عثمان بن صلاح الدين يوسف] من اعتقال عم أبيه الملك العادل، ولحق بالظاهر صاحب حلب، [ولاذ به] هو وإخوته، فأكرمهم [الظاهر] . وفيها تجمع فرنج قبرس وعكا وطرابلس وأنطاكية، و[انضم إليهم] عسكر ابن لاون ملك الأرمن، لقصد بلاد المسلمين، فخافهم المسلمون . وكان أوّل ما بدأوا به بلاد الإسماعيلية، فنازلوا [قلعة] الخَوَابي[1]، ثم ساروا عنها إلى أنطاكية . وفيها ظفر السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قلج أرسلان السلجوقي، صاحب بلاد الروم، بالأشكري[2] ملك الروم وفيها خرج الملك العادل من الشام يريد مصر، فنزل في القاهرة بدار

(١) بغير ضبط في س، ويقع هذا الحصن الجبلي على خمسة عشر ميلا من أنطرسوس .
(Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 485 & Index).

(٢) يطلق المتأخرون من مؤرخي المسلمين هذا الاسم على أباطرة الدولة البيزنطية، منذ أوائل القرن السابع الهجري . ذلك أنه لما استولت جيوش الفرنج اللاتين، الذين عرفت حملتهم بالحرب الصليبية الرابعة، على القسطنطينية سنة ٦٠٠ هـ (انظر ص ١٦٣)، خلعوا إمبراطورها (Alexius III) وأقاموا بدله واحداً منهم، واسمه (Baldwin, Count of Flanders) . ثم ما لبث الوطنيون من البيزنطيين أن وجدوا في (Theodore Lascaris I)، زوج ابنة الإمبراطور المخلوع، زعيما لهم في حركة إخراج اللاتين، فتوّجوه إمبراطوراً بمدينة نيقية سنة ١٢٠٦ م . وحكم " الأشكرى " (Lascaris) هذا إمبراطورية الروم بنيقية، حتى وفاته سنة ١١٢٢ م . (Camb. Med. Hist IVpp. 423, 425, 427) . وهذا الإمبراطور هو الذى قتل السلطان غياث الدين كيخسرو السلجوقي، سنة ١٢١٠ م . (انظر ص ١٧٣) . ثم ظفر به عز الدين كيكاوس بن كيخسرو، كما في المتن، وكان قد وقع في يد التركمان، فأسلموه إليه . (أبو الفداء : المختصر في تاريخ البشر، ص ٨٦، ٨٧، في Rec. Hist Or. I.) . وخلف الأشكرى هذا في إمبراطورية نيقية زوج ابنته، واسمه (John III.)، حتى توفى سنة ١٢٥٤ م . ثم حكم الإمبراطورية بعد هذا الإمبراطور ولده الوحيد (Theodore Lascaris II.)، حتى توفى سنة ١٢٥٨ . وقد ترك هذا الإمبراطور الثالث ولدا قاصرا على عرش نيقية، واسمه (John IV)، فخلعه وصيه (Michael Paleologus)، وأعلن نفسه إمبراطوراً سنة ١٢٥٩ م، باسم (Michael VIII)، وهو الذى وصفه القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥ ص ٤٠٢) بأنه " بطريق من بطارقة الروم، شهرته لشكرى، واسمه ميخائيل "، يقصد بذلك أنه كان (Patricius)، أى من الأشراف، وليس من رجال الدين . (انظر محيط المحيط ؛ و Camb. Med. Hist. IV. pp. 503, 504 507-509) . وهذا الإمبراطور الجديد هو الذى استرجع القسطنطينية، سنة ١٢٦١ م، من الفرنج اللاتين، وبسط سلطان الدولة البيزنطية عليها، كما كان من قبل (Op. Cit. IV. pp. 509-516) . ويلاحظ أن ميخائيل هذا ليس من بيت الأشكرى الأوّل، بل هو سليل أسرة أخرى بالقسطنطينية، غير أن اسم الأشكرى غلب على أباطرة الدولة البيزنطية عامة . (القلقشندى : نفس المرجع والجزء والصفحة) . انظر أيضاً ابن الأثير (الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ١٢٦) .

الوزارة ، واستمرّ ابنه الكامل بقلعة الجبل . و [أمر العادل أن يقيم] معه كايام[1] [الفرنجى الجنوى] بدار الوزارة وفيها ورد الخبر بموت سنقر أتابك اليمن ، واستقرّ بعده الملك الناصر أيوب [صاحب اليمن فى ملكه] ، وقام بأتابكيته غازى .

وفيها شرع الملك العادل فى تبليط جامع بنى أميـة [بدمشق] ، وكانت أرضه حُفَرًا وجُوَرًا[2] ، وتولى العمل الوزير صفى الدين بن شـكر . وفيها تعامل أهل دمشق وغيرها بالقراطيس[3] السود العادلية ، ثم بطلت بعد ذلك ، وفَنِيت . وفيها تولى سهم الدين عيسى القاهرة فى شوّال ، وتولى جمال الدين ابن أبى المنصور وكالة بيت المال [بها] . ومات سعد ابن سعد الدين بن كوجيا[4] فى عشرى ربيع الآخر .

وفيها حج الملك المعظم عيسى بن العادل من دمشق ، وحج معه الشريف سالم بن قاسم بن مهنا الحسينى أمير المدينة النبوية . فعزم الشريف قتادة أمير مكة على مسكه ، فلم يتمكن منه ، فعاد [الشريف سالم] صحبـة الملك المعظم إلى دمشـق . فبعثه المعظم على عسكر إلى مكة ، فمات فى الطريق قبل وصوله مكة ، فقام جماز بن قاسم — وهو ابن أخيه — بتدبير الجيش . فجمع قتادة ، وسار إلى ينبع ولقيه ، فهُزِم قتادة .

* * *

سنة اثنتى عشرة وستمائة . فيها نازل الفرنج [قلعة] الخوابى ، وحاربوا الباطنية ، ثم صالحوهم . وفيها سير الخليفة الناصر [لدين الله] كتابه الذى ألفه وسماه روح العارفين[5] ، إلى الشام ومصر وغيرها ليُسْمَع وفيها ملك الفرنج أنطالِيَة ، وقتلوا من بها من المسلمين .

(١) فى س " ومعه كلتام (كذا) بدار الوزارة " وقد أضيف ما بين القوسين لتوضيح العبارة .
(٢) ضبط المقريزى الحرف الأول من الكلمتين بالضم . وفى محيط المحيط : الجورة هى الحفرة ، وما انخفض من الأرض ، والجمع جور (انظر ص ١٧٣) .
(٣) معنى القراطيس هنا القضبان من الفضة ، (Dozy : Supp. Dict. Ar.) غير أن وصفها بالسواد يدل على أنها من نحاس . (انظر ص ٩٩ ، حاشية ١) .
(٤) كذا فى س ، وبغير ضبط ، وهو مترجم فى (Blochet : Op. cit. p. 306) إلى (Koūkiā)
(٥) كتاب فى الحديث . انظر (Blochet : Op. cit. p. 306. N. 3) .
(٦) فى س انطاكية ، وبغير ضبط . وخطأ المقريزى واضح من بقية العبارة ، بالصفحة التالية . وأنطالية ثغر حصين ، بآسيا الصغرى ، على شاطىء البحر الأبيض المتوسط . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٨٨) .

وكانت بيد الملك [غياث الدين كيخسرو ، منذ فتحها سنة اثنتين وستمائة ، إلى أن أجلاه الفرنج عنها سنة سبع وستمائة . ثم استردها منهم الملك] الغالب عز الدين كيكاوس [سنة ثلاث عشرة وستمائة ، بعد أن بقيت بأيدى الفرنج تلك المدة . وفى هذه السنة أيضا سار عز الدين إلى بلاد الأرمن ، وحاصر قلعة جابان ، وهزم عندها جيوش الأرمن ، ورجع إلى قيصرية قبل أن يستولى على قلعة جابان . ثم طلب الأرمن الصلح ، وأجابهم إليه عز الدين] ، (٤٨ ب) فأخذ [فى مقابل الصلح] من بلاد الأرمن قلعة لؤلؤة [ولوزاد] .

وفيها مات الملك المعظم أبو الحسن على بن الخليفة الناصر [لدين الله ، وهو أصغر أولاده[٢]] ، فلما قدم نعيه على ملوك الأطراف جلسوا فى العزاء ، لابسين شعار الحزن ، خدمة للخليفة .

وفيها سير الملك الكامل ابنه الملك المسعود صلاح الدين يوسف إلى اليمن ، فخرج فى جيش كثيف من مصر ، وسار إلى بلاد اليمن ، فاستولى على معاقلها[٣] ، وظفر بصاحبها الملك سليمان شاه بن سعد الدين شاهنشاه بن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب . فسيره تحت الحوطة إلى مصر ، فأقام بالقاهرة إلى سنة سبع وأربعين وستمائة ، فخرج إلى المنصورة غازيا ، فقتل شهيدا . ودانت بلاد اليمن للملك المسعود .

وفيها عاد الملك العادل من الشام إلى القاهرة ، فلما قرئ عليه ما أنفق على الملك المسعود فى خروجه إلى اليمن استكثره . وأنكر [العادل] خروجه ، فإنه كان بغير أمره . وأمر [العادل] بالقاضى الأعز فضرب وقيد ، واعتقل بقلعة الجزيرة ، ثم حمله إلى قلعة بصرى ، فسجنه بها . وفيها

---

(١) أضيف ما بين الأقواس للتوضيح ، وهـذا بعد مراجعة (Enc. Isl. Arts Kaikaus I. & Kaikusraw. I.) وقد ضبطت الأعلام ، التى استلزمتها العبارة ، على منطوقها فى هاتين المقالتين .

(٢) أفرد ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٠١ — ٢٠٢) فصلا لوفاة أبى الحسن هذا ، قال فيه إن " الخليفة حزن عليه حزنا لم يسمع بمثله ، حتى أنه أرسل إلى أصحاب الأطراف ينهاهم عن إنفاذ رسول إليه يعزيه بولده ، ولم يقرأ كتابا ولا سمع رسالة ، وانقطع وخلا بهمومه وأحزانه ، وروى عليه من الحزن والجزع ما لم يسمع بمثله ... وسمع الصراخ العظيم من داخل التربة ؟ فقيل إن ذلك صوت الخليفة ... " .

(٣) فى س معاقله .

نقل العادل أمواله وذخائره وأولاده إلى الكرك . وفيها وعك بدنه . وفيها[1] أبطل الملك العادل ضمان الخمر والقيان[2] .

وفيها مات تقي الدين اللّر[3] ، شيخ الخانقاه[4] [الصلاحية ، دار] سعيد السعداء ، في المحرم .

(١ و ٢) ما بين الرقمين جزء من هامش بالصفحة في س ، وبقيته تكرار لما سبق وروده عما حدث بين الشريف قتادة أمير مكة ، والشريف سالم أمير المدينة النبوية ، بجذافيره (انظر ص ١٨٠) . على أن هـذا التكرار لم يخل من المنفعة ، فقد قوبلت العبارة السابقة عليه ، وهذا نصه : " وفيها حاصر الشريف قتادة أمير مكة المدينة النبوية ، وقطع نخلا كثيرا . وكان أمير المدينة النبوية عند الملك العادل بالشام ، فبعث معه جيشا ، وسار فمات في الطريق . فقام بأمر الجيش ابن أخيه جاز بن قاسم ، وسار إلى مكة ، وقاتل أهلها ، وهزم قتادة إلى الينبع ، وغنم شيئاً كثيراً ، وتبع قتادة ، وحصره بينبع " .

(٣) بغير ضبط في س ، وهو اسم يطلق على شعبة من الأكراد ، ويسمون اللورية . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٩ ، ص ٢٧٣ ، ٣٥٦ ؛ ج ١١ ، ص ١٥٧) .

(٤) في س شيخ خانكاه . والخانقاه والرباط والزاوية ، وجمعها خوانق ورباطات وزوايا ، معاهد دينية إسلامية ، للرجال والنساء . . وهي كالأديرة في المسيحية ، ويطلق الرباط أحياناً على الدير المسيحي ، كما يقال للراهب المسيحي رابط . غير أن تلك المعاهد الإسلامية لم تكن يوماً للرهبنة ، وإنما أنشئت لإيواء المنقطعين للعلم ، والزهاد والعباد وكان غرض منشئيها ، والمتصدقين عليها ، فعل الخير واكتساب الثواب . ولفظ الرباط والزاوية عربيان ، فأصل الرباط مكان إقامة الحامية المرابطة عند ثغور العدو ، كما أن الزاوية في الأصل الركن من الدار ، أو المسكان عامة . (محيط المحيط) . أما الخانقاه ففارسية ، ومعناها البيت ، وهي حديثة في الإسلام ، — في حدود الأربعمائة — وجعلت لتخلي الصوفية فيها للعبادة والتصوّف . وأوّل من أحدث الخوانق في مصر السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وكانت الخانقاه التي أنشأها دارا تعرف أولا بدار سعيد السعداء ، نسبة إلى الأستاذ قنبر سعيد السعداء ، عتيق الخليفة المستنصر الفاطمي . " وكانت هـذه الدار مقابل دار الوزارة ، ولما كانت وزارة العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك سكنها ، وفتح من دار الوزارة إليها سردابا تحت الأرض ، ليمر فيه . ثم سكنها الوزير شاور بن مجير في أيام وزارته ، ثم ابنه الكامل . ولما استبد الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى بملك مصر ، بعد موت الخليفة العاضد ، وغير رسوم الدولة الفاطمية ، ووضع من قصر الخلافة ، وأسكن فيه أمراء دولته الأكراد ، عمل هذه الدار برسم الفقهاء الصوفية ، الواردين من البلاد الشاسعة . ووقفها عليهم في سنة تسع وستين وخمسمائة ، وولى عليهم شيخا ، ووقف عليهم بستان الحبانية ، بجوار بركة الفيل خارج القاهرة ، وقيسارية الشراب بالقاهرة ، وناحية دهمرو (كذا) من البهنساوية . وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين ديناراً فما دونها كانت للفقراء ، ولا يتعرض لها الديوان السلطاني ؛ ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره . ورتب للصوفية في كل يوم طعاما ولحماً وخبزاً ، وبنى لهم حماما بجوارهم ؛ فكانت أوّل خانكاه (كذا) عملت بديار مصر . وعرفت بدويرة الصوفية ، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ ، واستمر ذلك بعده ... ... " (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٤١٤ — ٤١٦ ؛ و G.-Demombynes : Op. cit. Pref. pp. LXXVIII et seq., & p. 84

وفيها مات ابن سُوْرُوْس[١] بن أبي غالب بطريق[٢] اليعاقبة ، فى يوم الخيس عيد الغطاس ، سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة للشهداء — وهو الرابع عشر من رمضان — وله فى البطركية مدّة ست وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما . وكان أولا يتجر إلى بلاد اليمن ، فغرق [مرة] ، وجاء الخبر بأن لم يسلم سوى بحشاشته . وكان لأولاد الجَبَّاب[٣] معه مال ، فأيسوا منه . فلما اجتمع بهم أعلمهم أن مالهم سَلِم ، فإنه كان قد عمله فى مقاير من خشب ، وسمرها فى المركب ، وأحضره إليهم . فتميز عندهم بذلك ، حتى مات البترك مرقص[٤] ابن زَرْعة . فتحدّث ابن سوروس[٥] فى البتركية للقس أبى ياسر ، وكان مقيما بالعَدَوِيّة[٦] . فحسن له بنو الجباب[٧] أن يقوم هو بأمر البتركية ، فتحدّث فى ذلك ، وزكوه فتولى . وكان معه يومئذ سبعة عشر ألف دينار مصرية ، فرّقها فى مدّة بطركيته على الفقراء ، وأبطل الدَّيَّارِيّة[٨] ، ومنع الشَّرْطُوْنِيّة[٩] ، ولم يأكل فى ولايته كلها لأحد من النصارى خبزا ، ولا قبل لصغير ولا لكبير منهم هدية . وكان القس داود بن يوحنا — المعروف بابن لَقْلَق[١٠] ، من أهل الفيوم — ملازما للشيخ نَشْء[١١] الخلافة أبى الفتوح بن الميقاط ، كاتب الجيوش

---

(١) فى س اساموس وبغير ضبط ، واسمه أبو الماجد بن أبى غالب بن سوروس ، واتخذ اسم حنا السادس لما تولى البطرقية ، سنة ٥٨٥ هـ .
(Butcher : Church of Egypt. II. pp. 115, 120, 123 ; Blochet : Op. cit. p. 308, N.1.)

(٢) كذا فى س ، ويلاحظ أنها واردة ، وكذا لفظ البطرقية المشتق منها ، بالتاء بدل الطاء ، فى نفس الصفحة فى س . (انظر سطر ٦ ، ٧ هنا) .

(٣) بغير ضبط فى س ، انظر الذهبي : كتاب المؤتلف والمختلف والمشتبه ، ص ١٣٨ .

(٤) بغير ضبط فى س . انظر بعض أخباره فى (Butcher: Op. cit. II. pp.87-89 et seq.)

(٥) فى س اساموس .

(٦) قرية جنوبى الفسطاط ، على شاطىء النيل ، بها دير اسمه دير الطين (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٦٨٦ ؛ ج ٣ ، ص ٦٢٤) .

(٧) فى س الجناب .

(٨) نسبة إلى الديار ، وهو رئيس الدير ، ويظهر أن البطريق كان يفرض على الأديرة ضريبة بهذا الاسم . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٥٠١) .

(٩) بغير ضبط فى س ، وفى محيط المحيط : " شرطن الأسقف الراهب ، أى رسمه قسا ، بوضع يده عليه . وهو مأخوذ من الشرطونية ، معرب خرتونيا باليونانية ، ومعناها وضع اليد ... ... " . ويتضح من قول المقريزى أن الشرطونية كانت ما يدفعه القس للكنيسة عند ترسيمه . (Dozy Supp' Dict. Ar.) .

(١٠) بغير ضبط فى س . انظر (Butcher: Op. cit. II. p. 124) .

(١١) فى س نشو .

العادلية ، و [كان] يسافر معه ويصلى به . فلما (١٤٩) مات ابن سوروس[1] سأل أبو الفتوح الملك العادل أن يولى القس داود البتركية ، فأجابه وكتب له توقيعاً بذلك ، من غير أن يعلم الملك الكامل[2] . فلم يعجب بعض النصارى ولاية داود ، وقام منهم رجل يعرف بالأسعد ابن صدقة ، كاتب دار التُّفَّاح[3] بمصر ، وجمع كثيرا من النصارى المصارين بمصر ، وطلع فى الليلة التى وقع الاتفاق على تقدمة القس داود فى صبيحتها ، ومعه الجم إلى تحت قلعة الجبل . واستغاثوا بالملك الكامل ، وقالوا : "إن هذا الذى يريد أبو الفتوح يعمله بطركا بغير أمرك ما يصلح . ونحن فى شريعتنا لا يقدم البطرك إلا باتفاق الجمهور عليه" . فخرج إليهم الأمر [من عند الكامل] بتطييب قلوبهم . وفى سَحَر النهار ركب القس داود ، ومعه الأساقفة — وعالم كبير من النصارى — ليقدموه بكنيسة المُعَلَّقَة بمصر ، وكان ذلك يوم الأحد عيد الزيتونة . فركب الملك الكامل إلى أبيه ، وعرّفه أن النصارى لم يتفقوا على بطركية داود ، ولا يجوز عندهم تقدمته إلا باتفاق جمهورهم . فسير الملك العادل إلى الأساقفة ليحضرهم حتى يتحقق الأمر ، فوافاهم الرسل مع القس داود ، عند زقاق كنيسة الحَمْراء[4] . فأحضرت الأساقفة إلى الملك العادل ، ودخل داود إلى كنيسة الحمراء ، وانحل أمره ، وخلا الكرسى من بطريق ، تسع عشرة سنة ومائة وستين[5] يوما .

---

(١) فى س امانتوس . (٢) لم يترجم . (Blochet : Op. cit. p. 309) ما يلى هذا من أخبار تلك الأزمة فى الكنيسة القبطية ، على أنها موجودة فى ب (١٥٩ ا) . (٣) فى س التفاح بغير ضبط ، وكانت دار التفاح فندقا تجاه باب زويلة ، يرد إليه الفواكه على اختلاف أصنافها ، مما ينبت فى بساتين ضواحى القاهرة . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٩٣) : وكان بدمشق أيضاً دار مشابهة لها ، اسمها دار البطيخ والفاكهة .(G.-Demombynes : Op. cit. p.151)

(٤) موضع هذه الكنيسة بخط قناطر السباع ، فيما بين القاهرة ومصر ، وقد بنيت سنه ١١٧ هـ ، وكانت تعرف أولا بكنيسة بوما (يوحنا ؟) . وكانت معظمة عند النصارى ، لانقطاع كثير من المتعبدين بها ، ويحمل إليها نصارى مصر سائر ما يحتاج إليه ، ويبعثون إليها بالنذور الجليلة والصدقات الكثيرة . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢ ، ٥) .

(٥) وافق الملك الكامل أخيراً على اعتلاء القس داود كرسى البطرقية ، وتسمى باسم كيرلس الثالث (Cyril III) . انظر (Butcher : Op. cit. II. pp. 123-126, 131-132, 135-138, 139 et seq).

وفى جمادى الأولى صرف الملك العادل زكىّ الدين الطاهر بن محيى الدين محمد بن على القرشى عن قضاء دمشق ؛ وأُلزم جمال الدين عبد الصمد بن محمد بن أبى الفضل الحَرَسْتَانى[١] بولاية القضاء [بها] ، وله [من العمر] اثنتان وتسعون سنة . وفيها قدم إلى القاهرة من الشرق رجل معه حمار ، له سنام كسنام الجمل ، يرقص ويدور ، ويستجيب له إذا دعاه .

* * *

سنة ثلاث عشرة وستمائة • فيها ولى بهاء الدين ... ...[٢] ... بن الجميزى خطابة القاهرة ، فى ثالث عشر المحرم . وولى أبو الطاهر المحلى خطابة مصر ، فى ثانى صفر . [وفيها] سار الملك العادل من القاهرة إلى الإسكندرية ، فرتب أمورها وعاد . وفيها قدم البهاء ابن شداد برسالة الظاهر من حلب إلى العادل ، وهو بالقاهرة . فرض الظاهر فى خامس عشرى جمادى الأولى ، ومات فى ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة ، عن أربع وأربعين سنة وأشهر ، ومدّة تملكه بحلب إحدى وثلاثون[٣] سنة . وكان قد سمع الحديث وأسمعه بحلب ، وكان سفاكا للدماء ، شهما يقظا صاحب سياسة ، وله شعر حسن . وقام من بعده ابنه الملك العزيز غياث الدين محمد ، وعمره يومئذ سنتان وأشهر[٤] ، بعهد [من] أبيه . وكان الملك العادل — عند ما مرض الظاهر — رتب بريدا من مصر إلى حلب يطالعه بخبره ، فأتاه نعيه قبل كل أحد . فأحضر [الملك العادل] ابن شدّاد ، وقال له : "يا قاضى ! صاحبك قد مات فى ساعة كذا من يوم كذا" . فعاد ابن شدّاد إلى (٤٩ ب) حلب .

وفيها كان ابتداء خروج التتر من بلادهم الجوانية إلى بلاد العجم . وفيها قدم الشريف قاسم من المدينة النبوية ، فأغار على جدة ، فخرج إليه الشريف قتادة أمير مكة ، وكسره يوم عيد النحر .

---

(١) نسبة إلى حرستا ، وهى قرية كبيرة ، فى وسط بساتين دمشق ، على مسافة فرسخ منها ، فى الطريق إلى حمص . وكان الشيخ عبدالصمد " ثقة محتاطا ، وكان فيه عسر وملل ، فى الحديث والحكومة ، ومولده سنة ٥٢٠" . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص٢٤١) . انظر ص ١٨٨ . (٢) بياض فى س .
(٣) فى س ثلاثين . (٤) فى س واشهرا .

***

سنة أربع عشرة وستمائة . فيها وصل الشيخ صدر[١] الدين بن حَمُّوَيْه من بغداد ، بجواب رسالة الملك العادل إلى الخليفة الناصر [لدين الله] .

وفيها تتابعت أمداد الفرنج فى البحر من روما وغيرها إلى[٢] عكا ، وفيهم عدّة من ملوكهم — وقد نقضوا الصلح ، وعزموا على أخذ القدس ، وسائر بلاد الساحل وغيرها — فعظم جمعهم . فخرج العادل من مصر بعساكره ، وسار إلى لد . فبرز الفرنج من عكا فى خلق عظيم ، فرحل العادل على نابلس ، ونزل فى بيسان . فقال له أبنه المعظم لما رحل : " إلى أين يابه ؟ " . فسبّه [العادل بالعجمية] ، وقال : " [بمن أقاتل ؟] أقطعتَ الشام مماليكك ، وتركتَ من ينفعنى من أبناء الناس [الذين يرجعون إلى الأصول " ، وذكر كلاما فى هذا المعنى[٣]] .

فقصده الفرنج ، فلم يطق لقاءهم ، لقلة من معه . فاندفع من بين أيديهم على عَقَبَة فِيق[٤] ، وكتب بتحصين دمشق ، ونَقْل الغلات من دَاريا[٥] إلى القلعة ، وإرسال الماء على أراضى داريا وقَصْرِ[٦] حَجّاج والشَّاغُور[٧] . ففزع الناس وابتهلوا إلى الله ، وكثر ضجيجهم بالجامع . فزحف الفرنج على بيسان — وقد اطمأن أهلها بنزول العادل عليهم — فانتهبوها

(١) فى س صد . انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، س٩٥ ، ١١٤ فى Rec. Hist. Or. I. وكذلك (Blochet : Op. cit. P. 311. N. 2 .

(٢) يوجد فى (Blochet : Op. cir. p. 311. N. 3) تفصيلات من كتاب مفرج الكروب لابن واصل ، عن تلك الحملة الصليبية ، وهى المعروفة فى التاريخ بالخامسة . (٣) أضيف مابين الأقواس من أبى شامة (كتاب الروضتين ، ص ١٦٢ ، فى Rec. Hist. Or. V.) (٤) بغير ضبط فى س ، وفيق بلدة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٩٣٢) بين دمشق وطبرية ، ويقال لها أفيق أيضا (Blochet : Op. cit. P. 312. N. 3.) (٥) بغير ضبط فى س ، وهى قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة ، والنسبة إليها دارانى ، على غير قياس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص٥٣٦) . (٦) يطلق لفظ قصر ، مضافا لاسم آخر . على كثير من المواضع حول دمشق ، مثل قصر أم الحاكم ، وقصر بنى عامر . ويقع قصر حجاج ، وهو بغير ضبط فى س ، عند ظاهر باب الجابية ، وهو محلة كبيرة ، ترجع فى نسبتها إلى حجاج بن عبدالملك بن مروان . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١١٠) . انظر أيضا (Blochet : Op. cit. P. 312 N. 3.) (٧) بغير ضبط فى س ، وهى محلة بالباب الصغير ، ظاهر مدينة دمشق . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٣٦) .

وسائر أعمالها ، وبذلوا فى أهلها السيف ، وأسروا وغنموا ما يجل وصفه . وانبثت سراياهم فيما هنالك ، حتى وصلت إلى نَوَى(١) . ونازلوا بانياس ثلاثة أيام ، ثم عادوا إلى مرج عكا ، وقد أنكوا فى المسلمين أعظم نكاية . وامتلأت أيديهم بالأسرى ، والسبى والغنائم ، وأتلفوا بالقتل والتحريق ما يتجاوز الوصف . فلم يمكثوا بالمرج سوى قليل(٢) ، ثم أغاروا ثانيا ، ونهبوا صيداء والشقيف ، ورجعوا . وذلك كله من نصف شهر رمضان إلى يوم عيد الفطر .

ونزل العادل بمرج الصفر ، ورأى فى طريقه رجلا يحمل شيئا ، وهو يمشى تارة ويقعد أخرى ، فقال له : "يا شيخ ! لا تعجل ، ارفق بنفسك" . فقال له : "ياسلطان المسلمين ! أنت لا تعجل ، أو أنا ؟ إذا رأيناك قد سرتَ من بلادك ، وتركتنا مع الأعداء ، كيف لا نعجل ؟" .

وعندما استقر العادل بمرج الصفر ، كتب إلى ملوك الشرق ليقدموا عليه : فأول من قدم عليه أسد الدين شيركوه ، صاحب حمص ، [وهو ابن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، عم السلطان صلاح الدين يوسف(٣)] . ثم إن العادل جهز ابنه المعظم عيسى [صاحب دمشق] ، بطائفة من العسكر إلى نابلس ، كى يمنع الفرنج من بيت المقدس . فنازل الفرنجُ قلعة الطور ، التى أنشأها العادل ، وجدّوا فى قتال أهلها ، حتى تمكنوا من سورها ، وأشرفوا على أخذها . فقدّر الله أن بعض ملوكهم قُتل ، فانصرفوا عنها إلى عكا(٤) ، بعد ما أقاموا عليها سبعة عشر يوما . وانقضت السنة والحال على ذلك ، من إقامة الفرنج بمرج عكا ، والعادل بمرج الصفر .

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى بليدة من أعمال حوران ، وقيل هى قصبتها ، بينها وبين دمشق منزلتان . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٨١٥)

(٢) فى س قليلا .

(٣) انظر (Lane-Poole : Saladin. Table II. in pocket) .

(٤) كان قائد الصليبيين فى تلك الواقعة "ملك الهنكر" ، وهو (André. II. Roi de Hongrie.) ، وقد انصرف بعساكره كما فى المتن . أما "بعض ملوكهم" ، الذى قتل فى تلك الملحمة ، فاسمه غير موجود فى المراجع المتداولة فى هذه الحواشى ، وغاية ما هنالك أنه " كند كبير " أى (grand comte) . وقد حاول ابن أخت ملك المجر ، بعد انفصال الفرنج عن الطور ، أن يستولى على جبل صيداء ، ففاجأه المسلمون هناك وأسروه ، بعد أن قتلوا معظم عساكره . (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٦٢ — ١٦٥ ، فى (Rec. Hist Or. V.

وفيها مات القاضى الأجل قاضى قضاة الشام أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن أبى الفضل بن على بن عبد الواحد الأنصارى الخزرجى العُبادِى[1] السعدى الدمشقى الشافعى جمال الدين بن الحرستانى ، فى رابع ذى الحجة ، ومولده بدمشق فى أحد الربيعين ، سنة عشرين وخمسمائة . و[مات] الأمير الكبير بدر الدين محمد بن أبى القاسم بن محمد الهكارى ، قتله الفرنج على حصن الطور ، فنقل إلى القدس ، ودفن بتربته . و[مات] الشجاع محمود ابن الدباغ ، مضحك الملك العادل ، وترك مالا جزيلا .

***

سنة خمس عشرة وستمائة . فيها اجتمع رأى الفرنج على الرحيل من عكا إلى مصر ، والاجتهاد فى تملكها . فأقلعوا فى البحر ، وأرسوا على دمياط ، فى يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الأول — الموافق لثامن حزيران — على بر جيزة[2] (١٠٠) دمياط ، فصار النيل بينهم و بين البلد . وكان إذ ذاك على النيل برج منيع ، فى غاية القوة والامتناع ، فيه سلاسل من حديد ، عظام القدر والغلظ ، تمتد فى النيل لتمنع المراكب الواصلة فى بحر الملح من عبور أرض مصر . وتمتد هذه السلاسل فى برج آخر يقابله ، وكانا مشحونين بالمقاتلة ، ويعرف اليوم مكانهما فى دمياط ببين البرجين[3] .

(١) مضبوط فى س بضم العين فقط . (٢) الجيزة فى اللغة الناحية وجانب الوادى ، (محيط المحيط ، والمقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢٠٥) ، ولعل تلك التسمية راجعة إلى وقوع الجهات المسماة بهذا الاسم عند مجاز النهر .

(٣) تقدم ذكر اهتمام السلطان صلاح الدين يوسف بهذين البرجين ، وسلاسلهما (انظر ص ٧٢ ، حاشية ٣) ، وقد أفاض معظم المؤرخين فى وصفهما ، لمناسبة استيلاء الصليبيين على أحد البرجين ، كما سيأتى فيقول أبو شامة (كتاب الروضتين ، ص ١٦٧ — ١٦٨ ، فى .Rec. Hist. Or. V) . " قلت وأذكر وأنا بدمشق ، حين بلغ الناس أخذ [الفرنج] برج السلسلة . وقد شق [ذلك] على من يعرفه مشقة شديدة ، منهم شيخنا أبو الحسن السخاوى ، ورأيته يضرب يدا على يد ، ويعظم أمر ذلك . وسمعت الفقيه عز الدين بن عبد السلام يسأله عنه ، فقال : هو قفل الديار المصرية ، وصدق . فإنى لما رأيته فى سنة ثمان وعشرين [وستمائة] ... بان لى صحة ما أشار الشيخ إليه . وذلك أنه برج عال ، مبنى فى وسط النيل ، ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه ، وفى ناحيته سلسلتان ، تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط ، والأخرى على النيل إلى البحيرة ، فيمنع (كذا) كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها ، إذا أريد ذلك ، حين قتال العدو . فهو قفل البلاد بالديار المصرية ، إذا أوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور (١٦٨) إليها ، ومتى لم يكن (كذا) السلسلة عبرت المراكب ، وبلغت إلى القاهرة ومصر ، وإلى قوص وأسوان ، والله المستعان" . انظر أيضا ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٠٨ — ٢١٧ ؛ والمقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢١٣ ومابعدها) . هذا وقد اعتمد المقريزى فى رواية هذه الحوادث ، فى كتابه هنا ، وفى المواعظ والاعتبار ، على ابن الأثير ، اعتمادا كليا ، وحرفيا تقريبا .

وصار الفرنج فى غربى النيـل ، فأحاطوا على معسكرهم خندقا ، و بنوا بدائره سورا . وأخذوا فى محاربة أهل دمياط ، وعملوا آلات ومَرَمَّات[١] ، وأبراجاً[٢] [متحركة] ، يزحفون بها فى المراكب إلى برج السلسلة ليملكوه ، حتى يتمكنوا من البلد . فخرج الكامل بمن بقى عنده من العسكر ، فى ثالث يوم من سقوط الطائر ، لخمس خلون من ربيع الأوّل . وتقدّم إلى والى الغربية بجمع سائر العربان ، وسار فى جمع كثير . وخرج الأسطول ، فأقام تحت دمياط ونزل السلطان [الكامل] بناحية العادلية[٣] ، قريبا من دمياط ، وسيّر البعوث ليمنع الفرنج من العبور . وصار يركب فى كل يوم عدة مرار من العادلية إلى دمياط ، لتدبير الأمور و إعمال الحيلة فى مكايدة الفرنج .

وألح الفرنج فى مقاتلة أهل البرج ، فلم يظفروا بشىء ، وكُسرت[٤] مرماتهم وآلاتهم ، وتمادى الأمر على ذلك أربعة أشهر . هذا و [الملك] العادل يجهز عساكر الشام شيئا بعد شىء إلى دمياط ، حتى صار عند الكامل من المقاتلة ما لا يكاد ينحصر عدده .

وفى أثناء ذلك ورد الخبر بحركة الملك [الغالب عز الدين] كيكاوس السلجوقى ، سلطان الروم ، إلى البلاد الشامية ، بموافقة الملك الصالح صاحب آمد وغيره من ملوك الشام ، وأنه وصل إلى مَنْبِج[٥] ، وأخذ تلّ باشِر . واتفق [كيكاوس] مع الملك الأفضل علىّ بن صلاح الدين

---

(١) جمع مرمة ، وهى نوع من السفن الكبار . (انظر ما يلى ، وكذلك Blochet : OP. cit. P. 315 ، حيث ترجمت إلى (gros navires) . وفى المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢١٦) أن الصليبيين هاجوا برج دمياط بعد أن " عملوا برجا من الصوارى على بسطة (كذا ، ولعل المقصود بطسة) كبيرة ، وأقاموا بها حتى أسندوها إليه ، وقاتلوا من به " . (٢) فى س وابراج .

(٣) يسمى المقريزى (نفس المرجع والجزء والصفحة) هذا الموضع بالمنزلة العادلية ، والمنزلة فقط ، وواضح أنه لا علاقة بين هذه الناحية وبين بلدة المنزلة الحالية ، الواقعة على بحيرة المنزلة . انظر (P. Omar Toussoun : OP. Cit. I. 2. Pl. II. b.) (٤) فى س كسر . (٥) فى س منبح ، وبغير ضبط . ومنبج مدينة قديمة ، تقع على مسافة ثلاثة فراسخ من الفرات ، وعشرة فراسخ من حلب ؛ ومنها البحترى وأبو فراس الحمدانى . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٦٥٤ — ٦٥٦) .

(٦) بغير ضبط فى س ، وهو قلعة حصينة ، وكورة أيضا ، فى شمالى حلب ، بينها وبين حلب يومان . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٦٤) .

[صاحب سميساط] أنه يسلمه ما يفتحه من البلاد ، فلم يف [كيكاوس][1] بما وعد ، وسلم ما فتحه لنوابه . فتقاعد عنه كثير من الناس ، وأوقع العرب بطائفة من عسكره ، فقتلوا وأسروا منهم كثيرا ، ونهبوا لهم شيئا له قدر ، فرجع إلى بلاده بغير طائل .

هذا والعادل بمرج الصفر ، فبينا هو فى الاهتمام بأمر الفرنج ، إذ ورد عليه الخبر بأخذ الفرنج برج السلسلة بدمياط ، فتأوه تأوها شديدا ، ودقّ بيده على صدره أسفا وحزنا ، ومرض من ساعته . فرحل من المرج إلى عالِقِين[2] ، وقد اشتد مرضه ، فمات فى سابع جمادى الآخرة يوم الخميس ، فكتم أصحابه موته ، وقالوا قد أشار الطبيب بعبور دمشق ليتداوى ، فحمل فى محفة ، وعنده خادم ، والطبيب راكب بجانب المحفة ، والشَّرَبْدار يصلح الأشربة ، ويحملها إلى الخادم ليشربها السلطان ، يوهم الناس بذلك أنه حى ، إلى أن دخل قلعة دمشق ، وصارت بها الخزائن والحرم وجميع البيوتات . فأُعلم بموته ، بعد ما استولى ابنه الملك المعظم على جميع أمواله ، التى كانت معه ، وسائر رَختِه[4] وثِقله ، ودَفَنه (٥٠ ب) بالقلعة . فاختبط الناس حتى ركب

---

(١) أضيف ما بين الأقواس بعد مراجعة (Enc. Isl. Art. Kaikaus. I.) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى قرية بظاهر دمشق . (Le Strange : Palest Under Moslems. P. 391.) .

(٣) تقدم أشباه هذا الاسم المركب ، عند الكلام على الأستادار والدوادار ، والسلحدار والجمدار ، وغيرها . ومدلول وظيفة الشربدار ظاهر ، وهو الخدمة بشرابخاناه السلطان ، أو الأمير . غير أنه ينبغى التنبيه إلى أن تلك الوظيفة كانت من وظائف الخدم ، أو الحرف الصناعية . (القلقشندى . صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٩) . أما الأمير الذى يتولى سقى السلطان على الموائد ، ويهيمن على مد السماط وتقطيع اللحم ، وسقى المشروب بعد رفع السماط ، فاسمه الساقى (نفس المرجع والجزء ، ص ٤٥٤) . وكانت هناك وظيفة أخرى تتعلق بطعام السلطان ، أو الأمير ، وهى وظيفة الجاشنكير ، ويقوم صاحبها بذوق المأكول والمشروب ، قبل السلطان أو الأمير ، خوفا من أن يدس عليه فيه سم أو نحوه . وتتركب هذه الكلمة من لفظين فارسيين ، أحدهما جاشنا ومعناه الذوق ، والثانى كير وهو بمعنى المتعاطى . (نفس المرجع والجزء ، ص ٤٦٠) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهو لفظ فارسى معناه المتاع . وفى (Quatremère : Maml. I. I. P. 253) أمثلة لتوضيح استعمال هذا اللفظ ، منها أن أميرة حجت " بتجمل زايد ورخت عظيم وبرك هايل " . والرختوانية هم الذين يتولون العناية بمتاع السلطان ، أو الأمير ، فى الأسفار . هذا ورختَ الخادمُ الحصانَ ، ألبسه الرخت ، وهو — فى الغالب — البركستوان المتقدم ذكره (انظر ص ١٧٧) . والحصان المرخت ، الذى عليه رخت جميل . (Dozy : Supp. Dict. Ar) .

المعظم ، وسكَّن أمر الناس ، ونادى فى البلد : "ترحموا على السلطان الملك العادل ، وادعوا لسلطانكم الملك المعظم . أبقاه الله" . فبكى الناس بكاء كثيرا ، واشتد حزنهم لفقده .

وكان مولده فى المحرّم سنة أربعين — وقيل سنة ثمان وثلاثين — وخمسمائة بدمشق . وسمع من السلفى وابن عوف ، وعُرفت مواقفه فى جهاد العدو بثغر دمياط ، فى سنة خمس وستين وخمسمائة ، فى أيام الخليفة العاضد ، وفى مدينة عكا ، وملك دمشق فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، وكانت مدة ملكه لها ثلاثا وعشرين سنة . وملك مصر ، فى سنة ست وتسعين ، فكانت مدّة ملكه[1] لها تسع عشرة سنة وشهرا واحدا وتسعة عشر يوما . ورُزق فى أولاده سعادة قلما يتفق مثلها لملك ، فبلغوا تسعة عشر ولدا ذكرا ، سوى البنات . وهم : الملك الأوحد نجم الدين أيوب ، صاحب خلاط ، وكان قصيرا فى الغاية ، شهما مقداما ، سفاكا للدماء ، مات فى حياة أبيه ؛ والملك الفائز إبراهيم ، والملك المغيث عمر — و[قد] توفيا أيضا فى حياته — وترك عمر ابنا سمى بالملك المغيث شهاب الدين محمود ، رباه عمه الملك المعظم عيسى ؛ والملك الجواد شمس الدين مودود ، ومات فى حياته [أيضا] — وترك الملك الجواد [ولدا اسمه] مظفر الدين يونس بن مودود ، بقى عند عمه الملك الكامل بمصر ، ثم ملك دمشق وغيرها ، وكان جوادا شجاعا ؛ والملك الكامل ناصر الدين محمد ، صاحب مصر ؛ والملك المعظم شرف الدين أبو العزائم عيسى ، صاحب دمشق ؛ وشقيقاه الملك العزيز عماد الدين عثمان صاحب بانياس — وكان جوادا شهما — والملك الأمجد مجد الدين حسن ، ومات فى حياة أبيه بالقدس ، ودفن فى مدرسة بنيت له ، ثم نقل إلى الكرك ، والملك الأشرف مظفر الدين موسى ، صاحب الشرق وخلاط ، بعد أخيه الملك الأوحد ؛ والملك المظفر شهاب الدين غازى صاحب ميافارقين ؛ وشقيقاه الملك المعز مجير الدين يعقوب ، والملك القاهر بهاء الدين تاج الملوك إسحاق ؛ والملك الصالح عماد الدين اسماعيل ، صاحب بصرى ، ثم دمشق[2] ؛ والملك المفضل قطب الدين أحمد ، ومات بمصر فى أيام أخيه الكامل بالفيوم ، ووصل فى تابوت

(١) فى س ملكها لها .　　(٢) فى س "ثم ملك دمشق" .

إلى القاهرة ، فى نصف رجب سنة ثمان عشرة وستمائة ؛ والملك الأمجد تقى الدين عباس ، وهو أصغرهم ، وُلد فى سنة ثلاث وستمائة ، ومات آخرهم ، بدمشق ، فى سنة تسع وستين (١٠١) وستمائة ، فى أيام الملك الظاهر بيبرس ؛ والملك الحافظ نور الدين أرسلان ، صاحب قلعة جعبر ؛ والملك القاهر بهاء الدين خضر ؛ والملك المغيث شهاب الدين محمود ؛ والملك الناصر صلاح الدين خليل .

ووزر [للملك العادل][1] صنيعة الملك أبو سعيد بن أبى اليمن بن النحال مدّة يسيرة ، وكان نصرانيا فأسلم على يده ، بعد عوده مع الأفضل علىّ بن صلاح الدين إلى مصر ، فى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة . فلما مات [ابن النحال] استوزر [العادل] الصاحب صفى الدين عبد الله بن شكر الدَّمِيْرِى ، فتجبر وسطا ، وتمكن من السلطان ، واستولى عليه ، وعظم قدره وأوقع [ابن شكر] بعدّة من الأكابر ، وصادر أكابر كتاب الدولة ، واستصفى أموالهم . ففرّ منه القاضى الأشرف ابن القاضى الفاضل إلى بغداد ، واستشفع بالخليفة الناصر [لدين الله] ، وأحضر كتاب شفاعته إلى العادل . وفرّ منه علم الدين بن أبى الحجاج ، صاحب ديوان الجيش ، والأسعد بن مماتى صاحب ديوان المال ، إلى حلب ، فأكرمهما الملك الظاهر ، حتى ماتا عنده وصادر بنى حمدان و بنى الجباب و بنى الجليس ، وأعيان الكتاب المُسْتَوْفِين[2] ، والعادل لا يعارضه فى شىء . هذا

(١) فى س " ووزر له صنيعة الملك ابو ... " .

(٢) جمع مستوفى ، بكسر الفاء ، وهو حسبما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٦) من كتاب الأموال بالدواوين ، وعمله ضبط الديوان التابع له والتنبيه على ما فيه مصلحته ، من استخراج أمواله ونحو ذلك . وقد تقدم أنه لما تضاءل منصب الوزارة منذ الأيوبيين ، تحوّل كثير من أعماله إلى النظار (انظر ص ٥٣ ، حاشية ٤) وأول هؤلاء ناظر الدولة ، أو ناظر الدواوين ، وكان أولا يعاون الوزير فى تصرفاته العامة ، وهذه تشمل سائر شئون الدولة بمصر والشام . ويأتى بعده مستوفى الصحبة ، وهو يشارك الوزير ويعاونه أيضا فى الأمور العامة ، مثل كتابة المراسيم وتسجيلها . ويليه فى المرتبة مستوفى الدولة ، وهو كمستوفى الصحبة فى النفوذ ، وربما اندمجت الوظيفتان أحيانا . ويلاحظ أن هؤلاء الكتاب كانوا يهيمنون على عامة الدواوين ، على أنه كان لكل ديوان ناظر ، وتحته المستوفى والشاد ، فمستوفى الخاص فى ديوان الخاص ، ومستوفى المرتجعات فى ديوان المرتجعات . وقد غلبت وظيفة هذا الأخير على وظيفة ناظر المرتجعات التى ألغيت ، وأصبح المستوفى بديوانها هو المتصرف (G.-Demembynes Op. cit. Index III) . هذا وقد بقى اسم المستوفى فى بلاد فارس إلى القرن التاسع عشر الميلادى ، وكان يطلق على كبار كتاب المالية . (Morier : Hajji Bada In England, pp. 17, 210.) . انظر أيضا القلقشندى ج ٤ ، ص ٢٩ ، ٣٤ .

وهو يتغضّب على السلطان ، [واستمر على هذا الحال] إلى أن غضب [على السلطان مرة] ، فى سنة تسع وستمائة ، وحلف أنه ما بقى يخدمه . فأخرجه السلطان [العادل] من مصر ، بجميع أمواله وحرمه ، فكان ثقله على ثلاثين جملا . وحسّن أعداؤه للسلطان أن يأخذ ماله ، فامتنع [واكتفى[1] بإخراجه إلى آمد] . وسار [صفى الدين] إلى آمد ، فأقام عند الصالح ابن أرتق . فأقام العادل من بعده القاضى الأعز فخر الدين مقدام بن شكر ، ثم نقم عليه فى سنة اثنتى عشرة وستمائة ، وضربه وقيده ، وأخرجه من مصر ، ولم يستوزر بعده أحدا .

ومن أعجب الاتفاقات أن الملك الأفضل علىّ بن صلاح الدين يوسف لم يملك مملكة إلا وأخذها عمه العادل منـه : فأوّل ذلك أن أباه أقطعه حران والرها وميافارقين ، فى سنة ست وثمانين وخمسمائة ، فسار إليها ، حتى [إذا] بلغ حلب رده أبوه ، و بعث الملك العادل بدله . ثم مَلَكَ الأفضل بعد أبيه دمشـق ، فأخذها العادل منه . ثم ملك مصر بعد ذلك ، فأخذها منه العادل . ثم ملك صرخد ، فأخذها منه العادل ، وعوضه قلعة نجم وسروج ، ثم استرجعهما منه بعد ذلك .

فلما تمهدت [للملك[2] العادل] الممالك قسـمها بين أولاده ، فملك هو وأولاده من خلاط إلى اليمن . ورأى [العادل] فى أولاده ما يحب ، من اتساع الممالك وكثرة الظفر بالأعداء ، بحيث لم يسمع عن ملك أنه رأى فى أولاده (٥١ ب) مارآه العادل ، فإنه اجتمع فى كل منهم من النجابة والنبل ، والـكفاية والمعرفة ، والفضيلة وعلو الهمة ، ما لا مزيد عليه . ودانت لهم العباد ، وملـكوا خيار البلاد . وكان كثيرا ما يتردد [العادل] فى ممالك أولاده ، وأكثر أوقاته يصيف بدمشق ، و يشتى بمصر . وكان أكولا نهما ، يأكل خروفا مشويا بمفرده ؛ وله اقتدار زائد على النكاح ، ومُتِّع فى دنياه بأرغد عيش ، وتمكن من السعادة فى سائر أحواله . وكان حميد السيرة ، حسن العقيدة ، كثير السياسة ، صاحب معرفة بدقائق الأمور ، قد حنكته التجارب ، فسعدت آراؤه ، ونجحت تدبيراته . وكان لا يرى محاربة أعدائه ، و يستعمل فى مقاصده

---

(١) انظر ص ١٧٦ .

(٢) فى س "فلما تمهدت له ...".

المكايد والخدع . فهادنته الفرنج لقوّة حزمه وشدّة تيقظه وغزارة عقله وقوّة كيده ، ومكره ومداومته على المخادعة والمخاتلة ، وكثرة صبره وحلمه وأناته ، بحيث إنه كان إذا سمع ما يكره يغضى عنه تجاوزا وصفحا ، كأنه لم يبلغه . و[كان] لا يُخْرِج المال إلا عند الاحتياج إلى إخراجه ، فيسمح حينئذ ببذل الكثير منه ، ولا يتوقف فيما ينفق ، فإذا لم يحتج إلى إخراج المال ضنّ به وأمسكه . فتأتت[1] له بذلك أغراضه كما يحب ، وانقادت له الأمور مثل ما يختار . وكان يحافظ على أداء الصلوات فى أوقاتها ، ويحب السنة ، ويكرم العلماء ، مع العظمة وقوة المهابة المتمكنة فى القلوب . وله صنف الإمام فخر الدين الرازى كتاب تأسيس التقديس ، وبعث به إليه من بلاد خراسان .

ومات [الملك العادل] عن خمس وسبعين — وقيل ثلاث وسبعين — سنة . وترك مالا كثيراً ، منه فى خزائنه — التى استولى عليها ابنه المعظم — سبعمائة ألف دينار مصرية ، سوى ما كان له فى الكرك ، فاحتوى عليه أيضا الملك المعظم .

وكتب [المعظم] إلى إخوته بموت أبيه ، فجلس الملك [الكامل] للعزاء ، فى معسكره بظاهر دمياط ، وارتاع لموت أبيه خوفا من الفرنج .

السلطان الملك الكامل ناصر الدين

أبو المعالى محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، سادسُ ملوك مصر [من الأيوبيين] . استقل بمملكة مصر بعد موت أبيه ، بعهده إليه فى حياته ، [وكانت سلطنته بعد السابع[2] من جمادى] الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة ، (٥٢ ا) عندما وصل إليه نعى أبيه ، وهو بالمنزلة العادلية على محاربة الفرنج — وقد ملكوا البر الغربى ، واستولوا على برج السلسلة ، وقطعوا السلاسل المتصلة به ، لتعبر مراكبهم فى بحر النيل ، ويتمكنوا من أرض مصر . فنصب الملك الكامل عوضا من السلاسل جسرا عظيما ، يمنع الفرنج من عبور النيل . فقاتل الفرنج عليه قتالا كثيراً حتى قطعوه ، وكان قد أنفق على هذا البرج والجسر ما ينيف

---

(١) فى س فتتابت . (٢) ما بين القوسين بياض فى س ، ما خلا عبارة "من جمادى" ، فإنها محجوبة بورقة ملصقة فوقها ، ولكنها فى ب (٦٢ ب) .

على سبعين ألف دينار . فأمر الكامل بتغريق عدّة من المراكب فى النيل ، منعت الفرنج من سلوكه ، فعدل الفرنج إلى خليج هناك يعرف بالأزرق[١] ، كان النيل يجرى فيه قديما . فحفروه حفرا عميقا ، وأجروا فيه الماء إلى البحر الملح ، فجرت سفنهم فيه إلى ناحية بُورَة[٢] ، على أرض جيزة دمياط ، تجاه المنزلة التى فيها الكامل ، ليقاتلوه من هناك . فلما استقروا فى بورة حاذوه ، وقاتلوه فى الماء ، وزحفوا إليه غير مرة ، فلم ينالوا منه غرضا طائلا . ولم يضر أهل دمياط ذلك ، لتواصل الأمداد والميرة إليهم ، وكون النيل يحجز بينهم و بين الفرنج ، بحيث كانت أبواب المدينة مفتحة ، وليس عليها حصر ولا ضيق البتة .

هذا[٣] والعربان تتخطف الفرنج فى كل ليلة ، بحيث مَنَعَهم ذلك من الرقاد ، خوفا من غاراتهم . فتكالب العرب عليهم حتى صاروا يختطفونهم نهارا ، ويأخذون الخيم بمن فيها . فأكمن لهم الفرنج عدّة كمناء ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا . وأدرك الناس الشتاء ، فهاج البحر على معسكر المسلمين ، وغرّق الخيم ، فعظم البلاء ، واشتد الكرب . وألح الفرنج فى القتال ، ولم يبق إلا أن يملكوا البلاد . فأرسل الله سبحانه ريحا قطعت مراسى مَرَمّة كانت للفرنج من عجائب الدنيا ، فمرّت تلك المرمة إلى البر الذى فيه المسلمون فملكوها ، فإذا هى مصفحة بالحديد ، لا تعمل فيها النار ، ومساحتها خمسمائة ذراع ، وفيها من المسامير مازنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلا .

وبعث السلطان إلى الآفاق سبعين رسولا ، تستنجد أهل الإسلام على قتال الفرنج ، ويستحثهم على إنقاذ المسلمين منهم وإغاثتهم ، ويخوّفهم من تغلب الفرنج على مصر ، فإنه متى ملكوها لا يمتنع عليهم شىء من الممالك بعدها . فسارت الرسل فى شوّال ، فقدمت النجدات من حماة وحلب[٤] .

---

(١) انظر الحاشية التالية . (٢) مضبوطة هكذا فى س ، وهو الضبط الصحيح ، وهى بلدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فى الشمال الغربى من دمياط ، ومنها السمك البورى المعروف بمصر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٥٥ ؛ و Blochet : OP. cit. P. 820. N. 2) . ومن هذا يتعين أن مجرى الخليج الأزرق بين بورة وشمالى المنزلة العادلية . وفى جنوبى المنزلة العادلية موضع اسمه بستان بورة . انظر (P. Omar Toussoun : OP. cit. I. 2. Pl. II. b.)

(٣و٤) مابين الرقمين وارد بورقة منفصلة بين الصفحتين (٤٥ب ، ٤٦أ) من س ، (انظر ص١٦٧ ، حاشية٦) ، وليس بالمتن إشارة ، كعادة المؤلف ، إلى موضع هذا الهامش . على أنه لاشك فى مناسبته هنا ، فإنه موجود بنصه ، وعلى ترتيبه كما هنا ، ضمن حوادث حصار دمياط ، بالمقريزى (المواعظ والاعتبار، ج١ ، ص٢١٦) .

إلا أنه لما قدم على المعسكر موت العادل وقع الطمع فى الملك الكامل ، وثار العرب بنواحى أرض مصر ، وكثر خلافهم واشتد ضررهم . واتفق مع ذلك قيام الأمير عماد الدين أحمد بن الأمير سيف الدين أبى الحسين على بن أحمد الهكارى ، المعروف بابن المشطوب ، وكان أجل الأمراء الأكابر ، وله لفيف من الأكراد الهكارية ، ينقادون إليه ويطيعونه ، مع أنه كان وافر الحرمة عند الملوك ، معدودا بينهم كواحد منهم ، معروفا بعلو الهمة وكثرة الجود ، وسعة الكرم والشجاعة ، تهابه الملوك ، وله وقائع مشهورة فى القيام عليهم . ولما مات أبوه ، وكانت نابلس إقطاعا له ، أرصد ثلثها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لمصالح القدس ، وأقطع ابنه عماد الدين هذا بقيتها ؛ فلم يزل قائم الجاه من الأيام الصلاحية . فاتفق [عماد الدين] مع جماعة من الأكراد والجند على خلع الملك الكامل ، وتمليك أخيه الفائز إبراهيم ، ليصير لهم التحكم فى المملكة . ووافقه على ذلك الأمير عز الدين الحميدى ، والأمير أسد الدين الهكارى ، والأمير مجاهد الدين ، وعدّة من الأمراء .

فلما بلغ الكامل ذلك دخل عليهم ، فإذا هم مجتمعون و بين أيديهم المصحف ، وهم يحلفون لأخيه الفائز . فعند ما رأوه تفرقوا ، فخشى على نفسه منهم ، وخرج . فاتفق قدوم الصاحب صفى الدين بن شكر من آمد ، فإنه كان قد استدعاه [الكامل] بعد موت[1] [أبيه . فتلقاه [الكامل] وأكرمه ، وأوقفه على ما فيه جماعة الأمراء ، فشجعه وضمن له تحصيل المال وتدبير الأمور . فلما كان فى الليل ركب [الكامل] من المنزلة العادلية ، فى الليل جريدة ، وسار إلى أُشْمُوم طَنَّاح[2] ، فنزل بها . وأصبح العسكر وقد فقدوا السلطان ، فركب كل أحد هواه ، ولم يعرج واحد منهم على آخر . وتركوا أثقالهم وخيامهم وأموالهم وأسلحتهم ، ولم يأخذ كل (٥٢ ب) أحد إلا [ما] خف حمله . فبادر الفرنج عند ذلك ، وعبروا بر دمياط وهم آمنون ، من غير منازع ولا مدافع ، وأخذوا كل ما كان فى معسكر المسلمين ، وكان شيئا

(١) بعض حروف هذه العبارة متآكل فى س ، ولكنه فى ب (٦٣ ب) . (٢) بغير ضبط فى س ، وكانت عاصمة الدقهلية والمرتاحية ، وتقع شرق المنصورة ، وجنوبى دكرنس الحالية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٨٢ ؛ و P. Omar Toussoun : Op. cit. I. 2. Pl. I, & P. 244)

لا يقدر قدره ، وذلك لبضع عشرة ليلة خلت من ذى القعدة . فكان نزول الفرنج قبالة دمياط فى يوم الثلاثاء ثانى شهر ربيع الأوّل سنة خمس عشرة [وستمائة] ، ونزولهم فى البر الشرقى — حيث مدينة دمياط — يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة سنة ست عشرة .

فتزلزل الملك الكامل ، وهمّ بمفارقة أرض مصر ، ثم تثبت[1] ، فتلاحق به العسكر . و بعد يومين وصل إليه أخوه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق — وهو بأشموم — فى ثامن عشر ذى القعدة . فقويت به شوكته ، وأعلمه بما كان من أمر ابن المشطوب ، فوعده بإزالته عنه . ثم ركب المعظم إلى خيمة ابن المشطوب ، واستدعاه للركوب معه للمسايرة ، فاستمهله حتى يلبس خُفّية وثيابه ، فلم يمهله وأعجله . فركب معه وهو آمن ، وسايره حتى خرج به من العسكر و بَعُد عنه . فالتفت إليه [المعظم] ، وقال : "ياعماد الدين ! هذه البلاد لك ، أشتهى أن تهبها لنا" . وأعطاه نفقة ، وأسلمه إلى جماعة من أصحابه يثق بهم ، كان قد أعدهم لهذا الأمر ، وأمرهم أن يلازموه إلى أن يخرج من الرَّمْل[2] ، و يحتفظوا به إلى أن يدخل إلى الشام . فما وجد [ابن المشطوب] سبيلا إلى الامتناع ، ولا قدر على المدافعة ، لأنه بمفرده بينهم . فساروا به على تلك الحالة إلى الشام ، فنزل بحماة عند [الملك] المنصور ، ومعه أربعة من خدمه .

ولما سار ابن المشطوب رجع المعظم إلى أخيه الكامل ، وتقدّم إلى أخيه الفائز بأن يمضى إلى الملوك الأيوبية بالشام والشرق رسولا عن الملك الكامل ، بسبب إرسال عساكر الإسلام ، لاستنقاذ دمياط وأرض مصر من الفرنج . وكتب الكامل إلى [أخيه] الأشرف [موسى] شاه أرمن[3] ، يستحثه على سرعة الحضور ، وصدّر المكاتبة بهذه الأبيات :

يا مُسعدى ! إن كنت حقا مُسعفى فانهض بغير تلبث وتوقف

(١) فى س ثبت .

(٢) بغير ضبط فى س ، ويعرف برمل العرابى أيضا ، ويطلق هذا الاسم على الأراضى الصحراوية بين العباسية والعريش . (المقريزى . المواعظ والاعتبار ، ج١ ، ص١٨٢ — ١٨٣) . (٣) فى س شاهارمن ، ويقصد المؤلف به الأشرف موسى الأيوبى ، صاحب مملكة خلاط ؛ وكانت هذه الإمارة الأرمينية الصغيرة قد آلت إلى الأيوبيين بعد زوال أسرة سيف الدين بكتمر ، سنة ٦٠٤ هـ . انظر (Enc. Isl. Arts. Armenia & Begtimur) .

واحْثُثْ قَلُوصك مُرْقِلا أو موجِفا بتجشم فى سيرها وتعسف

وَاطْوِ المنازل ما استطعت ولا تُنِخ إلا على باب المليك الأشرف

وَاقْرِ السلام عليه مِنْ عَبْدِ له متوقعٍ لقدومه متشوف

وإذا وصَلْتَ إلى حماهُ فقل [له عنى بحسن[1]] توصل وتلطف

(١٥٣) إن تأت عبدك عن قليل تلقه ما بين كل مهند ومثقف

أو تبطِ عن إنجاده فلقاؤه يوم القيامة فى عراص الموقف

فسار الفائز — وكان الغرض إخراجه من أرض مصر — فمضى إلى دمشق ؛ ورحل إلى حماة ثم سار إلى الشرق . فانتظم أمر الكامل ، وقوى ساعده ، وترتبت قواعد ملكه ، وسار عنه المعظم .

هـذا والفرنج قد أحاطوا بدمياط من البحر والبر ، وأحدقوا بها وحصروها ، وضيقوا على أهلها ، ومنعوا الأقوات أن تصل إليهم . وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقا ، وبنو عليه سورا . وأهل دمياط يقاتلونهم أشدّ قتال ، وأنزل الله عليهم الصبر ، فثبتوا[2] مع قلة الأقوات عندهم وشدّة غلاء الأسعار وأخذ الكامل فى محاربة الفرنج ، وهم قد حالوا بينه وبينها ، ولم يصل إليها أحد من عنده سوى رجل من الجاندارية . [وكان هذا الرجل قد] قدم إلى القاهرة من بعض قرى حماة ، [و] يسمى شمايل ، فتوصل حتى صار يخدم فى الركاب السلطانى جاندارا . وكان يخاطر بنفسه ، ويسبح فى النيل — ومراكب الفرنج به محيطة ، [والنيل] قد امتلأت به شوانى الفرنج — فيدخل إلى مدينة دمياط ، ويأتى السلطان بأخبار أهلها . فإذا دخل إليها قوى قلوب أهلها ، ووعدهم بقرب وصول النجدات . فحظى بذلك عند الكامل ، وتقدما تقدما كثيرا ، وجعله أمير جاندَاره[3] وسيف نقمته ، وولاه القاهرة ، وإليه تنسب خزانة شمايل[4] وكان فى دمياط من أهلها الأمير جمال الدين الكنانى ، فكتب هذه الأبيات ، وألقاها إلى الملك الكامل فى سهم نشاب ، وهى :

---

(١) مابين القوسين محجوب بورقة ملصقة فوقه فى س ، ولكنه فى ب (١٦٤ ا) . (٢) فى س فبتوا .

(٣) مضبوطة هكذا فى س . (٤) انظر المقريزى : المواعظ والاعتبار — بولاق — ج ٢ ، ص ١٨٨ .

يا مالكى ! دمياط ثغر هُدِّمت | شرفاته كادت تجث أصوله
يقريك من أزكى السلام تحية | كالمسك طاب دقيقه وجليله
ويقول عن بعد وإنك سامع | حتى كأنك جاره ونزيله
يأيها الملك الذى ما إن يُرى | بين الملوك شبيهه وعديله
هذا كتاب موضح من حالتى | ما ليس يمكننى لديك أقوله
أشكو إليك عدوّ سوء أحدقت | بجميعه فرسانه وخيوله
فالبر قد مُنعت إليه طريقه | والبحر عز لنصره أسطوله
فخضوعه باد على أبراجه | وحنينه وبكاؤه وعويله
ولو استطاع لأمّ بابك لائذا | لكنه[1] سدّت عليه سبيله
٥٣ ب) وسؤاله فى أن تجيب دعاءه | دين الإله وخلقه ورسوله[2]
فقد انتهت أدواؤه وتحكمت | علاته ونحا عليه نحوله
وبقى له رمق يسيرٌ يرتجى | أن يشتفى لما دعاك عليله
فاحرس حماك بعزمة تشفى بها | داء لمثلك يرتجى تعليله
فالله أعطاك الكثير بفضله | ورضاه من هذا الكثير قليله
فالعذر فى نصر الإله ودينه | ما ساغ عند المسلمين قبوله
والثغر ناظرهُ إليك محدّق | ما إن يَمَلّ من الدموع همول
ولئن قعدت عن القيام بنصره | جفت نضارته وبان ذبوله
ووهت قوى القرآن فيه ورُفِّعت | صلبانه وتُلى به إنجيله
وعلا صدى الناقوس فى أرجائه | وخفى على سمع الورى تهليله
هذا وحقك وصف صورة حاله | حقا وجملته وذا تفصيله
وكفاك يابن الأكرمين بأنه | أضحى عليك من الورى تعويله

(١) هذا اللفظ غير واضح فى س ، ولكنه فى ب (٦٤ب) . (٢) كذا ورد البيت فى س ، ب

حقق رجاء فيك يا من لم يخب أبدا لراجى جوده تأميله

واذخر ليوم البعث فعلا صالحا الله ضامن أجره وكفيله

فلما وقف السلطان على هذه الأبيات أمر أهل القاهرة ومصر بالنفير للجهاد ، وخرجت السنة والحال على ذلك .

وفيها استدعى الملكُ الغالب كيكاوس بن كيخسرو بن قلج أرسلان ، ملك الروم ، بالملك الأفضل نور الدين على بن صلاح الدين يوسف — وكان بسميساط ، ويخطب للملك الغالب . فلما قدم عليه أكرمه ، وحمل إليه شيئا كثيرا من المال والخيل والسلاح وغيره ، وتحالفا على المسير إلى المملكة الحلبية وأخْذِها ، بشرط أن يدفعها الملك الغالب ، هى وسائر ما يفتحه ، إلى الملك الأفضل ، ليقيم له فيها الخطبة والسكة ، ويصير فى طاعته . فإذا تم ذلك سارا إلى الشرق ، وأخذا حران والرها وغيرها . فسارا بالعساكر وأخذا قلعة رَعْبَان[(١)] ، فتسلمها الأفضل ، ومال إليه الناس ، واجتمعوا على الملك الغالب ، لمحبتهم فى الأفضل . ثم سارا إلى قلعة تل باشر ، فحصراها حتى ملكاها ، فلم يسلمها الملك الغالب للأفضل ، وأقام فيها نائبا من قبله . فنفر منه الأفضل [وفترت[(٢)]] همته ، وعلم أن هذا أول الغدر وأعرض أهل البلاد أيضا عن [الملك الغالب[(٣)]] ، واستعدّ أهل حلب ، واستدعوا (١٠٤ ا) الملك الأشرف من بحيرة قدس ، وكان نازلا عليها تجاه الفرنج . فقدم إليهم بعساكره ، وحضرت عرب طىّ وغيرها ، إلى ظاهر حلب . فحسّن الأفضل للملك الغالب التوجه إلى منبج ، فسارا إليها . فواقع العرب مقدّمة الملك الغالب ، فانهزمت ، وأسَرَ العربُ وأصحاب الأشرف كثيرا منهم . فرجع عند ذلك الملك الغالب إلى بلاده ، وسار الأشرف ، فاستولى على رعبان وتل باشر .

وفيها مات الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكى بن آقسنقر ، صاحب الموصل ، لثلاث بقين من ربيع الأول ؛ وكانت مدّة

(١) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة بين حلب وسميساط ، قرب الفرات . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٧٩١) .

(٢و٣) ما بين الأقواس محجوب بورقة ملصقة فوقه فى س ، ولكنه فى ب (١٦٥ ا) .

ملكه سبع سنين وتسعة أشهر . وقام من بعده ابنه نور الدين أرسلان شاه ، وعمره عشر سنين ، فدبر أمره الأمير بدر الدين لؤلؤ الأتابك ، فأقرهما الخليفة الناصر .

* * *

سنة ست عشرة وستمائة . فيها قَدِم الملك المظفر تقى الدين محمود بن المنصور محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب — صاحب حماة — إلى الملك الكامل ، نجدة فى عسكر كثيف ، ومعه الطواشى مرشد المنصورى . فتلقاه السلطان وأعظم قدره ، وأنزله على ميمنته ، وهى المنزلة التى كانت لأبيه وجدّه ، عند السلطان صلاح الدين يوسف ووصل الفائز إبراهيم ابن العادل إلى أخيه الأشرف موسى ، برسالة أخيهما الكامل للاستنجاد على الفرنج ، فأكرمه وأمسكه عنده ، فإن الغرض إنما كان إخراجه من أرض مصر .

وفيها اشتدّ قتال الفرنج ، وعظمت نكايتهم لأهل دمياط ، وكان فيها نحو العشرين ألف مقاتل . فنهكتهم الأمراض ، وغلت عندهم الأسعار ، حتى أبيعت البيضة الواحدة من بيض الدجاج بعدّة دنانير . وامتلأت الطرقات من الأموات ، وعدمت الأقوات ، وصار السكر فى عزة الياقوت ، وفقدت اللحوم فلم يقدر عليها بوجه ، وآلت بالناس الحال إلى أن لم يبق عندهم غير شىء يسير من القمح والشعير فقط . فتسوّر الفرنج السور ، وملكوا منه البلد يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان ، فكانت مدّة الحصار ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما . وعند ما أخذوا دمياط وضعوا السيف فى الناس ، فلم يعرف عدد من قُتِل لكثرتهم .

ورحل السلطان بعد ذلك بيومين ، ونزل قبالة طَلْخَا ، على رأس بحر أشموم [ورأس[1] بحر] دمياط ، وخيّم بالمنزلة التى (٥٤ ب) عُرفت بالمنصورة . وحصن الفرنج أسوار دمياط ، وجعلوا جامعها كنيسة ، وبثوا سراياهم فى القرى يقتلون ويأسرون ، فعظم الخطب واشتدّ البلاء . ونَدَب السلطان الناس وفرّقهم فى الأرض ، فخرجوا إلى الآفاق يستصرخون الناس لاستنقاذ أرض مصر من أيدى الفرنج . وشرع السلطان فى بناء الدور والفنادق ، والحمامات والأسواق ،

(١) ما بين القوسين محجوب فى س بورقة ملصقة فوقه ، ولكنه فى ب (٦٥ ب) .

بمنزلة المنصورة . وجهّز الفرنج من حصل فى أيديهم من أسارى المسلمين فى البحر إلى عكا ، وبرزوا من مدينة دمياط يريدون أخذ مصر والقاهرة . فنازلوا السلطان تجاه المنصورة ، وصار بينهم وبين العسكر بحر أشموم وبحر دمياط ، وكان الفرنج فى مائتى ألف رجل وعشرة آلاف فارس . فقدّم السلطان الشوانى تجاه المنصورة ، وهى مائة قطعة . واجتمع الناس من أهل القاهرة ومصر وسائر النواحى ، ما بين أسوان إلى القاهرة . ووصل الأمير حسام الدين يونس ، والفقيه تقىّ الدين طاهر المحلى ، فأخرجا الناس من القاهرة ومصر ؛ ونودى بالنفير العام ، وألا يبقى أحد ، وذكروا أن ملك الفرنج قد أقطع ديار مصر لأصحابه . فقال [؟][1] :

"يهدّدونا بأهل عكا أن يملكونا وأهل يافا
ومن لنـا أن يلوا علينا فالروم خير من الريافا"

يعنى أهل الريف ، فإنه كان قد كثر تسلطهم ، وطمعوا فى أمر السلطان ، واستخفوا به ، لشغله بالفرنج عنهم . وخرج الأمير علاء الدين جلدك ، والأمير جمال الدين بن صيرم ، لجمع الناس مما بين القاهرة إلى آخر الحَوْف الشرقى[2] ، فاجتمع من المسلمين عالم لا يقع عليه حصر .

---

(١) لم يذكر المؤلف صاحب هذين البيتين ، وليس بالمقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٣ وما بعدها) ذكر لهما بتاتا ، فى باب حصار دمياط .

(٢) قسم العرب ، بعد فتحهم مصر ، أرض دلتا النيل إداريا إلى قسمين ، وهما الحوف والريف . وكان الحوف يشمل جميع الأراضى الواقعة شرقى فرع دمياط ، من عين شمس إلى دمياط والفرما . وكان الريف عبارة عن بقية أراضى الدلتا إلى الإسكندرية . ثم عدل ذلك التقسيم فى القرن الثالث الهجرى ، وصارت أراضى دلتا النيل ثلاثة أقسام ، وهى الحوف الشرقى ، والحوف الغربى ، وبطن الريف . وكان الحوف الشرقى عبارة عن الحوف القديم ، ما خلا الأراضى الواقعة شمالى بحر أبى صير ؛ والحوف الغربى هو الأراضى الواقعة غربى فرع رشيد ، ويشمل أيضا أراضى رشيد وشباس وصا ، الواقعة شرقى هذا الفرع . أما بقية الأراضى الواقعة بين فرعى النيل ، وكذلك الأراضى الواقعة شمالى بحر أبى صير ، فسميت بطن الريف . وقد بقى هذا التقسيم إلى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ثم تغير ذلك كله ، سنة ٦٩٧ هـ ، إلى ما يشبه الأقسام الإدارية الحالية .
(القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٨٥ — ٣٨٦ ؛ و P. Omar Toussoun Op. cit. I. I. pp. 1-4, I. 2. p. 217.)

وأنزل السلطان على ناحية شَارِمْسَاح[١] ألفى فارس، فى آلاف من العربان، ليحولوا بين الفرنج و بين دمياط . وسارت الشوانى — ومعها حراقة كبيرة — إلى رأس بحر المحلة[٢]، وعليها الأمير بدر الدين بن حسون، فانقطعت الميرة عن الفرنج من البر والبحر .

وقدمت النجدات [للملك الكامل] من بلاد الشام . وخرجت أمم الفرنج من داخل البحر تريد مدد الفرنج على دمياط ، فوافى دمياط منهم طوائف لا يحصى لهم عدد . فلما تكامل جمعهم بدمياط خرجوا منها ، فى حدّهم وحديدهم ، وقد زين لهم سوء عملهم أن يملكوا أرض مصر ، و يستولوا منها على ممالك البسيطة كلها . فلما قامت النجدات كان أولها قدوما الملك الأشرف موسى بن العادل ، وآخرها على الساقة الملك المعظم عيسى ، وفيما بينهما بقية الملوك : وهم المنصور صاحب حماة ، والناصر صلاح الدين قلج أرسلان ، والمجاهد صاحب حمص ، والأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك ، وغيرهم . فهال الفرنج ما رأوا . وكان قدوم هذه النجدات فى (١٥٥) ثالث عشرى جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة ؛ وتتابع قدوم النجدات حتى بلغ عدد فرسان المسلمين نحو الأربعين ألفا . فحاربوا الفرنج فى البر والبحر ، وأخذوا منهم ست شوانى وجلاسة[٣] و بطسة ، وأسروا منهم ألفين ومائتى[٤] رجل . ثم ظفروا أيضا بثلاث قطائع[٥] ، فتضعضع الفرنج لذلك ، وضاق بهم المقام ، و بعثوا يسألون فى الصلح ، كما سيأتى إن شاء الله .

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى قرية بالدقهلية الحالية ، وتقع على فرع دمياط ، شمالى شربين ، وبينها وبين دمياط خمسة فراسخ . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٣٢ ؛ و : P. Omar Toussoun : Op. cit. I. 1. P. 175. Pl. II. b.) . انظر أيضا الحاشية التالية .

(٢) بحر المحلة ترعة متفرعة من بحر مليج ، الذى يخرج من فرع دمياط ، عند بلدة ميت عطار ، قرب بنها الحالية . وكان مخرج بحر المحلة جنوبى بلدة طنت ، ثم يسير نحو الشمال الغربى ، مارا بالهيام وبلقينة ، حتى يصب فى فرع دمياط ، قبالة شارمساح على الشاطئ الآخر : (P. Omar. Toussoun : Mem. Anc. Branches Du Nil. p. 98)

(٣) واضح أن هذا اللفظ معرب كلمة (galeasse) الفرنسية . والجلاسة نوع من السفن الحربية الكبيرة ، كان شائع الاستعمال فى البحر الأبيض المتوسط ؛ ويقابلها فى الإيطالية (galeazza) ، ومرادفها فى الإنجليزية قريب من هذا أيضا . (٤) فى س ومائتين رجلا .

(٥) جمع قطيعة ، وهى الفئة من الجنود ، وفى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) مثل من استعمال هذا اللفظ ، نصه : " فبعث إليه الناصر بالقطائع والجيوش لقتاله " .

وفيها مات قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود ، صاحب سنجار . وقام من بعده ابنه عماد الدين شاهنشاه[١]، ثم قتله أخوه الأمجد عمر . ومات نور الدين أرسلان شاه ، صاحب الموصل . فقام من بعده الأمير بدر الدين لؤلؤ ، بأمر أخيه ناصر الدين محمود ابن القاهر عز الدين ، وعمره ثلاث سنين .

وفيها أمر الملك المعظم عيسى بتخريب القدس ، خوفا من استيلاء الفرنج عليها ، فخربت أسوار المدينة وأبراجها كلها ، إلا برج داود — وكان من غربى البلد — فإنه أبقاه . وخرج معظم من كان فى القدس من الناس ، ولم يبق فيه إلا نفر يسير . ونقل المعظم ما كان فى القدس من الأسلحة وآلات القتال ، فشق على المسلمين تخريب القدس وأخذ دمياط . وفيها هدم المعظم أيضاً قلعة الطور ، التى بناها أبوه العادل ، وعفى آثارها . وفيها خرجت كتب الخليفة الناصر [لدين الله] إلى سائر الممالك ، بإنجاد الملك الكامل بدمياط .

وفيها مات عز الدين كيكاوس بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود ابن قلج أرسلان ، ملك قونية ، بعد ما تملك أرزن الروم[٢] من عمه طغرل شاه بن قلج أرسلان ، وملك أنكورية[٣] من أخيه كيقباد[٤]، فصار سلطان الروم . وقام من بعده أخوه علاء الدين كيقباد[٥] .

وفيها ابتدأ ظهور التتار — ومساكنهم جبال طمغاج[٦] من أرض الصين ، بينها وبين بلاد التركستان ما يزيد على ستة أشهر — واستولوا على كثير من بلاد الإسلام . وكانوا لا يدينون بدين ،

---

(١) فى س هاهنشاه .

(١) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة بأرمينية ، فى الشمالى الشرقى من خلاط . واسمها الأصلى فى القديم (Theodosiopolis) ، ثم سماها العرب قاليقالا ، أيام الفتوح الإسلامية الأولى ، وأطلقوا هذا الاسم أيضا على الأراضى المحيطة بها . أما اسم أرزن الروم فيرجع إلى سنة ٤٤١ هـ ، حين هدم السلاجقة بلدة أرزن ، وهى قرب خلاط أيضا ، فخرج أهلها الأرمن إلى قاليقالا ، وأطلقوا عليها أرزن الروم . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦ ؛ و Enc. Isl. Art. Erzerum) .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى أنقرة الحالية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٩٠ — ٣٩١) .

(٤) فى س كى قباذ . انظر (Enc. Isl. Art. Kaikobad) . (٥) فى س كيقباذ .

(٦) مضبوطة هكذا فى س ، وهى اسم أطلقه الترك على شمالى الصين ، وقد أخذوه من اليونانية ، ثم استعاره العرب من الترك . انظر (Blochet : Op. cit. p. 330. N. 3.) .

إلا أنهم يعترفون بالله تعالى ، من غير اعتقاد شريعة . فملكوا الصين — وكان ملكهم يقال له جنكزخان[1] — ثم ساروا إلى تركستان وكاشغر ، فملكوا تلك البلاد ، وأغاروا على أطراف بلاد السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه تكش[2] . ثم استولوا على بخارى وغيرها من بلاد العجم .

* * *

سنة سبع عشرة وستمائة . أهلت وانقضت ، والحرب قائمة بين المسلمين وبين الفرنج على دمياط ، فى منزلة المنصورة . وفيها استولى التتر على سمرقند ، وهزموا السلطان علاء الدين ، وملكوا الرى وهمذان وقزوين ، وحاربوا الكرج ، وملكوا فرغانة والترمذ[3] وخوارزم ، (٥٥ ب) وخراسان ومرو ونيسابور ، وطوس وهراة وغزنة .

وفيها مَلَكَ الأشرف موسى بن العادل ماردين وسنجار . وفيها مات الملك المنصور ناصر الدين محمد بن عمر بن شاهنشاه[4] بن أيوب بن شادى صاحب حماة — وكان إماما مفتيا فى عدّة علوم ، وله شعر جيد — فى ذى القعدة ، عن خمسين سنة ، منها مدة ملكه ثلاثون[5] سنة . وكان ابنه الأكبر الملك المظفر تقى الدين محمود فى معسكر خاله الملك الكامل ، بالمنصورة على مقاتلة[6] الفرنج . فقام بمملكة حماة الملك الناصر قلج أرسلان بن المنصور ، وكان عمره سبع عشرة سنة . فشق ذلك على أخيه المظفر ، واستأذن الملك الكامل فى العود إلى حماة ، ظنا منه أنه يملكها ، فإنه كان ولى عهد أبيه . فأذن له [الملك الكامل] ، وسار فلقى الملك المعظم فى الغور ، فخوّفه من التعرض إلى أخيه ، فأقام بدمشق . ثم رجع [المظفر] إلى الملك الكامل ، فأقطعه إقطاعا ، وأقام فى خدمته .

وفيها كثرت مصادرة الصاحب صفى الدين بن شكر أرباب الأموال ، بمصر والقاهرة ، من التجار والكتاب : وقرّر التبرع على الأملاك ، وهو مال جُبِى من الناس . وأحدث [ابن شكر] حوادث كثيرة ، وحصل مالا جما .

---

(١) فى س جنكس خان . (٢) يلى هذا الاسم تكملة لنسب خوارزمشاه نصها : "ابن الب ارسلان محمد بن جغرى بك داود بن ميكائيل السلجوق" ، وهى تكملة خاطئة ، إذ ليس ثمة علاقة معروفة بين أجداد الخوارزمية وأجداد السلاجقة . (٣) فى س الترمد .

(٤) فى س هاهنشاه . (٥) فى س ثلثين . (٦) فى س مقابله .

وفيها قوى طمع الفرنج فى ملك ديار مصر ، وعزموا على التقدّم إلى المسلمين ، ليدفعوهم عن منزلتهم ، و يستولوا على البلاد فانقضت السنة وهم تجاه المسلمين على رأس بحر أشموم ودمياط . وفيها غلت الأسعار بأرض مصر ، فبلغ القمح ثلاثة دنانير كل أردب ، فكانت من أشق السنين وأشدّها على مصر .

وفيها مات الشريف أبو عزيز قتادة بن أبى مالك إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن على بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، سلطان مكة ، فى آخر جمادى الآخرة بمكة ، عن تسعين سنة . وله شعر جيد ، وقدم مصر غير مرة ، ومعه أخوه أبو موسى عيسى ، وكانت ولادته ومرباه بالينبع . وملك مكة بعده ابنه حسن بن قتادة ، فسار راجح بن قتادة مغاضبا له ، وقطع الطريق فى الموسم بين مكة وعرفة ، فقبض عليه أقباش[(١)] أمير الحاج العراقى . فبعث الشريف حسن لأقباش يعده بمال ليسلمه راجحا ، فوعده راجح بأكثر من ذلك ، فعزم [أقباش] على أن يسلمه مكة ، [وتقدّم لمقاتلة[(٢)] أميرها] ، فقُتِل [أقباش] ، وفر راجح إلى الملك المسعود باليمن .

* * *

سنة ثمان عشرة وستمائة . فيها اشتدّت قوة الفرنج ، بكثرة من قدم إليهم فى البحر . فتابع الملك الكامل الرسل فى طلب النجدات ، فقدمت عليه الملوك كما تقدّم . واشتدّ القتال بين الفريقين برا وبحرا ، وقد اجتمع من الفرنج والمسلمين ما لا يعلم عددهم إلا الله . وكانت العامة تكر على الفرنج أكثر مما يكر عليهم العسكر ، وتقدّم جماعة (١٠٦ ا) من العسكر إلى خليج من النيل فى البر الغربى ، يعرف ببحر المحلة ، وقاتلوا الفرنج منه . وتقدّمت الشوانى الإسلامية فى بحر النيل ، لتقاتل شوانى الفرنج ، فأخذوا منها ثلاث قطع برجالها وأسلحتها

(١) مضبوط على منطوقه فى (Blochet : OP. cit. P. 336) . (٢) عبارة المقريزى هنا عن حوادث مكة مقتضبة ، وقد أضيف ما بين الأقواس من ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٦١ — ٢٦٣) حيث توجد تفاصيل كثيرة . (٣) فى س بر .

[هـذا] والرسل تتردد من عند الفرنج فى طلب الصلح بشروط : منها أخْذ القدس وعسقلان وطبرية ، وجبلة واللاذقية ، وسائر مافتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل ، فأجابهم الملوك إلى ذلك ، ما خلا الكرك والشوبك . فأبى الفرنج ، وقالوا : "لا نسلم دمياط حتى تسلموا ذلك كله" ، فرضى الكامل . فامتنع الفرنج ، وقالوا : " لا بدّ أن تعطونا خمسمائة ألف دينار ، لنعمر بها ما خربتم من أسوار القدس ، مع أخْذ ما ذُكر من البلاد ، وأخْذ الكرك والشوبك أيضاً " .

فاضطرّ المسلمون إلى قتالهم ومصابرتهم وعَبَر جماعة من المسلمين فى بحر المحلة إلى الأرض التى عليها معسكر الفرنج ، وفتحوا مكانا عظيما فى النيل . وكان الوقت فى قوة الزيادة ، فإنه كان أول ليلة من توت، والفرنج لا معرفة لهم بحال أرض مصر ، ولا بأمر النيل فلم يشعر الفرنج إلا والماء قد غرق أكثر الأرض التى هم عليها ، وصار حائلا بينهم و بين دمياط ، وأصبحوا وليس لهم جهة يسلكونها ، سوى جهة واحدة ضيقة . فأمر السلطان فى الحال بنصب الجسور عند بحر أشموم طناح ، فتهيأ الفراغ منها ، وعبرت العساكر الإسلامية عليها ، وملكت الطريق التى تسلكها الفرنج إلى دمياط ، فانحصروا من سائر الجهات . وقدّر الله سبحانه بوصول مرمّة عظيمة فى البحر للفرنج ، وحولها عدّة حرّاقات تحميها ، وسائرها مشحونة بالميرة والسلاح ، وسائر ما يحتاج إليه . فأوقع بها شوانى الإسلام ، وكانت بينهما حرب ، أنزل الله فيها نصره على المسلمين ، فظفروا بها و بما معها من الحرّاقات .

ففتّ ذلك فى أعضاد الفرنج ، وألقى فى قلوبهم الرعب والذلة ، بعد ما كانوا فى غاية الاستظهار والعَنَت على المسلمين[1] ، وعلموا أنهم مأخوذون لا محالة . وعظمت نكاية المسلمين بهم برميهم إياهم بالسهام ، وحملهم على أطرافهم[2] . فأجمعوا أمرهم على مناهضة المسلمين ، ظنا منهم أنهم يصلون إلى دمياط ، فخربوا خيامهم ومجانيقهم ، وعزموا على أن يحطموا حطمة واحدة .

(١) فى س " ... فى غاية الاستظهار على المسلمين والعنت " .
(٢) كذا فى س ، ب (١٦٨ ا) ، وبالعبارة شىء من الغموض لكثرة الضمائر ، ولذا أورد ما يقابلها فى ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢١٥) للتوضيح ، ونصه : " وعساكر المسلمين محيطة بهم ، يرمونهم بالنشاب ، ويحملون على أطرافهم " .

فلم يجدوا إلى ذلك سبيلا ، لكثرة (٥٠٦ ب) الوحل والمياه التى قد ركبت الأرض من حولهم . فعجزوا عن الإقامة لقلة الأزواد عندهم ، ولاذوا إلى طلب الصلح ، و بعثـوا يسألون الملك الكامل — وإخوته الأشرف والمعظم — الأمان لأنفسهم ، وأنهم يسلمون دمياط بغير عوض .

فاقتضى رأى الملك الكامل إجابتهم ، واقتضى رأى غير من إخوته مناهضتهم ، واجتثاث أصلهم ألبتة . فخاف الملك الكامل إنْ فعَلَ ذلك أن يمتنع من بقى منهم بدمياط أن يسلمها ، و يحتاج الحال إلى منازلتها مدّة ، فإنها كانت ذات أسوار منيعة ، وزاد الفرنج عند ما استولوا عليها فى تحصينها ، ولا يُؤْمَن فى طول محاصرتها أن يفد ملوك الفرنج نجدة لمن فيها ، وطلبا الثأر من قُتِل من أكابرهم . هذا وقد ضجرت عساكر المسلمين ، وملت من طول الحرب ، فإنها مقيمة فى محاربة الفرنج ثلاث سنين وأشهرا[١] .

وما زال الـكامل قائما فى تأمين الفرنج إلى أن وافقـه بقية الملوك ، على أن يبعث الفرنج برهائن من ملوكهم — لا من أمرائهم — إلى أن يسلموا دمياط . فطلب الفرنج أن يكون ابن الملك الكامل عندهم رهينة ، إلى أن تعود إليهم رهائنهم . فتقرر الأمر على ذلك ، وحلف كل من ملوك المسلمين والفرنج . فى سابع شهر رجب . و بعث الفرنج بعشرين ملكا من ملوكهم رهنا ، منهم يوحنا صاحب عكا[٢] ، ونائب البابا[٣] . و بعث الملك الكامل إليهم بابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وله من العمر يومئذ خمس عشرة سنة ، ومعه جماعة من خواصه . وعند ما قدم ملوك الفرنج جلس لهم الملك الكامل مجلسا عظيما ، ووقف الملوك من إخوته وأهل بيته بين يديه بظاهر البَرَمُوْن ، فى يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رجب ، فهال

(١) فى س واشهر .

(٢) يقصد المؤلف (Jean de Brienne, roi titulaire de Jérusaem) ، وهو قائد هذه الحملة الصليبية فى أولها . (Rec. His. Or. II. 1. P. 124. N. 4.) .

(٣) نائب البابا فى تلك الحملة هو (Cardinal Pélage) . نفس المرجع والجزء والصفحة (N. 5) .

(٤) بغير ضبط فى س ، ويوجد فى (P. Omar Toussoun : Op. cit. I. 1. Pl. II. b.) ذكر للبرمون البحرى والبرمون القبلى ، وكلاهما شمالى بحر تنيس ، بين المنصورة وشربين .

الفرنج ما شاهدوا من تلك العظمة و بهاء ذلك الناموس . وقدمت قسوس الفرنج ورهبانهم إلى دمياط ، ليسلموها إلى المسلمين ؛ فتسلمها المسلمون فى يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رجب . فلما تسلمها المسلمون قدم فى ذلك اليوم من الفرنج نجدة عظيمة ، يقال إنها ألف مركب ، فعُدّ تأخرهم إلى [ما] بعد تسليمها من الفرنج صنعاً جميلا من الله سبحانه . وشاهد المسلمون عند [ما] تسلموا دمياط من تحصين الفرنج لها ما لا يمكن أخذها بقوة ألبتة[1] .

و بعث السلطان بمن كان عنده فى الرهن من الفرنج ، وقدم الملك الصالح ومن كان معه . وتقررت الهدنة بين الفرنج و بين المسلمين مدة ثمانى سنين ، على أن كلا من الفريقين يطلق ما عنده من (١٠٧ ا) الأسرى . وحلف السلطان و إخوته ، وحلف ملوك الفرنج ، على ذلك . وتفرق من كان قد حضر للقتال ؛ فكانت مدة استيلاء الفرنج على دمياط سنة واحدة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما . ثم دخل الملك الكامل إلى دمياط بعساكره وأهله ، وكان لدخوله مسرة عظيمة وابتهاج زائد . ثم سار الفرنج إلى بلادهم . وعاد السلطان إلى قلعة الجبل ، فى يوم الجمعة ثانى عشر شهر رمضان . ودخل الوزير الصاحب صفى الدين عبد الله ابن على بن شكر فى البحر ، وأطلق من كان بمصر من الأسرى ، وكان فيهم من أُسر من الأيام الصلاحية . وأطلق الفرنج من كان فى بلادهم من أسرى المسلمين .

واتفق[2] أنه لما رحل الفرنج اجتمع فى ليلة عند الملك الكامل أخواه المعظم عيسى والأشرف موسى على حالة أنس ، فأمر الأشرف جاريته ست الفخر ، فغنّت على عودها : —

ولما طغى فرعون عكا ببغيه　　وجاء إلى مصر ليفسد فى الأرض
أتى نحوهم موسى وفى يده العصا　　فأغرقهم فى اليم بعضاً على بعض

(١) كان من شروط الصلح أن تكون هدنة بين المسلمين والصليبيين لمدة ثمانى سنين ، لا يستثنى منها سوى أصحاب التيجان من ملوك أوربا ، فإن لهم أن ينقضوها إذا شاءوا . ولقد كانت الحملة التى وصلت دمياط ، بعد إمضاء شروط الصلح ، من عند فردريك (Frederic II.) إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وكان يحق لقائدها أن يكسر الهدنة ، دون أن يخل بشروط الصلح ؛ غير أن وجود الرهائن لدى الكامل أخاف الصليبيين من عواقب ذلك ، فسلموا دمياط حسب الشروط (Lane-Poole : A Hist. Of Egypt. p. 224).

(٢) قبالة هذا الخبر ، بهامش الصفحة فى س ، لفظ " لطيفة " ، بخط مخالف .

فطرب الأشرف ، وقال لها : " كَرِّرِى " . فشق [ذلك] على الملك الكامل ، وأمرها فسكتت ، وقال لجاريته : " غَنِّ أنتِ " . فغنت على العود : —

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا … لما قد جرى فى وقتنا وتجدّدا
أعباد عيسى إن عيسى وقومه … وموسى جميعاً ينصرون محمدا

فأعجب الكامل بها ، وأمر لها بخمسمائة دينار ، ولجارية أخيه الأشرف بخمسمائة دينار . فنهض القاضى الأجل هبة الله بن محاسن ، قاضى غزة ، وكان فى جملتهم ، وأنشد : —

حبانا إله الخلق فتحا لنا بدا … مبيناً وإنعاماً وعزاً مجدّدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه … وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله[1] الـ … ـطغاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سَلَّ عزمه … صقيلا كما سل الحسام مجرّدا
فلم تر إلا كل شِلوٍ[2] مُجَدَّل[3] … ثوى منهمُ أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون فى الأرض رافعاً … عقيرته فى الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبه … وموسى جميعاً ينصران[4] محمدا

ويقال إن هذا المجلس كان بالمنصورة . ولما استقر الملك الكامل على تخت ملكه سارت الملوك إلى ممالكها ، وعمت بشارة أخذ (٥٧ ب) المسلمين دمياط آفاق الأرض . فإن التتار كانوا قد دمروا ممالك الشرق ، وكادت مصر مع الشام يستأصل شأفة أهلها الفرنج ، حتى مَنَّ الله بجميل صنعه وخفى لطفه ، ونَصَر عباده المؤمنين ، وأيدهم بجنده ، بعد ما ابتلى المؤمنون ، وزلزلوا زلزالا شديداً .

وقدمت على الملك الكامل تهانى الشعراء بهذا الفتح ، فكان أولهم إرسالا شرف الدين بن عنين ، بكلمته التى أولها : —

(١) فى س بأهليه . (٢) الشلو ، والشلا ، الجسد أو العضو من أعضائه . (محيط المحيط) .
(٣) فى س بجذل . (٤) كذا فى س ، وقد تقدمت بصورة الجمع ، فى البيت عينه ، سطر ٤ .

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة التقينا دون دمياط جحفلا من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اجتمعوا رأيا ودينا وهمة وعزما و إن كانوا قد اختلفوا سنا
تداعوا بأنصار الصليب وأقبلت جموع كأن الموج كان لهم سفنا
وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا إلينا سراعا بالجهاد وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى وكيف ينام الليل من عدم الأمنا
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
بدا الموت من زرق الأسنة أحمرا فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنا
وما برح الإحسان منا سجية نورثها من صيد آبائنا الابنا
وقد جربونا قبلها في وقائع تعلم غمر القوم منا بها الطعنا
أسود وغى لولا وقائع سمرنا لما لبسوا قيداً ولا سكنوا سجنا
وكم يوم حرب ما وقينا هجيره وكم يوم ذر ما طلبنا له كِنا
فإن نعيم الملك في وسطه الشقا ينال وحلو العيش من مره يُجنى
يسير بنا من آل أيوب ماجد أبى عزمه أن يستقر بنا مغنى
كريم الثنا عارٍ عن العار باسل جميل المحيا كامل الحسن والحسنى
سرى نحو دمياط بكل سَمَيْدَع إمام يرى حسن الثنا المغنم الأسنى
مآثر مجد خلدتها سيوفه طوال المدى يفنى الزمان ولا تفنى
وقد عرفت أسيافنا ورقابهم مواقعها منا فإن عاودوا عدنا
منحناهم منا حياة جديدة فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا ولوغا ولكنا ملكنا فأسجحنا

وقال :

قسما بما ضمت أباطح مكة … وبمن حواه من الحجيج الموقف

(١٠٨) لو لم يقم موسى بنصر محمـد … لرقى على درج الخطيب الأسقف

لولاه ما ذل الصليب وأهله … فى ثغر دمياط وعز المصحف

ووردت أيضا قصيدة القاضى الأجل بهاء الدين زهير بن محمد بن على القوصى ، وغيره من الشعراء .

وفيها مَلَك التتر مراغة وهمذان وآذربيجان وتِبْرِيز[١] . وفيها مات الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان[٢] بن سقمان بن أرتق الأرتقى ، صاحب حصن كيفا ؛ وقام من بعده ابنه الملك المسعود داود . وفيها ركب الملك الكامل من قلعة الجبل إلى منظرة الصاحب صفى الدين بن شكر — التى على الخليج بمصر — فى ذى القعدة ، وتحدّث معه فى نفى الأمراء الذين وافقوا الفائز . وكانوا فى جيزة دمياط لعمارتها ، فكتب لهم بالتوجه من أرض مصر إلى حيث شاءوا ، فمضوا بأجمعهم من الجيزة إلى الشام ، ولم يتعرض [الملك الكامل] لشىء من موجودهم ، وفرّق أخبازهم على مماليكه . وفيها مات أمين الدين مرتفع بن الشعار ، والى مصر ، فى يوم الجمعة ثالث محرّم . ومات متولى تونس و بلاد إفريقية الأمير أبو محمد عبد الواحد ابن أبى حفص عمر بن يحيى بن أبى حفص عمر بن وَنُوْدِيْن[٣] الهِنْتاتى[٤] ، فى يوم الخميس أوّل المحرّم ، و[كان] قد وَلِى [تونس] من قبل الناصر أبى عبد الله محمد بن يعقوب المنصور بن يوسف القَسْرِى[٥] بن عبد المؤمن ، ملك الموحدين ، سنة اثنتين وستمائة . و [كان أبو محمد قد] قدّم أكبر بنيه ، الشيخ أبا زيد عبد الرحمن بن عبد الواحد ، فقام بأمر تونس ، حتى قدم أخوه أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد ، متوليا إفريقية من قبل العادل عبد الله بن

---

(١) فى س توريز ، وبغير ضبط ، وإبدال الباء واوا هو النطق " الجارى على ألسنة العامة " . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ٣٥٧) (٢) فى س قرا رسلان .

(٣) مضبوطة هكذا فى س (انظر ص ٦٢ ، حاشية ١) . (٤) بغير ضبط فى س . انظر (Enc. Isl Art. Hafsids) (٥) مضبوطة هكذا فى س .

المنصور يعقوب ، [ملك الموحدين] ، فى خامس رمضان منها ، فاستمرّ [أبو محمد عبد الله] حتى قام أخوه أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد . [هذا] والأمير أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص هو أوّل من قام من الحفصيين بإمرة تونس ، وهو جدّ ملوك تونس الحفصيين ،

* * *

سنة تسع عشرة وستمائة . فيها قدم الأشرف موسى إلى مصر ، فأقام بها عند [أخيه] السلطان [الملك الكامل] مدّة ، ثم عاد فى رمضان . وفيها أوقع التتر بالكُرْج . وفيها قدم المظفر موسى على أخيه الكامل بمصر . و[فيها] قدم الملك المسعود يوسف ابن الكامل من اليمن[1] إلى مكة فى ربيع الأوّل ، وقد رحل عنها الشريف حسن ابن قتادة[2] ، وقدم معه راجح بن قتادة [إلى] مكة . فردّ الملك المسعود على أهل الحجاز أموالهم ونخلهم ، وما أُخذ لهم من الدور بمكة والوادى ، ثم عاد إلى اليمن بعد ما حج ، ومنع أعلام الخليفة من التقدّم ، وقدّم أعلام أبيه على أعلام الخليفة . وبدا منه بمكة مالا يُحمد ، من رمى حمام الحرم بالبندق من فوق زمزم ، ونحو ذلك . فهمّ أهل العراق بقتاله ، فلم يقدروا على ذلك عجزا عنه . واستناب [الملك المسعود] بمكة الأمير نور الدين عمر بن على ابن رسول[3] ، ورتب معه ثلثمائة فارس — وكان الشريف حسن بن قتادة قد نزل ينبع . وولى [الملك المسعود] أيضاً راجح بن قتادة السِّرَّيْن[4] وحَلْى[5] ونصف المخلاف[6] . فجمع الشريف حسن وسار إلى مكة ، وكسر ابن رسول ، وملك منه مكة .

---

(١) تولى الملك المسعود ، واسمه صلاح الدين يوسف ، بلاد اليمن سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) ، بعد المظفر سليمان . (Lane-Poole : Muh. Dyns. pp. 79, 98-99.)

(٢) انظر ص ٢٠٦ .

(٣) المعروف أن الملك المسعود أسند ولاية مكة ، فى تلك السنة ، إلى على بن رسول ، والد نور الدين عمر بن على بن رسول ، المذكور هنا . (Lane-Poole Muh.Dyns p. 99)

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى بلد قريب من مكة ، على ساحل البحر ، قرب جدّة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٨٩) .

(٥) مضبوطة هكذا فى س ، ويسميها ياقوت (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٨٧) الحال ، وهى بلدة على الحدود ، بين اليمن والحجاز ، ويقربها جبل حلى وقبالتها مرسى حلى . (Enc. Isl. Art. Hali.)

(٦) كذا فى س ، بغير ضبط ، ولعل المقريزى قصد المخلفة ، وهى موضع أسفل مكة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٤٣) . أما المخلاف فهو مرادف الكورة ، وتسمى كورات اليمن المخاليف ، وقد ذكرها ياقوت (نفس المرجع والجزء ، ص ٤٣٤ — ٤٤٠ ؛ ج ٦ ، فهرس) ، وعدتها تسعة وعشرون ومائة .

وفيها مات الأمير عماد الدين أبو العباس أحمد بن الأمير سيف الدين أبى الحسن على ابن أحمد الهكارى ، المعروف بابن المشطوب ، أحد الأمراء الصلاحية ، فى الاعتقال بحران ، فى ربيع الآخر .

* * *

سنة عشرين وستمائة . فيها أخذ المعظم عيسى المعرة وسَلَمْيَةَ[1] ، ونازل حماة . فشق ذلك على أخيه الأشرف — وكان بمصر — وتحدث مع الكامل فى إنكار ذلك . فبعث [السلطان الكامل] إلى المعظم يسأله فى الرحيل عن حماة ، فتركها وهو حَنِق . وفيها حج[2] الملك الجواد[3] والملك الفائز من القاهرة ، وقدّما عَلَم الخليفة على علم السلطان الملك الكامل فى طلوع عرفة[4] . وفيها خرج الأشرف من مصر إلى بلاده ، ومعه خِلَعُ الملكِ الكامل والتقليد بسلطنة حلب للعزيز ناصر الدين محمد بن الظاهر غازى . فوصل إلى حلب فى شوّال ، وتلقاه العزيز — وعمره عشر سنين — فأفاض عليه الخلع الكاملية ، وحمل الغاشيَةَ[5] بين يديه ، وأقام عنده أياما ، ثم (٥٨ ب) سار إلى حران .

وفيها عم الجراد بلاد العراق والجزيرة ، وديار بكر والشام . وفيها أوقع التتر بالروس . وفيها شنق سهم الدين عيسى والى القاهرة نفسه — وهو معتقل بدار الوزارة — ليلة الخميس سادس شوّال .

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى بليدة من ناحية البرية ، من أعمال حماة ، بينهما مسيرة يومين ، " ولا يعرفها أهل الشام إلا بسَلَمْيِيّة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٢٣) .

(٢) يوجد فوق هذين اللفظين فى س كلمة " حد " .

(٣) اسمه يونس ، وهو ابن مودود ابن العادل بن أيوب . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١١٤ ، و Rec. Hist. Or. I.) .

(٤) يلى هذا فى س بياض ، قدر سطر تقريبا ، فيه آثار كتابة ممحوة محوا تاما .

(٥) أصل الغاشية الجلّ أو الغطاء المزركش ، الذى يوضع على ظهر الفرس ، فوق البردعة . وكان سلاطين الأيوبيين — والمماليك بعدهم — يخرجون فى المواكب وبين أيديهم غاشية ، وفيها يقول القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٧) ما نصه : " وهى غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب ، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يديه (السلطان) عند الركوب فى المواكب الحفلة ، كالميادين والأعياد ونحوها ، يحملها الركاب دارية ، رافعا لها على يديه ، يلفتها يمينا وشمالا ، وهى من خواص هذه المملكة " . انظر أيضا (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

* * *

سنة إحدى وعشرين وستمائة . فيها ملك التتر قُم[1]، وقَاشَان[2]، وهمذان . وفيها اختلف الحال بين المظفر غازى ، صاحب إربل ، و بين أخيه الأشرف . فخرج المعظم من دمشق يريد محاربة الأشرف ، فبعث إليه الكامل يقول له : "إن تحركتَ من بلدك سرتُ وأخذته منك" . فخاف وعاد إلى دمشق . وفيها مات الوزير الأعز أبو العباس أحمد ، المعروف بفخر الدين مقدام بن شكر ، فى آخر شعبان بالقاهرة . وفيها أخذ عسكر مصر ينبع من بنى حسن ، وكانوا قد اشتروها بأربعة آلاف مثقال ، فلم تزل بيد المصريين إلى سـنة ثلاثين .

* * *

سنة اثنتين وعشرين وستمائة . فيها فرّ الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود[3] من مصر فى البحر ، خوفا من عمه الملك الكامل ، ولحق بعمه المعظم . وفيها تخوّف الكامل من أمرائه ، لميلهم إلى أخيه الملك المعظم . فقبض على جماعة ، و بعث إلى الطرقات من يحفظها ، و بعث عدة رسل إلى الملوك الذين فى خدمة أخيه الأشرف يأمرهم بالاتفاق وألا يخالفوه .

وفيها عاد السلطان جلال[4] الدين بن خوارزم شاه [علاء الدين محمد بن تكش] إلى بلاده ؛ وقوى أمره على التتر ، واستولى على عراق العجم ، وسار إلى ماردين وأخذها ، وسار إلى خوزستان . وشاقق [جلال الدين] الخليفة الناصر [لدين الله] ، وسار حتى وصل بعْقُوبا[5] ، و بينها و بين بغداد سبعة فراسخ ، فاستعد الخليفة للحصار . ونهب جلال الدين البلاد ، وأخذ

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى من بلاد الفرس ، بالعراق العجمى ، بين إصفهان وساوة . وكان اسمها فى الأصل كُمُنْدان ، فأسقط بعض حروفها ، وعربت الى قم . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٧٥ — ١٧٧ ؛ و Enc. Isl. Art. Kumm) . (٢) بغير ضبط فى س ، وهى بالعراق العجمى أيضا ، على مسيرة ثلاثة أيام من إصفهان ، وتذكر عادة مع قم ، التى تبعد عنها اثنى عشر فرسخا . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٥ ؛ و Enc. Isl. Art. Ḳashān) . (٣) فى س ممدود . (انظر الصفحة السابقة ، حاشية ٣) . (٤) فى س جلا الدين ، بسائر الصفحة فى س ، وقد صححت بغير تنبيه بعد هذه المرّة . انظر ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٠٦ وغيرها) .

(٥) بغير ضبط فى س ، ويقال لها باعقوبا أيضا ، وهى من أعمال طريق خراسان ، وتبعد عن بغداد عشرة فراسخ . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٦٧٢) .

منها ما لا يقع عليه حصر ، وفعل أشنع ما يفعله التتر . فكاتبه الملك المعظم ، واتفق معه معاندة لأخيه الكامل ، ولأخيه الملك الأشرف ، صاحب البلاد الشرقية . فسير السلطان جلال الدين ابنَ القاضي مجد الدين — قاضي الممالك — في الرسالة إلى الملك الأشرف ، ثم إلى الملك المعظم ، ثم إلى الملك الكامل ، فتظاهر بأنواع الفسوق . وسار جلال الدين إلى عراق العجم ، فملك همذان وتبريز[1] ، وأوقع بالكرج .

وفيها مات الملك الأفضل عليّ بن صلاح الدين يوسف ، صاحب سميساط ، فجأة[2] بسميساط في صفر ، ومولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس — وقيل ست — وستين وخمسمائة[3] . وهو أكبر أولاد أبيه ، وإليه كانت ولاية عهده . وسمع [الأفضل] من ابن عوف وابن برى . واستقل بمملكة دمشق بعد موت أبيه ، فلم ينتظم له أمر لقلة حظه ، وأخذها منه أخوه العزيز عثمان ، صاحب مصر . ثم صار [الأفضل] أتابكا للمنصور ابن العزيز (١٠٩ ا) بمصر ، وحصَرَ دمشق ، وبها عمه [العادل] ، وأشرف على أخذها منه ؛ فقطع عليه سوء الحظ ، وعاد إلى مصر ، وفي أثره عمه العادل ، فانتزع منه مصر ، ولم يبق معه سوى صرخد . ثم قصد [الأفضل] دمشق ثانيا ، مع أخيه الظاهر غازى صاحب حلب ، فلم يتم أمرهما لاختلافهما ، وصار بيده سميساط لا غير . فلما مات أخوه الظاهر طمع في حلب ، وخرج إليها مع السلطان عز الدين كيكاوس السلجوقي ملك الروم ، فلم يتم لهما أمر . وعاد [الأفضل] إلى سميساط ، فلم يزل بها يتجرع الغصص حتى مات كمدا . وكان فاضلا أديبا حليما ، حسن السيرة متجاوزا ، يكتب الخط المليح ، جامعاً لعدة مناقب ، إلا أنه كان قليل الحظ . وشعره جيد : كتب إلى الخليفة الناصر [لدين الله] — لما انتزع منه دمشق أخوه العزيز عثمان وعمه العادل أبو بكر — في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، كتابا يشكو إليه اغتصابهما ميراثه من أبيه ، وأوله :

مولاى ! إن أبا بكر وصاحبه عثمان قد أخذا بالسيف إرث على
فانظر إلى حظ هذا الإسم كيف لقى من الأواخر ما لاقى من الأُوَل

(١) في س تورير . (٢) هذا اللفظ مطموس بمداد في س ، ولكنه في ب (٧٠ ب) .

(٣) ولد الأفضل عليّ سنة ٥٦٦ هـ . (Lane-Poole : Saladin, Table II, in Pocket) .

وله أيضا فى معناه :

أما آن للسعد الذى أنا طالب   لإدراكه يوما يُرى وهو طالبى

ترى [هل] يرينى الدهر أيدىَ شيعتى   تَمَكّن يوما من نواصى النواصب

فأجابه الخليفة بقوله :

وافى كتابك يا بن يوسف معلنا   بالودّ يخبر أن أصلك طاهر

غصبوا عليا حقه إذ لم يكن   بعد النبى له بيثرب ناصر

فابشر فإن غدا يكون حسابهم   واصبر فناصرك الإمام الناصر

ومن شعره :

أيا من يسوّد شَعره بخضابه   لعساه من أهل الشبيبة يحصل

ها فاختضب بسواد حظى مرّة   ولك الأمان بأنه لا ينصل[1]

وقام من بعده بسمياط أخوه الملك المفضل قطب الدين موسى شقيقه ، فاختلف عليه أولاد الأفضل .

وفيها مات الخليفة الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء بأمر الله الحسن بن المستنجد بالله يوسف ، فى ثانى شهر شوّال ؛ ومولده فى العاشر من شهر رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة . وله فى الخلافة سبع وأربعون سنة ، غير ستة وثلاثين يوما . وكانت أمه أمّ ولد ، يقال لها زمرد ، وقيل نرجس[2] . وكان شهما أبىّ النفس ، حازما متيقظا ، صاحب فكر صائب ، ودهاء ومكر . وكان مهيبا[3] ، وله أصحاب (٥٩ ب) أخبار — بالعراق وفى الأطراف — يطالعونه بجزئيات الأمور وكلياتها . فكان لا يخفى عليه أكثر أحوال رعيته ، حتى أن أهل العراق يخاف الرجل منهم أن يتحدّث مع امرأته ، لما يظن أن ذلك يطلع عليه الخليفة ،

(١) العبارة الآتية مكتوبة بهامش الصفحة فى س ، بخط مخالف ، ونصها : " هذان البيتان ... ... الأفضل " ، والبياض مكان ألفاظ تعذرت قراءتها . ويلاحظ أن خط هذه العبارة يشبه كثيراً خط كاتب الجملة " ملكه محمد المقريزى " ، الواردة بصفحة العنوان . (انظر ص ٥ ، حاشية ٥) .

(٢) لم يترجم (Blochet: Op. cit. P. 351) بعد هذا اللفظ شيئا مما هنا من أخبار الناصر لدين الله ، مع وروده بمخطوطة السلوك التى ترجم منها .

(٣) فى س مهابا .

فيعاقَب عليه . وعمل شخص دعوة ببغداد ، وغسل يده قبل أضيافه ، فعلم الخليفة بذلك من أصحاب أخباره ، فكتب فى الجواب : "سوء أدب من صاحب البلد ، وفضول من كاتب المطالعة"[١] . وكان ردىء السيرة فى رعيته ، ظالما عسوفا : خرب العراق فى أيامه ، وتفرّق أهله فى البلاد ، فأخذ أملاكهم وأموالهم . وكان يحب جمع المال ، ويباشر الأمور بنفسه ، ويركب بين الناس ويجتمع بهم ، مع سفكه للدماء ، وفعله للأشياء المتضادة : فيغتصب الأموال ويتصدّق . وشغف برمى الطير بالبندق ، ولَبِس سراويلات الفتوة ، وحَمَل أهل الأمصار على ذلك[٢] ؛ وعمل سالم بن نصر الله بن واصل الحموى فى ذلك رسالة بديعة . وصنف الناصر [لدين الله] كتابا فى مروياته ، سماه روح العارفين ، وأسمعه [للفقهاء بمصر[٣] والشام] ، وله شعر . وفى خلافته خرب التتر بلاد المشرق ، حتى وصلوا إلى همذان ؛ وكان هو السبب فى ذلك : فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد ، خوفا من السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه ، لما هم بالاستيلاء على بغداد ، وأن يجعلها دار ملكه ، كما كانت السلجوقية . ولم يمت [الخليفة الناصر لدين الله] حتى عمى ، وقيل كان يبصر بإحدى عينيه . وقام من بعده فى الخلافة ابنه الظاهر بأمر الله[٤] أبو[٥] نصر محمد — بعهد من أبيه — يوم مات أبوه ، وعمره ما ينيف على خمسين سنة . وكان يقول "مَنْ يَفتح دكانه العصر متى يَستفتح[٦] ؟" . ولما ولى

(١) فى هامش الصفحة فى س العبارة الآتية : " انظر إذا تقدم الشخص أضيافه لغسل يديه " ، وهى بخط مخالف . (٢) انظر ص ١٧٢ ، سطر ٤ . (٣) انظر ص ١٨٠ ، سطر ١٥ .

(٤) لهذه التسمية سبب ، وهو — كما جاء فى ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٨٧) — أن الخليفة الناصر لدين الله كان قد خلع ولده أبا نصر محمد ، وهو أكبر ابنيه ، من ولاية العهد ، وولى بدله ولده الصغير عليا ، لشدة حبه له . ثم حدث أن عليا توفى سنة ٦١٢ هـ ، (انظر ص ١٨١ ، سطر ٧) ، فاضطر الخليفة إلى إعادة أبى نصر محمد إلى ولاية العهد . فلما توفى الناصر ، وأصبح أبو نصر خليفة ، لقب نفسه بالظاهر بأمر الله ، وقصد بذلك أن أباه أراد صرف الأمر عنه ، فظهر وولى الخلافة بأمر الله . (٥) فى س أبى . (٦) أفاض ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٨٧ ، ٢٨٩) فى ذكر أعمال الخليفة الجديد ، ومما قال : " ولما ولى [الظاهر بأمر الله] الخلافة أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به عهد العمرين ، فلو قيل إنه لم يل الخلافة بعد عمر ابن عبد العزيز مثله لكان القايل (كذا) صادقا : فإنه أعاد من الأموال المغصوبة ، فى أيام أبيه وقبله ، شيئا كثيرا ... (٢٨٢) ... ... ومن حسن نيته للناس أن الأسعار فى الموصل وديار الجزيرة كانت غالية ، فرخصت الأسعار . وأطلق حمل الأطعمة إليها ، وأن يبيع كل من أراد البيع للغلة ... وأمر أن يباع من الأهراء التى له طعام أرخص مما يبيع غيره ، ففعلوا ذلك ، فرخصت الأسعار عندهم أيضاً ، أكثر مما كانت أولا ... ... ولقد سمعت كلمة أعجبتنى جدا ، وهى أنه قيل له فى الذى يخرجه ويطلقه من الأموال ، التى لا تسمح نفس ببعضها ، فقال لهم : " أنا فتحت الدكان بعد العصر ، فاتركونى أفعل الخير ! فكم أعيش ؟ " .

أظهر العدل ، وأزال عدّة مظالم ، وأطلق أهل السجون ، وظهر للناس ، وكان من قبله من الخلفاء لا يظهرون إلا نادرا :

وفيها وصل الملك المسعود من اليمن إلى مكة ، ومضى إلى القاهرة من طريق عيذاب ، فقدم على أبيه الكامل بقلعة الجبل ، ومعه هدايا جليلة . وفيها مات الوزير الصاحب صفى الدين عبد الله بن أبى الحسن على بن الحسين بن عبد الخالق بن الحسين بن الحسن ابن منصور بن إبراهيم بن عمار بن منصور بن على الشيبى ، أبو محمد المعروف بابن شكر ، الفقيه الدَّمِيرى[1] المالكى ، فى يوم الجمعة ثامن شعبان —وقيل شوّال— بالقاهرة ؛ ودفن برباطه منها . وكان مولده بدَمِيرَة ، إحدى قرى مصر البحرية ، فى تاسع صفر سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ؛ وسمع من ابن عوف وغيره ، وحدّث . وكان جبارا (١٦٠) جبّارا عاتيا ، عانيا بتقدمة الأراذل وتأخر الأماثل ؛ أفقرَ خلقا كثيرا .

وفيها قدم الشريف قاسم الحُسَيْنى أمير المدينة ، بعسكر إلى مكة ، وحصرها نحو شهر ، وبها نواب الملك الكامل ، فلم يتمكن منها ، بل قُتل .

* * *

سنة ثلاث وعشرين وستمائة . فيها تأكدت الوحشة بين المعظم وبين أخويه الكامل والأشراف . وفيها بعث الخليفة الظاهر بأمر الله التشاريف لملوك بنى أيوب ، على يد محيى الدين أبى المظفر بن الحافظ جمال الدين أبى الفرج بن الجَوْزى[2] : فبدأ بالأشرف موسى صاحب البلاد الشرقية ، وأفاض عليه الخلع الخليفتية ؛ ثم بالعزيز غياث الدين محمد ابن الظاهر صاحب حلب ، فأفاض عليه فرَجية واسعة الكم سوداء ، وعمامة سوداء مذهبة ،

---

(١) بغير ضبط فى س ، والنسبة إلى دميرة ، وهى إحدى قريتين متقابلتين على النيل ، تسمى كل منهما دميرة ، قرب دمياط . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٦٠٢) .

(٢) اشتهر فى عالم التأليف من أسرة ابن الجوزى اثنان ، وهما : عبد الرحمن بن على بن محمد أبوالفرج جمال الدين ابن الجوزى ، الحنبلى الفقيه المؤرخ ، صاحب كتاب المنتظم والملتقط الملتزم فى التاريخ ، مات ببغداد سنة ٥٩٧ هـ ، (Enc. Isl. Art. Ibn al-Djawzi) وسبط ابن الجوزى ، واسمه شمس الدين أبو المظفر يوسف بن كزوغلو ، وهو ابن بنت عبد الرحمن المذكور ، ولد ببغداد سنة ٥٨٢ هـ ، وتوفى بدمشق سنة ٦٥٤ هـ ، وهو صاحب كتاب مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان . (Enc. Isl. Art. Ibn al-Djawzi, Şibt) .

وثوبا[1] مطرزا بالذهب أيضا ؛ ثم ألبس المعظم عيسى ، صاحب دمشق ، بدمشق . وسار إلى القاهرة بالتقليد والخلع للملك الكامل ، ولأولاده الملك الصالح نجم الدين أيوب والملك المسعود ، وللصاحب صفى الدين بن شكر . فبرز الملك الكامل إلى ظاهر القاهرة ، ولبس الخلع الخليفتية هو وولداه[2] . وكان الصاحب صفى الدين قد مات ، فألبس [الكامل] الخلعة التى باسمه للقاضى فخر الدين سليمان بن محمود بن أبى غالب أبى الربيع الدمشقى ، كاتب الإنشاء . وعبر [الكامل] من باب النصر ، وشق القاهرة إلى أن صعد قلعة الجبل ، فكان يوما مشهودا .

وفيها قبض الملك الكامل على أولاد الصاحب صفى الدين بن شكر ، وأحاط بجميع موجوده ، واعتقل ابنيه تاج الدين يوسف ، وعز الدين محمد ، فى قاعة سهم الدين ، بدرب الأسوانى[3] من القاهرة . ولم يستوزر [الكامل] بعد ابن شكر أحدا .

وفيها سافر الملك المسعود من القاهرة إلى اليمن . وفيها كثر وَهْمُ الملك الكامل من عسكره ، فإن المعظم أرسل إليه فى جملة كلام : "وإن قصدتنى لا آخذك إلا بعسكر" . فوقع فى نفسه الخوف ممن معه ، وهم أن يخرج من مصر ؛ فلم يجسر . وخرج المعظم فنازل حمص ، وخرب قراها ومزارعها ، ولم ينل من قلعتها شيئا ، لامتناعها هى والمدينة عليه . فلما طال مقامه على حمص رحل عنها ، لما أصاب عسكره ودوابه من الموت . وقدم عليه أخوه الأشرف جريدة ، فسر به سروا عظيما ، وأكرمه إكراما زائدا .

وفيها مات الخليفة الظاهر بأمر الله [أبو نصر] محمد بن الناصر ، فى رابع عشر شهر رجب ، فكانت خلافته تسعة أشهر وتسعة أيام ؛ وكان حسن السيرة كثير المعروف . واستقر فى الخلافة من بعده ابنه المستنصر بالله أبو جعفر المنصور ، وعمره عشرون سنة ؛ فوردت عليه رسل ملوك الأطراف . وبعث الملك الكامل (٦٠ ب) فى الرسالة معينَ الدين حسن

---

(١) فى س : والثوب المطرز . (٢) فى س : ولديه . (٣) يقول المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٧) ، فى باب ذكر الدروب والأزقة ، إن درب الأسوانى " ينسب إلى القاضى أبى محمد الحسن بن هبة الله الأسوانى ، المعروف بابن عتاب " ، غير أنه لم يذكر شيئا عن قاعة سهم الدين .

ابن شيخ الشيوخ [صدر الدين] بن حمويه[1] ؛ فلما قدم بغداد قال نيابة عن الملك الكامل ، وهو بين يدى الوزير مؤيد الدين أبى الحسن محمد بن محمد القُمّى : " عبد الدولة المقدسة المستنصرية يقبل العتبات ، التى يَستشفى بتقبيل ثراها ، ويَستكفى بتمسكه من عبوديتها بأوثق عراها ، ويوالى شكر الله تعالى على إماطة ليل العزاء ، الذى عم مصابه ، بصبح الهناء الذى تم نصابه ، حتى تزحزح عن شمس الهدى شفق الإشفاق ، فجعل كلمتها العليا ، وكلمة معاديها السفلى ، وزادها شرفا فى الآخرة والأولى " . وفيها قدم رسول علاء الدين كيقباد ، ملك الروم ، بتقدمة جليلة إلى الملك الكامل .

***

سنة أربع وعشرين وستمائة . فيها سافر الأشرف إلى بلاده من دمشق ، بعد ما حلف المعظم أنه يعاضده على أخيه الملك الكامل ، وعلى الملك المجاهد صاحب حمص ، والناصر صاحب حماة . وفيها سافر رسول [علاء الدين كيقباد] ، ملك الروم ، من مصر إلى مخدومه . وفيها تأكدت الوحشة بين الكامل وبين أخويه المعظم والأشرف ؛ وخاف [الكامل] من انتماء أخيه المعظم إلى السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه ، فبعث الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ [صدر الدين[2] بن حمويه] إلى ملك[3] الفرنج ، يريد منه

(١) تقدم ذكر شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه ، فى أخبار الملك العادل ، تحت سنة ٦١٤ هـ ، (انظر ص ١٨٦) . وقد توفى بالموصل سنة ٦١٧ هـ ، وترك من الأولاد أربعة ، عرف كل منهم بابن الشيخ ، وهم فخر الدين وعماد الدين وكمال الدين ومعين الدين . وذكرهم المقريزى جميعا فيما يلى ، عند ذكر وفاة السلطان الكامل ، فترجم لهم ، وقال إن أمهم — وهى ابنة القاضى شهاب الدين بن عصرون ، أرضعت الملك الكامل ، فهم إخوته من الرضاعة . انظر أيضاً أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ٩٥ ، ١١٤ ، فى .Rec. Hist. Or. I) .

(٢) انظر الحاشية السابقة . (٣) يقصد المقريزى بملك الفرنج فردريك الثانى (.Frederic II) ، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وكان هذا الإمبراطور قد نذر يوم تتويجه ، سنة ١٢١٥ م (٦١٢هـ) ، أن يرافق الحملة الصليبية ، المعروفة فى التاريخ الأوروبى بالخامسة ، والتى كان غرضها الديار المصرية . غير أن أمورا داخلية عاقته ، فلم يستطع الوفاء ، وسارت الحملة بقيادة (Jean de Brienne) ، وحاصرت دمياط (انظر ص ١٨٨ ، وما بعدها) . على أن الإمبراطور لم يأل جهدا فى بث الدعوة للحملة فى أنحاء بلاده ، بل أرسل نجدة ألمانية سنة ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) ، شاع أنه سيرافقها ، ولكنه لم يفعل . وهذه الحملة هى التى وصلت الشواطئ المصرية بعد إمضاء شروط الصلح بين الملك الكامل والصليبيين ، (انظر ص ٢٠٨ ، وما بعدها) . ولقد كان سلوك الإمبراطور مجلبة لغضب البابوات ، الذين تعاقبوا على كرسى =

أن يقدم إلى عكا ، ووعده أن يعطيه بعض ما بيد المسلمين من بلاد الساحل ، ليشغل سر أخيه[1] المعظم ؛ فتجهز الإمبراطور[2] ملك الفرنج لقصد الساحل .

وبلغ ذلك المعظم ، فكتب إلى السلطان جلال الدين يسأله النجدة على أخيه الكامل ، ووعده أن يخطب له ، ويضرب السكة باسمه ، فسير إليه [جلال الدين] خلعة لبسها ، وشق بها دمشق ، وقطع الخطبة للملك الكامل . فبلغ ذلك الكامل ، فخرج من القاهرة بعساكره ، ونزل بلبيس فى شهر رمضان . فبعث إليه المعظم : " إنى نذرت لله تعالى أنّ كل مرحلة ترحلها لقصدى أتصدق بألف دينار ؛ فإن جميع عسكرك معى ، وكتبهم عندى ، وأنا آخذك بعسكرك " . وكتب [المعظم مكاتبة] بهذا فى السر ، ومعها مكاتبة فى الظاهر [فيها] : " بأنى مملوكك ، وما خرجتُ عن محبتك وطاعتك ، وحاشاك أن تخرج وتقابلنى ، وأنا أوّل من أنجدَك ، وحضر إلى خدمتك ، من جميع ملوك الشام والشرق " . فأظهر الكامل هذا بين الأمراء ، ورجع من العباسة إلى قلعة الجبل ، وقبض على عدّة من الأمراء (١٦١) ومماليك أبيه ، لمكاتبتهم المعظم : منهم فخر الدين الطنبا الحُبَيْشِى[3] ، وفخر الدين الطن[4] الفيومى

= البابوية بروما ، فأراد الإمبراطور ، سنة ١٢٢٧ م (٦٢٤ هـ) ، أن يستجلب رضا البابا القائم إذ ذاك ، وهو (Gregory IX) ، فأبحر من جنوبى إيطاليا ، على رأس حملة صليبية ضخمة . غير أنه اضطر إلى العود قبل أن تبرح سفنه المياه الإيطالية ، بسبب حمى انتابته . فاعتبر البابا المرض تمارضا ، وأعلن سخطه على الإمبراطور ، وصب جام غضبه عليه ، باعلان حرمانه من الكنيسة .(Excommunication) . بل إنه لما شفى الإمبراطور ، وعزم عزما أكيدا على الذهاب إلى الشام ، منعه البابا من الرحيل منعا . ورغم ذلك أبحر الإمبراطور ، وعلى رأسه حرمان الكنيسة ، وحملته هى المعروفة فى التاريخ الأوروبى بالسادسة . ووصل الإمبراطور عكا ، فى سبتمبر سنة ١٢٢٧ ، (شوال سنة ٦٢٤ هـ) . انظر (Stevenson : Crusaders In The East. pp. 307-310.) . هناك جاءه فخر الدين بن حمويه ، رسولا من عند الكامل ، وستأتى بقية أخبار السلطان والإمبراطور فيما يلى .

(١) عبارة السلوك هنا مشابهة لما فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٠٢ ، فى (Rec. Hist. Or. I. ، وهذا يرجح الظن بأن المقريزى اقتبس هنا من أبى الفداء ، مباشرة أو عن طريق غير مباشر .

(٢) فى س الانبرطوز ، وهذه قراءة غريبة للفظ (Imperator) اللاتينى ، أو ما يرادفه فى اللغات الأوربية الحديثة ، ولعل التشويه مقصود . أما الصيغة الغالبة فى كتب المؤرخين المسلمين لهذا اللفظ فهى " الانبرور " ، وهى قريبة من منطوقه فى الفرنسية والإنجليزية .

(٣) مضبوط فى س ، بضم الحاء ، وكسر الباء ، فقط . واسمه فى العينى (عقد الجمان ، ج ١٨ ، قسم ١ ، ص ٤١) فخر الدين الطينا .

(٤) كذا فى س . واسمه فى العينى (نفس المرجع والجزء والقسم والصفحة) فخر الدين الفيومى .

— وكان أمير جانداره ؛ وقبض أيضا على عشرة[١] أمراء من البحرية[٢] العادلية ، واعتقلهم وأخذ سائر موجودهم ؛ وانفق فى العسكر ليسير إلى دمشق .

وفيها وصل رسول ملك الفرنج بهدية سنية وتحف غريبة إلى الملك الكامل ؛ و[كان فيها] عدّة خيول ، منها فرس الملك ، بمركب ذهب مرصع بجوهر فاخر . فتلقاه الكامل بالإقامات ، من الإسكندرية إلى القاهرة ؛ وتلقاه بالقرب من القاهرة بنفسه ، وأكرمه إكراما زائدا ، وأنزله فى دار الوزير صفى الدين بن شكر ، واهتم الكامل بتجهيز هدية سنية إلى ملك الفرنج : فيها من تحف الهند واليمن ، والعراق والشام ، ومصر والعجم ، ما قيمته أضعاف ما سيره ؛ وفيها سرج من ذهب ، وفيها جوهر بعشرة آلاف دينار مصرية . وعين الكامل للسير بهذه الهدية جمال الدين[٣] بن منقذ الشيزرى .

وفيها وصل رسول الأشكرى[٤] فى البحر إلى الملك الكامل . فسار المعظم من دمشق لتخريب القدس ، فخرّب قلاعا وعدة صهاريج[٥] بالقدس ، لما بلغه من حركة ملك الفرنج .

وفيها جهز الملك الكامل كمال الدين ومعين الدين ، ولدى شيخ الشيوخ ابن حمويه — ومعهما الشريف شمس الدين الأرموى ، قاضى العسكر — إلى المعظم . و[أمر السلطانُ الكاملُ] أن يسير الكمال بجواب المعظم إلى [الملك] المجاهد [أسد الدين شيركوه] بحمص ، ويعرفه الحال ؛ و[أن] يتوجه المعين إلى بغداد ، برسالة إلى الخليفة ، فتوجّها فى شعبان .

وفيها اتفق عيد الفطر يوم عيد اليهود وعيد النصارى . [وفيها] خُتن الملك العادل أبو بكر ابن الملك الكامل فى تاسع شوال .

---

(١) فى س عشر . (٢) ورود لفظ "البحرية" هنا يوجب الالتفات ، فالمعروف أنه لم يطلق على أجناد السلاطين الأيوبيين إلا بعد أن أسس الملك الصالح أيوب (٦٣٧ — ٦٤٧ هـ) جيشا جديدا من المماليك ، أسكنهم قلعة الروضة على بحر النيل ، " وسماهم بهذا الاسم " . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٦ ؛ و Enc. Isl. Art. Bahri) (٣) انظر ص ١٢٥ ، حاشية ٤ .

(٤) إمبراطور الدولة البيزنطية فى نيقية تلك السنة هو (John III Ducas Vatatzes) ، ١٢٢٢ — ١٢٥٤ م ، ٦١٩ — ٦٥٢ هـ (Camb. Med. Hist. IV. pp.427-428.) . انظر أيضا ص ١٧٩ ، حاشية ٢ . (٥) انظر مدى التخريب الذى أحدثه المعظم بالقدس فى (Enc. Isl. Art. El-Kuds) .

وفيها مات الملك المعظم أبو الفتوح عيسى بن الملك العادل ، صاحب دمشق ، يوم الجمعة سلخ ذى القعدة بدمشق ؛ ودفن بقلعتها ، ثم نقل إلى الصالحية . ومولده بدمشق ، فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة[1] . وكان قد خافه الملك الكامل ، فسُرَّ بموته . وكان كريما شجاعا ، أديبا ليِّنا ، فقيها متغاليا فى التعصب لمذهب أبى حنيفة — رحمه الله — ، وشارك فى النحو وغيره . وقال له أبوه [مرة] : "كيف اخترتَ مذهب أبى حنيفة ، وأهلك كلهم شافعية ؟" فقال : "يا خوند[2] ! أما ترغبون أن يكون فيكم رجل واحد مسلم ؟" وصنف كتابا سماه السهم المصيب ، فى الرد على الخطيب [البغدادى] ، أبى بكر أحمد بن ثابت ، فيما تكلم به فى حق أبى حنيفة ، فى تاريخ بغداد . وكان مقداما ، لا يفكر فى عاقبة ، جبارا مُطَّرِحا للملابس ، وهو الذى أطمع الخوارزمى فى البلاد . وكانت[3] مدّة ملكه — بعد أبيه — ثمانى (٦١ ب) سنين وسبعة أشهر غير ثمانية أيام . فقام من بعده ابنه الملك الناصر داود ، وعمره إحدى وعشرون[4] سنة . وسير[5] [الناصر] كتبه إلى عمه الملك الكامل ، فجلس [الكامل] للعزاء ، وسير إليه الأمير علاء الدين بن شجاع الدين جلدك المظفرى التقوى بالخلعة وسنجق السلطنة ، وكتب معه بما طيَّب[6] قلبه . فلبس [الناصر] خلعة الكامل وركب بالسنجق . ثم أرسل إليه الكامل يريد منه أن يترك له قلعة الشوبك ، ليجعلها خزانة له . فامتنع من ذلك ، وبهذا وقعت الوحشة بينه وبين عمه الكامل .

وفيها أمر الملك الكامل بتخريب مدينة تنيس ، فخربت أركانها الحصينة وعمائرها المكينة ، ولم يكن بديار مصر أحسن منها ، واستمرت من حينئذ خرابا .

وفى شهر رجب من هذه السنة دعا لنفسه بتونس الأميرُ أبو زكريا يحيى بن عبدالواحد ابن أبى حفص ، وتلقب بالسلطان السعيد . فلم ينازعه أحد فى مملكة إفريقيه ، وكان قد ضعف أمر بنى عبد المؤمن .

---

(١) العبارة الآتية واردة بهامش الصفحة فى س ، وهى بخط مخالف ، ونصها : " مات الملك المعظم عيسى رحمه الله تعالى عليه" : (٢) لفظ تركى أو فارسى ، وأصله خداوند بضم الخاء ، ومعناه السيد أو الأمير ، ويخاطب به الذكور والإناث على السواء . والخوند فى اصطلاح عشائر لبنان من كان فى الرتبة دون الأمير ، وفوق الشيخ أو المقدم . (محيط المحيط ؛ و Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) فى س وكان . (٤) فى س عشرين . (٥) فى س فسير . (٦) فى س طلب .

* * *

سنة خمس وعشرين وستمائة. فيها سيّر الملك الكامل شيخ[1] الشيوخ ابن حمويه بالخلع، إلى ابن أخيه الناصر داود بن المعظم، بدمشق. فحمل الرسول الغاشية بين يديه، ثم حملها عمّاه[2]: [الملك] العزيز [عثمان صاحب بانياس]، و[الملك] الصالح [عماد الدين إسمعيل، صاحب بصرى[3]]. و[فيها] جهز [الملك الكامل] أيضا الخلع للمجاهد، صاحب حمص.

وفيها استوحش الملك الكامل من ابن أخيه الناصر داود، وعزم على قصده، وأخْذ دمشق منه. وعهد [الكامل] إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بالسلطنة من بعده [بديار مصر]، وأركبه بشعار السلطنة، — وشق [الصالح] القاهرة، وحملت الغاشية بين يديه، تداول حملها الأمراء بالنوبة — وأنزله بدار الوزارة، وعمره يومئذ نحو اثنتين وعشرين سنة.

وفيها ظلم الأمجد بهرام شاه بن عز الدين فرخشاه — صاحب بعلبك — وتعدّى، وأخَذ أموال أهل بعلبك وأولادهم. فقام عدّة من جنده مع العزيز فخر الدين عثمان بن العادل فى تسليمه بعلبك، فسار [العزيز] إليها ونازلها. فقبض الأمجد [على] أولئك الذين قاموا معه، وقتل بعضهم، واعتقل باقيهم. ثم إن الناصر داود، صاحب دمشق، بعث إليه من رحّله عن بعلبك قهرا، فغضب وسار إلى الملك الكامل، ملتجئا إليه. فسر به [الكامل]، ووعده بانتزاع بعلبك من الأمجد وتسليمها إليه.

وفيها ظلم الناصر داود أهل دمشق، وأخَذ أموالهم، واشتغل باللهو، وأعرض عن مصالح الدولة. فشق ذلك على الكامل، وجعله سببا يؤاخذه به، وتجهّز فى شهر رجب للسير لمحاربته؛ واستناب على مصر ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأقام معه الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، ليحصل الأموال ويدبر أمور المملكة. وخرج [الكامل] من القاهرة يوم الأحد تاسع عشر شعبان — فى عساكره المتوافرة — ومعه المظفر تقى الدين محمود

(١) يقصد المقريزى واحدا من أبناء شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه. (انظر ص ٢٢١، حاشية ١).

(٢) فى س اعمامه. (٣) أضيف ما بين الأقواس من العينى (عقد الجمان، ج ١٨، قسم ١، ص ٥٨).

ابن المنصور ، وقد وعده أن يسلمه حماة ، [وكانت بيد أخيه[1] قلج أرسلان] ؛ والملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل ، وكان قد رباه عمه الملك الكامل بعد موت أبيه ، وأقطعه البحيرة من ديار (١٦٢) مصر .

فلما بلغ الناصر خروج عمه لم يمل إلى استعطافه ، والتجأ إلى عمه الأشرف . فسار الكامل بالعسكر والعربان إلى تل العجول ، وبعث منها إلى نابلس والقدس وأعمالها . وسيّر [الكامل] الأمير حسام الدين أبا على بن محمد أبى على الهذبانى — أحد أصحاب المظفر تقى [الدين] محمود — إلى القاهرة ، فاستخدمه الملك الصالح ، وجعله أستاداره . فاستولت أصحاب الملك الكامل على نابلس والقدس .

وبلغ ذلك الناصر ، فحلف عسكره ، واستعد للحرب . وقدم إليه عمه الصالح صاحب بصرى ، والأمير عز الدين أيبك من صرخد ، [وأصله مملوك[2] أبيه المعظم] ، فقويت بهما نفسه . وسيّر [الناصر] يستدعى عمه الأشرف من البلاد الشرقية ، مع الأمير عماد الدين بن موسك ، وفخر القضاة نصر الله بن بصاقة ؛ وأردفهما بالأشرف بن القاضى الفاضل . فأجاب [الأشرفُ] إلى معاونته ، واستناب فى بلاده الملك الحافظ بن العادل ، وسار [إلى دمشق] . فتلقاه [قلج أرسلان] صاحب حماة ، من سلمية ، بأموال وخيول ؛ وتلقاه [أسد الدين شيركوه] ، صاحب حمص ، وأولاده . وقدم [الأشرف] إلى دمشق ، فتلقاه الناصر فى أخريات شهر رمضان ، وزين دمشق لقدومه ؛ فدخل القلعة وعليه شاش علم كبير ، وهو مشدود الوسط بمنديل[3] . وقد سر الناصر به سرورا كبيرا ، وحكّمه فى بلاده وأمواله . فأعجب[4] الأشرف بدمشق ، وعمل فى الباطن على انتزاعها لنفسه من الناصر ثم قَدِم [إلى خدمة الأشرف[5] بدمشق] المجاهدُ

(١) انظر ص ٢٠٥ ، سطر ٩ ، وما بعده .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٣١٦) .

(٣) عبارة المقريزى هنا تشبه كثيراً ما يقابلها فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٠٣ ، فى (Rec. Hist. Or. I .

(٤) فى س فعجب .

(٥) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٠٣ ، فى (Rec. Hist. Or. I .

أسد الدين شيركوه بن محمد ، صاحب حمص . وسار العزيز بن العادل إلى خدمة الملك الكامل ، وهو فى الطريق ، فسر بقدومه ، وأعطاه شيئا كثيرا .

وسير الأشرف إلى الكامل الأميرَ سيف الدين علىّ بن قلج ، يشفع فى الناصر ، ويطلب منه إبقاء دمشق عليه ، ويقول : "إنا كلنا فى طاعتك ، ولم نخرج عن موافقتك" ؛ فأكرم الملك الكامل الرسول . ثم سار الأشرف — ومعه الناصر — من دمشق ، يريدان ملاقاة الملك الكامل والترامى عليه ، ليصلح الأشرف الأمر بينهما . فلما بلغ الكامل مسيرهما شق عليه ، ورحل من نابلس يريد العود إلى القاهرة . فنزل الأشرف والناصر بنابلس ، فأقام بها الناصر ، ومضى الأشرف والمجاهد إلى الكامل . فبلغه قدوم الأشرف وهو بتل العجول ، فقام إلى لقائه ، وقدم به إلى معسكره . ونزلا فكان الاتفاق بينهما على انتزاع دمشق من ابن أخيهما الناصر داود ، وأن تكون للملك الأشرف وما معها إلى عقبة فيق ؛ ويكون للكامل (٦٢ ب) ما بين عقبة فيق وغزة من البلاد والحصون ، وهو الفتح الصلاحى بأسره ؛ ويكون للناصر — عوضا من دمشق — حران والرقة وسروج ورأس عين ، وهى ما كان مع الأشرف ؛ وأن تُنزع بعلبك من الأمجد بهرام ، وتعطى لأخيهما العزيز عثمان ؛ و [أن] تُنزع حماة من الملك الناصر قلج أرسلان بن المنصور ، وتعطى للمظفر تقى الدين محمود بن المنصور ؛ وأن تؤخذ من المظفر سلمية ، وتضاف إلى المجاهد صاحب حمص .

وفيها مات طاغية المغل والتتر جنكزخان[1] ، بالقرب من صارُوبالِق[2] ، وحُمل ميتا

---

(١) فى س جنكس قان .

(٢) كذا فى س بغير ضبط ، وليس فى المراجع المتداولة فى هذه الحواشى ما يخبر بشىء عن هذا البلد . على أنه ورد فى (Enc. Isl. Art. Bālik) أن لفظ بالق تركى قديم ، معناه بلد ، وأنه كثيراً ما يضاف إلى اسم آخر ، مثل خان بالق وبشبالق ، وهذا الثانى اسم بلد فى التركستان الصينى ، ومعناه المدن الخمس (Pentapolis) ، انظر (Ibid. Art. Bishbālik) . راجع أيضاً القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤٧٩ — ٤٨٠) ، إذ يقول إن خان بالق عاصمة الصين ، وإنها بأقاصى الشرق عند بلاد الخطا ، وإنها عبارة عن مدينتين ، قديمة وجديدة ، والجديدة منهما اسمها ديدو . ويقول القلقشندى أيضاً (نفس المرجع والجزء ، ص ٤٨١ ، ٤٨٤) إن ببلاد الصين بلدا اسمه جالق ، وإنه قاعدة بلاد الخطا . أما عن مكان وفاة جنكزخان فالمعروف أنه مات قرب بلدة (Tsin-tou) ، فى أرض مملكة (Hsia) ، وهى مقاطعة (Kan-su) ، بالصين الحالية (Lamb : Genghiz Khan : pp. 192-194. & Enc. Isl. Art. Ciugiz-Khan.) .

إلى كرسى ملك الخِطَا[1] . ورُتِّب بعده ابنه الأصغر عوضه خانا كبيرا[2] ، على كرسى مملكة الخطا ؛ وأَخَذَ إخوته الثلاثة بقية الأقاليم .

وفيها خرج التتار إلى بلاد الإسلام ، فكانت لهم عدّة حروب مع السلطان جلال الدين [خوارزم شاه] ، كُسر فيها غير مرة ، ثم ظفر أخيرا بهم ، وهزمهم . فلما خلا سره منهم سار[3] إلى خلاط — من بلاد الأشرف — فنهب وسبى الحريم ، واسترق الأولاد ، وقتل الرجال ، وخرب القرى ، وفعل ما لا يفعله أهل الكفر . ثم عاد إلى بلاده ، وقد زلزل بلاد حران والرها وما هنالك ، ورحل أهل سروج إلى منبج . وكان [قد] عزم على قصد بلاد الشام ، لكن صرفه الله عنها .

وفيها قدم الإمبراطور[4] ملك الفرنج إلى عكا ، باستدعاء الملك الكامل له ، كما تقدّم ، ليشغل سرّ أخيه المعظم ، فاتفق موت المعظم . ولما وصل ملك الفرنج إلى عكا بعث رسوله إلى الملك الكامل ، وأمره أن يقول له : "الملك يقول لك كان الجيّد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء ، ولا أجيء[5] إليهم . والآن فقد كنتم بذلتم لنائبي — فى زمن حصار دمياط — الساحلَ كله ، وإطلاق الحقوق بالإسكندرية ، وما فَعَلْنا . وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم ، وإعادتها إليكم . ومن نائبي ؟ [إن] هو إلا أقل غلمانى ، فلا أقل من إعطائى ما كنتم

---

(١) بغير ضبط فى س ، والخطا اسم يطلق على بلاد متاخمة للصين ، يسكنها جنس من الترك . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤٨٣) . ويطلق اسم الخطا أيضاً على بلاد الصين جميعها فى القرون الوسطى . (Enc. Isl. Art. Khitā) ، وقد دفن جنكزخان بالتركستان الصينى ، فى بلدة برخان خلدون (Burkhan-Khaladun) ، عند منابع نهرى (Onon & Kerulen) ، وهى وطنه الأصلى . (Euc. Isl. Art. Cingiz-Khan ; Lamb : Op. cit. pp. 243-244.) .

(٢) فى س قان كبير . وقد ترك جنكزخان إمبراطورية متباعدة الأطراف ، تمتد من بحر قزوين إلى شواطئ الصين . وقسمها فى حياته بين ثلاثة من أولاده ، وهم تولى وجوشى وشغطاى . أما رابعهم — وهو أصغرهم ، واسمه أوغطاى ، — فقد آلت إليه أملاك أبيه الأصلية ، وذلك حسب العرف المغولى ، وكانت عبارة عن بلاد التركستان الصينى ، التى ورثها جنكزخان عن أبيه يسوجان . (Enc. Isl. Art. Cingiz Khan)

(٣) فى س وسار . (٤) فى س الانبرطور .

(٥) فى س اخى .

بذلتموه له" . فتحير الملك الكامل ، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته ، لما كان تقدم بينهما من الاتفاق ؛ فراسله ولاطفه ، وسَفَر بينهما الأمير فخر الدين بن الشيخ . وشرع الفرنج فى عمارة صيداء — وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج ، وسورها خراب — فعمروها وأزالوا من فيها من المسلمين . وخرجت السنة والكامل على تل العجول ، وملك الفرنج بعكا ، والرسل تتردد بينهما .

* * *

سنة ست عشرين وستمائة . فيها غلت الأسعار بالساحل ودمشق ، ووصلت نجدة من حلب إلى الغَوْر . و [فيها] قفز [الأمير عز الدين[1]] أيدمر المعظمى إلى الملك الكامل عليه ، وعاد إلى دمشق . فبلغ الأشرف وهو بتل العجول ذلك ، فسار ليدركه ، فوافاه بقصير ابن معين الدين من الغور ، تحت عقبة فيق . وأعلمه [الأشرف] — بحضور الملك الصالح إسماعيل ، والملك المغيث ، والأمير عز الدين أيبك المعظمى — أنه اجتمع بالملك الكامل للإصلاح بينهما ، وأنه اجتهد وحَرِص "على أن يرجع عنك فامتنع ، وأبى إلا أن يأخذ دمشق . وأنت تعلم أنه سلطان البيت وكبيرهم ، وصاحب الديار المصرية ، ولا يمكن الخروج عما يأمر به . وقد وقع الاتفاق على أن تسلم إليه دمشق ، وتُعَوَّض عنها من الشرق كذا" ؛ وذكر ما وقع الاتفاق عليه .

فلما فرغ [الأشرف] من كلامه قام الأمير [عز الدين] أيبك ، [وهو أكبر أمير[2] مع الناصر داود] ، وقال : "لا كيد ولا كرامة ، ولا نسلم من البلاد حجرا واحدا ؛ ونحن قادرون على دفع الجميع ومقاومتهم ، ومعنا العساكر المتوافرة" . وأمر الملك الناصر بالركوب فركبا ، وقُوِّضت الخيام ، وسارا[3] إلى دمشق ؛ وتخلف عن الناصر عمه الصالح ، وابن عمه المغيث .

---

(١) انظر ص ٢٣٣ ، سطر ٤ . (٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٣١٦) . وعز الدين أيبك هو أول سلاطين المماليك البحرية بمصر ، بعد شجر الدر . (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٢٠٠ ، فى Rec. Hist. Or. V.) .

(٣) فى س ساروا .

ولما وصل الناصر إلى دمشق استعد للحصار ، وقام معه أهل البلد ، لمحبتهم فى أبيه . وسار الأشرف بمن معه ، وحاصر دمشق ، وقطع عنها أنهارها[1] — باناس[2] ، والقَنَوات[3] ، [و يَزِيد[4] وثَوْرا] — فخرج إليه العسكر وأهل البلد وحاربوه .

وفى أثناء ذلك كثر تردّد الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، والشريف شمس الدين الأرموى قاضى العسكر ، بين الملك الكامل و بين الإمبراطور[5] فردريك ملك الفرنج ، إلى أن وقع الاتفاق أن ملك الفرنج يأخذ القدس من المسلمين ، و يبقيها على ما هى من الخراب ، ولا يجدد سورها ؛ وأن يكون سائر قرى القدس للمسلمين ، لا حكم فيها للفرنج ؛ وأن الحرم — بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى — يكون بأيدى المسلمين ، لا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط ، و يتولاه قوّام من المسلمين ، و يقيمون فيه شعار الإسلام من الأذان والصلاة ؛ وأن تكون القرى التى فيما بين عكا و بين يافا ، و بين لدّ و بين القدس ، بأيدى الفرنج ، دون ما عداها من قرى القدس . وذلك أن الكامل تورّط مع ملك الفرنج ، وخاف من غائلته ، عجزا عن مقاومته . فأرضاه بذلك ، وصار يقول : "إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدُر خراب ، والمسجد على حاله ، وشعار الإسلام قائم ، ووالى المسلمين متحكم فى الأعمال والضياع" . فلما اتفقا على ذلك عقدت الهدنة بينهما ، مدّة عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوما ، أوّلها ثامن (٦٣ ب) عشرى شهر ربيع الأول من هذه السنة . واعتذر ملك الفرنج للأمير فخر الدين بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ، ما كلف السلطان شيئا من ذلك ، ماله غرض فى القدس ولا غيره ، و إنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج

---

(١) فى س نهر (انظر حاشية ٣) . (٢) نهير من نهيرات دمشق ، وهو ثالث فروع نهر بردى السبعة (انظر حاشية ٣) ، ومخرجه منه عند بلدة دمّر ، وعلى صفتيه إقليم باناس . (ياقوت : معجم البلدان ، ح١ ، ص ٤٧٢ ، ٤٧٦ ، ٥٥٦) . ويسمى هذا النهير أيضا نهر بانياس . : Le Strange (Palest. Under Moslems. p. 266).

(٣) رابع فروع بردى ، ويسمى أيضا نهر القناة . أما فروع بردى الأخرى ، فهى نهر يزيد ، ونهر ثورا ، ونهر مزه — أوالمنزه — ، ونهر بردى ، وهو السابع . (Le Strange; Op. cit. pp. 265-267).

(٤) أضيف مابين القوسين بعد مراجعة أبى شامة (كتاب الروضتين ، ص١٨٦ ، فى Rec. Hist. Or. V.)

(٥) فى س الانبرطوز .

وحلف الملك الكامل وملك الفرنج على ما تقرر ؛ و بعث السلطان فنودى بالقدس بخروج المسلمين منه ، وتسليمه إلى الفرنج . فاشتد البكاء ، وعظم الصراخ والعويل ؛ وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل ، وأذّنوا على بابه فى غير وقت الأذان . فعزّ عليه ذلك ، وأمر بأخذ ما كان معهم من السُّتُور والقناديل الفضة والآلات ، وزجرهم . وقيل لهم : "امضوا إلى حيث شئتم". فعظم على أهل الإسلام هـذا البلاء ، واشتد الإنكار على الملك الكامل ، وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار .

و بعث الإمبراطور[1] بعد ذلك يطلب تبنين وأعمالها ، فسلمها الكامل له . فبعث يستأذن فى دخول القدس ، فأجابه الكامل إلى ما طلبه ، وسير القاضى شمس الدين قاضى نابلس فى خدمته ، فسار معه إلى المسجد المقدس ، وطاف معه ما فيه من المزارات[2]. وأعجب [الإمبراطور] بالمسجد الأقصى و بقبة الصخرة ؛ وصعد درج المنبر ، فرأى قسيسا بيده الإنجيل ، وقد قصد دخول المسجد الأقصى ، فزجره وأنكر مجيئه ، وأقسم لئن عاد أحد من الفرنج يدخل هنا بغير إذن ليأخذن ما فيه عيناه ، "فإنما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده ، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس ، على سبيل الإنعام منه ، فلا يتعدى أحد منكم طوره"، فانصرف القس وهو يرعد خوفا منه . ثم نزل الملك فى دار ، وأمر [شمس الدين] قاضى نابلس المؤذنين ألا يؤذنوا تلك الليلة ، فلم يؤذنوا ألبتة . فلما أصبح قال الملك للقاضى : "لِمَ لم يؤذن المؤذنون على المنائر ؟" فقال له [القاضى]: "منعهم المملوك إعظاما للملك ، واحتراما له". فقال له [الإمبراطور] : "أخطأتَ فيما فعلت ، والله إنه كان أكبر غرضى فى المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم فى[3] الليل".

---

(١) فى س الانبرطوز .

(٢) يقول (Blochet : Op. cit. P. 373. N. I.) إن المقريزى نقل تفاصيل زيارة الإمبراطور لبيت المقدس من كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لابن واصل ، وإن هذا الأخير كتب تلك الأخبار من حديث له مع القاضى شمس الدين ، الذى رافق الإمبراطور .

(٣) نقل العينى (عقد الجمان ، ج ١٨ ، قسم ١ ، ص ٨٢ — ٨٣) من كتاب مرآة الزمان ، لسبط ابن الجوزى ، أخباراً طريفة عن زيارة الإمبراطور فردريك لبيت المقدس ، وهى على طرافتها مهمة =

ثم رحل [الإمبراطور] إلى عكا . وكان هذا الملك عالما متبحرا فى علم الهندسة والحساب والرياضيات[1] ، وبعث إلى الملك الكامل بعدّة مسائل مشكلة فى الهندسة والحكمة والرياضة ، فعرضها على الشيخ علم الدين قيصر الحنفى — المعروف بتعاسيف — وغيره ، فكتب جوابها . وعاد الإمبراطور[2] من عكا إلى بلاده فى البحر ، آخر جمادى الآخرة . وسيّر الكاملُ جمالَ الدين الكاتب الأشرفى إلى البلاد الشرقية وإلى الخليفة ، فى (١٦٤) تسكين قلوب الناس وتطمين خواطرهم من انزعاجهم لأخذ الفرنج القدس .

وفى خامس جمادى الأولى — وهو يوم الأحد — وقعت الحوطة على دار القاضى الأشرف أحمد بن القاضى الفاضل ؛ وحُملت خزائن الكتب جميعها إلى قلعة الجبل ، فى سادس عشريه ، وجملة الكتب ثمانية وستون ألف مجلدة وحُمل من داره — فى ثالث جمادى الآخرة — خشب خزائن الكتب مفصلة ، [وحملها] تسعة وأربعون جملا[3] . و [كانت] الجمال التى حملت الكتب تسعة وخمسون جملا ، ثلاث دفعات[4] .

= أيضاً ، لاختلاف الرواية بخصوص ما حدث من المؤذنين بالقدس . ونصها : —" وفى المرآة : وجرى للانبروز (كذا) عجايب ، منها أنه لما دخل [قبة] الصخرة رأى قسيسا قاعدا عند القدم ، يأخذ من الفرنج (٨٣) قراطيس . فجاء إليه [الأنبرور] ، كأنه يطلب منه الدعاء ، فلكمه فرماه إلى الأرض ، وقال ياخنزير ! السلطان تصدق علينا بزيارة هذا المكان ، [وأنتم] تفعلون فيه هذه الأفاعيل ؟ ائن عاد [و] دخل واحد منكم على هذا الوجه لأقتلنه . قال السبط : وحكى لى صورة الحال قوام الصخرة ؛ [قال] ، ونظر [الأنبرور] إلى الكتابة التى فى القبة ، وهى : " طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين " ، فقال ومن هم المشركون ؟ وقال [الانبرور] للقوام : هذه الشباك التى على أبواب الصخرة من أجل أيش ؟ قالوا لئلا يدخلها العصافير ، فقال قد أتى الله إليكم بالخنازير قالوا ولما دخل وقت الظهر ، وأذن المؤذنون قام جميع من كان معه من الفراشين والغلمان ، ومعلمه وكان من صقلية يقرأ عليه المنطق ، فصلوا وكانوا مسلمين . قالوا وكان الأنبروز أشقر أمعط ، فى عينيه ضعف ، لو كان عبدا ما يساوى مائتى درهم . قالوا والظاهر من كلامه أنه كان دهريا ، وإنما كان يتلاعب بالنصرانية . قالوا وكان الكامل قد تقدم إلى القاضى شمس الدين ، قاضى نابلس ، أن يأمر المؤذنين مادام الأنبروز فى القدس [أن] لا يصعدوا المنائر ، ولا يؤذنوا فى الحرم . فأنسى القاضى أن يعلم المؤذنين ، فصعد عبد الكريم المؤذن فى تلك الليلة وقت السحر ، والأنبروز نازل فى دار القاضى ، فجعل يقرأ الآيات التى تختص بالنصارى ، مثل قوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد) ، (ذلك عيسى بن مريم) ، ونحو هذا ولما طلع الفجر ، استدعى القاضى عبد الكريم ، وقال له إيش عملت ؟ السلطان رسم بكذا وكذا ، قال فما عرفتنى التوبة . فلما كانت الليلة الثانية ، ما صعد عبد الكريم الأذنة . فلما طلع الفجر استدعى الأنبروز القاضى ، وكان قد دخل القدس فى خدمته ، وهو الذى سلم إليه القدس . فقال له يا قاضى ! أين ذاك الرجل الذى طلع البارحة أمس المنارة ، وذكر ذلك الكلام ؟ فعرفه أن السلطان أوصاه ، فقال الأنبروز أخطأتم يا قاضى ! تغيرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلى ؟ فلو كنتم عندى فى بلادى ، هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم ؟ الله الله لاتفعلوا . هذا أول ما تنقصون عندنا " .

(١) فى س الرياضى .

(٢) فى س الانبرطور .

(٣) فى س حملا بالحاء ، وقد وردت كلمة حمل ، التى تليها ، بالحاء أيضا .

(٤) فى س ثلاث دفعات .

وفى يوم السبت ثانى عشرى رجب منها ، حُملت الكتب والخزائن[1] من القلعة إلى دار الفاضل ؛ وقيل إن عدتها أحد عشر ألف كتاب وثمانمائة وثمانية كتب ، ومن جملة الكتب المأخوذة كتاب الأيك[2] والغصون ، لأبى العلاء المعرّى ، فى ستين مجلدا .

وفيها وصل ملك مَلَطْيَة[3] ، فكثرت غاراته وقتله وسبيه[4] . وفيها اشتد تشنيع الملك الناصر [داود] بدمشق على عمه الملك الكامل تسليمه القدس للفرنج . فنفرت قلوب الرعية ، وجلس الحافظ شمس الدين سبط ابن الجوزى بجامع دمشق ، وذكر فضائل بيت المقدس ، وحَزّن الناس على استيلاء الفرنج عليه ، وبَشّع القول فى هذا الفعل . فاجتمع فى ذلك المجلس ما لا يحصى عدده من الناس ، وعلت أصواتهم بالصراخ ، واشتد بكاؤهم ، وأنشد الحافظ شمس الدين قصيدة ، أبياتها ثلثمائة بيت ، منها :

على قبـــة المعراج والصخرة التى تُفاخر ما فى الأرض من صخرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصـــات[5]

فلم يُر بدمشق أكثر بكاء من ذلك اليوم .

وكان الأشرف على منازلة دمشق ، فبعث إلى الكامل يستحثه . فرحل [الكامل] من تل العجول بعد طول مقامه بها ، فتلقاه فى قرية[6] يُبْنَا [أخوه[7]] العزيز عثمان ، صاحب بانياس

(١) فى س " حملت الكتب من القلعة إلى دار الفاضل والخزائن " . (٢) يقول ابن خلكان (وفيات الأعيان ، Wüstenfeld ، ج ١ ، ص ٥٩) فى ترجمة أبى العلاء ، عن ذلك الكتاب ، ما نصه : " وبلغنى أن له كتابا سماه الأيك والغصون ، وهو المعروف بالهمزة والردف ، يقارب مائة جزء ، و [هو] فى الأدب أيضا . وحكى لى من وقف على المجلد الأول بعد المائة ، من كتاب الهمزة والردف ، وقال لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد ... " .

(٣) ملك ملطية فى تلك السنة هو علاء الدين أبو الفتح كيقباد بن غياث الدين كيخسرو ، ٦١٦ — ٦٣٤ هـ (Enc. Isl. Arts. Kaikobad & Malatiya) . وملطية مدينة قديمة ، شمالى أعالى الفرات ، وينطقها العامة بكسر الطاء وتشديد الياء ، وهى بغير ضبط فى س . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٦٣٣ — ٦٣٥) .

(٤) هذه العبارة ، من أول السطر هنا ، غير مترجمة فى (Blochet : Op. cit p. 377) ، على أنها واردة فى ب (٧٦ب) . (٥) أخذ السبط هذا البيت الثانى من قصيدة لدعبل الخزاعى . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٠٤ ، فى Rec. Hist. Or. I.) . ويلاحظ أن (Blochet : Op. cit. p. 378) ترجم هذين البيتين ، وهذا على غير عادته ، فإنه يحذف الشعر فى ترجمته .

(٦) مضبوطة فى س بفتح النون ، وهى بليدة قرب الرملة ، وبها قبر أحد الصحابة ، بعضهم يقول هو قبر أبى هريرة ، وبعضهم يقول قبر عبد الله بن أبى سرح . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٠٠٧) .

(٧) انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ٨٦ ، فى Rec. Hist. Or. I.) .

بابنه الظاهر غازى . فوصل [الكاملُ] العزيزَ بخمسين ألف دينار ، وابنه غازى بعشرة آلاف دينار ، وقماش نفيس وخلع سنية . وأمر [الكامل] فضُرِبت[1] له خيمة عظيمة ، وحولها بيوتات ، وسائر ما يحتاج إليه من الآلات والخيام ، برسم أصحابه ومماليكه . ثم وصل إليه أيضا الأمير عز الدين أيدمر المعظمى ، فدفع إليه [الكامل] عشرة آلاف دينار — وقيل عشرين ألف دينار — وكتب له على الأعمال القوصية بعشرين ألف أردب غلة ، وأعطاه أملاك الصاحب صفى الدين بن شكر ، ورباعه وحمامه .

وسار [الكامل] إلى دمشق ، فنزل على ظاهرها فى جمادى الأولى ، وجدّ هو والأشرف فى حصارها ، حتى اشتد عطش الناس فى دمشق ، لانقطاع الأنهار عنهم ؛ ومع ذلك فالحرب بينهم قائمة فى كل يوم إلى آخر رجب . فغلت الأسعار ، ونفدت أموال الناصر ، وفارقه جماعة من أصحابه ، وصاروا إلى الكامل والأشرف . فأخذ الناصر فى ضرب أوانيه من الذهب والفضة دنانير ودراهم ، وفرّقها حتى نفد أكثر ما كان عنده من الذخائر . وناصحته العامة مناصحة كبيرة ، وأبلوا فى عسكر الكامل والأشرف بلاء عظيما .

[وفى أثناء ذلك] قدم[2] القاضى بهاء الدين بن شداد ، ومعه أكابر حلب وعدولها ، من عند الملك العزيز [محمد بن الظاهر غازى بن صلاح[3] الدين] ، صاحب حلب ، لتزويج ابنة الملك الكامل بالملك العزيز . فخرج الملك الكامل من (٦٤ ب) مخيمه بمسجد القدم إلى لقائه ، وأنزله قريبا منه . ثم أحضره ، فقدّم تقدمة كانت معه من الملك العزيز . وعَقَد العقد للملك العزيز على الخاتون فاطمة ابنة الملك الكامل الأمير عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ[4] ، على صداق مبلغه خمسون ألف دينار ، فقبل العقد ابن شداد فى سادس عشر شهر رجب .

فضعف قلب الملك الناصر [داود] ، وقلت أمواله ؛ فخرج ليلا من قلعة دمشق فى آخر شهر رجب ، ، ومعه نفر يسير ، وألقى نفسه على باب مخيم الكامل . فخرج إليه [الكامل] ،

---

(١) فى س فضرب . (٢) فى س فقدم . (٣) أضيف مابين القوسين بعد مراجعة (Enc. Isl. Art. Halab) . وقد تولى العزيز حلب سنة ٦١٥ هـ ، وهو ابن بنت الملك العادل ، وخاله الملك الكامل . (٤) فى س " وعقد العقد على الخاتون فاطمة ابنة الملك الكامل الأمير عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ للملك العزيز " .

وأكرمه إكراما زائدا ، وباسطه وطيّب قلبه ، بعد عتب كثير ، وأمره أن يعود إلى القلعة ، فعاد إليها . ثم بعد يومين بعث الكامل بالأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى القلعة — وكان يوم جمعة — فصلّى بها الجمعة ؛ وخرج ومعه الناصر داود إلى الملك الكامل ، فتحالفا . وعوّضه [الكامل] عن دمشق بالكرك والشوبك وأعمالها ، مع الصلت والبلقاء والأغوار جميعها ، ونابلس وأعمال القدس وبيت جبريل . ثم نزل الناصر عن الشوبك للكامل فقبلها ، وصار للكامل مع الشوبك بلد الخليل عليه السلام ، وطبرية وغزة ، وعسقلان والرملة ولدّ ، وما بأيدى المسلمين من الساحل .

وفُتحت أبواب دمشق فى أوّل يوم من شعبان ، فشق ذلك على أهل دمشق ، وتأسفوا على مفارقة الناصر ، وكثر بكاؤهم . ثم تسلمها الملك الأشرف . وبعث الكامل قصاده لتسلم بلاد الأشرف ، وهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، والخادم شمس الدين صواب ، وجماعة . فتسلما حران والرها وسروج ، ورأس عين والرقة ، وغير ذلك .

وسافر الناصر داود بأهله إلى الكرك . وسار الكامل إلى حماة ، [وبها الناصر صلاح الدين قلج أرسلان بن المنصور محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب] وقدم [مع الكامل] المظفرُ تقى الدين محمود بن المنصور محمد بن [تقى الدين[1]] عمر بن شاهنشاه بن أيوب فى جماعة ،

---

(١) أضيف مابين الأقواس بعد مراجعة ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٣١٧ — ٣١٨) . وسبب تدخل الكامل بين الأخوين ، حسبما جاء فى نفس المرجع والجزء والصفحة ، أن أباهما المنصور محمد صاحب حماة ، كان قد حلف أكابر دولته ، قبل وفاته سنة ٦١٧ هـ ، على تولية ابنه الأكبر المظفر تقى الدين من بعده . فلما توفى المنصور كان المظفر عند خاله الملك الكامل ، يعاونه فى مقاتلة الصليبيين على دمياط (انظر ص ٢٠١ ، سطر ٣ — ٦ ، ص ٢٠٥ ، سطر ٩ — ١٣) . وكان أخوه الناصر صلاح الدين قلج أرسلان ، عند خاله الملك المعظم ، صاحب دمشق . فانتهز قلج أرسلان فرصة غياب أخيه ، وذهب إلى حماة ، واستولى عليها وعلى قلعتها . ثم حاول المظفر أن يأخذها منه ، فلم يفلح ، فرجع إلى الكامل ، وأقام فى خدمته . (انظر ص ٢٥٠ ، سطر ١٣ — ١٧) . فلما سار الكامل لمحاربة الناصر داود ، كان المظفر تقى الدين معه ، وقد وعده الكامل أن يسلمه حماة . (انظر ص ٢٢٦ ، سطر ١) . فلما انتهى الملك الكامل من أمر الناصر ، سير إلى أرسلان جيشاً ، حاصر حماة عدّة أيام . ثم قرر قلج تسليمها ، فنزل من القلعة ، وذهب إلى الكامل ، وهو فى طريقه إلى حران والبلاد الشرقية ، فاعتقله حتى سلمت حماة وقلعتها إلى المظفر تقى الدين . (راجع أيضا أبا الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ٩٥ ، فى Rec. Hist. Or. I.) .

فنازل حماة حتى سلَّم صاحبها الناصر قلج أرسلان ، وسيق إلى الملك الكامل وهو بسلمية ، فأهانه واعتقله . وتسلم المظفرُ حماة ، فكانت مدّة الناصر بحماة تسع [سنين] تنقص شهرين . و بعث الكامل بالناصر صاحب حماة إلى مصر ، فاعتقل بها .

ثم سار الملك الكامل يريد البلاد الشرقية ، فقطع الفرات ، ودخل قلعة جعبر . ثم توجه إلى الرقة ، وخافه ملوك الشرق ، فعيَّد بالرقة عيد الفطر . وسار إلى حران والرها ، واستخدم بها عسكرا [عدّته] نحو ألفي فارس . فقدمت عليه رسل ماردين وآمد ، والموصل و إربل ؛ و [حضر إليه أيضا] عدّة ملوك . و بعث [الكامل] فخر الدين بن (١٦٠) شيخ الشيوخ إلى الخليفة ؛ وأطلق ابن أخيه الملك الناصر قلج أرسلان من اعتقاله ، وخلع عليه ، وأعطاه بارين[1] ، وكتب له بها توقيعا ، وأمر أن يُحمل إليه ما كان فى قلعة حماة — وهو أربعمائة ألف درهم — وكتب إلى المظفر تقى الدين بتسليم ذلك إليه . فوصل [الناصر[2] إلى بارين] وتسلمها .

ثم ورد[3] الخبر على الكامل بأن [جلال الدين] خوارزم[4] شاه نازل خلاط ، ونصب عليها عشرين منجنيقا ، [وكان وصوله إليها] فى نصف شوال . و [كانت خلاط للملك الأشرف ، و بها عسكره ، فأرسلوا إلى الملك الكامل[5]] يسألون فى نجدة ، فلم يرسل الكامل إليهم أحدا .

وورد الخبر بإقامة الخطبة فى ماردين للملك الكامل ، وضُربت السكة باسمه [هناك . ثم توالت الرسل من خلاط ، وكلها تطلب إلى الكامل أن يبعث الأشرف لنجدة البلد] . فبعث الكامل يطلب عساكر حلب وحماة حمص ، فخرجت عساكر حلب [إلى خلاط ، ومعها الأشرف[6]] . ثم ورد[7] الخبر بأن الفرنج قد أغارت على بارين ، [وأنهم نهبوا ما بها ، وأسروا وسبوا[8]] .

---

(١) فى س بفرين . انظر ص ٦٠ ، حاشية ٣ . (٢) فى س فوصل إليها وتسلمها . راجع ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٣١٨) . (٣) فى س فورد . (٤) فى س الجوارزى . (٥) أضيف ما بين القوسين من نفس المرجع والجزء (ص ٣١٨ — ٣٢٠) .

(٦) أضيف مابين القوسين من نفس المرجع والجزء (ص ٣٢٠) .

(٧) فى س فورد . (٨) أضيف ما بين القوسين من نفس المرجع والجزء (ص ٣١٩) .

وفيها مات الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل بمكة ، عن ست وعشرين سنة ، منها مدّة ملكه باليمن أربع عشرة سنة ، [وهو آخر ملوك بنى أيوب ببلاد[١] اليمن] . وترك [المسعود] ابنا يقال له صلاح الدين يوسف ، واقب بالملك المسعود ، كلقب أبيه . [وبقى يوسف هذا حتى[٢] مات فى سلطنة عمه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، صاحب مصر] . ثم ولى[٣] ابنه موسى بن يوسف بن يوسف [بن الكامل] مملكة مصر ، ولقب بالأشرف ، شركة مع المعز أيبك ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

فاشتدّ حزن الملك الكامل على[٤] [ولده يوسف] ، وتسلم مماليكه وخزائنه وأولاده ، ولبس لشدّة حزنه البياض . وكان المسعود قد استخلف على اليمن نور الدين على بن رسول التركانى[٥] ، فتغلب عليها ، وبعث إلى الملك الكامل عدّة هدايا ، وقال : " أنا نائب السلطان على البلاد " ، فاستمرّ ملك اليمن فى عَقِبه بعد ذلك .

* * *

سنة سبع وعشرين وستمائة . أهلت والملك الكامل بحران ، والخوارزمى على خلاط ، والأشرف محاصر بعلبك . وفيها قدم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ من بغداد . و[فيها] ورد رسول الإمبراطور[٦] ، ملك الفرنج ، بكتابه إلى الملك الكامل بحران ، ومعه أيضا كتاب للأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ . وفيها سار الكامل من حران إلى الرقة .

وفيها استولى الأشرف بن العادل على بعلبك ، بعد ما أقام على حصارها عشرة أشهر . وعُوِّض الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه[٧] بن نجم الدين أيوب بن شادى ،

---

(١) كره الملك المسعود المقام باليمن ، لما أصابه من المرض بها ، وكان قد تولاها منذ سنة ٦١٢ ﻫ ، أى فى عهد جدّه العادل . (انظر ص ١٨١ ، سطر ٩ — ١٣) . ثم استدعاه أبوه الملك الكامل إليه ، سنة ٦٢٦ ﻫ ، ليوليه دمشق ، وذلك بعد وفاة الملك المعظم عيسى . فسار المسعود عن اليمن قاصدا الشام ، فتوفى بمكة ، وهو آخر ملوك اليمن من الأيوبيين . (الخزرجى . العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٣٠ — ٤٤ ؛ والقلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٠) .

(٢) أضيف ما بين القوسين من العينى (عقد الجمان ، ج ١٨ ، قسم ١ ، ص ٩٧ — ٩٨) .

(٣) فى س فولى . (٤) فى س عليه .

(٥) العبارة الآتية واردة بهامش الصفحة ، بخط مخالف ، ونصها : " اول مدة استيلاء اولاد رسول على مملكة بلاد اليمن " . (٦) فى س الانبرطوز .

(٧) فى س شاهان شاه .

عوضا من بعلبك وأعمالها ، قُصَير(١) دمشق والزَّبَدَاني(٢) ؛ فكانت مدّة ملكه بعلبك تسعا وأربعين سنة . فبعث الكاملُ الأميرَ فخر الدين عثمان الأستادار إلى الأشرف ، فى مهمات تتعلق به ؛ وولّى كمال الدين بن شيخ الشيوخ نائبا بالجزيرة

و [فيها قدم رسول السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقى ، (٦٠ ب) صاحب الروم ، على الملك الكامل ؛ [وأخبره] بأنه جهز خمسة وعشرين ألفا إلى أَرْزِنْجان(٣) ، وعشرة آلاف إلى ملطية ، "وأنا حيث تأمر" . فطاب قلب السلطان [الكامل] بذلك ، وكان مهتما من أمر الخوارزمى .

وفيها سار الأشرف ، صاحب دمشق ، من الشام إلى جهة الشرق ، فوصل إلى الكامل وهو بالرقة ؛ ووصل أيضا مانع بن حديثة أمير العرب . وفيها ملك الخوارزمى مدينة خلاط ، بعد حصار طويل ، وقتال شديد ، فى ثامن عشرى جمادى الأولى ؛ فوضع السيف فى الناس ، وأسرف فى القتل والنهب . فرحل الملك الكامل يريد مصر ، لأمور منها أنه بلغه موت ولده [الملك] المسعود [صاحب اليمن] ، فكتمه . و [كان قد] ورد عليه [أيضا] ، من أم ولده العادل ، كتاب تشكو فيه من [ابنه] الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأنه قد عزم على التوثب على الملك ، واشترى جماعة كبيرة من المماليك الأتراك ؛ وأنه أخذ مالا جزيلا من التجار ، وأتلف جملة من مال بيت المال ؛ "ومتى لم تتدارك البلاد ، وإلاَّ غَلَب عليها ، وأخرجنى أنا وابنك الملك العادل منها" . فانزعج [الكامل] لذلك ، وغضب غضبا شديدا ثم ورد عليه الخبر بأن ابنه الصالح اشترى ألف مملوك ، [فعزم على الرحيل إلى مصر] . فرتب الطواشى

(١) بغير ضبط فى س ، وهى ضيعة بشمالى دمشق ، على الطريق بينها وبين حمص ، وبها خان يعرف بالقصير ، قبالته مجرى ماء . ويخترق الطريق من القصير إلى دمشق سلسلة من البساتين . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٠٣ ؛ و (Le Strange : Palest. Under Moslems. P. 489) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى كورة بين دمشق وبعلبك ، ومنها يخرج نهر بردى ، وتطلق أحيانا زبدان ، وبها بلدة اسمها الزبدانى أيضاً . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٩١٣ ؛ و : Le Strange) . Op. cit. P. 558)

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى من بلاد أرمينية ، بين خلاط وأرزن الروم ، وأهلها يقولون أرزنكان بالكاف . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٠٥) .

شمس الدين صواب العادلى نائبا فى أعمال المشرق ، وأعطاه إقطاع [أمير] مائة[1] فارس ، زيادة على ما بيده من الديار المصرية ، وهى أعمال أخميم بكمالها ، وقاى والقايات ودِجْوة[2] ، بإمرة مائتين وخمسين فارسا ، فصار أمير ثلاثمائة وخمسين فارسا . ورتب [الملك الكامل] كمال الدين ابن شيخ الشيوخ وزيرا .

(١) تقدم ذكر رتبة أمير مائة عرضا (انظر ص ٧٥ ، سطر ٣) ، وأرجئ الكلام عنها إلى هنا . وهى مرتبة حربية ، خاصة بأرباب السيف ، وتقرن عادة بلقب مقدم ألف ، فيقال أمير مائة مقدم ألف . والمقصود بتلك التسمية المركبة وظيفة واحدة ، يكون فى خدمة حاملها مائة مملوك (فارس ؟) ، وهو فى نفس الوقت مقدم فى الحروب على ألف جندى من أجناد الحلقة . وكان أصحاب هذه الرتبة أعلى مراتب الأمراء ، من عهد السلاجقة بالشرق إلى عهد المماليك بمصر . وربما زاد الواحد منهم العشرة أو العشرين مملوكا ، أو أكثر من ذلك ، فيكون أمير ثلاثمائة ، كما ورد هنا (انظر سطر ٣) ، والظاهر أن هذا كان عرضيا نادرا . وكان بيد هؤلاء الأمراء ، أيام المماليك بمصر ، جميع المناصب العليا ، فكان منهم نائب السلطنة ، ونائب الغيبة ، ونائب الوجه البحرى ، والدوادار الكبير ، والأستادار ، ونائب دمشق ، ونائب حلب ، وما يساوى ذلك من الوظائف الكبرى .

ويلى هؤلاء الأمراء من يحمل رتبة أمير أربعين ، ويسمون أمراء طبلخاناه ، لأحقيتهم فى دق الطبول على أبوابهم ، كما يفعل السلطان وأمراء المئات ، ولكن على صورة مصغرة . ويظهر أنهم كانوا يسمون بأمراء الطبلخاناه تمييزا لهم عمن هم أقل منهم فى الرتبة ، وليس لهم طبلخاناه . وقد تزيد رتبة أمير أربعين إلى إمرة سبعين أو ثمانين ، أى أن يكون فى خدمته ما يساوى أحد هذين العددين . ومن الوظائف التى جرى إسنادها إليهم وظيفة الدوادار الثانى ، ووالى القاهرة ، ووالى القلعة ، ونائب الإسكندرية ، ونائب طرابلس وحماة بالشام .

ويأتى بعد هؤلاء أمراء العشرات ، ومن هذه الطبقة صغار الولاة ونحوهم ، مثل والى الفسطاط ، وشاد الدواوين ، ووالى القرافة .

ثم تأتى أمراء الخمسات ، وهؤلاء كانوا قليلين ، وأكثرهم من أولاد الأمراء المتوفين ، تعطى للواحد منهم هذا الرتبة رعاية لسلفه ، وكان يعتبرون من أكابر الأجناد . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٤ — ٢٨ ، ٥٠ — ٥١ ، ٦٣ — ٦٧ ؛ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١١ — ١٢٠ ؛ المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ص ٢١٥ — ٢٢٠) . انظر أيضا : (G.-Demombynes Op. cit. Pref. PP. XXXIII et seq ; P. 139) . أما عن أصل هذا التقسيم العشرى ، فالظاهر أن السلاجقة والأيوبيين ، والمماليك من بعدهما ، نقلوه بتعديل من أوطانهم الأولى : ففى (Morier : Hajji Baba of Ispahan, p. 31) أن قبيلة من التركمان بشمالى فارس كانت تستعد للغزو ، فدعى رئيسها أصحاب العشرات وأصحاب المئات .

ومما تجب ملاحظته أن هذا التقسيم العشرى مذكور فى (Morier : Op. cit.pp. 187, 206) فى وصف بعض رتب الجيش الفارسى فى القرن التاسع عشر ، مثل (Min Gashi) ومعناه مقدم ألف ، و(On Bashi)، أى مقدم عشرة ، و (Penja Bashi) ، أى رئيس خمسين . وهذا التقسيم موجود أيضاً فى الجيش العثمانى والجيش المصرى الحالى . (٢) تقدم التعريف بقاى والقايات . انظر ص ٨٢ ، حاشية ١ ؛ ص ٩١ ، حاشية ٣) . أما دجوة — بغير ضبط فى س — فعلى الشاطىء الشرقى لفرع دمياط ، جنوبى بنها الحالية ، أى أنها من مديرية القليوبية . انظر (P. Omar Tousson : Op. cit. I. 1. Pl. II. a) . وكانت دجوة فى زمن ياقوت (معجم البلدان ، ج ، ص ٥٥٥) من أعمال كورة الشرقية ، وذلك قبل أن تصبح القليوبية قسما إداريا منفصلا ، (انظر ص ٢٠٢ ، حاشية ٢) . لكن ياقوت يقول إنها على فرع رشيد ، ويرجح أيضا نطقها بضم الدال .

وتوجه [الكامل] إلى مصر ، فدخلها فى رجب ، وتغير على ابنه الملك الصالح تغيرا كثيرا ، وقبض على جماعة من أصحابه وسجنهم ، وألزمهم إحضار الأموال التى فرّط فيها الملك الصالح ، وخلع الصالح من ولاية العهد(١).

وفيها واقع الملك علاء الدين كيقبادُ السلطانَ جلال الدين(٢)[خوارزم شاه] ، وكسره ، وقتل كثيرا ممن كان معه . وخلص [جلال الدين] فى عدة من أصحابه إلى تبريز(٣)، وكان ذلك فى سابع عشرى رمضان . فملك الأشرف ، صاحب دمشق ، مدينة خلاط .

وفيها بلغ قاع النيل بمقياس مصر ذراعين ، وانتهت زيادة ماء النيل ثلاثة عشر ذراعا وثلاثة عشر أصبعا لا غير ، فارتفعت الأسعار .

وفيها قصد الفرنج حماة فأوقع بهم الصالح أيوب ، وقتل عدة منهم ، وأسر كثيرا ، وذلك فى رمضان .

وفيها (٦٢٦) مات الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب ، صاحب بعلبك ، ليلة الأربعاء ثامن عشر شوال . وكانت مدة ملكه تسعاً وأربعين سنة ، وكان أديباً شاعرا . ومات الملك الظافر خضر بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكان يعرف بالمشمِّر(٤).

* * *

سنة ثمان عشرين وستمائة . فيها عاد الأشرف إلى دمشق . وفيها انفرد العزيز صاحب حلب بالملك ، وقد بلغ ثمانى عشرة سنة ، وتسلم الخزائن من أتابكه شهاب الدين

(١) العبارة الآتية واردة فى س ، ولكنها مشطوبة ، وهى : "وعهد إلى ابنه الملك العادل أبى بكر ، وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة ، وكان الكامل يحبه ويحب أمه حبا كبيراً " . وهذه العبارة واردة بالمتن (انظر سنة ٦٣٠ هـ) ، فالراجح أن المقريزى تدارك ذلك التكرار ، فشطبه هنا .

(٢) فى س جلال الله .

(٣) فى س توريز ، وفى ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، س ٣٢٠) أن جلال الدين مضى منهزما إلى آذربيجان ، فنزل عند مدينة خُوَىّ ، بضم الخاء وفتح الواو . انظر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، س ٥٠٢) .

(٤) يقول ابن خلكان (المختار من ترجمة السلطان صلاح الدين ، س ٤٢٧ ، فى Rec. Hist. Or. III.) إن الظافر خضر عرف بهذا اللقب ، ومعناه المستعد ، " لأن أباه — رحمه الله تعالى — لما قسم البلاد بين أولاده الكبار ، قال : وأنا مشمر ، فغلب عليه هذا اللقب " .

اغربيل . فقام بتدبير الملك قياما مشكورا ، وسير القاضى بهاء الدين بن شداد إلى الملك الكامل ، بسبب إحضار صفية خاتون ابنة الكامل — [وهى] زوجة العزيز — ، فأقام بالقاهرة [حتى[1] سنة تسع وعشرين وستمائة] . وفيها قدم الأشرف من دمشق على الملك الكامل — ومعه الملك المعظم ، صاحب الجزيرة — فى عاشر جمادى الأولى ، فسر السلطان بقدومهما .

وفيها سار الملك الكامل إلى الإسكندرية ، وترك الأشرفَ بالقاهرة ، واستصحب معه صاحب الجزيرة ، بعد ما أنعم عليه إنعاما موفورا .

وفيها تحرك التتر . و [فيها] قدم الملك مجير الدين بن العادل إلى القاهرة ، وكان مأسورا عند الخوارزمى . فسر به الكامل ، وأكرمه هو وأخوه تقى الدين عباس .

وفيها مات السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه ، بعد ما هزمه التتر ببعض قرى ميافارقين[2] ؛ قتله بعض الأكراد . و [فيها] وصل التتر إلى إربل ، وقتلوا من المسلمين ما لا يحصى عددهم إلا خالقهم .

وفيها شرع الملك الكامل فى حفر بحر النيل ، الذى فيما بين المقياس وبر مصر[3] ؛ وعمل فيه بنفسه ، واستعمل الملوك والأمراء والجند . فلما فُرِغَ [من الحفر] صار فى أيام احتراق النيل يُمشى من المقياس والروضة إلى بر الجيزة ، واستمر الماء فيما بين مصر والروضة لا ينقطع فى زمن الاحتراق ألبتة . وكان السلطان قد قسّط حفر هذا البحر على الدور التى بالقاهرة ، ومصر والروضة ، بالقِيَاس[4] . واستمر العمل فيه — من مستهل شعبان إلى آخر شوال — مدّة ثلاثة أشهر .

---

(١) انظر ص ٢٤٣ (سطر ١٣) .

(٢) كان جلال الدين بن خوارزم شاه آخر بيته ، وكان تغلب المغول على بلاده نذير السوء والخطر على العالم الإسلامى ، إذ بدأوا بعد ذلك يغيرون على العراق . وقد خلف البيت الخوارزمى فى كرمان ، جنوبى فارس ، أحد رجال جلال الدين ، واسمه براق حاجب ، واعترف بولايته عليها أوغطاى ابن جنكرخان ، ومنحه لقب قطلغ خان . (Lane-Poole : Muh. Dyns. P. 179) .

(٣) بهامش الصفحة فى س العبارة الآتية ، بخط مخالف : " انظر حفر النيل بين القياس ومصر " .

(٤) كذا فى س ، بغير ضبط . انظر المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٣٤٥) حيث ورد ، فى هذا الصدد : " وقسط [الكامل] مكان الحفر على الدور بالقاهرة ومصر والروضة والمقياس " .

وفيها قدم رسول الخليفة [المستنصر بالله] بالخلع والتقليد للملك الكامل ؛ ومُيِّزَ بزيادات كثيرة ، لم تفعل فى حق غيره ، من السلجوقية وغيرهم . و [وردت] خلع للملك الأشرف أيضا . وفيها تسلطن عمر بن على بن رسول باليمن ، ونشر دعوته .

* * *

سنة تسع وعشرين وستمائة . فيها تكمل استيلاء التتر على إقليم أرمينية وخلاط ، وسائر ما كان بيد الخوارزمى . فاهتم الخليفة [المستنصر بالله[1]] غاية الاهتمام ، (٦٦ ب) وسيَّر عدّة رسل يستنجد الأشرف من مصر ، ويستنجد العربان وغيرهم . وأخرج [الخليفة] الأموال ، فوقع الاستخدام فى جميع البلاد لحركة التتر .

و [فيها] خرج الملك الكامل من القاهرة فى جمادى الآخرة ، واستخلف على مصر ابنه الملك العادل أبا بكر ، وأسكنه قلعة الجبل مع أمه ؛ وأخرج الصالحَ أيوب معه ، وقدّم الأشرفَ — والمعظم صاحب الجزيرة — بالعساكر . ومضى الكامل جريدة إلى الشوبك والكرك ، وسار إلى دمشق ، ومعه الناصر داود صاحب الكرك بعساكره ، وقد زوجه بابنته عاشوراء خاتون ، وعقد عقده عليها بمنزلة اللَّجُون[2] . وأقام [الكامل] بدمشق يسرح العساكر ، وجعل فى مقدّمتها ابنه الملك الصالح أيوب .

وورد الخبر بدخول التتر بلاد خلاط ، فأسرع [الكامل] فى الحركة ، وخرج من دمشق فنزل سلمية — وقد اجتمع بها عساكر يضيق بها الفضاء — ، وسار منها فى أخريات رمضان على البرية . وتفرقت العساكر فى عدّة طرق لكثرتها ، فهلك منها عدّة كثيرة من الناس والدواب ، لقلة الماء .

---

(١) يرجع اهتمام الخليفة المستنصر بأمر التتر إلى ثلاثة أمور : أولها أن غارات التتر ، التى ستؤدى إلى اجتياح الدولة العباسية من بغداد ، كانت قد وصلت أراضى العراق الأعلى ؛ وثانيها أن بعض البلاد التى استولى عليها التتر من جلال الدين خوارزم شاه ، كانت قبل ذلك من أملاك الخليفة ؛ وثالثها أن جلال الدين كان قد عزم على الاستنجاد بالخليفة ، ولم يمنعه من ذلك سوى مطاردة التتر له ، واضطراره إلى الاختفاء ، حتى وفاته . (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ٣٢٣ — ٣٣٠) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة بالأردن . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٥١) .

وأتته رسل ملوك الأطراف ، وهم عز الدين بيقرا[1] ، وفخر الدين بن الدامغانى ، رسل الخليفة المستنصر بالله ، وألبسوه خلعة السلطنة . فاستدعى [الكامل] عندذلك رسل الخوارزمى[2] ، ورسول الكرج ، ورسل حماة وحمص ، ورسول[3] الهند ، ورسل الفرنج ، ورسل أتابك سعد صاحب شيراز ، ورسل صاحب الأندلس[4] ؛ ولم تجتمع هذه الرسل عند ملك فى يوم واحد قط غيره . وقدم عليه بهاء الدين اليزدى — شيخ رباط الخلاطية — من بغداد ، وجماعة من النُّخَّاس[5] ، يحثونه على الغزاة .

فرحل التتر عن خلاط ، بعد منازلتها عدّة أيام . وجاء الخبر برحيلهم والكامل بحران ، فجهز عماد الدين بن شيخ الشيوخ رسولا إلى الخليفة . وسار إلى الرها ، وقدّم العساكر إلى آمد ، وسار بعدهم . فنزل على آمد ، ونصب عليها عدّة مجانيق . فبعث إليه صاحبها يستعطفه ، ويبذل له مائة ألف دينار ، وللأشرف عشرين ألف دينار ، فلم يقبل . وما زال عليها حتى أخذها ، فى سادس عشرى ذى الحجة ، وحضر صاحبها إليه بأمان ، فوكل به حتى سلّم جميع حصونها . فأعطى السلطان حصن كيفا لابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وفيها وردت هدية من ماردين . وفيها سار ابن شدّاد من القاهرة بالستر العالى الصاحبة غازية خاتون ، ابنة الكامل وزوجة الملك المظفر ، صاحب حماة ؛ والستر العالى الصاحبة فاطمة ، ابنة الكامل وزوجة [الملك] العزيز ، صاحب حلب . وخرج معهما أيضا الأمير فخر الدين البانياسى ، والشريف شمس الدين قاضى العسكر .

---

(١) فى س اسرا . والرسم الوارد هنا منقول من (Blochet : Op. cit. P. 391) .

(٢) تقدمت وفاة جلال الدين الخوارزمى ، تحت سنة ٦٢٨ هـ (انظر ص ٢٤١) ، ولعل المقريزى يقصد بالخوارزمى هنا السلطان براق صاحب ، الذى استقل بكرمان بعد وفاة جلال الدين . (انظر ص ٢٤١ ، حاشية ١) .

(٣) كانت الهند الإسلامية (Hindustan) تابعة للدولة الغورية ، منذ سنة ٥٨٦ هـ ، حين فتحها عز الدين محمد الغورى ، وولى عليها مملوكه قطب الدين أيبك . ثم استقل قطب الدين هذا بالهند الإسلامية ، سنة ٦٠٢ هـ ، بعد وفاة عز الدين وانقسام الدولة الغورية . وكذلك استقل ناصر الدين كباشا بالسند ، وهو مملوك غورى آخر . (Lane-Poole : Muh. Dyns. pp. 293—299) .

(٤) لعل المؤلف يقصد بنى نصر ملوك غرناطة ، وأولهم محمد بن غالب بن يوسف بن نصر (٦٢٩ — ٦٧١ هـ) (Lane-Poole : Muh Dyns. pp. 27—29) .

(٥) فى س النحاس .

وفيها مات الأمير فخر الدين عثمان بن قزل ، أستادار الملك الكامل ، [و] صاحب المدرسة الفخرية بالقاهرة ، فى ثامن عشر ذى الحجة ، بحران .

وفيها بعث الملك المنصور عمر بن على بن رسول ، صاحب اليمن ، [عسكرا إلى مكة[١]] ، فيه الشريف راجح بن قتادة ، فملكها من الأمير شجاع الدين طغتكين ، نائب الملك الكامل ، فى ربيع الآخر . وفرّ [شجاع الدين] إلى نَخْلَة[٢] ، ثم إلى ينبع ، وكتب يعلم الملك الكامل بذلك . فبعث إليه [الكامل] عسكرا سار بهم إلى مكة ، فقدموها[٣] فى شهر رمضان ، وملكوها بعد ما قتلوا جماعة ، وكان مقدّم العسكر الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ .

* * *

سنة ثلاثين وستمائة . فيها أنعم الكامل على ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بحصن كيفا ، وسيره[٤] إليها . وعاد [هو] إلى الديار المصرية ، ومعه الملك المسعود ، صاحب آمد . فلما وصل قلعة الجبل أفرج عنه ، وأحسن إليه ، وأعطاه إمرة بديار مصر .

و [فيها] قبض [الكامل] على جماعة من الأمراء المصرية . وفيها استولى الملك المظفر ، صاحب حماة ، على حصن بارين[٥] ، وانتزعه من أخيه (١٦٧) الناصر قلج أرسلان . فسار [قلج أرسلان] إلى خاله الكامل ، فقبض عليه ، واعتقله فى قلعة الجبل حتى مات .

وفيها جهز الملك الكامل عسكرا من الغز والعربان إلى ينبع ، من أرض الحجاز — عليهم علاء الدين آق سنقر الزاهدى . .[٦] — فى شوّال ، وعدّتهم سبعمائة . وسبب ذلك ورود الخبر

(١) ما بين القوسين محجوب بورقة ملصقة فى س ، ولكنه وارد فى ب (٧٩ ب) .

(٢) بغير ضبط فى س : وهى الرحلة الأولى للصادر عن مكة ، واسمها نخلة محمود ، تمييزا لها عن نخلة الشامية ، الواقعة على طريق اليمن ، على مسافة ليلتين من مكة ؛ وتمييزا عن نخلة اليمانية ، التى تقع على الطريق بين مكة والبصرة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٧٦٩ — ٧٧٠) . (٣) فى س فقدموا .

(٤) قصد الملك الكامل بهذا أن يبعد الصالح عن مصر ، فيخلو بذلك الجوّ له ، ولولده العادل ، ولىّ العهد من بعده . انظر (Blochet : Op. cit. p. 893. N. I.) .

(٥) فى س بغرين . (٦) بياض فى س .

بمسير الشريف راجح من اليمن بعسكر إلى مكة ، وأنه قدمها فى صفر ، وأخرج من بها من المصريين بغير قتال . فقدم الزاهدى فى الموسم ، وتسلم مكة ، وحج بالناس ، وترك بمكة ابن مَحَلِّى[1] ، ومعه خمسون فارسا ، ورجع إلى مصر .

وفيها توفى الفخر سليمان بن محمود بن أبى غالب الدمشقى ، كاتب الإنشاء[2] . فاستحضر الملك الكامل ناسخا يقال له الأمين الحلبى ، كان عند الأمير عز الدين أيبك — أستادار الملك

---

(١) فى س مجلى ، وبغير ضبط ، وهو مترجم إلى (Ibu Mahalla) فى (Blochet: Op. cit. P. 394) . انظر الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ص ٥٠) ، وكذلك الترجمة الإنجليزية للمرجع نفسه ، (Vol. I. P. 97) .

(٢) يوجد فى (Blochet : Op. cit. p. 395. N. I.) ثبت لأسماء أصحاب ديوان الإنشاء بمصر ، من عهد الخليفة العزيز بن المعز الفاطمى ، (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ) ، إلى حكم سلطان الأشرف إينال ، (٨٥٧ — ٨٦٥ هـ) ، أحد سلاطين دولة المماليك البرجية . وقد كان لديوان الإنشاء النصيب الأكبر من عناية الذين كتبوا فى موضوع الأنظمة الحكومية المصرية فى القرون الوسطى ، وأهم الكتب التى ألفت فيه ، وأكثرها ذيوعا ، كتاب التعريف بالمصطلح الشريف ، لشهاب الدين بن محيي الدين بن فضل الله العمرى ، الذى تقلب فى ديوان الإنشاء بمصر ، فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون (٦٩٣ — ٧٤١ هـ) ، انظر (Enc. Isl. Art. Fadl Allah) ؛ وكتاب صبح الأعشى فى كتابة الإنشا ، ومؤلفه شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على بن احمد بن القلقشندى ، المتوفى بالقاهرة فى عاشر جمادى الثانية سنة ٨٢١ هـ ، راجع (Enc. Isl. kalkashandi) ؛ وكتاب القصد الرفيع النشا الهادى لصناعة الإنشا ، لبهاء الدين محمد بن لطف الله بن عبدالله بن عبيدالله العمرى الخالدى ، وقد كتبه حوالى سنة ٨٣٦ هـ ، انظر (G. - Demombynes: Op. cit. Pref. pp. V-VI.) .

أفرد القلقشندى الجزءين الأول والثانى من كتابه فى التعريف بهذا الديوان ، وتعديد الصفات والمؤهلات التى تلزم لصاحبه ، وفى بحث نشأته فى الإسلام إلى زمنه ، وسيقتصر هنا على الموضوع الأخير . يقول القلقشندى (ج ١ ، ص ٩١ — ١٠٤ ؛ ج ٣ ، ص ٤٩٠ — ٤٩٢ ؛ ج ٥ ، ص ٤٦٤ — ٤٦٥) إن هذا الديوان أول ديوان وضع فى الإسلام : وذلك أن النبى عليه السلام ، كان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه ، وقد كتب أيضا إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام ؛ وممن استكتبه عليه السلام أبا بكر الصديق وعلى بن أبى طالب . وفى الدولة الأموية كان أمر الكتابة مفوضا إلى كاتب ، وعرف متوليها بهذا الاسم . وممن اشتهر من كتاب الأمويين عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وكان فى عهد مروان ابن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين بدمشق . فلما جاءت الدولة العباسية كان ديوان الإنشاء يضاف تارة إلى الوزارة ، وتارة يعهد إلى كاتب يختص به . وفى الحالة الأولى أضيف لقب الكتابة إلى الوزارة ؛ أما فى الثانية ، حيث كان الديوان مشهورا بديوان الرسائل ، كما فى العصر العباسى الأول ، لقب متوليه بصاحب ديوان الرسائل ، أو متولى ديوان الرسائل ، وربما قيل صاحب ديوان المكاتبات ، أو متولى ديوان المكاتبات ؛ وحيث كان الديوان مشهورا بديوان الإنشاء ، لقب متوليه بصاحب ديوان الإنشاء ، وربما جمع لفظ الديوان =

المعظم — فى خدمته يكتب له . فلما حضر [الأمين] ليكتب بين يديه خلع عليه، وأعاده إلى صاحبه ، فتزهّد استحياء من الناس . و بَعَثَ الكامل إلى ميافارقين ، فأحضر الجلال بن نباتة ليستكتبه ؛ فلما حضر خلع عليه ، وأعاده ولم يستكتبه ، فاستكتبه الأشرف صاحب دمشق .

= تعظيما لمتوليه ، فيقال صاحب دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية . وممن اشتهر من وزراء العباسيين وكتابهم يحيى بن خالد البرمكى ، وابن المقفع مترجم كتاب كليلة ودمنة .

ولما كانت بلاد المغرب والأندلس الإسلامية بأيدى نوّاب الخلفاء ، لم يعن أولئك النواب بديوان الإنشاء فى ولاياتهم ، لقربهم من البداوة ، واقتصر غاية الولاة على الكتابة لديوان الخلافة . فلما هربت طائفة من بنى أمية إلى الأندلس ، وتأسست على يدهم دولة مستقلة عن الدولة العباسية ، جرى أمراؤها على سنن ما كان عليه آباؤهم بالشام من ألقاب الخلافة ، مضاهين بنى العباس ببغداد . فأقاموا شعار الخلافة ، واتخذوا ديوان الإنشاء ، واستخدموا بلغاء الكتاب . وممن اشتهر عندهم من الكتاب أبو الوليد بن زيدون ، وابن الخطيب وزير ابن الأحمر ، صاحب غرناطة .

أما ديوان الإنشاء بمصر ، فله خمسة أدوار : الدور الأول ما كان عليه الأمر من الفتح إلى بداية الدولة الطولونية (٢٠ — ٢٥٤ ﻫ) ، وفيه لم يكن لنواب الخليفة عناية بديوان الإنشاء ، لاقتصار المكاتبات على ما يلزم لأبواب الخلافة . والدور الثانى ما كان عليه الأمر فى الدولتين الطولونية والإخشيدية (٢٤٥ — ٣٠٨ ﻫ) ، وفى خلال ذلك ترتب ديوان الإنشاء بمصر ، وممن اشتهر من كتاب الطولونيين أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود بن عبدكان . والدور الثالث ما كان عليه الأمر زمن الدولة الفاطمية (٣٠٨ — ٥٦٥ﻫ) ، وفيه صرف الفاطميون مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء ، وكان يعرف صاحبه بكاتب الدست الشريف ، ووليه فى زمنهم جماعة من أكابر الكتاب ، ما بين مسلم وذمى ، مثل الحافظ الشيخ الأجل أبى الحسن على بن أسامة الحلبى ، وأبى المنصور بن سوردين النصرانى ، وابن أبى الدم اليهودى . وقد تخرج القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى فى ديوان الإنشاء الفاطمى ، فى عهد العاضد ، آخر خلفاء تلك الدولة . والدور الرابع من ابتداء الدولة الأيوبية إلى انقراضها (٥٦٥ — ٦٤٧ ﻫ) ، وفيه أسند السلطان صلاح الدين كتابة الإنشاء إلى القاضى الفاضل ، وممن تولاها أيضا فى تلك الدولة بهاء الدين زهير ، فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب . والدور الخامس ما كان عليه الأمر فى دولتى المماليك البحرية والجبلية(٦٤٧ — ٩٢٢ﻫ)، وفى أوائل هذا الدور كان صاحب ديوان الإنشاء يلقب تارة بلقبه أيام الدولة الفاطمية — وربما عبر عنه أحيانا بكاتب الدرج — ونارة وليه جماعة يعبر عنهم بكتاب الدست . وبقى الأمر على ذلك إلى أن ولى الديوان القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر ، فى أيام السلطان المنصور قلاوون ، فلقب بكاتب السر ، ونقل لقب كاتب الدست إلى طبقة دونه من كتاب الديوان ، واستمر ذلك إلى زمن القلقشندى . ومن مشاهير أصحاب ديوان الإنشاء إلى عهده محيى الدين بن فضل الله العمرى ، وهو والد شهاب الدين صاحب التعريف ، ومنهم شهاب الدين نفسه ، وأخوه بدر الدين . (انظر أيضا المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٠٢ ؛ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ٩٣ — ١٠٢ ؛ و (G. Demombynes : Op. cit. Pref. pp. V. LXVI.

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشر رمضان سلطن الملك الكامل ولده الملك العادل سيف الدين أبا بكر ، وأركبه بشعار السلطنة ، وشق به القاهرة ، وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة . وكان الكامل يحبه ، ويحب أمه حبا زائدا .

وفى ذى القعدة وصل محيى الدين يوسف بن[1] الجوزى من بغداد ، بالتقليد من [الخليفة] المستنصر [بالله] للملك الكامل .

وفيها أبطل السلطان المعاملة بالفلوس[2] ، فى القاهرة ومصر ، فتلف مال كثير للناس . وفيها مات الأمير حسام الدين مانع بن حديثة ، أمير العربان من آل فضل ، فأمّر الأشرف بعده ابنه مهنا[3] . وفيها قدم الناصر داود صاحب الكرك إلى مصر ، فنزل بدار الوزارة من القاهرة ، وركب فى خدمة عمه الملك الكامل .

وفيها مات العزيز فخر الدين عثمان بن العادل بدمشق ، يوم الاثنين عاشر رمضان . و [فيها] مات الملك المعظم مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على كوجك ، ملك إربل ، فى تاسع عشرى شعبان ، عن أربع وثمانين سنة ؛ وكان يهتم بعمل المولد النبوى فى كل سنة اهتماما زائدا . فتسلم إربل من بعده نواب الخليفة ، وصارت مضافة إلى مملكة بغداد .

* * *

سنة إحدى وثلاثين وستمائة . فيها قصد السلطان علاء الدين كيقباد بن كيخسرو السلجوقى ، صاحب بلاد الروم ، مدينة خلاط . فخرج الملك الكامل من القاهرة بعسكره ، ليلة السبت خامس شعبان ، واستناب ابنه الملك العادل . فوصل إلى دمشق ، وكتب إلى ملوك بنى أيوب يأمرهم بالتجهيز ، للمسير بعساكرهم إلى بلاد الروم .

---

(١) انظر ص ٢١٩ ، حاشية ٢ . (٢) كانت الفلوس فى مصر على نوعين ، أحدهما المطبوع بالسكة ، وثانيهما غير المطبوع . وكان الصنف الثانى عبارة عن قطع مكسرة من النحاس الأحمر ، أو الأصفر ، ويعبر عنها بالعتق . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٣ — ٤٤٤) . (٣) القبائل العربية بالشام عنصر مهم فى تاريخ تلك البلاد ، انظر (Gibb : Damascus Chronicle. Introd. pp. 17-19) وكانت ديار آل فضل ممتدة من حمص إلى جعبر ، وإلى الرحبة والبصرة ، على الفرات . وآل فضل هم الفخذ الأول من ربيعة بن حازم ، وقد نشأ ربيعة هذا فى أيام الأتابك زنكى ، وهو ينتسب إلى عيز بن سلامان .. ابن طيء بن كهلان بن قحطان . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٢٤ — ٣٢٥ ؛ ج ٤ ، ص ٢٠٣ — ٢٠٨) .

وخرج [الكامل] من دمشق ، فنزل على سلمية فى شهر رمضان ، ورتب عساكره ، وسار إلى منبج ، فقدم عليه عسكر حلب ، وغيره من العساكر فسار وقد صار معه ستة عشر دهليزا[١] ، لستة عشر ملكا — وقيل بل كانوا ثمانية عشر ملكا . فعرضهم [الكامل] على البيرة أطلابا[٢] بأسلحتهم ، فلكثرة ما أعجب بنفسه قال : " هذه العساكر لم تجتمع لأحد من ملوك الإسلام " . وأمر بها فسارت شيئا بعد شىء نحو الدَّرْبَنْد[٣] ، وقد جدّ السلطان علاء الدين فى حفظ طرقاته بالمقاتلة وزل الكامل على النهر[٤] الأزرق ، وهو بأول بلد الروم . ونزل عساكر الروم فيما بينه (٦٧ ب) و بين الدربند ، وأخذوا عليه رأس الدربند ، و بنوا عليه سورا يمنع العساكر من الطلوع ، وقاتلوا من أعلاه ، فقلت الأقوات عند عسكر الكامل .

واتفق — مع قلة الأقوات وامتناع الدربند — نفور ملوك بنى أيوب من الملك الكامل ، بسبب أنه حُفظ عنه أنه لما أعجبته كثرة عساكره بالبيرة ، قال لخواصه : " إن صار لنا مُلك الروم فإنا نعوض ملوك الشام والشرق مملكة الروم ، بدل ما بأيديهم ؛ ونجعل الشام والشرق مضافا إلى ملك مصر " . فحذر من ذلك المجاهد صاحب حمص ، وأعلم به الأشرف موسى صاحب دمشق . فأوجس فى نفسه خيفة موسى ، وأحضر بنى عمه وأقاربه من الملوك ،

(١) الدهليز هنا الخيمة ، التى ترافق السلطان فى الحرب وتختلف عن غيرها — من الخيم والدهاليز الكبيرة ، التى تقام للسلاطين فى الصيد والتنزه — بكونها خيمة قائمة بذاتها ، ليس بجوانبها خيم صغيرة ، كالتى تقام عادة لتجهيز حاجات السلطان فى أيام السلم . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٢) جمع طُلْب ، وهو لفظ كردى ، معناه الأمير الذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال ، ويطلق أيضا على قائد المائة أو السبعين . وكان أول ما استعمل هذا اللفظ بمصر والشام أيام السلطان صلاح الدين ، ثم عدل مدلوله ، فأصبح يطلق على الكتيبة (battaillon) من الجيش (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) بغير ضبط فى س . وليس المراد هنا بلدة الدربند ، المسماة أيضا باب الأبواب ، والواقعة على الشاطىء الغربى لبحر قزوين ، شمالى باكو ، وقبالة تفليس (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٦٤ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٦٤) . إنما هى لفظ فارسى ، معناه فى الأصل سنبلة من حديد ، يقفل بها باب الدكان ، ويقال لها دروند أيضا . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . ثم استعملت كما هنا ، بمعنى المضايق والطرقات ، (محيط المحيط) ، وأراد المقريزى بها المعابر الضيقة ، الواقعة شمالى البيرة والنهر الأزرق . (انظر الحاشية التالية) .

(٤) أحد نهيرات الفرات الأعلى ، ويجرى بين بهسنا وحصن منصور . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٨٣) .

وأعلمهم ذلك . فاتفقوا على الملك الكامل ، وكتبوا إلى السلطان علاء الدين بالميل معه وخذلان الكامل وسيّروا الكتب [بذلك] ، فاتفق وقوعها في يد الملك الكامل ، فكتمها ورحل راجعا .

فأخذ [السلطان علاء الدين كيقباد] ، ملك الروم ، قلعة خَرْتَبِرْت[١] ، وست قلاع أخر كانت مع الملوك الأرتقية ، فى ذى القعدة . فاشتد حنق[٢] [الملك الكامل] ، لما حصل على أمرائه وعساكره من صاحب الروم فى قلاع خرتبرت ؛ ونسب ذلك إلى أهله من الملوك ، فتنكر مابينه وبينهم .

وفيها مات الملك المفضل قطب الدين موسى بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فى ذى الحجة . وفيها بعث المنصور [عمر بن على بن رسول] ، ملك اليمن ، عسكرا وخزانة مال إلى الشريف راجح [بن قتادة[٣]] ، فأخرج من بمكة من المصريين .

وفيها حضر أبو عبد الله محمد بن عمر القرطبي سَمَاعًا ، بزقاق الطباخ[٤] بمدينة مصر ، فى أوّل يوم من شهر رجب ؛ و[كان] هناك الشيخ أبو عبد الله القرشى[٥] ، وأبو عباس القسطلانى ، وجماعة [غيرهما] . فلما أنشد القوّال صفّق أبو يوسف الدهمانى بيديه ، وارتفع عن الأرض متربعا ، إلى أن بلغ إلى أنبِدَارِيَة[٦] المجلس ، ودار ثلاث دورات ، ثم نزل إلى مكانه . فقام الشيخ القرطبي ، وقدّر ارتفاع الأنبدارية ، فكان أطول من قامته رافعا يديه .

---

(١) فى س خربرت ، فى الموضعين (سطر ٦) ، بغير ضبط ، وإسقاط التاء الوسطى هكذا جاء فى الشعر . وهو اسم أرمنى ، يطلق على حصن زياد ، من بلاد الروم ، فى أقصى ديار بكر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤١٩) .

(٢) فى س حنقه . (٣) انظر الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص٤٩ — ٥٠ ، ٥٤ — ٥٥ ، ٦١ — ٦٢) لمراجعة تفاصيل محاولات ابن رسول نحو مكة . (٤) ليس بالمواعظ والاعتبار للمقريزى ذكر لهذا الزقاق ، فى باب أزقة القاهرة ومصر ، غير أنه يوجد جامع الطباخ (نفس المرجع : ج ٢ ، ص ٣١٥) ، وقد جدده الحاج على الطباخ ، قبيل سنة ٧٤٦ هـ ، وموقع هذا الجامع بخط باب اللوق ، بجوار بركة الشقاف .

(٥) فى س القرسى . (٦) مضبوطة على منطوقها فى (Blochet : Op. cit. P. 404. N. 1.) ، حيث هى مترجمة إلى (lambris) ، أى السقف .

* * *

سنة اثنتين وثلاثين وستمائة. فيها عاد الملك الكامل إلى قلعة الجبل من بلاد الشرق — فى جمادى الأولى — ، وقد توحش ما بينه و بين أخيه الأشرف، صاحب دمشق، وغيره من الملوك. فقبض [الكامل] على المسعود صاحب آمد، واعتقله فى برج هو وأهله، يوم الاثنين سادس عشر جمادى الأولى، لمالأته لهم. فملك صاحب الروم الرها وحران بالسيف، وعاد إلى بلاده، بعد ما استولى على ما كان بهما من الأموال. فلما بلغ الكامل ذلك أمر العساكر أن تتجهز للسير إلى الشرق، وأقطع ابن الأمير صلاح الدين الإربلى صَنَافير[1] بالقليوبية، وجعل أقارب والده ومماليكه معه، وعدّتهم سبعة عشر رجلا.

وفيها بعث ابن رسول إلى الشريف راجح [بن قتادة] بخزانة مال، ليستخدم عسكرا. فلم يتمكن من ذلك، لأنه بلغه أن السلطان الملك الكامل بعث الأمير أسد الدين جَغْرِيل[2]، أحد المماليك الكاملية، إلى مكة بسبعمائة فارس. [وحضر جغريل إلى مكة]، ففر منه الشريف راجح بن قتادة إلى اليمن، وملك [جغريل مكة[3]] فى شهر رمضان، وأقام العسكر بها.

وفيها مات الملك الزاهر أبو سليمان مجير الدين داود بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب البيرة، فى سابع صفر. فاستولى العزيز، صاحب حلب، عليها من بعده. و [فيها] مات (١٦٨ ا) الأمير شمس الدين صواب، الطواشى الكاملى، بحران فى أواخر شهر رمضان.

* * *

سنة ثلاث وثلاثين وستمائة. فيها استمرّ وباء كثير بمصر مدّة ثلاثة أشهر، فمات بالقاهرة ومصر خلق كثير، بلغت عدّتهم زيادة على اثنى عشر ألفا، سوى من مات بالريف.

---

(١) بغير ضبط فى س، وهى بمركز قليوب، غربى ناحية بهادة، وشمالى كفر الحارث. واليها ينتسب الشيخ يحيى بن على الصنافيرى، المتوفى سنة ٧٧٢هـ (على مبارك: الخطط التوفيقية، ج١٣، ص ٢٤ — ٢٦). هذا وبالقاهرة الحالية طريق اسمه شارع الصنافيرى. (٢) فى س جغريل، وبغير ضبط؛ وفى القلقشندى (صبح الأعشى، ج٤، ص٢٧٣) جبريل؛ وفى الخزرجى (العقود اللؤلؤية، ج١، ص ٥٥) جبرئيل. انظر (Blochet : Op. cit. P. 405. N. 2.). (٣) فى س "وملكها فى شهر رمضان"، وقد أضيف ما بين الأقواس، بعد مراجعة الخزرجى (نفس المرجع والجزء والصفحة).

وفيها سار التتر إلى جهة الموصل ، فقتلوا ونهبوا وسبوا ، وفيها سار الناصر داود ، صاحب الكرك ، إلى الخليفة [المستنصر بالله] ، خوفا من عمه الملك الكامل ، فإنه كان قد ألزمه حتى طلق ابنة الكامل ، فخشى أن ينتزع منه الكرك . فوصل إلى بغداد ، فأكرمه الخليفة ، ومنعه من الاجتماع به ، رعاية للملك الكامل . ثم اجتمع به سرا ، وخلع عليه ، وبعث معه رسولا مُشَرْبَشًا[1] من خواصه إلى الكامل ، يشفع فيه . فلما وصل [الرسول] إلى الكامل تلقاه ، وقبل الشفاعة

وفيها سار الملك الكامل من القاهرة بعساكره يريد بلاد الشرق ، فنازل الرها حتى أخذها ، يوم الأربعاء ثالث عشر جمادى الأولى ؛ وأسر منها زيادة على ثمانمائة من الأمراء ، وهدم قلعتها . ونازل حران ، وأخذها بعد حصار وقتال ، فى رابع عشر جمادى[2] الآخر ؛ وأسر من كان بها من أجناد السلطان علاء الدين ، وأمرائه ومُقَدَّميه الصُّوبَاشِيَّة[3] ، وكانوا سبعمائة وخمسة وعشرين رجلا ، فمات كثير منهم فى الطرقات . ثم نزل [الكامل] على دُنَيْسر[4] ، وخربها . فورد عليه الخبر بأن التتر قد وصلوا إلى سنجار ، فى مائة طُلْب ، كل طُلْب خمسمائة فارس . وأخذ [الكامل] قلعة السُّوَيْداء عنوة ، وأسر من بها فى سابع عشر جمادى [الآخر] ، وهدمها ؛ وأخذ[6] قَطِينا ، وأسر من بها فى رجب . وفى تاسع عشره بعث [الكامل] جميع الأسرى إلى ديار مصر ، وعدتهم تزيد على الثلاثة آلاف ، وعاد إلى دمشق ، وسلم الشرق لابنه الملك الصالح [أيوب] .

---

(١) الشربوش قلنسوة طويلة أعجمية ، (محيط المحيط) ، وتلبس بدل العمامة ، وكانت شارة للأمراء ، فلا يلبسها رجال العلم ، كالقضاة والكتاب وغيرهم . وقد ألغى استعمالها بمصر زمن المماليك البرجية . (Dozy : Supp. Dict. Ar) (٢) فى س "ربيع" ، وهفوة المقريزى هنا ظاهرة . (٣) فى س السوباسية ، بغير ضبط . والصوباشى لفظ فارسى ، معناه "الوكيل فى الضيعة ، من قبل صاحبها ؛ وفى اصطلاح أرباب السياسة الأمين الذى تحبس النساء فى بيته". والعامة تقول الشوباصى ، (محيط المحيط ؛ و Dozy: Supp. Dict. Ar.) ، ولعل رسم المقريزى نطق عامى آخر . (٤) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة كبيرة من نواحى الجزيرة ، بينها وبين ماردين فرسخان ، ويقال لها قوج حصار . (ياقوت معجم البلدان ، ج٢ ، ص٦١٢).

(٥) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة قرب حران . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٩٧) .

(٦) بغير ضبط فى س ، أو فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٩٠٢) ، وهى بلدة على نهر الزاب الأعلى ، شمالى الموصل . انظر (Blochet : Op cit. p, 408) .

وفيها هدمت دنيسر ، وعدة بلاد كثيرة من بلاد صاحب ماردين . وفيها خرج عسكر الروم ، بعد عود الكامل ، وحاصر آمد وأخرب دارا[١] ، فى خامس ذى القعدة .

وفيها استولى الفرنج على مدينة قرطبة بالأندلس . وفيها قُدِّم أنبا كيراس داود بن لقلق بطركا على الإسكندرية لليعاقبة[٢] ، فى يوم الأحد ثالث عشرى بؤونة ، سنة إحدى وخمسين وتسعمائة للشهداء ، الموافق لتاسع عشرى رمضان فأقام [فى البطركية] ، سبع سنين وتسعة أشهر وعشرة أعوام ؛ وكان عالما ، محبا للرياسة ، وجَمْع المال ، وأَخْذ الشرطونية . وكانت أرض مصر قد خلت من الأساقفة ، [قبيل اعتلائه كرسى[٣] البطركية] ، فقدّم جماعة من الأساقفة بمال كبير . ومرّت به شدائد كثيرة ، فإن الراهب عماد[٤] المرشار كان قد سعى فى ولايته البطركية ، وشرط عليه ألا يقدّم أسقفا إلا برأيه ، فلم يف له ، ولا التفت إليه . فانحرف عنه ورافعه ، فوكل عليه وعلى عدّة من أقاربه وألزامه وقام أيضا عليه الشيخ السنَى[٥] بن التعبان الراهب وعانده وذكر مثالبه ، وأنه إنما تقدم بالرشوة ، وأنه أخذ الشرطونية ، فلا تصح له كهنوتية ، على حكم القوانين . ومال معه جماعة ، وعقدوا له مجلسا بحضور الصاحب (٦٨ ب) معين الدين ابن شيخ الشيوخ ؛ فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأثبتوا عليه أمورا شُنْعَة ، وعزموا على خلعه . فقام معه الكتاب المستوفون بديار مصر ، وتحدّثوا مع الصاحب معين الدين ، فقرر مالا حمله [البطريك] إلى السلطان[٦] ، واستمر [أنبا كيراس] على بطركيته حتى مات ، يوم

---

(١) بلدة فى لحف جبل ، بين نصيبين وماردين . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥١٦ — ٥١٧) .

(٢) انظر ص ١٨٣ — ١٨٤ . (٣) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة (Butcher : Op cit, II, p, 139.) (٤) كذا فى س ، بغير ضبط ، وفى (Ibid:Op. cit, II, P, 142,) ، راهب اسمه (Hamid) ، وكان زعيم الثورة ضد البطريق . وقد يكون لفظ المرشار تعريبا لاسم دير (Macarius) بوادى النطرون ، وهو أحد الأديرة الكبيرة بمصر ، فى القرون الوسطى ، وعماد هذا — أو حامد — راهبا به . وكان الدير تابعا للبطريك مباشرة ، فلعل طمعه فى أموال الدير أحفظ الراهب عماد — أو حامد — وأثاره ، على الوجه المذكور بالمتن . (Ibid : Op. cit, II, P, 140,) (٥) مضبوط هكذا فى س . ولعله سنى الدولة . انظر (Blochet : Op. cit. P. 409) .

(٦) تفاصيل هذه الحوادث موجودة فى (Bntcher : Op. cit. II. pp. 140-151.) .

الثلاثاء رابع عشر برمهات ، سنة تسعمائة وتسع وخمسين للشهداء ، الموافق لسابع رمضان سنة أربعين وستمائة ؛ وخلا الكرسى بعده سبع سنين وستة أشهر وستة وعشرين يوما .

وفيها بعث الملك المنصور عمر بن علىّ بن رسول ، ملك اليمن ، عسكرا إلى مكة ، مع الشهاب بن عبد الله ، ومعه خزانة مال ، فقاتله المصريون وأسروه ، وحملوه إلى القاهرة مقيدا .

* * *

سنة أربع وثلاثين وستمائة . فيها سار الملك الكامل من دمشق يريد القاهرة ، فوصل إليها ، وصعد قلعة الجبل فى ... ...[1] ثم خرج إلى دمياط ، فقدم عليه محيى الدين يوسف بن الجوزى رسولا من الخليفة ، وهو بها . وسافر [محيى الدين ؟] إلى [السلطان علاء الدين كيقباد بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان[2]] ، صاحب الروم ، ومعه الحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى ، رسولا من جهة الملك الكامل .

وفيها مات الملك العزيز غياث الدين محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، صاحب حلب ، يوم الأربعاء رابع عشرى شهر ربيع الأول ، عن ثلاث وعشرين سنة وأشهر وقام من بعده ابنه الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف ، وعمره نحو السبع سنين . وقام بتدبير أمره الأميران لؤلؤ الأمينى ، وعز الدين عمر بن مُحَلِّى[3] ، وبينهما وزير الدولة جمال الدين الأكرم ، يراجع الستر الرفيع ضيفة خاتون ابنة الملك العادل ، على لسان جمال الدولة إقبال . وحضر الأمير بدر الدين بدر بن أبى الهيجاء ، وزين الدين قاضى حلب ، إلى الملك الكامل ، بزردية العزيز وكُزَاغَنْده[4] ، وخوذته ومركوبه . فأظهر [الكامل] الألم لموته ، وقصّر فى إكرامهما ؛ وحلف للناصر ، وشرط أشياء ، وأعاد الرسولين . ثم أرسل خلعة للناصر بغير مركوب ، ومعها عدّة خلع للأمراء الحلبيين ، وخلعة للصالح

---

(١) بياض فى س . (٢) انظر الصفحة التالية ، (سطر ١٢) .

(٣) فى س محلى ، بغير ضبط ، وقد تقدم مثل هذا الاسم ، (ص ٢٤٥ ، سطر ٣) ، وصحح هناك كما هنا بالمتن . انظر أيضا (Blochet : Op. cit. P. 411.) .

(٤) الكزاغند المعطف القصير ، يلبس فوق الزردية ، ويصنع من القطن — أو الحرير — المبطن المنجد (rembourrée et Piquée) ، والجمع كزاغنديات . وهو لفظ فارسى (محيط المحيط ، (Dozy : Supp.Dict. Ar. ويقابله فى الإنجليزية لفظ (Surcoat) ، انظر (Scott : Talisman. P. 8) ، وفى الفرنسية (Jacquette) .

صلاح الدين أحمد بن الظاهر غازى ، صاحب عينتاب فاستوحشت أم الظاهر من أخيها الكامل ، ولم توافق على لبس أحد من الأمراء الخلع . فلبس الناصر وحده خلعة الكامل ، وردَّ الرَّسول الوارد إلى الصالح [صلاح الدين] بخلعته .

وفيها تنكر الأشرف ، صاحب دمشق ، على الملك الكامل ؛ وراسل أهل حلب ، فوافقوه على منع الكامل من بلاد الشام ، ومكاتبة السلطان علاء الدين ، صاحب الروم ، ليكون معهم . فانتظمت كلمة ملوك الشام على مخالفة الملك الكامل ، فانزعج الملك الكامل ، وعزَّ ذلك عليه . وكان حين بلغه الخبر بالإسكندرية ، فخرج منها ليلا ، وسار إلى قلعة الجبل ، وشرع فى تدبير أمره

فاتفق موت السلطان علاء الدين كيقباد[1] بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان ، ملك الروم ، وقيام ولده غياث الدين كيخسرو بن [علاء الدين] كيقباد من بعده ، فى سابع شوّال ، قبل اجتماعه بالحافظ زكى الدين عبد العظيم [المنذرى[2]] ، رسول السلطان . (٦٩ ا) فبعث ملوك الشام رسلهم إلى السلطان غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين كيقباد[3] بن كيخسرو بن قلج بن أرسلان السلجوقى ، صاحب الروم ، يعزّونه فى أبيه ، ويحلّفونه على ما اتفقوا عليه من مخالفة الملك الكامل . وسير الكامل أفضل الدين محمد الخونجى يعزى غياث الدين بأبيه ، ومعه ذهب برسم الصدقة عنه ، وثياب أطلس برسم أغشية القبر . وفيها كان الوباء أشدّ من السنة الماضية . وفيها ضرب الملك الكامل الفلوس .

وفيها بعث [الملك الكامل] القاضى الأشرف بن [القاضى] الفاضل إلى الملك الناصر داود ، صاحب الكرك ، يدعوه إلى موافقته فرحل[4] [الملك الناصر] إلى القاهرة ، مع القاضى الأشرف ،

---

(١) عبارة س كالآتى : "فاتفق موت السلطان علا الدين وقيام ولده من بعده ..."، وقبالتها هامش نصه : "كى قباذ (كذا) بن غياث الدين كيخسرو قلج ارسلان ملك الروم ، وملك بعده ابنه غياث الدين كيخسرو بن كى قباذ". وقد أدمج هذا الهامش على النحو الوارد بالمتن . (٢) انظر ص٢٥٣ (سطر ١٠) .

(٣) فى س كيقباذ . (٤) معظم عبارة المقريزى ، من هنا إلى آخر أخبار هذه السنة ، مشابهة فى أسلوبها وألفاظها ، لما فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١١٢ — ١١٣ ، فى Rec. Hist. Or. 1) . وقد أضيف ما بين الأقواس من ذلك المرجع .

فسر الكامل بقدومه ، وركب إلى لقائه ، وأنزله بدار الوزارة وقدّم له أشياء كثيرة ، وخلَع عليه . وقلّده [الكامل] دمشق ، وأمَر من عنده من الأمراء والملوك الأيوبية ، فحملوا الغاشية بين يديه بالنوبة ، فكان أول من حملها الملك العادل أبو بكر بن الكامل ، ثم البقية واحداً بعد واحد ، إلى أن صعد قلعة الجبل . وجدّد [الناصر] عقده على مطلقته عاشوراء خاتون ابنة الكامل ، فى تاسع عشر ذى الحجة . فلما بلغ الأشرف ذلك أوقع الحوطة على نابلس ، وأخذ ما كان فيها للناصر داود .

و [فيها] سير الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، صاحب حصن كيفا ، يستأذن أباه فى استخدام من خالف [السلطان غياث الدين كيخسرو] ، صاحب الروم ، من الخوارزمية . فأذن له فى ذلك ، واستخدمهم عنده بالبلاد الجزرية ، فتقوّى بهم .

وفيها استولى التتار على إربل ، وقتلوا كل من فيها ، وسبوا ونهبوا ، حتى نتنت من كثرة القتلى ؛ ثم رحلوا عنها .

وفيها قدم من جهة ملوك الشام إلى الملك الكامل رسول ، فبلّغه عنهم أنهم قالوا : "إنا اتفقت كلمتنا عليك ، فلا تخرج من مصر إلى الشام ، واحلف لنا على ذلك" . فاتفق مرض الأشرف بالذَّرَب[1] ، فكان لا يستقر بباطنه طعام ألبتة ، حتى انقضت السنة وهو مريض ، من شهر رجب .

وفيها قدم عسكر من اليمن إلى مكة ، فحاربهم الأمير أسد الدين جغرل[2] ، وكسرهم . فقدم الملك المنصور عمر بن رسول ، وملك مكة بغير قتال ، وتصدّق بمال ، وترك بها جماعة . فقدم الشريف شيحة[3] بن قاسم ، أمير المدينة ، وملك مكة منهم ، ونهبهم ، ولم يقتل أحداً .

---

(١) فى س بالدرب . والذرب عند الأطباء مرض استطلاق البطن المتصل ، والفرق بينه وبين الهيضة أن الذرب لا يكون معه قىء ، وهو من الأمراض المزمنة . أما الهيضة فيكون معها قىء ، وهى من الأمراض الحادة . (محيط المحيط) .

(٢) كذا فى س ، وبغير ضبط . انظر ص ٢٥٠ ، حاشية ٢ .

(٣) فى س شحة . انظر (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٠٠) .

***

سنة خمس وثلاثين وستمائة. فيها مات الأشرف موسى بن العادل أبي بكر ابن أيوب، صاحب دمشق بها، يوم الخميس رابع المحرّم؛ وعمره نحو من ستين سنة؛ ومدّة ملكه بدمشق ثماني سنين وأشهر. ولم يترك سوى ابنة، [تزوجها الملك الجواد يونس[1] بن مودود بن الملك العادل]. فقام من بعده بدمشق أخوه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، صاحب بصرى، بعهد من أخيه[2] له. فاستولى [الملك الصالح عماد الدين] على دمشق وبعلبك؛ وبعث ابنه الملك المنصور محمودا[3] إلى الشرق، ليتسلم سنجار ونصيبين والخابُور من نواب الأشرف؛ وبعث إلى المجاهد صاحب حمص، وإلى المظفر صاحب حماة، وإلى الحلبيين [أيضا]، ليحلفوا له ويتفقوا معه — على القاعدة التي تقررت بينهم (٦٩ ب) وبين الأشرف — على مخالفة الكامل. فأجابوا إلا صاحب حماة، فإنه مال مع الكامل، وبعث إليه يعلمه بميله إليه؛ فسر الكامل بذلك. ثم إن [الملك] الصالح [عماد الدين] صادر جماعة من الدماشقة، الذين قيل عنهم إنهم مع الملك الكامل، منهم العلم[5] تعاسيف، وأولاد مزهر؛ وحبسهم في بصرى.

فتجهز الكامل، وخرج من قلعة الجبل بعساكره، بكرة يوم الخميس ثالث عشرى صفر، واستناب على مصر ابنه الملك العادل. وأخذ معه الناصر داود، وهو لا يشك أن[6] الملك الكامل يسلم إليه دمشق، لما كان قد تقرّر بينهما[7]. فكاتب [الكامل[8]] نائب قلعة عجلون

---

(١) أضيف مابين القوسين من أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر، ص ١١٣، في Rec. Hist. Or. I.). (٢) قبالة هذه العبارة، بالهامش في س، فقرة بعماها تقريبا، ونصها: "واستحلف بعده اخاه الملك الصالح عماد الدين اسمعيل، وحلف له الامرا، واركبه في حياته بالسنجق". (٣) في س محمود.

(٤) بغير ضبط في س، والخابور اسم لنهر كبير، منبعه عند رأس عين، ومصبه في الفرات، بعد أن يلتقي بنهر نصيبين وغيره. وتقع على نهر الخابور بلدان جمة، غلب على كثير منها اسمه، (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٨٣)، فيكون البلد الوارد بالمتن أحدها. (٥) أي علم الدين. انظر ص ٢٣٢، سطر ٣. (٦)، (٧) العبارة بين الرقين، منقولة بنصها من أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر، ص ١١٣، في Rec. Hist. Or. I.)، وقد وضعت بدل ماورد في السلوك، لوضوحها عنه، وهذا نصه: "... وهو لا يشك أنه يتسلم دمشق لما تقرر". (٨) في س: "فكاتب نائب قلعة عجلون، حتى سلمها. ونزل الكامل على دمشق، بمسجد القدم". انظر (Blochet: Op. cit. p. 417. N. 2.).

حتى سلمها . ونزل على دمشق بمسجد القدم ، فى ثالث عشرى ربيع الاوّل ، وقد تحصنت وأتتها النجدات ، فحاصرها وقطع عنها المياه ، وضايقها حتى غلت بها الأسعار ، وأحرق العُقَيْبَة[1] والطَّوَاحِين[2] ، وألح على أهلها بالقتال . وكان الوقت شتاء ، فأذعن الصالح [إسماعيل] ، وسلم دمشق لأخيه الكامل ، فعوضه عنها بعلبك والبقاع ، وبصرى والسواد . وكان السفير بينهما الصاحب محيى الدين أبو المظفر يوسف بن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى ، رسول الخليفة ، الوارد ليوقع الصلح بين ملوك بنى أيوب .

فتسلم الكامل دمشق فى عاشر جمادى الأولى ، وسار الصالح [إسماعيل] إلى بعلبك ، لإحدى عشرة بقيت من جمادى الأولى . فنزل الملك الكامل بالقلعة ، وأمر بنصب الدهليز بظاهر دمشق ، وسير المظفر صاحب حماة إلى حمص ، وأطلق الفلك[3] المسيرى من سجن قلعة دمشق — وكان قد سجنه الملك الأشرف — ، ونقل الأشرف إلى تربته .

وأمر [الكامل] فى يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة ألا يصلى أحد من أئمة الجامع المغربَ ، سوى الإمام الكبير فقط ، لأنه كان يقع بصلاتهم تشويش كبير على المصلين .

وورد الخبر باستيلاء الصالح [نجم الدين[4] أيوب] بن الكامل على سنجار ونصيبين والخابور . وقَدِم رسول الخليفة بمالٍ إلى الملك الكامل ، ليستخدم به عسكراً للخليفة ، فإنه بلغه توجه التتر إلى بغداد . فقام الملك الكامل لما سُلِّمَ إليه كتاب الخليفة ، ووضعه على رأسه ؛ وكان جملة ما حضر من المال مائة ألف دينار مصرية . فأمر الملك الكامل أن يُخَرَج من بيت المال مائتا ألف دينار ، ليستخدم بها العساكر ؛ وأن يُجَرَّد من عساكر

---

(١) بغير ضبط فى س ، وتسمى أيضاً العَقِيْبَة ، وهى قرية من ضواحى دمشق . : G.—Demombynes ; Op. cit. pp. 26, 36.) ؛ وياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٥٧) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى حسبما جاء فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٤٤) موضع قرب الرملة ، غير أن القرائن تدل على أنها موضع قرب العقيبة ، من ضواحى دمشق .

(٣) فى س الفلك . انظر (Blochet : Op. cit. P. 418.) حيث عدل هـذا الاسم ، وترجم الى (Falak-ad-Din) .

(٤) أضيف ما بين القوسين بعـد مراجعة أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ص ١١٥ ، فى Rec. Hist. Or I.)

مصر والشام عشرة آلاف ، نجدة للخليفة ؛ وأن يكون مقدّم العساكر الناصر داود ؛ وألا يُصْرَف مما حضر من المال شيء ، بل يعاد بكماله إلى خزانة الخليفة . فتولى استخدام الأجناد الأميران ركن الدين الهيجاوى ، وعماد الدين ابن موسك ، وأن يكونا مع الناصر [داود] فى خدمته . فاستخدم [الناصر] العسكر ؛ وسار إلى بغداد ، وهم نحو ثلاثة آلاف فارس .

وشرع الكامل يتجهز لأخذ حلب ، فخاف المجاهد صاحب حمص ، وبعث ابنه [المنصور[1] إبراهيم] فتقرّر الأمر على أن يحمل [المجاهد] كل سنة للملك الكامل ألفى ألف درهم ، فعفا عنه .

وكان منذ دخل الكامل إلى قلعة دمشق قد حدث له زكام ، فدخل فى ابتدائه إلى الحمام ، وصُبّ على رأسه الماء الحار . فاندفعت المواد إلى معدته ، فتورم وعرضت له حمى ، فنهاه الأطباء عن القىء ، وحذروه منه . فاتفق أنه تقيأ (١٧٠) لوقته ، فى آخر نهار الأربعاء حادى عشرى شهر رجب ، بقاعة الفضة من قلعة دمشق ، فدفن بها بكرة الغد ، وعمره نحو من ستين سنة ؛ وذلك بعد موت أخيه الأشرف بنحو ستة أشهر . فكانت مدّة ملكه دمشق هذه المرة أحدا[2] وسبعين يوما ؛ ومدّة مملكته بمصر ، بعد موت أبيه عشرين سنة وثلاثة وأربعين يوما — وقيل وخمسة وأربعين يوما — ، و [كانت] فى أيام أبيه نحوها . فحكم مصر قريبا من أربعين سنة ؛ ومولده فى الخامس والعشرين من ربيع الأول ، سنة ست وسبعين وخمسمائة .

وكان يحب أهل العلم ، ويؤثر مجالستهم ؛ وشغف بسماع الحديث النبوى ، وحدّث بالإجازة من أبى محمد بن برى ، وأبى القاسم البوصيرى ، وعدة من المصريين ، وغيرهم . وتقدّم عنده أبو الخطاب بن دحية ؛ وبنى له دار الحديث الكاملية[3] بالقاهرة ، وجعل عليها أوقافا .

---

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة (Lane-Poole : Saladin. Table II. in pocket) . هذا وفى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١١٤ ، فى Rec. Hist. Or. I.) أن المجاهد أرسل نساءه إلى الملك الكامل ، ليشفعن له عنده " فدخن على الملك الكامل ، فلم يلتفت إلى ذلك " .

(٢) فى س احد .

(٣) كانت تلك المدرسة ، حسبما جاء فى المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٧٥) أول بيت للحديث بالقاهرة ، وفيها يقول : " هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة ، وتعرف بدار =

وكان يناظر العلماء ، وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها ، فمن أجاب عنها قدّمه وحظى عنده . و [كانت] تبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم : كالجمال اليمنى النحوى ، والفقيه عبد الظاهر ، وابن دحية ، والأمير صلاح الدين الإربلى — وكان أحد الفضلاء — فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ، ليسامروه[1] . فنفقت العلوم والآداب عنده ، وقصده أرباب الفضائل ، فكان يطلق لمن يأتيه منهم الأرزاق الوافرة الدارّة . فمن قصده التاج بن الأرموى ، وأفضل الدين الخونجى ، والقاضى الشريف شمس الدين الأرموى ، قاضى العسكر ؛ وهؤلاء أئمة وقتهم فى المنقول والمعقول .

وكان مهيباً[2] ، حازماً سديد الآراء ، حسن التدبير لمماليكه ، عفيفاً عن الدماء . و بلغ من مهابته أن الرمل — فيما بين العريش ومصر — كان يمر فيه الواحد ، بالذهب الكثير والأحمال [من] الثياب ، من غير خوف . وسُرق مرة فيه بساط ، فأحضر [الكامل] العربان الذين يخفرون الطريق ، وألزمهم بإحضاره و إحضار سارقه . فبذلوا عوضه شيئاً كثيراً ، وهو يأبى إلا إحضار السارق ، أو إتلاف أنفسهم وأموالهم بدله ، فلم يجدوا بداً من إحضار السارق والبساط .

وكان يباشر أمور الملك بنفسه ، من غير اعتماد على وزير ولا غيره . واستوزر أولا الصاحب صفى الدين بن شكر ، ست سنين ، وانكف بصره وهو يباشر الوزارة حتى مات ،

= الحديث الكاملية ، أنشأها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى بن مروان ، فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة . وهى ثانى دار عملت للحديث ، فإن أول من بنى دارا [للحديث] على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق . ثم بنى الكامل هذه الدار ، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوى ، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية . ووقف عليها الربع الذى بجوارها ، على باب الخرنفش ، ويمتد الى الدرب المقابل للجامع الأقمر . وهذا الربع من إنشاء الملك الكامل ، وكان موضعه من جملة القصر العربى ، ثم صار موضعاً يسكنه القماحون . وكان موضع المدرسة سوقا للرقيق ، وداراً تعرف بابن كستول . وأول من ولى تدريس الكاملية الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسن بن على بن دحية ، ثم أخوه أبو عمرو عثمان بن الحسن بن على بن دحية ، ثم الحافظ عبد العظيم المنذرى ، ثم الرشيد العطار . وما برحت بيد أعيان الفقهاء ، إلى أن كانت الحوادث والمحن ، منذ سنة ست وثمانمائة ، فتلاشت كما تلاشى غيرها ، وولى تدريسها صبى ، لا يشارك الأناسى إلا بالصورة ، ولا يمتاز عن البهيمة إلا بالمنطق ؛ واستمر فيها دهراً لايدرس بها ، حتى نسيت ، أو كادت تنسى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله " .

(١) فى س ليسامرونه . (٢) فى س مهابا .

وكان الأمير فخر الدين عثمان الأستادار يتردد إليه فى الأشغال . فلما مات الصاحب [صفى الدين] لم يستوزر [الكامل بعده أحداً ، بل كان يستنهض من يختار فى تدبير الأشغال (٧٠ ب) : فأقام[1] معين الدين بن شيخ الشيوخ مدّة ، وسماه نائب الوزارة ؛ ومرة أقام تاج الدين يوسف بن الصاحب صفى الدين ، ومرة جمال الدين بن البورى . وصار يباشر أمور الدولة بنفسه ، ويُحْضِر عنده الدواوين ، فيحاققهم ويحاسبهم . وإذا ابتدأت زيادة النيل خرج بنفسه وكشف الجسور ، ورتّب فى كل جسر من الأمراء من يتولاه ، ويجمع الرجال لعمله . ثم يشرف على الجسور بعد ذلك ، فمتى اختل جسر عاقب متواليه أشدّ العقوبة ؛ فعمرت أرض مصر فى أيامه عمارة زائدة .

وأخرج [الكامل] من زكوات الأموال ، التى كانت تُجْبَى ، سهمى الفقراء والمساكين ، وجعلهما مصروفين فى مصارفهما ، ورتب عليهما جامكيات الفقهاء والفقراء والصلحاء . و[كان] يجعل فى كل ليلة جمعة مجلساً لأهل العلم عنده ، ويجلس معهم المباحثة . وكان كثير السياسة ، وأقام [فى] كل[2] طريق خفراء تحفظ المسافرين . إلا أنه كان مُغْرًى بجمع المال ، مجتهداً فى تحصيله : وأحدث فى البلاد حوادث سماها الحقوق ، لم تكن فى أيام من تقدمه وله شعر ، منه قوله :

إذا تحققتمُ ما عنــد صاحبكم من الغرام فذاك القدر يكفيه
أنتم سكنتم فؤادى وهو منزلكم وصاحب البيت أدرى بالذى فيه

وفيه يقول البهاء زهير بن محمد ، من قصيدة عند فتح دمياط : —

هو الكامل المولى الذى إن ذكرته فيا طرب الدنيا ويا فرح العصر
به ارتُجعت دمياط قهرا من العدى وطهّرها بالسيف والملــة الطهر
لك الله من ملك إذا جاد أو سطا فناهيك من عرف وناهيك من نكر
يقصّر عنه المدح من كل مادح ولو جاء بالشمس المنيرة والبــدر

(١) فى س « واقام » .
(٢) هذا اللفظ مكرر فى س .

وكان أولاد الشيخ صدر الدين بن حمويه هم أكابر دولته وأعيانها ، وهم الأمير فخر الدين يوسف ، وعماد الدين عمر ، وكمال الدين أحمد ، ومعين الدين حسن . وكان فخر الدين [قد] ترك لبس العمامة ، ولبس الشربوش والقباء ، ونادم السلطان . وكان فاضلا أديبا ، يشارك فى فنون ، وإخوته لهم فضائل ، وإليهم مشيخة الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء ، وتدريس المدرسة[1] الناصرية ، بجوار قبر الشافعى من القرافة ، وتدريس المشهد الحسينى بالقاهرة . وما منهم إلا من تقدّم على الجيوش ، وباشر الحرب . وأرضعت أمهم — [وهى] ابنة القاضى شهاب الدين ابن عصرون — الملك الكامل ، فصاروا إخوته من الرضاع .

فلما مات السلطان [الكامل] اتفق أولاد الشيخ ، والأمير سيف الدين على بن قليج ، وأخوه الأمير عماد الدين ، والملك الناصر داود ، وأرباب الدولة ، على تحليف الأجناد للملك العادل أبى بكر بن الملك الكامل — وهو يومئذ بخلف أباه بقلعة الجبل — على ديار مصر ؛ وأن يُرَتَّب الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل أبى بكر بن أيوب ، فى نيابة دمشق . وكتموا ذلك [الأمر الثانى] عن الناصر داود ، وحلفوا [على ذلك] فى يوم الخميس ثانى عشرى رجب وبعثوا الأمير نور الدين علىّ بن (١٧١) الأمير فخر الدين عثمان الأستادار إلى الناصر داود ، فأخرجه من دمشق إلى الكرك ، واستقر الجواد بدمشق ، نائبا لابن عمه الملك العادل . وسار العسكر من دمشق إلى مصر ، وتأخر بدمشق أمراء [عدة] — فى جمع من عسكر مصر ومماليك الأشرف — لحفظها ، ومقدّمهم عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ . فبذل الجواد الأموال ، وطمع فى الاستبداد بملك دمشق ، وألزم الخطيب بذكره فى الخطبة بعد العادل .

---

(١) المدرسة الناصرية أول مدرسة بديار مصر ، أنشأها السلطان الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبى ، سنة ٥٦٦ هـ برسم الفقهاء الشافعية ، وكان حينئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العاضد الفاطمى ، وأول من ولى التدريس بها ابن زين التجار ، فعرفت به . ثم عرفت بالمدرسة الشريفية ، نسبة إلى الشريف القاضى شمس الدين الأرموى ، قاضى العسكر ، وكان قد درس بها أيضاً . واشتهرت بهذه التسمية الثانية إلى زمن المقريزى ، أى حتى القرن التاسع الهجرى . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٤٥ — ٣٤٦) .

كَمُلَ طبع القسم الأول من الجـزء الأول
من كتاب " السـلوك للمقريزى " بمطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر فى يوم الخميس ٢٢
صفر سـنة ١٣٧٦ (٢٧ سبتمبر سـنة ١٩٥٦)

